بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

* * *

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

مُرشد
الدُّعاة إلى الله
دراسة وتطبيق

دراسة ثم ٥٧ خطبة

تأليف
أحمد بن محمد طاحون

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

ح أحمد بن محمد طاحون . ١٤١٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
طاحون ، أحمد بن محمد
مرشد الدعاة إلى الله : دراسة وتطبيق . جدة.
٤٠٠ ص ؛ ١٧ ط ٢٤ سم
ردمك : ٨ . ٦٩٩ . ٣١ . ٩٩٦٠
١ - الخطب الدينية. ٢ - الوعظ والارشاد. ٣ - الدعوة الإسلامية.
أ - العنوان ديوى ٢١٣ ١٨٦٣ / ١٧

الطبعة الأولى:
١٤٠٢ من الهجرة
١٩٨٢ من الميلاد

وهذه هى الطبعةُ التاسعة لهذا الكتاب وهى مَزِيدةٌ وَمُنَقَّحَةٌ بفضل اللهِ عزَّ وجلَّ أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن ينفعَ بهذا الكتاب ، وأن يجعلَه فى ميزان الحسنات.

القاهرة فى عام: ١٤٢٤
٢٠٠٣

يطلب من
مكتبة بحر العلوم
للنشر والتوزيع
دمنهور - أمام البريد العمومى
تليفون : ٣٣٢٠١٢١ / ٠٤٥
محمول : ٥٤٠١٥٩٤ / ٠١٠
٧٦٢٠٧٦٤ / ٠١٢

تمهيد :

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله، معلم الإنسانية ومرشدها، وهاديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم والصلاة والسلام على أصحابه وأحبابه إلى يوم الدين.

أما بعد . . .

فإننى حين اشتغلت بالخطابة وأنا فى مرحلة الشباب، كنتُ أُعِدُّ الخطبةَ فى ذِهنى، وأرتِّب أفكارها فى عقلى، وأحيانًا يفتح الله بِمَا يشاء وأنا على الْمِنبر:

الإعدادُ أفضلُ وأكثر نفعًا:

ولمَّا تقدَّمت السنُّ، وجدتُ أن الخير فى إعداد الخطبة، وكتابتها، لأن لذلك فوائدَ كثيرةً للخطيب وللسامعين، ومنها أن الخطيب يُنمِّى القدرةَ على الكتابة، ويجوِّدها بالتدريج، كما أن الكتابة تُعين بصفة أكبر على تحديد الفِكرة، وترتيبِ الْمَعانى، وإيرادِ الأدلة والبراهين فى مواضعها، وتُصبح الاستعانةُ بالكتب القيمة أمرًا لا مَحِيدَ عنه.

وما يُكتب يَعمُّ الانتفاعُ به خصوصًا حين يُنشر فى مجلة، أو صحيفة ويستمرُّ حين يصدر فى كتاب، إذ يصير النفع به عامًّا، ويبقى جيلًا بعد جيل.

والخطب التى يضمها هذا الكتابُ مُختارةٌ من مجموع الخطب التى أُلقيت فى مسجد الجمجوم بالبغدادية فى مدينة جدة، فقد كنت خطيبه نحو سنتين أو تزيد منذ افتتاحه للصلاة فيه فى الجمعة الأخيرة من شعبان عام ١٣٩٥ من الهجرة، وفى مسجد الْمَغربى بالرويس فى جدة الذى اشتغلت بالخطابة فيه منذ عام ١٣٩٩ من الهجرة.

* * *

وفى هذا الكتاب:

تجد بعضَ الخطب تامة (أى الخطبة بِصَدْرِها، ومعها الخطبةُ الثانية) وبعضها تامة مع الاكتفاء بالخطبة الأولى، وحُذفت صدورُ بقية الخطب، ليختار لها الخطيبُ أو الْمُتحدثُ الصدرَ الذى يراه مناسبًا.

أساس صالح لبحث طويل:

وكلُّ خطبةٍ تصلح أن تكون أساسًا لبحث يُتمه القارئ لغرض: أن يكون محاضرة، أو بحثًا علميًّا أو نحو ذلك، إذ إن كلَّ خطبةٍ مُحَدَّدَةُ الفكرة، أما معانيها الجزئية فإنها تدور فى فَلَكِهَا، وترتبط بها، وتَزيدها وضوحًا وتأثيرًا.

من طرق الانتفاع:

كما أن كل خطبة منها يُمكن اختصارُها أو الإضافةُ عليها، أو دراستُها ثم إلقاؤها، حسبما يرى الخطيبُ أو الْمُتحدث على ضوء تجربته وما يراه مُحققًا للإقناع والاستمالة معًا.

والكتاب يضمُّ سبعًا وخمسين خطبةَ جُمعة، منها خطبةٌ واحدة لعيد الفطر وأخرى لعيد الأضحى، وخطبتان مختارتان من خُطب الشيخ محمود على أحمد خطيب مسجد الرفاعى بالقاهرة فى فترة من القرن الرابعَ عشرَ من الهجرة.

الفائدة عامة لكل قارئ:

والكتاب والحمد لله فائدتُه لكل قارئ، وطالبِ علم، وراغبٍ فى الاستزادة من المعرفة، لأن معانيه كلها مستقاةٌ من نبع الوحى الإلَهِى الفياض بالنفع الدائم الذى تصلح به أمورُ الناس فى الدنيا، ويحقق للعاملين به الفوزَ والنجاةَ يوم الدين، فغايةُ الدين إصلاحُ النفوس، واستقامتها على طريق الحق ومنهج الخير، فإذا صلحت النفوس، وتهذَّبت بالدين الحق صَلَحت الحياةُ الدنيا، وإن

الدعوة إلى الله، وبيان تعاليم الدين ومزاياه، وحثّ الناس على البرّ والتقى، وعلى التحلّى بالفضائل والتخلّى عن الرذائل، سواء بالخطابة أو بالكتابة أمرٌ واجب على الأمة، إذ الْمُؤمنون بعضهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن الْمُنكر، ويتعاونون على البر والتقوى، ويتواصَوْن بالحق بأن يدعو بعضهم بعضًا إليه، ويُذكّروا أنفسَهم به، ويصبروا لذلك ويتواصَوْا بالصبر، خصوصًا فى مَجال النهى عن الشرور والآثام، والأمرِ بالخير والبر والصلاح.

وإننى لأرجو الله أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم وأن يتحقق من هذا الكتاب الثمراتُ المؤمَّلَةُ منه، وأن يكون سببًا فى الْهِداية إلى الدِّين الحق، وفى استقامة الْمُعوج والإصلاح والصلاح.

وأترك الأخَ القارئ يقلّب صفحاتِ الكتاب، يقلّب فيها الفِكرَ والنظر راجيًا من الله رحمته وعفوه، وأن يجعل فيه ما ينفع الْمُسْلمين، ويحقق الخير لَهُم:

إنه سَميع مُجيبُ الدعواتِ، وصلى الله وسلم على النبى الهادى محمد وعلى آله وأصحابه ومن نهج نهجهم، وسار فى طريقهم إلى يوم الدين.

* * *

«استَعِنْ باللهِ ولا تعجز:
وقُلْ دومًا: ياربِّ ارزُقْنَا الإخلاص فى النوايا والأعمال»

* * *

(أ) «ادْعُ إلى سبيل ربك»

قال الله عز وجل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ . [طه].

الدعوة باللين والرفق:

أمر عز وجل رسولَه موسى ونبيَّه هارونَ عليهما السلام بأن يذهبا إلى ملك مصر، يأمرانِه بالْمعروف، وينهيانِه عن الْمُنكر بقولٍ حَسَنٍ، ودليلٍ ينيرُ للعقل طريقَه، وبإظهار محبةِ الخير له، بالدلالة على الطريقِ الذى تَزكو بِهِ النفسُ ويكونُ سببًا فى السعادة الأُخروية، وقد أرشد الله عز وجل إلى ذلك بِمثل قوله تعالى:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات].

دُعَاةُ عصْرنا أولى بذلك:

وإذا كان الله عز وجل أمر رسولَه ونبيَّه بأن يكون المنهجُ فى الدعوة إلى الله القولَ اللينَ الذى لا خشونَةَ فيه فمَنْ هُم دون الْمُرسلين والأنبياء أولى بأن يَقْتِدىَ بذلك فى خطابه الناسَ، وفى أمْرِه بالمعروف فى كلامه، كما قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وفى هذه الآيةِ توجيهٌ للداعى إلى الله، الراغِب فى الخيرِ للناسِ، الْمُحبِّ لهم أن يُؤمنوا بالحقِّ الذى آمنَ به، وأن يستعِدُّوا بالعملِ الصالح لتخليصِ مُهَجِهِم من عذابِ جهنَّمَ، فالآيةُ تحضُّ على مكارم الأخلاقِ، وفيها توجيهٌ للداعيةِ أن يكونَ قوله للناسِ ليِّنًا، ووجههُ منبسطًا، طَلِقًا، مع البَرِّ والفاجرِ والسنِّى والْمُبتدع، من غير مُداهنة، بِمعنى أنه لا يُقِرُّ الباطل، بل يُنكره ولا يتكلمُ مع صاحبِ الباطلِ بكلام يظنُّ أنه يُرْضى مذهبَه، والداعى إلى الله من

غير الأنبياء والْمُرسلين لن يكون بأفضلَ من موسى وهارون، والفاجرُ فى كلِّ زمان ليس بأخبثَ من فرعون موسى، ومع ذلك أمرهما اللهُ تعالى بالْلين معه، ومن الْلين بيانُ الحقِّ بالدليل، وبيانُ الباطلِ وتوضيحُه بالدليل، وإظهارُ العطف على الناس، والرغبة فى أن يسلكوا طريقَ النَّجاة، وأن يشعرَ الناسُ أنه يُحِبُّ الخيرَ لهم، وأنه لا خيرَ إلا فى البعد عن الباطل وفى اتباع الحق.

الحكمة والسداد:

وفى توجيه الدعاةِ إلى الأُسلوب الذى ينبغى لهم أن يَتَّبعوه.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل].

آية مُحكَمَة والعملُ بها إلى يوم القيامة:

يقول القرطبى: «هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمرِ بِمُهَادنةِ قريش وأمره أن يدعوَ إلى دين الله وشرعِه بِتلطُّفٍ ولينٍ دون مُخاشنة وتعنيفٍ وهكذا ينبغى أن يُوعَظَ الْمُسْلمون إلى يومِ القيامةِ فهى مُحكَمةٌ فى جهةِ العصاةِ من الْموحِّدين».

فالخطيب الذى يوضح للناس الحرامَ والحلالَ، ويبينُ لَهُم ما لطاعةِ الله من أثر فى الحياة وبعد الْمَوْت، وما للمعصيةِ من عواقبَ فى الدنيا، وفى الآخرة سالكًا فى الدعوة سبيلَ الصوابِ والصبرِ مع ترتيبِ الأفكارِ، وتقديم الدليلِ من الكتابِ والسنةِ، مُخاطِبًا العقلَ والعاطفةَ معًا، إن الخطيبَ أو الواعظَ الذى يفعلُ ذلك يكونُ لكلامه أثرٌ طيبٌ فى النفوس، وتجتمعُ القلوبُ حوله ولا تنفرُ منه، والحكمةُ تقتضى التلطفَ فى توجيه النصح، وتفهُّمَ نفسياتِ الْمُستمعين، واختيار الأُسلوب المناسبِ لَهُم، ومراعاةَ أحوال زمانِه، فهذا كلُّهُ يُعين على

اختيارِ الْمَوعظَةِ الحسنةِ التى تنفذُ إلى نفوسهم، وتحركُ عواطِفَهم وتشدُّهم إلى الْمُتكلم، وتدفَعُهُم إلى الثقةِ به، خصوصًا إذا كان حَسَنَ السيرَةِ بينهم، ومعروفًا بالاستقامة والخُلقِ الطيب، والبعدِ عن الحرام.

السبُّ لغةُ العاجز الْمُنفِّر من الحق:

وإنه لَمِن الْمُفيد أن يتدبَّرَ الواعظُ والْمعلمُ والخطيبُ قولَ الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام].

نهى سبحانه المؤمنين أن يسبُّوا أصنامَ الوثنيين، وفى هذا إرشادٌ وتعليمٌ لنا إذ سَبُّ الباطِل واللجوءُ إلى الخشونة فى دعوةِ أصحابه إلى الحقّ يُنفرُ أهلَه ويزيدُهم - فى كثيرٍ من الأحيان - انطواءً على الكُفرِ والضلالِ، ولذا قال العلماء - كما جاءَ فى تفسير القرطبى:

«حُكمُها باقٍ فى هذه الأمة على كلّ حال، فمتى كان الكافرُ فى مَنَعة وخِيفَ أن يسبَّ الإسلام أو يسبَّ النبىَّ محمدًا ﷺ أو اللهَ عزَّ وجل، فلا يحلُّ لِمُسلم أن يسبَّ صُلبانَهُم، ولا دِينَهُم، ولا كنائِسَهُم، ولا يتعرض إلى ما يؤدِّى إلى ذلك لأنه بِمنزلة البعثِ على الْمَعصية» أى إن الأسلوبَ الذى يُنفِّر صاحبَ الباطِل، ويزيدُه تَمسكًا بباطِله، يُمَاثِلُ كما لو دعوتَه إلى الباطل وَبَعَثْتَهُ عليه، أى حضضْتَه عليه ؛ وذلك لأن الثَمرَةَ واحدة.

توضيح الحق وبيان الباطل غير السب:

إن من واجب الواعظِ أن يبينَ للناس جميعًا مؤمنِهم وكافرِهم، صالحِهم وطالِحِهم، أن يبينَ لهم حقيقةَ التوحيدِ، توحيد الأُلوهية، وتوحيدِ الربوبية وأن يشرحَ لهم ما لله من حقوقٍ على العباد وأن يقدّم الأدِلَّةَ على بطلانِ الشركِ

بجميعِ صنوفهِ وضروبهِ، وأن يقيمَ الدليلَ، من آيات الله فى كتابه وعلى لسانِ رسولهِ، ومن آيات الله فى النفسِ البشرية، وفى الكون الْمُحيطِ بالإنسانِ، أن يقيمَ الدليلَ على قدرةِ الله ووجودِهِ ووحدانيتِهِ وسلطانِه الْمطلقِ. يفعلُ الواعظُ والداعيةُ والخطيبُ والْمُتَحدِّثُ ذلك على أساسٍ علميٍّ منظمٍ مقتديًا فى ذلك بالنبيِّ الهادى محمدٍ ﷺ وبالسلفِ الصالح إذ إنهم - والحمدُ لله - بيَّنُوا للناس أُصول الدينِ وفروعَهُ، إذ بيَّنوا ما حَرَّم الله على عباده من الأفعالِ والأقوالِ والْمُعتقداتِ، كما بينوا الْمُباحَ والْمَشروعَ عملُه، وفَصَّلوا الحلالَ من الأعمال والأقوالِ، وبينوا الفضائلَ الطيبةَ والأخلاقَ الكريمةَ التى يجبُ أن يتحلّى بها الْمُؤمنون، إلى جانبِ ما بينوه من مَذامِّ الأخلاق والرذائل ليكفَّ عن فعلها العقلاءُ.

بين السلفُ الصالِحُ، كما بين صلحاءُ الأُمةِ فى كلِّ وقتٍ للناس شريعةَ الله، ولم نقرأْ أو نسمع أن واحدًا منهم سبَّ دينًا من الأديان، ذلك أن بيانَ الفاسدِ بالحجةِ، وتوضيحَ الباطلِ بالبرهان، وتقديمَ الحقِّ للناسِ بالدليلِ أمرٌ يختلفُ عن السبِّ والشتم.

الصفات والأمور التى لا بُدَّ منها للداعى:

وهذه بعضُ الأمورِ والصفاتِ التى هى ألزمُ للداعى، لكى يُؤتِى عملُه ثِمَارَهُ، ويتوقفُ عليها نجاحُه، ولا بدَّ له من تحقيقها، وأن يسعى إلى ذلك، وأن يبذلَ الجهدَ دومًا لتكميلِ نفسِه بها ما استطاع:

١ - قالوا فى الحكمة: «مَنْ سَلَكَ طريقًا بغيرِ دليل ضَلّ، ومن تَمسَّك بغيرِ أصل زَلّ».

ودليلُ الداعية إلى الله، ومرشدِ الناسِ إلى الحقِّ، هو «كتابُ الله عز وجل وسنةُ نبيِّه الأمينِ ﷺ» لذا وجب على الداعى أن يحفظَ من القرآن ما استطاع،

وأَن يُحْسِنَ تلاوتَهُ، وأن يواظبَ على قراءةِ القرآنِ، مع تدبُّرِ معانيه، والسعْى لِمعرفة أحكامِه، والإلْمَامِ بِمعرفةِ معانى الألفاظِ التى تكون غريبةً عليه(١).

وعلى الداعى أن يرجِعَ إلى السنة الصحيحة دَوْمًا، ويُطيلَ النظرَ فيها لأنها مفسِّرةٌ للقرآن الكريم، ومبينةٌ لأحكامِه، ومفصِّلةٌ لِمُجْملاتِه(٢).

وعليه أن يدرسَ بقدرٍ كافٍ سيرةَ رسولِ الله ﷺ، وسيرَ الخلفاءِ الراشدين، وسيرَ السَّلَف الصالحِ ما استطاع.

ولاغِنى لطالبِ العلم، وللداعى والخطيبِ، والْمُتحدثِ والواعظِ عن معرفة قدرٍ كافٍ من الأحكام المتصلةِ بالعباداتِ، والمعاملاتِ، وأسرارِ التشريع، ولا شكَّ أن الاتصال بكتبِ التفسيرِ والحديثِ أساسٌ فى ذلك ولكن الرجوعَ إلى كتبِ الفقهِ، وحضورَ مجالسِ العلم، وسؤالَ أهلِ العلم من الأُمور التى لا يغفلُ عنها الحريصُ على معرفةِ أُمور دينِهِ، خصوصًا لِمَن يشتغلون بالتبليغ، وقد جاءَ فى الحديث قول النبى ﷺ: «مَنْ سُئِلَ فأفتى بغيرِ عِلمٍ فقد ضَلّ وأَضَلّ».

وأخرج البخارى عن ابن مسعود ﵁ :

«مَنْ عَلِمَ شيئًا فليقُلْ بِه، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فليقُلْ اللهُ أَعْلَمُ» فلا ينبغى لطالب

---

(١) لذا ننصح بأن يكون لدى الداعى والخطيب وطالب العلم كُتبٌ نافعةٌ ومراجع قيِّمة مثل: تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى، إلى جانب التفاسير الموجزة مثل «الجلالين» والمصحف المفسر «لفريد وجدى» و«صفوة البيان لمعانى القرآن» للشيخ حسنين مخلوف، كما ينبغى أن يكون فى حوزته كتب فى تفسير آيات الأحكام مثل كتاب «أحكام القرآن» لأبى محمد الْمَعروف بابن العربى، وغيرها من الكتب النافعة فى بابها.

(٢) ومن الكتب النافعة والمعينة لطالب العلم والباحث كتاب «جامع الأصول فى أحاديث الرسول - لابن الأثير الجزرى»، ومختصره «تيسير الوصول إلى جامع الأصول - لابن الديبع الشيبانى»، وكذلك «رياض الصالحين» أو أحد شروحه - للنووى. و «الترغيب والترهيب» للمنذرى و «التاج الجامع للأصول» للشيخ منصور على ناصف.

فهذه الكتب جامعة لما جاء فى الصحاح وكتب السنة إلى جانب تبويبها الميسر للباحث عن جانب بعينه، وهناك كتب الصحاح وكتب السنة ومختصراتها.

العلمِ أن يُعطِى الناسَ شيئًا هو يَفقِدُه، ذلك أنَّ مَن أفتى بِما لا يعلمُه هَلَك.

٢ - ما تَعِظُ به الناسَ احْرِصْ على تحقيقهِ فى نفسِك وفى بيتك، فالإسلامُ عِلْمٌ وَعَمَلٌ، والداعى إلى الله لا ينبغى له أن يكونَ فعلُه مُكذِّبًا لقوله: «وفَاقِدُ النورِ لا يستنيرُ به غيرُه».

إن الدعوة إلى صالح الأعمال، ومكارِم الأخلاق تربيةٌ، والتربيةُ النافعةُ إنمَا تكون بالعمل، لأنها مبنيةٌ على القدوة الصالحةِ لا بِمجرَّدِ الأقوال.

وقد وبَّخَ الله أحبارَ يهود على مخالفةِ أفعالِهم أقوالَهم، فقال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

فالداعى إلى الله المخلصُ لدينه، الْمُؤمنُ بالحقِّ، يرشدُ نفسَه إلى الخير ويأْخُذها به، ويحذِّرُها من الشر، ويجتنبُه، وكلما وجدَ قدَمَهُ ثبتت فى جانبِ دعا الناس إليه، فَمَنْ واظَبَ على أداءِ الصلواتِ الخمسِ فى أوقاتها، وحرص على الجماعاتِ، فإن دعوته إلى ذلك تُؤتى ثِمارَها بإذن الله تعالى، وهكذَا فى كلِّ الأُمور يراقبُ الداعى نفسَه، ويحاسبُها، ويجتهدُ فى أداء الْمَأمورات واجتناب المنهيات.

ولنتدبر العبرة فى دعاءِ إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ولنتدبر ثناءَ اللهِ على نبيِّه إسْمَاعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

وقد ذَمَّ الله عز وجلّ من يدعو إلى الخير ولا يعمل به ولنتدبَّر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا

﴿تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

٣ - والداعى إلى الله بالحكمة والْمَوعظة الحسنة إذ يُحْسِنُ اختيارَ ألفاظِه وانتقاءَ عباراتِه، فينبغى له أن يكونَ متصفًا بالحلم، وسعةِ الصدر واحتِمال هفواتِ الناسِ، والصبرِ على أسئلتِهم، وقد أثنى الله على نبيِّه محمدٍ ﷺ لحلمِه فى الدعوةِ وصبرِه على جفاءِ الناس، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٤ - قال عبادةُ بنُ الصامتِ ﷺ: «بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقولَ بالحقِّ أينما كُنَّا لا نخافُ فى الله لومةَ لائم».

فالداعى إلى الله مثلُ الطبيبِ الذى يُراعى حالةَ الْمَريض، فيبينُ له وينصحُه، ويصفُ له الدواءَ المناسبَ، والداعى لا يخشى الناسَ فى الحقِّ، بل ينبغى له أن يوضِّح، ويُبيِّنَ ويبلِّغَ ليعرفَ الناسُ الشرورَ ويجتنبوها، والخيرَ وَيَلْزَموه، وإذا فشا أمرٌ مِمَّا لا يُرضِى الله، فإن الداعيةَ عليه أن يرشدَ، وأن يوجِّهَ، ويبينَ، ويختارَ من العظاتِ ما يكونُ أكثرَ نفاذًا إلى القلوب، وأكثرَ إقناعًا لأصحابِ العقول، ولا يُمالِئ أصحابَ البِدَع، ولا يُظْهِرَ الْمُوافقَة على ضَلال، وعلى الداعى أن يحرِصَ دَومًا على أن تكونَ حجتُه خاليةً من السبِّ والشتم وأنواعِ الغلظة، لأنه من الخير أن يظلَّ الناسُ متعلِّقين به، وأن يستمعوا إليه، ولا يتحقَّقُ ذلك إلا بالرفق، وحسنِ القولِ، ووضوحِ الدليلِ والبراهين، وشعورِ الناسِ أن ما يدعوهم إليه إنَّمَا هو فى صالحِهم دينًا ودنْيا.

ولنتدبر قولَ الله عزَّ وجل لنبِّيه ﷺ:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

أى يقولوا عند محاورتهم أهلَ الضلالِ الكلمةَ التى هى أحسنُ، ولا يُخاشِنُوهم، مسترشدين فى ذلك بأدب القرآنِ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ

﴿ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٥ - الداعى إلى الله ينبغى له أن يخصِّصَ جانبًا من يومه وليلَتِه للقِراءَة فى الكتبِ النافعةِ، وأن يطلعَ على أساليبِ مَنْ سبقُوه إلى الميدان، إمَّا بالسماعِ منهم إذا عاصرهم، وإما بالإطلاع على ما تركوه مكتوبًا، ولا بأْسَ أن يبدأ فى أول الأمرِ مُقلِّدًا، ولكنه بالْمداومة، والْمِران، والصبرِ على مشاقِّ الطريقِ تُصبح له شخصيةٌ تَمْتازُ بطريقتها فى خطابِ الناسِ وتنظيم الأفكار، واختيارِ الألفاظِ، وترتيبِ العباراتِ حتى يستطيعَ أن يُظْهِرَ الْمَقصودَ، ويُعَبِّر عما فى نفسه بأبلغِ لفظٍ، وتثبتَ قَدَمُه فى الْميدان، بعد الصبرِ، والْمداومةِ على القراءَةِ، والإفادة من خبراتِ مَنْ سبقوه، وحفظِ النصوصِ العاليةِ من كتابِ الله وسنةِ رسولِه ﷺ، ومن كلامِ الحكماءِ وأهل البلاغةِ والفصاحةِ.

٦ - مما يُعين على النجاح فى مجال الدعوةِ معرفةُ حالِ من تُوجَّهُ إليهم الدعوةُ من حيث نفسياتُهم وأخلاقُهم، وعوائدُهم، وكلُّ الأمورِ الْمعينةِ على أن يتفهَّمَ الْمتكلمُ نفسياتِهم، فيخاطبَهم بما يحققُ الغرض، ويصلُ به إلى المطلوب من أيسر طريق.

٧ - والإخلاصُ أساسٌ لنجاح الداعى؛ الإخلاصُ للحقِّ، الإخلاصُ للدين، والإخلاصُ لِمن يدعوهم ويعظُهم، ويعلِّمُهم، فالعمل بلا إخلاصٍ كجسم لا روحَ فيه، أما ما كان من القلب فإنه ينفذ إلى القلوب بإذن الله تعالى.

ومع الإخلاص ينبغى أن تكون للداعى الصفاتُ الآتية أيضًا:

- التواضع، والشعورُ بالتقصير وعدمُ العُجْب، فالعُجْبُ يأكلُ الحسناتِ فِعْلَ النارِ فى الْحَطب، وإذا شعرَ بِه الناسُ نفروا من الداعى.

- ألا يبخلَ بتعليم ما يُحسنه، فكاتمُ العلمِ هالكٌ والعياذُ بالله، والرسولُ

ﷺ يقول: «مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أُلْجِم يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجَام من النَّار» وفى تعليمه ما أحسنه تثبيتٌ له فى صدره، وزيادةٌ فى وضوحه فى نفسه.

- الوقارُ والرزانة وألّا يخوضَ مع الناس فى أحوالِ الدُّنيا وفضولِ الكلامِ ولغوِه.

- أن يظهرَ أمام الناسِ فى نظيفِ الثياب، وحُسْنِ الهندام.

- ألّا يخالطَ أهلَ السفاهةِ والطيش.

- أن يتحرزَ من الحرام، ويبتعدَ عن الشبهات.

- والدَّاعى إلى الله من أعظمِ لوازمه تقوى الله عز وجل والخشيةُ منه فى السر والعلن، وأن يكونَ ظاهرُه وباطنُه سواءً فى الصفاءِ والإخلاص والخوفِ من الله.

- والصبرُ من الصفات التى تلازمُه فى حياتِهِ كلِّها الخاصةِ والعامة.

والله عز وجل يقول لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٨ - وعلى الداعى أن يلزمَ طريقَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأن يكونَ إمامُه فى كُلِّ أمورِه كتابَ الله وسنَّةَ نبيه ﷺ.

والله الهادى إلى سواءِ السبيل

* * *

«وفى نور هَدْيه ﷺ وسيرته وهدايته تتجهُ مَسيرةُ
الداعى على هدايةٍ وبصيرةٍ وتوفيقٍ بفضل الله وعونه»

(ب) أول خطبة جمعة للنبى محمد ﷺ فى المدينة المنورة [(١)]

خَطب النبىُ ﷺ فقال:

«الحمدُ لله أحمدُه، وأستعينُه، وأستغفِرُه، وأستهدِيه، وأومِنُ به، ولا أكفره، وأعادى مَنْ يكفر به، وأشهد أن لَا إِلهَ إِلّا الله، وحدَه لا شريكَ له وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسَلَهُ بالْهُدى[(٢)] ودينِ الحق والنورِ والموعظةِ والحكمةِ على فترةٍ من الرسل، وقلةٍ من العلم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان، وَدُنوٌ من الساعة، وقُربٍ من الأجل.

مَنْ يُطع الله ورسولَه فقد رَشَدَ، ومَنْ يعصِ الله ورسولَه فقد غَوى وَفَرَّطَ، وضَلّ ضَلالًا بعيدًا.

أوصيكم بتقْوَى الله، فإنه خيرُ ما أوْصَى بِهِ المسلمُ المسلمَ أن يحضَّه على الآخرةِ، وأن يأْمرَهُ بتقوى الله، واحذَروا ما حذّركم الله من نفسه، فإن تَقوى الله، لِمَنْ عَمِل به[(٣)] على وجلٍ ومخافةٍ من ربه عونُ[(٤)] صِدْقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة.

وَمَنْ يُصْلِح الذى بينه وبينَ ربِّه مِنْ أمرِه فى السرِّ والعلانيةِ لا ينوى به إِلّا

---

(١) هذه أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فى الْمدينة الْمنورة فى أول جمعة جَمَّعها بأصحابه، وكان ذلك حين قدم ﷺ مهاجرًا حتى نزل بِقُباء على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرةَ ليلةً خلَتْ من شهر ربيع الأول، فأقام ﷺ بقباء إلى يوم الخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته الجمعةُ فى بنى سالم بن عوف فى بطن وادٍ لَهم، قد اتخذ القومُ فى ذلك الموضع مسجدًا فجمّع بهم، وخطب خطبته السابقة، ﷺ.
– راجع تفسير القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – تفسير الآية (٩) من سورة الجمعة.

(٢) بالهدى: أى بالرشاد والدلالة باللطف إلى ما يوصل إلى المطلوب.

(٣) لمن عمل به: أى لمن استجاب للأمر بالتقوى وعمل بمقتضاه.

(٤) عون صدق: خبر إن، واسمها «تقوى».

وجهَ الله يكنْ له ذِكرًا فى عاجل أمرِه، وذُخرًا فيما بعد الْموتِ حين يَفْتَقِرُ الْمرءُ إلى ما قدَّمَ، وما كانَ مِمَّا سِوى ذلك[١] يودُّ لو أن بينه وبينَه أمدًا بعيدًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] هو الذى صدقَ قَوْلُه وأَنْجزَ وعدَهُ، لا خُلفَ لذلك، فإنه يقول:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق]. فاتَّقوا الله فِى عاجلِ أمرِكم وآجلِه، فى السرِّ والعَلانيةِ. . . فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. . . وَمَن يَتَّقِ الله فقد فَازَ فَوزًا عَظِيمًا، وإن تقْوَى الله تُوقِّى مَقتَهُ، وتُوقِّى عقوبَتَه، وتوقِّى سَخَطهُ.

وإن تَقوى الله تُبَيِّضُ الوجوهَ، وتُرْضِى الربَّ، وترفعُ الدرجةَ، فَخذوا بحظِّكم، ولا تُفَرِّطُوا فى جَنْبِ الله، فقد عَلَّمكم كتابَهُ، ونَهَج لكم سَبيلَه ليعلمَ الذينَ صَدَقوا، ويعلمَ الكاذبين.

فأَحْسِنوا كما أَحْسَنَ الله إلِيكم، وعادوا أعداءَهُ، وجاهِدُوا فى الله حَقَّ جِهادِه، هو اجْتَباكُمْ، وسَمَّاكم المسلمين، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيّنة، ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنة، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله.

فأكثِرُوا ذِكْرَ الله تعالى، واعملُوا لِما بعدَ الْموتِ، فإنه من يُصلِحْ ما بينه وبين اللهِ يَكفِهِ اللهُ ما بينه وبينَ الناس، ذلك بأن الله يَقْضى على الناسِ ولا يقضُونَ عليه، ويَمْلك من الناس ولا يَملكون منه.

الله أكبر، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلىّ العظيم.

* * *

---

(١) أى وما يجده العبد يوم القيامة من عمله غير الصالح.

(ح) من صُدور خُطَب النبىّ ﷺ

فى مراسيل أبى داودَ عن الزهرى قال: كانَ صَدْرُ خُطبة النبىّ ﷺ: الحمد لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتعِينُه، وَنَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بِهِ من شُرورِ أَنفُسِنا - ومن سيِّئاتِ أعمالنا - مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِىَ له ونَشْهَد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسولُهُ، أرْسَلَه بالحَقّ بَشيرًا وَنَذيرًا بين يَدَى الساعةِ، مَنْ يُطِع اللهَ وَرَسولَه فَقَد رَشَدَ، ومَنْ يَعْصِهما فقد غَوَى.

نسأل اللهَ رَبَّنا أن يجعلَنا مِمَّن يُطِيعُه، وَيُطِيعُ رسولَه، ويَتَّبعُ رِضوانَه وَيَجْتَنِبُ سخَطَهُ، فإِنَّما نحنُ بِه ولَهُ.

وفى خطبة الحاجة[1]:

الحمدُ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سَيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، وَمَن يُضْلِل فلا هادِى له وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

* * *

(١) هذه الخطبة تُعرف بخطبة الحاجة، وكان الصحابةُ يقولونها فى صدر كلامهم وخُطبهم - كما علَّمهم النبى ﷺ - يستعينون بها على قضاء حاجتهم، وتُستحب فى بداية دروس العلم والمواعظ والخطب وَفِعْلُ الشهادتين فيها جاء بصيغة الإفراد: «أشهد» بخلاف الأفعالِ التى قبلها فهى بصيغة الجمْع - كما قال بعض المحققين - لذا أثْبَتُّ الفعلَ هنا «أشهد» وهو فى النص المنقول منه «نشهد» - راجع مقدمة كتاب ابن تيمية فى الصوم.

(د) نصيحةٌ لأهل الدعوة

العِلْمُ والعَمَلُ:

فى الموطإِ عن عبد الله بنِ مسعود ﵁ أنه قال لإنسان:

«إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤُه، قليلٍ قُرَّاؤُه، تُحْفَظُ فيهِ حدودُ القرآن وتُضَيَّع حروفُه، قليلٍ مَنْ يَسْأَلُ، كَثيرٍ مَن يُعْطى، يُطيلون فيه الصلاةَ ويَقْصِرون الخُطْبَة، يُبَدُّون فيهِ أَعمالَهُم قبلَ أَهوائِهم.

وسيأتى على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤُه، كثيرٌ قُرَّاؤُه، تُحْفَظُ فيهِ حروفُ القرآنِ، وتُضَيَّعُ حدُودُه، كثيرٌ من يَسأَل، قليلٌ من يُعطِى، يُطِيلونَ فيهِ الخطبةَ، ويَقْصِرون الصلاة، يُبَدُّون فيه أَهواءَهم قبل أَعمالِهم» أى يتبعون أَهواءَهم، ويَتْركُون العملَ بالذى افتُرض عليهم.

* * *

فى الحث على العمل:

عن أَبى سعيد الخدرى ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن من شرِّ الناسِ رجلًا فاسقًا يَقْرَأُ القرآنَ لا يَرْعَوى إلى شىء منه».

أى إن المقصودَ هو العملُ بمقتضى الكتابِ لا مجرد التلاوةِ باللسان والترتيل.

* * *

الإخلاص يا أهلَ الدعوة:

روى الترمذىُّ عن أَبى الدرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَنزلَ الله فى بعض الكتب أو أوحى إلى بعضِ الأَنبياءِ: قلْ للذين يتفقَّهون فى الدِّين لغير الدين، ويتعلَّمون لغيرِ العمل، ويطلبون الدُّنيا بعملِ الآخرة، يَلْبَسُونَ للناسِ

مُسُوكَ[1] الكِباش، وقلوبُهم كقلوبِ الذئاب، ألسنتُهم أحلى من العسل وقلوبُهم أمَرُّ من الصبر: إيَّاى يُخَادِعون، وبى يَسْتَهْزِئُون، لأُتِيحَنَّ لهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيران».

فيجب على حامل القرآنِ وطالبِ العلم الداعى إلى الله أن يَتَّقِىَ اللهَ فى نفسِهِ، ويُخلصَ العملَ لله، فإن كان تقدَّم له شىءٌ مِمَّا يكرهُ فلْيُبادرْ إلى التوبَةِ والإنابةِ، ولْيبتدئ الإخلاصَ فى التوبة وفى عمله، فإن الذى يَلْزَمُ الداعى إلى الله من التحفُّظ أكثرُ مِمَّا يلزمُ غيرَه، كما أَنَّ له من الأَجر ما ليس لغيره فهو داعٍ إلى الله بالقولِ، والعملِ، والْمَسلكِ.

* * *

(١) الْمسوك مُفردُه الْمَسْك – بفتح الميم وسكون السين – وهو الجِلد، والقِطعةُ منه: مَسْكَة، يقال: هم فى مسوك الثعالب. والْمِسْحُ – بكسر الْميم وسكون السين – الكساء من الشعر، وثوبُ الراهب «مُولَّد» والجمعُ أمساح ومُسوح.

* * *

١ - الدينُ وأثرُه فى تزكية النفس

الحمدُ لله شَرع الدينَ هدايةً للمؤمنين، ووفَّق مَنْ شاءَ لِلْتمسُّكِ بِهِ والتَّحلِّى بآدابه ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات].

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ كتبَ رَحْمَتَهُ للمتَّقِين، وأنعمَ علينا بنعمةِ الإسلام وأرسلَ نبيَّه محمدًا هُدًى ورحمةً، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه بعثه ربُّه بدينِ الحقِّ، لِيُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه، وليُنقِذَ به البشرَ من الضلالة والفوضى ويَهْديَهم إلى الخير، والبرِّ وكلِّ ما يحققُ لهم السعادةَ فى الدنيا والفوزَ فى الآخرة.

اللهم صلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ على نبىِّ الْهُدى والرحمةِ وعلى آله وأَصحابِهِ والعاملين بشريعتِه إلى يومِ الدين.

أمَّا بَعْدُ: فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة].

أيها الْمُؤمنون:

الإسلامُ أعظمُ نِعَمِ اللهِ على عبادِه، تضمَّنتْ تعاليمُه كلَّ ما فيه صلاحُ النفسِ، ونورُ العقلِ، وسعادةُ الفردِ، وخيرُ الجماعة.

أَمرنا الإِسلامُ بتوحيد اللهِ تعالى، وإخلاصِ العبادةِ، والخضوعِ له سبحانه، واعتقادِ أنه عزَّ وجل إِلَهٌ واحدٌ قادرٌ، مُريدٌ، عليمٌ، حكيمٌ، سميعٌ، بصيرٌ مُتَّصفٌ بكلِّ كمالٍ، مُنَزَّهٌ عن كلِّ نَقْصٍ.. أَبْدَعَ سبحانه الكائناتِ بقدرته، ودَبَّرها بحكمتِه وعِلْمِه.. فهو وحدَه الذى يُحْيِى وَيُمِيتُ، وهو سبحانه الَّذى يُعطى ويَمْنَعُ وبيده الضُّرُّ والنفعُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ...﴾ [الأنعام: ١٠٢].

طَهَّرَ الإسلامُ النفسَ، وجاءَ بعقيدة التوحيدِ النقيةِ الصافيةِ، وحاربَ الأَباطيلَ

والأَوهامَ حتى لا تنحطَّ النفوسُ إلى عبادة جمادٍ أَو إنسانٍ، أَو حيوانٍ وحتى لا تخضعَ القلوبُ إلّا لِمَنْ له الْمُلْكُ وحدهُ، وله الأَمْرُ وحدَه، وله غايةُ العَظَمةِ ونهايةُ الإنعامِ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر].

يا أهلَ الإيمان:

جاءَ الإسلامُ بعقيدةِ التَّوحيدِ الخالصِ، لِيُخْرِجَ النفوسَ منْ ظُلْمَةِ الضَّلالَةِ والجهلِ، ويرفعَها مِنْ وَهْدَةِ الشِّرْكِ، ويُطهرَهَا من دَنَسِ الفسَادِ والأَوهامِ وفَرَضَ على الناسِ عباداتٍ كلُّها ذو أَثرٍ حَسَنٍ فى إصلاحِ القلوب، وتهذيبِ النفوسِ، فَرَضَ الصلاةَ خمسًا فى اليوم والليلةِ، وجعلَ مِفْتاحَها طهارةَ البدنِ والثوبِ والْمكانِ، فيقفُ العبدُ بينَ يَدَىْ مولاهُ خاشعًا، فارغًا من الشواغلِ مُوجِّهًا قلبَهُ إلى مولاه، نظيفَ الظاهرِ، طاهرَ الباطنِ، يُناجى رَبَّه، وَيُثْنى عليه بما هو أَهلُه، خائفًا من عذابِه، طامعًا فى رحمتِه، طالبًا منه العَوْنَ والهِداية ؛ فيؤثِّرُ ذلك فى نفسِ الْمُؤمن، وَيُعَوِّدُه مراقبةَ اللهِ وخَشْيتَهُ، فيجتنبُ ما يُغْضِبُ خالِقَهُ ويَمتنعُ عَمَّا حَرَّمَ الله عليه.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وَفرضَ الله الزكاةَ فى الأَموالِ تطهيرًا لَهَا، وشكرًا للنعمة، وتفريجًا للكُربات، والزَّكاةُ تَغْرِسُ فى نفسِ الْمُؤمنِ فضيلةَ السخاءِ، وتملأُ القلوبَ بِمحبتِه، وبذلك تتحققُ الأُلفةُ والْمودةُ بين الناس: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

وَفَرضَ الإسلامُ الصيامَ ليربِّى فى الإنسانِ فضيلةَ الصدقِ والوفاءِ، والصبرِ على الشدائدِ، وليُربِّى فيه قوةَ الإرادةِ، وضبطِ النفسِ، فلا يَغْلِبُه الْهَوى، والصيامُ – كذلك – يربِّى فى نفسِ الْمؤمنِ العفةَ والقناعةَ، والأَمانةَ والرحمةَ ويُعرِّفُه مقدارَ نعمةِ اللهِ عَلَيه ليشكُرَ للخالق الرازقِ الْمُنعم: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفَرَضَ الله الحَجَّ على الْمُستطيع، حيثُ ينتقلُ الْمُؤمنون من ديارِهِمْ ويتَجرَّدُون عن زينةِ الدُّنيا ليس على الواحدِ منهم إلَّا إزارٌ ورداءٌ، والكلُّ خاضعٌ لعظمةِ الله، خاشعٌ لجلالِه، وهنالك تتواضعُ النفوسُ، وتعلمُ أنه لا يليقُ بالعبد أَن يستكبِرَ، وأَن الناسَ كلَّهمْ لآدمَ، وآدمُ من تُرابٍ.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

أيُها المسلمون:

فرضَ اللهُ علينا من العباداتِ ما يُقربُنا إلى رضوانِ الله، وما يحققُ لنا الخيرَ فى الدنيا، والفوزَ فى الآخرة، ويسمو بالنفسِ الإنسانيةِ، ويُطهرُهَا من الأَدران، فإذا أراد العبدُ لنفسِه سعادةَ الدارين، والفوزَ بالحسنيين، وجب عليه أَن يُطِيعَ ربَّه، وذلك بالقيام بفروضِ الله تعالى، وباجتناب محارِمه والوقوفِ عند حدوده.

ولْيَعْلَم الْمُؤمنُ أَن أَصْلَ الطاعةِ العلمُ بالله، والخوفُ من الله، والرَّجاءُ فى الله، والمراقبةُ لله، والعبدُ الذى يتجردُ عن هذه الخِصال لم يدركْ حقيقةَ الإيمان ؛ لأَنه لا تصحُّ الطاعةُ لله إلا بعد العِلْم به، والإيمانِ بوجودِه خالقًا عالِمًا قادِرًا لا يُحيط به عِلْمٌ، ولا يَتصوَّرُه وَهْمٌ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] سبحانه وتعالى جلَّ شأْنه ولا إِلهَ إِلَّا هوَ ربُّ السمواتِ والأَرضِ.

فإذا صَحَّت العقيدةُ، وسلِمَت، وعرَف الْمؤمنُ أَن له رَ بًّا خالقًا، رازقًا يُدبِّرُ

الأَمرَ وحده، وأنه الإلهُ الْمعبودُ ولا إلهَ معبودَ بحقٍّ سواه، إذا تَقرَّر هذا الإيمانُ فى القلبِ، وَجَبَتْ الطاعةُ للربِّ، والطاعةُ إنما تكونُ مقبولةً إذا صدرتْ عن إخلاصٍ ومحبَّةٍ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وهذا هو معنى النِّيَّةِ فى العباداتِ من دعاءٍ وصلاةٍ، وصومٍ، وزكاةٍ وصدقةٍ، وحجٍّ، وعُمْرةٍ، وغيرِ ذلك من العباداتِ أن تصدرَ الطاعةُ والعبادةُ عن نيةٍ صادقةٍ خالصةٍ لوجهِ الله تعالى وتقرُّبًا إليه، على سبيلِ الشكرِ له على ما أنعم به علينا من نعمةِ الخلْق والتكوينِ والاستواءِ وكلِّ ما يُحيط بنا من نِعَم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]، ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

فَلْيَحْذَرِ الْمُؤمنُ من الإعجابِ بالعمل، فإنَّه من أَعْظَمِ الآفاتِ ومُحبِطٌ لِلأعمالِ، فإن الْمُعجَبَ بعملِهِ مُمْتَنٌّ على ربِّه، وما يُدْريه أَقُبِلَ منه أَم رُدَّ عليه؟ ولْيحذَرْ أيضًا من الرياءِ فإنه يُحْبِطُ العَمَلَ، ويَعْظُمُ فيه الوِزْرُ؛ ولأنه من خِصالِ الْمُنافقين الذين يُراءُون الناسَ، ولا يُخْلِصون لله، أَلَا إنَّ الرياءَ من الشركِ الخفيِّ الذى حَذَّرنا منه الحبيبُ المصطفى ﷺ.

فاتَّقوا الله - عبادَ الله - وراقبوه فى السرِّ والعلانية.

قال رسولُ اللهِ ﷺ فى خطبة الوَدَاع: «لَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا مِنْ بَعْدِى.. كِتَابَ الله وَسُنَّتى».

[أخرجه الحاكم فى المستدرك، ومسلم عن زيد بن أرقم بنحوه].

اتَّقُوا الله - عبادَ الله - واسألوه سبحانه العونَ على طاعته وشكرِه وتوبوا إليهِ لعله يرحَمُكم.

وصَلِّ اللهم على نبينا الْهادى الحبيبِ وعلى آله وصحبِه.

* * *

للخطبة الثانية:

إن الْمُسلمَ إذا كان متمسكًا بدينه، فإنه يقومُ بحقِّ الله عليه، ثمّ بحقِّ والِدَيْهِ وأقاربِه، ويُواسى أهلَهُ، ولَا يُؤذِى جارًا، ولا أحدًا، إن الْمُتمسكَ بدينِهِ لا يكونُ لعَّانًا، ولا سَبَّابًا، ولا نَمَّامًا، ولا مُغتابًا، ولا حَقُودًا، ولا حَسُودًا.

الْمُسلمُ الْمُتدينُ يكون صادقًا فى قوله، أمينًا فى معاملتهِ، لا يَغُشُّ إذا باع أو اشترى، ولا يُنْقِصُ مكيالًا، ولا مِيزانًا، ولا يُخْلِفُ وعدًا، ولا يكونُ مُختالا، ولا فخورًا، ولا يُماطل فى حقوق الناس.

الْمُسلمُ الْمُتدينُ يُتقِنُ عمَلَه، ويؤدِّيه على الوجهِ الأكملِ، من غيرِ تسويفٍ، ولا تأْخيرٍ.

إن الإسلامَ - عبادَ الله - هو الدينُ العامُّ الخالدُ، وتعاليمُه صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ولكلِّ مكانٍ.. وهوَ عقيدةٌ وعملٌ، وبِمبادئه والعملِ بها يسعدُ الفردُ ويتحققُ الخيرُ للجماعة.

إن مبادئَ الإسلام هى سبيلُ الحياةِ الكريمةِ، ولا فَلاحَ إلا بهذا الدينِ الذى أكرمنا اللهُ به، ولا خلاصَ للناس من مَخاطرِ الشقاءِ فى الدنيا والآخرةِ إلَّا به:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. [آل عمران].

* * *

* * *

توجيهات نبوية:

عن أبي ثعلبةَ الْخُشَنيّ رضي الله عنه عن رسول اللهِ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ فَرضَ فَرائِضَ فلا تُضَيِّعُوها، وحَدَّ حدودًا فلا تَعْتَدوها، وَحَرَّم أشياءَ فَلا تَنْتَهِكُوها، وسَكتَ عن أشياءَ رحمةً لَكُم مِن غَيرِ نِسْيانٍ فلا تَبْحثُوا عنها».

[حديث حسن رواه الدارَقُطنيُّ وغيرُه].

* * *

٢ - وصيَّةٌ نبويَّةٌ:

(أكثرُ ما يُدخِلُ الناسَ الجنَّة)

عن أَبى ذرٍّ جُندبِ بنِ جُنادةَ، وأَبى عبد الرحمن مُعاذِ بنِ جبل رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنتَ، وأَتْبعِ السَّيئةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُها، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». [أخرجه الترمذى وقال: حديث حَسَنٌ].

عبادَ الله:

هذه الوصيةُ وصيةٌ عظيمةٌ جامعةٌ لِحُقوق الله وحقوقِ عِبادِه، فإنَّ حقَّ اللهِ على عبادِه أن يتقُوه حقَّ تُقاتهِ، فالتقْوَى وَصيَّةُ اللهِ للأَولين والآخِرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾. [النساء: ١٣١].

وأَصلُ التقْوى أَن يَجعلَ العبدُ بينه وبينَ ما يخافُه، وما يَحذرُه وقايةً تَقِيهِ منه، فَتقْوى العبدِ لربِّه: أَن يجعلَ بينه وبينَ ما يخشاهُ من ربِّه من غَضبِه وسُخطِه وعقابِه وقايةً تَقِيه من ذلك، وهو فعلُ طاعتِه واجتنابُ مَعاصيه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر]. أَى اتقوا سُخطَ الله وغَضبَه وهو أَعظمُ ما يُتقَى، قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]. أَى هو أَهلٌ أَن يُخْشَى ويُهابَ، ويُجَلَّ ويُعظَّمَ فى صدور عبادِه، حتى يَعبدوه وَيُطيعوه، لِما يَستحِقُّه سبحانه من الإِجلال والإِكرامِ ومن صفاتِ الكبرياءِ والعظمةِ وقوةِ البطشِ وشدةِ البأْس.

ويدخل فى التقوى الكاملةِ فعلُ الواجباتِ، وتركُ الْمُحرَّماتِ والشبهاتِ.

وَرُبَّما دخل فيها بعد ذلك فِعلُ الْمندوباتِ وتركُ الْمكروهات، وتلك أَعلى درجاتِ التقوى.

قال طَلْقُ بنُ حبيب: التقوى أَن تعملَ بطاعة اللهِ على نورٍ من الله، وترجُوَ

ثوابَ الله، وأن تتركَ معصيةَ اللهِ على نورٍ من الله، وأن تخافَ عقابَ الله.

يقول ابنُ المعتز الخليفة العباسيُ:

خَلِّ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها فهُو التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فوقَ أرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صغيرةً إنَّ الجِبَالَ مِن الحَصَى

ياأهل الإيمان:

وقوله ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كنتَ» أي راقب اللهَ في السرِّ والعَلانيةِ حيثُ يراهُ الناسُ، وحيث لا يرونه، كما قال عليه السلام لأبي ذرٍّ: «أُوصِيكَ بتقوى اللهِ في سِرِّ أَمرِك وعلانيتِه». [أخرجه أحمد من حديث درّاج عن أبي الهيثم].

فالْمُؤمنُ يستحضرُ عظمةَ اللهِ في نفسه في كلِّ وقت، وهذا هو السببُ الْمُوجِبُ لخشية اللهِ في السرِّ، كما يخشاه في العلانية، فإن مَنْ عَلِمَ أن الله يراه حيث كان، وأنه سبحانه يَطَّلِعُ على باطنه وظاهرِه، وَسِرِّه وعلانيتِه واستَحْضرَ ذلك دائمًا، فإنه يجتهدُ لتكميل نفسِه بالطاعات، ولزوم الفضائل والابتعادِ عن كلِّ ما يُغضب الجبار.

يقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وتَقْوى اللهِ في السر هو علامةُ كمالِ الإيمانِ، وله تأثيرٌ عظيمٌ في إلقاءِ اللهِ لصاحبِهِ الثناءَ في قلوب المؤمنين، وَمَن صار له هذا الحالُ دائمًا أو غالبًا فهو من الْمُحسنين الذين يعبدون اللهَ كأنهم يَرَوْنَهُ، فهم على حذرٍ دائمٍ من معاصيه، وعلى رجاءٍ قويٍّ في رحمته ومَثوبتِه.

ولَمَّا كان العبدُ مأمورًا بالتقوى في السرِّ والعلانيةِ مع أنه قد يقعُ منه أحيانًا تفريطٌ في التقوى، إما بتركِ بعضِ المأْمُوراتِ أو بارتكاب بعضِ الْمَحظوراتِ لهذا فإن الرسولَ ﷺ قال لِمُعاذ: «وأَتْبعِ السَّيئةَ الحسنَة تَمْحُهَا». أي افْعَلْ من

الصالحات ما تَمحو به السيئاتِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود].

وعن أبى ذرٍّ قال: قلتُ يارسولَ الله، عَلِّمنى عَمَلًا يُقرِّبنى من الجنة ويُباعِدُنى عن النار، قال: «إذا عمِلتَ سيِّئةً فاعْمَلْ حسنةً، فإنها عشرُ أمثالها». قال: قلتُ يارسولَ الله: أمِنَ الحسناتِ «لا إله إلا الله»؟ قال: «هى أَحسَنُ الحسناتِ». [أخرجه أحمد].

ياأهل الإيمان:

فما المرادُ بالحسنةِ فى قوله ﷺ: «وأَتْبِعِ السيِّئَةَ الحسنةَ»؟ إنه قد يُرادُ بالحسنة هنا التوبةُ من تلك السيئةِ، وقد جاء ذلك صريحًا، من وصية الرسول لمُعاذ بن جبل ومنها: «واذْكرِ الله عزَّ وجل عند كلِّ شَجرةٍ وحَجَرٍ، وإِن أَحْدَثْتَ ذَنْبًا فأَحْدِث عنده تَوبةً، إن سِرًّا فَسِرٌّ، وإِنْ علانيةً فعلانيةً».

[أخرجه ابنُ أبى الدنيا من مراسيل محمد بن جبير وأخرجه البيهقى]. وفيه «وأَحْدِثْ لكلِّ ذنبٍ توبةً، السرُّ بالسرِّ، والعلانيةُ بالعلانية».

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

وقد يُراد بالحسنة ما هو أَعمُّ من التوبة، أى إن التقرُّبَ إلى الله بعملٍ صالح مع إخلاصِ النيةِ يُكفِّرُ اللهُ به الخطايا، وقد جاءَ من حديث أَبى بكرٍ رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذنبًا، ثمَّ يقومُ فيتطهَّر ثمّ يُصَلِّى، ثُمَّ يَسْتَغفر الله إلَّا غَفر اللهُ له»، ثمّ قرأَ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران]. [أخرجه أحمد وبعض أصحاب السنن].

وفى صحيح مُسلم عن عثمانَ رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مَنْ تَوَضَّأَ فأَحْسَنَ الوضوءَ خرجتْ خَطاياه من جَسَدِه حتى تَخْرجَ من تحت أَظفارِه».

وقد ورد أن صيامَ رمضانَ مع إخلاصِ النيةِ يُكفِّرُ الذنوبَ، وكذلك أداء فريضةِ الحجِّ مع الصدقِ ومراعاةِ آدابه.

وفى المسند عن أمِّ هانئ عن النبى ﷺ قال: «لا إله إلَّا الله لا تتركُ ذنبًا، ولا يَسْبِقُها عمل». والأحاديثُ فى هذا كثيرةٌ وهى تَلِفتُ المؤمنين إلى الإكثار من ذكرِ اللهِ وتوحيدِهِ والتقربِ إليه بصنوف الطاعاتِ ؛ ليكسبَ العبدُ ثوابَها، ورجاءَ أن تكون سببًا فى غفران ذنوبه.

هذا - يا عباد الله - مع اتفاقِ الأُمةِ على أن التوبةَ فرضٌ ؛ لأن الله أمر العبادَ بالتوبة والعزم على الطاعة، وعدم الرجوع إلى المعصيةِ، وجَعَلَ مَنْ لم يَتُبْ ظالمًا: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وعن عثمانَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ امرئ مُسلم تَحْضُره صلاةٌ مَكْتوبةٌ، فَيُحْسِنَ وُضوءَها وَخُشُوعَها ورُكوعَها إلَّا كانت كفَّارَةً لِما قبلها من الذُّنوب ما لم تُؤْتَ كبيرةٌ، وذلك الدهرَ كلَّه». [أخرجه مسلم].

ذلك أن الكبائر تكفِّرُها التوبةُ أو يمحوها عفوُ الله عز وجل.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن سُبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا الله، والله أكبر، تنفضُ الخطايا كَما تَنْفُضُ الشجرةُ ورقَها».

[أخرجه أحمد].

وعن أبى هريرة وأبى سعيد رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «والَّذِى نفسى بيده ما مِنْ عبدٍ يُصلِّى الصلواتِ الخمسَ، ويصومُ رمضانَ، ويُخْرجُ الزكاةَ، ويجتنبُ الكبائرَ السبع، إلَّا فُتِّحَتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ، ثمّ قِيلَ له ادْخل بسلام».

[أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد].

وهذا يدلُّ على أن أداءَ الفرائضِ واجتنابَ الكبائرِ دليلٌ على التقوى وسبيلٌ إلى نيل رحمةِ الله ورضوانه.

يا أهل الإيمان:

ومن خصال التقوى: أَن يُخالقَ الْمُؤمنُ الناسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ، فَعَلى الْمُؤمنِ أَن يُحسِنَ العشرةَ للناس، وقد جعل النبىُّ ﷺ حُسْنَ الخلقِ أَكملَ خِصالِ الإِيمانِ فى قوله: «أَكملُ الْمُؤمنين إِيمانًا أَحسنُهُمْ خُلقًا».

[أخرجه أحمد وأبو داود من حديث أبى هريرة].

وقال ﷺ: «ما من شىءٍ يُوضَعُ فى ميزان العبدِ أثقلُ من حُسْنِ الْخُلُق».

[أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء].

فطوبى لِمن اتَّقى ربَّه، ونَدِم على ذَنْبِهِ، وراقب الله فى السرِّ والعَلانِيَةِ وَخالَق النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ: ما أَكثَرُ ما يُدْخِلُ الناسَ الجَنَّةَ، قال: «تَقْوى اللهِ وحُسْنُ الخُلُق».

[أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه ابنُ حبان].

فاتقوا الله عبادَ الله، وراقبوه فى كل قولٍ وعمل، وسَلُوه محاسنَ الأخلاقِ، واستغفِرُوه يَغفِرْ لكم.

* * *

للخطبة الثانية:

من عظات الرسول ﷺ
قضاءُ الله نافذٌ فى وقته

عن الزُّهْرِيِّ قال: بلغَنَا عن رسولِ الله ﷺ أنه كان يقول إذا خطب: «كُلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، وَلا بُعْدَ لِمَا هو آتٍ؛ لا يُعجِّلُ اللهُ لعجَلَةِ أحدٍ وَلا يَخِفُّ لأمرِ الناسِ؛ ما شَاءَ اللهُ، لا ما شاءَ الناسُ، يُريدُ اللهُ أَمرًا، ويُرِيدُ الناسُ أَمرًا، ما شاءَ اللهُ كان، ولوْ كرِهَ الناسُ، ولا مُبْعِدَ لِما قرَّب الله، ولا مُقرِّبَ لِما بعَّد الله، لا يكونُ شيءٌ إلا بإِذن الله جَلَّ وعَزَّ».

وقوله هنا «لا يعجل»: معناه أن قضاءه سبحانه وتعالى لعبده نافذ فى وقته ولا تُعجله رغبةُ العبد فى تعجيله.

أمَّا قولُه عليه السلام «ولا يخف»: فالمراد به أنه سبحانه لا يُعجِّل بالأمر لكون الناسِ يتعجَّلونه ويتلهَّفون عليه. والمقصود من هذا - يا عباد الله-: أن كلَّ شىء عند الله بمقدار، وأن قضاءه واقعٌ لا محالة، ولكن فى وقته الذى أراده الله عز وجل، وقد فسرت هذه الخطبةُ المرادَ بقوله ﷺ: «لا يُعجل الله لعجلة أحد، ولا يخف لأمر الناس» بقوله: «ما شاء الله لا ما شاء الناس» فكلُّ الأمور بيد الله وحده، وهو سبحانه يختبر عباده بالخير وبالشر، وما أراده سبحانه كان وواقعٌ لا محالةَ، وما لم يُرِده لا يقع.

سبحانه وتعالى جلّ شأنُه.

❊ ❊ ❊

٣ - النفسُ المطمئنّة واللوّامةُ والأمّارةُ

أمّا بعدُ:

فقد قال اللهُ تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

يا أهلَ الإيمان:

هذه الآياتُ تُشوِّقُ النفوسَ المخلصَةَ الصافيةَ إلى التَّحَلِّي بالكمالاتِ الإنسانية، وإلى لزوم طاعَةِ الله بالإتيانِ بما به أمر، واجتنابِ ما عنه نَهى وَزَجر، كَما أنها تُشوِّقُها إلى التَّخلِّي عن كل مَعصيةٍ، وعن كل خُلُقٍ لا يَرْضَى عنه اللهُ؛ إذ دَنَسُ المعاصي مَجْلَبَةٌ لغَضبِ الربِّ.

إن الآياتِ تُشوِّقُنا إلى النفسِ التي اطمأنَّت إلى الله تعالى، واثقةً بما عنده راضيةً بِقضَائِه، قانِعةً بِعطائِه، مُوقنةً بلقائه، مُسلِّمةً لأمرِه، مُتوكِّلةً عليه في كلّ شؤونها.

إنها النفسُ الْمُؤمنةُ المخلصةُ، نفسُ الشاكرِ في الرخاء، الصابرِ في البأساءِ والضراءِ، الحامدِ ربَّهُ في كلِّ حالٍ، لا يُضْعِفُ إيمانَه تغيُّرُ الزمانِ، ولا يُزعزِعُه ما يفوتُه من الدنيا، فهو مُطْمَئِنٌّ إلى أن ما أَخْطأه لم يكُنْ لِيُصِيبَه، وأَنَّ ما أَصابه لم يكنْ لِيُخْطِئَهُ.

إنها النفسُ التي آمنتْ بأَنَّ يومَ الفصلِ آتٍ لا ريبَ فيه، يومَ يفصلُ اللهُ بين العبادِ فيقتصُّ للمظلوم مِمَّنَ ظلمه، ويأْخذُ للمحروم حقَّه مِمَّنَ حَرَمَه، ويُحاسبُ سبحانه كلَّ نفسٍ بِما كسبتْ، فَيَجزيها بالإحسانِ إحسانًا وبالسُّوءِ سوءًا، لذا فإن صاحبَ النفسِ الْمُطمئنةِ يَفِرُّ من الحرامِ، ولا يأْتي الدَّنِيَّةَ، ولا يطلبُ لغيره السوءَ والرزيَّةَ؛ وذلك لإيمانِه بأَن التفاضُلَ في الأَرزاقِ والْهِبَاتِ إنما يَتِمُّ على مُقتضى عَدْلِ أَحكمِ

الحاكمين وحِكْمتِه، وعلى مُقتَضَى أنه سبحانه إذا قَضى أمرًا فلا رادَّ لِقَضَائِه، وأن الْمُتَسَخِّطَ إنَّما يُتعِبُ نفسَه، ويُغْضِبُ ربَّهُ، أما الراضِى القانعُ فيعيشُ قريرَ العينِ، مجتهدًا فى الاستعدادِ للقاءِ اللهِ فى يومٍ لا ينفعُ فيه الندمُ.

إنها النفسُ الْمُتعظةُ الذاكرةُ لا تُلهيها الفانيةُ عن الباقيةِ، ولا يَشْغَلُها العَرَضُ القريبُ عن الباقى الدائِم.

إن صاحبَ النفسِ المخلصةِ الموقنةِ المطمئنةِ يُبَشَّرُ عند موتِه بالخلودِ فى دار النعيم، ويَرَى عند خُروجِ رُوحِه ما يُثْلِجُ صدرَه، ويُزيلُ هَمَّه، ويُدْخِلُ السرورَ على قلبِهِ، فلا هو يَحزنُ على ما خَلَّفَ فى دُنياه، ولا هو يخافُ مِمَّا هو مُقْبِلٌ عليه؛ لأنه وَالَى طاعةَ الله، وأدام الخوفَ منه، فوالاه اللهُ بالْمَحبةِ والنُّصرةِ والتأْييدِ، وشَمِلَهُ بعفوهِ ورحمتِهِ؛ ولنتدبر قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

أيها الْمُؤمنون:

إن هذه الخاتِمةَ الكريمةَ لحياة الْمُؤمنِ الصالح بعد عُمرٍ قضاه فى دنيا لا تَسرُّ حتى تُحزِنَ، ولا تكادُ تَصفو؛ لأن ما يُعَكِّرُ الصَّفْوَ فيها كثيرٌ.. إن هذه الخاتِمةَ لَسَلامٌ وَبَرْدٌ على القلوب التى حَرَّقَها الشَّوْقُ إلى مَرْضَاةِ الربِّ، فصَبَرَتْ على مُنَغِّصَاتِ الحياةِ الدنيا حامدةً شاكرةً.

إنها تحيةُ الرَّحْمَنِ الرحيم لعبادٍ عَرَفُوا حقَّه، فماتوا طَيِّبين طاهرين من الشِّرْكِ زاكِيةً أفعالُهم وأقوالُهم.. ولنتدبرْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل].

إن خاتِمةَ صاحِبِ النفسِ المطمئنةِ كلُّها مباهجُ وسُرورٌ، خاليةٌ من الْمكدِّراتِ والآلامِ والأحزانِ، مبشرةٌ بحياةٍ أَبَدِيَّةٍ فيها نعيمٌ مُقيمٌ وراحةٌ لا

تُمَلُّ، فهى تُبَشَّرُ عند الْمَوتِ بما يَسكُنُ له القلبُ، ويُقالُ لَها عند البعثِ ارجعى إلى مَحِلِّ عنايةِ رَبِّك وموقفِ كرامتِه لكِ، حيثُ للسعداءِ قبلَ الحسابِ مَوقِفٌ مخصوصٌ فى الْمَحشرِ يُكْرِمُهم الله تعالى به، لا يَجِدُون فيه ما يجدُه غيرُهم فى مواقِفِهِمْ من النَّصَبِ والشقاء، ومنها يُنَادَى الواحدُ بعد الواحدِ للحسابِ.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨] رَحِمَ اللهُ النفسَ الْمُؤمنَةَ الصالحةَ فَجَعَلَها مَوضِعَ كَرَامَتِهِ وفى ظلِّ رحمتِه، فى يومِ الفزَعِ الأكبرِ، وهى لذلك راضيةٌ بعملِها فى الدنيا وبمرجعِها فى الآخرة، وهى مَرضيَّةٌ؛ لأن مَنْ كانوا معها فى الدنيا راضُون عنها لُحسْنِ صُنعِها، واللهُ راضٍ عنها لصلاحِ عملها.

وزيادةً فى تكريمها يقال لها: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر]. والعبادُ همْ العبادُ الْمُكْرَمُون، حِزْبُ الله الْمُفلحون، أَى: ادخلى فى زُمْرةِ عِبادِى الصالحين الْمُخلصين وانتظِمى فى سِلْكِهم، فكونى فى جُمْلَتِهم: وفى هذا إشارةٌ إلى سعادتِها لكمالِ استئناسِ النفسِ بالجليسِ الصالِح، ثم تُفَتَّحُ لأولياءِ الله أبوابُ النعيم، ويُؤْذَنُ لهم بدُخُولها حيث يَجِدون راحةَ البالِ وسعادةَ البَدن: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان].

يا أهل الإيمان:

هذه النفسُ المطمئنةُ الراضيةُ الْمَرْضيَّةُ تقابلُها النفسُ الأَمَّارةُ بالسوءِ الْمُشتهيةُ الشَّرَّ وَبِضدِّها تَتَميزُ الأَشياءُ، وفى هذه النفسِ يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى من سورة يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣] أى إلا مَنْ عَصَمه الله من شرِّها ومن نُزوعِها إلى السوءِ.

والنفسُ الأَمَّارةُ تَمِيلُ إلى الطبيعة البدنيةِ، وتُغْوى باللَّذاتِ والشهواتِ الحسيةِ، وتجذبُ القلبَ إلى ما فيه فسادُه، فهى مأْوى الشرور، ومنبعُ الأَخلاقِ الذميمة، ومن سوءِ حظِّ المرءِ أَن يُتَابعَ هواها، وأَن يَنْقَادَ لها غافلًا عن الْمَصيرِ

الْمَحتُوم حتى يوافيَهُ الأَجَلُ، أَما العاقلُ حَسَنُ الحظِّ فهو الذى يقمعُها عن غيِّها، ويردُّها إلى الصراطِ السويِّ مهتديًا بنور الدين، مسترشدًا بأحكامه وعظاتِهِ.

إنَّ صاحبَ النفسِ الأَمَّارةِ يقولُ يومَ لا ينفعُ الندمُ، ولا يُقْبَلُ عُذْرٌ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [ختام النبأ]. وَشَتَّانَ ما بين النفسِ الْمُطمئنةِ والنفسِ الأَمارة..

وهناك - يا عباد الله - النفسُ اللَّوامَةُ، التى نَوَّهَ اللهُ بشأنِهَا بالإقسام بِهَا فقال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة]. وهى التى تلوم نفسَها على ما فَرَطَ منها، وتندمُ على الشرِّ لِمَ فَعَلَتْهُ، وتندمُ على الخير لِمَ لَمْ تَستَكْثِرْ منه، فهى لم تَزَلْ لائمةً وإن اجتهدتْ فى الطاعات، وهكذا شَأْنُ البارِّ لا تراه إلا لائمًا نفسَه، أَمَّا الْمطموسُ على بصيرتِهِ فهو الفاجرُ الذى يَمْضِى إلى الأَمام، لا يُعَاتِبُ نفسَه فالنفسُ اللَّوامةُ تستديمُ الخوفَ أَن تكونَ قَصَّرتْ فيما يَجِبُ عليها لله.

فانظرْ أَخى الْمُؤمنَ فى حالِ نفسِك، وراقِبْ اللهَ فى سِرِّك وعلانيتِكَ واستعِنْ به على صلاحِ أَمرِكَ، وتأَمَّلْ قولَ الرسولِ الحبيب ﷺ: «ما مِن أحدٍ يموتُ إلّا نَدِمَ»، قالوا: وما نَدَامتُه يارسولَ اللهِ؟ قال: «إن كان مُحْسِنًا نَدِم أنْ لا يكونَ ازْدَادَ، وإنْ كان مُسيئًا ندم أنْ لا يكون نَزَعَ».

[رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذى والبيهقى فى الزهد].

ونزع: أى تاب ورجع عن المعاصى، أى إنه لَيْسَ من نفسٍ بَرَّةٍ ولا فاجِرَةٍ إلا وتلومُ نَفْسَها يومَ القيامةِ، إنِ عَمِلتْ خيرًا قالت: كَيْفَ لم أَزْدَدْ منه. وإن عَمِلَتْ شرًّا قالت: لَيْتَنِى قَصَّرْتُ.

فطوبى لِمن اجتهد فى طاعة الله، وأخلص العبادَة لله ليكونَ من أصحاب النفوسِ الْمُطمئنة.

واتقوا الله - عبادَ الله - واطلبُوا مَرضاتَه بأداء فرائضِه، والوقوفِ عند حدودِه، وتُوبوا إلى الله توبةً نصوحًا إنه غفور رحيم.

* * *

للخطبة الثانية:

يا أهل الإيمان:

إن النفسَ المطمئنةَ هى التى كان يَطلبُها الرسولُ الهادى ﷺ فى دعائه وسؤالِه ربَّه فيقول: «اللهمَّ إنِّى أسألُكَ نفسًا بك مُطْمَئِنَّةً، تُؤمِنُ بلقائِكَ، وتَرْضَى بقضائِكَ، وتَقْنَعُ بعطائِك».

قال عمرو بنُ العاص: «إذا تُوفِّى الْمُؤمنُ أرسلَ اللهُ إليه مَلَكَيْنِ، وأَرسل معهما تُحْفَةً من الجنة فيقولان لنفسِ المُؤمنِ: اخْرُجى أَيَّتُها النفسُ الْمُطمئنةُ راضِيةً مَرضيَّةً ومَرْضيًّا عنكِ، اخْرُجى إلى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وربٌّ غيْرِ غضبان. يقولُ: فتخرجُ كأَطيبِ ريحِ الْمِسْكِ وَجَدَ أَحَدٌ من أَنْفِه على ظهرِ الأَرضِ».

قال محمدُ بنُ كعبِ القُرَظى: «إن مَلَكَ الْموتِ يجىء لِلْمؤمنِ عند موته فيقول له: السلامُ عليك ولىَّ الله، الله يُقرِئُكَ السلامَ.. ثم قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ...﴾ [النحل: ٣٢] ويقال لهم: أَبشِرُوا بالجنَّةِ بِمَا كُنتُمْ تَعْملُون فى الدنيا من الصَّالحات».

وجاء فى البخارى عن أبى هريرة قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لن يُدخِلَ أحدًا عَملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنتَ يارسولَ الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَنى اللهُ بفضلِه ورحمتِه، فَسَدِّدوا، وقَارِبوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الْموتَ، إمَّا مُحسنًا فلعلَّهُ أن يزدَادَ خيرًا، وإمَّا مُسيئًا فلعلّه أن يَسْتَعْتِبَ».

والسداد: طلبُ الصوابِ الْمُتَّفِق مع شرع الله، وقارِبوا: أى اجتهدوا فى

العبادات دون إفراط ولا تفريط، مقتدين بالحبيب المصطفى ﷺ.

و «أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أَدْوَمُها وإن قلَّ» كما فى رواية عائشة عند البخارى.

فطوبى لمن لقى ربَّه على التوحيد الخالص والطاعة مع صدق النيَّة والاتِّباع والمحبة.

* * *

حديث قدسى:

أخرج الإمام الترمذىُّ عن أبى هريرة رضي الله عنه : «أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: يقولُ اللهُ تعالى: «أعدَدْتُ لعبادى الصالحين مالَا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بَشرٍ، واقرءوا إن شئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

وفى الجنةِ شجرةٌ يسيرُ الراكبُ فى ظِلِّها مائةَ عام لا يَقطعُها، واقرءُوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة]. وَمَوْضِعُ سَوْطٍ فى الجنَّةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، اقْرءوا إن شِئتمُ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

[قال الترمذى حديث حسن صحيح].

٤ - البعثُ حقٌّ والجزاءُ حقٌّ

الحمدُ لله خَلق آدمَ من ترابٍ، وخلقَ أبناءَه من نُطْفةٍ من ماءٍ مَّهِين، ثم هو سبحانه يُمِيتُهم، ثُمَّ يُحْييهِمْ للحساب والجزاءِ، سبحانه يقولُ للشيء: كُنْ، فيكون.

أَحْمَدُه سبحانه هو القويُّ القادرُ، لم يَخْلُقْنا عَبَثًا، بَلْ لِحكمةٍ وغاية وأَشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ الحيُّ القيُّومُ، القائمُ على كلِّ نفسٍ بِما كسبتْ فيُجازى الْمُحسنَ بإحسانِه والْمُسيء بإساءَتِه، وهو اللطيفُ الخبيرُ الذى لا يَعْزُب عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى الأَرضِ ولا فى السماءِ، وأَشهدُ أن نبيَّنا وهادِيَنا وحبيبَنا محمدًا دعا إلى الحق وخالصِ الإيمانِ، وبشَّرَ وأَنْذَر، اللهم صلِّ وسَلِّم عليه وعلى آله وصحبِه والمهتدين بهدْيِه إلى يوم الدين.

أما بعد... فياعبادَ الله:

قال النبيُّ ﷺ مِن خُطبته عند بدءِ الْجهر بالدعوة: «... إن الرائدَ لا يكذبُ أَهلَه، واللهِ لَتَمُوتُنَّ كما تَنامُون، ولَتبْعثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقظون، ولَتُجْزَوُنَّ بالإحسانِ إحسانًا وبالسوءِ سوءًا، وإنها لجَنَّةٌ أَبدًا، أَو لنَارٌ أَبدًا..».

[رواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق]

أيها الْمُؤمنون:

إنها حقائقُ أَنصعُ من بَيَاض النهار.

كلُّ ابنِ أُنثى سيموتُ، وينتقلُ من هذه الحياةِ الْمَحدودةِ الفانيةِ إلى حياة أُخرى ممدودةٍ باقية.

والبعثُ حقٌّ كما يستيقظُ الإنسانُ بعد النوم، والجزاءُ حقٌّ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

وإنَّ الاعتقادَ باليوم الآخِر والإيمانَ بِما يكونُ فيه من البعثِ والحسابِ والجزاءِ على الأعمال رُكنٌ من أركانِ الدين، ولا يكون المرءُ مؤمنًا إلا إذا آمنَ

بالبعث والجزاء.

وضَلَّ قومٌ اعتقدوا أنه لابعثَ بعدَ الموتِ، ضلُّوا واحتقرُوا عقولَهم فساءَت عاقبتُهم، ولنتدبَّر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة].

هذه طائفةٌ وُجِدت وتُوجدُ فى كلِّ زمان، تُنكِرُ الحياةَ بعد الْموت وتقول: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فى موقف الحسابِ يومَ القيامةِ يَغْشَى وُجوهَهُم الذلُّ والصَّغَارُ ويَندمون أَشدَّ الندم، ولنتأَملْ موقفَهُمْ فى قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

إن إنكارَ البعثِ والجزاءِ يَستلزِمُ الكفرَ بحكمةِ الخالقِ وعدلِه سبحانه وتعالى فى خَلقه.

ويستلزمُ كُفْرَ الْمُنكِرِ بنعمةِ الخالقِ بخلقهِ فى أحسنِ تقويم، وكُفْرَه بتفضيل الإنسانِ على الكائناتِ المحيطةِ به، وبتكريمه.

كما أن هذا الإنكارَ يستلزمُ جهلَ الْمنكر بما وَهَبَهُ اللهُ من الْمشاعِرِ والقُوى والعقلِ.

ومن لوازم هذا الجهلِ والكفرِ احتقارُ المنكرِ لنفسِهِ باعتقادِه أنه خُلق عبثًا لا لحكمةٍ بالغةٍ، وباعتقادِه أن وجودَه فى الأرضِ موقوتٌ محدودٌ بهذا العُمْرِ القصيرِ المنغَّصِ بالهموم والآلام، واعتقادِه أَنَّ الإنسانَ يُتْرَكُ سُدًى فلا يُثابُ الْمُحسنُ على إحسانه، ولا يُؤاخَذ المسيءُ بإساءَته.

ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

إنه الدليلُ الذى يُنير الطريقَ أمامَ العقلِ، يُرشدُه إلى أن الأمرَ لا ينتهى بالمساواة بين مَنْ أحسنوا فى دنياهم ومن أساءوا وأفسدوا فى الأرض بِغَيِّهم وضَلالهم، ولنتدبر قولَ الحكيم الخبير:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

نعم.. لم يَخلق اللهُ الإنسانَ عبثًا.. ولم يخلق هذا الكونَ لعبًا. سبحانه وتعالى.

عبادَ الله:

إن الله خلق الإنسانَ وهيَّأ له الأسبابَ التى تُمكِّنُه من الاستقرار فى الأرض وعمارتِها والانتفاعِ بخيراتها لغايةٍ جديرةٍ بحكمته ورحمتِه.

وجعل اللهُ الدنيا للإنسان مرحلةَ اختبارٍ وابتلاءٍ، ولم يتركْهُ سُدًى مُهمَلًا بلا مُرشدٍ يُنير له الطريق، ويزجُره عمَّا يضرُّه، ويبينُ له ما ينفعه، بل أرسلَ إليه الرسلَ مُبشِّرين ومُنذِرينَ، وأنزل عليهم الكتبَ السماوية، وأيَّدهم بالمعجزاتِ، ليُذكِّروا الإنسانَ بنعمةِ اللهِ عليه، ويدفعوه على شُكرها، ويُبيِّنُوا له ما يَجبُ عليه نحوَ ربِّه من توحيده، وطاعتِه، وعبادتِه، ويرسِمُوا له طريقَ النجاةِ والفوزِ والسعادةِ... حتى يستعدَّ الإنسانُ للقاءِ ربِّه.

ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾
[الدخان].

أيها المُؤمنون:

إن الاعتقادَ باليوم الآخر والإيمانَ بِما يكونُ فيه من البعث والحسابِ والجزاءِ على الأَعمالِ، يبعثُ الْمؤمنَ على العَمل الصالح، ويُوقِفُه عِنْدَ حدودِ العدلِ، ويردُّه لطريق الحق، ويُطهِّر قَلْبَه من الآفاتِ، فنجدُه صبُورًا عَفيفًا مُحبًّا للخير، عَطُوفًا بَرًّا رَحيمًا، لا يَحْقِدُ ولا يحسدُ ولا يَطْمَعُ ولا يَغُشُّ.

إن هذا الإيمانَ يدفعُ صاحبَه إلى الاجتهاد فى مَلْءِ صحيفتِه بخيرٍ ينفعُ وتسطيرِ كتابهِ بعملٍ يُرضى ربَّه، واغتنامِ حياتهِ قبل انصرام الأَجلِ وانقطاعِ العَمل، فيقضيها صالِحًا مصلِحًا مجتهِدًا فى الخيرات، ليفوزَ بالرضوان:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

إن البعثَ حقٌّ، والحسابَ حقٌّ، والجزاءَ حقٌّ يا أهل العقلِ والبصيرةِ.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين، واكتب لنا الفوزَ برضاك يوم الدين.

عن أبى يَعلى شدَّادِ بنِ أَوس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِما بعدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى على الله الأَمانى».
[أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن].

والكَيِّسُ: هو العاقلُ الذى يفكرُ فى العاقبةِ، ويحاسبُ نفسَهُ قبلَ أَن يُحَاسَبَ ليمنعَها مِمَّا فيه هلاكُها، وآمن بأَن البعثَ لا ريبَ فيه، فأَعدَّ لهذا اليوم العملَ الصّالحَ الذى يرجو به رحمةَ ربِّه.

وعن ابنِ عمرَ ﷺ أَن رسولَ الله ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجل يَقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِر». [أخرجه ابن ماجه والترمذى].

أى قبل أَن تصلَ الروحُ حُلقومَه.

فاتقوا الله عبادَ الله، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا، وأَعِدُّوا أَنفسَكم ليوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أَتى الله بقلب سليم بالعمل الصالح وبالإخلاص لله.

* * *

للخطبة الثانية:

اجتهدوا فى الطاعة قبل العجز والتقصير:

قال جابر: كان النبىُّ ﷺ يومَ الجمعةِ يخطب فيقول بعد أَن يحمدَ اللهَ ويُصلِّىَ على أَنبيائه:

«أَيُّها الناسُ، إنَّ لكُم مَّعَالِمَ فانتَهُوا إِلى معالِمِكُم، وإنَّ لكمْ نهايةً فانتَهُوا إِلى نهايتِكم، إِن العبدَ الْمُؤمنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْن: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِى ما اللهُ صانعٌ فيه وأَجلٍ قد بَقِى لا يَدْرِى ما الله قاضٍ فيه، فَلْيأْخذِ العبدُ من نَّفْسِه لنفسه، ومن دُنْياه لآخرتِه، ومن الشَّبيبةِ قبلَ الكِبَرِ، ومن الحياةِ قبلَ الْمماتِ، والذى نفسى بيده ما بعدَ الْموتِ من مُسْتَعْتَبٍ، وما بَعْدَ الدُّنيا من دار إلا الجنةُ أَو النارُ؛ أَقول قولى هذا وأَستغفرُ اللهَ لى ولكم».

يا أهلَ الإيمان:

إنَّ الاعتقادَ بالبعث والجزاءِ يبعثُ فى النفس روحَ العملِ الطيب، ويدفعُ بالإنسان إلى مدارج الكمالِ الإنسانىّ، فنجدُ الْمؤمنَ يَتحلَّى بالفضائل، ويستزيدُ من العبادات، ويطهرُ نفسَهُ، وَيُهَذِّبُها حتى تصلحَ لِملاقاة ربِّها.

أَوَجد اللهُ الإنسانَ من العدم، وحياتُه لا تنتهى بانتهاءِ هذه الحياةِ الْمَحدودةِ الفانية، بل هناك الحياةُ الأَبديةُ، هناك الثوابُ الأُخروىُّ، والعقابُ الأُخروى، ليجدَ كلُّ إنسانٍ جزاءَهُ بِما قدَّمت يداه.

وليتدبر العقلاءُ قولَ الربِّ القادرِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة].

وتدبروا قولَ الحكيم الخبير:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

وسبحان القويِّ القادرِ الذى يقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

ولنسمع قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق].

وقدرةُ الله مُطلقَةٌ، وأمرُه نافذٌ، فويلٌ لكل مُنكرٍ وجاحدٍ ومُلحِد، إذا مَاتَ ولم يَتُبْ وَيَرْجعْ إلى ربِّه، وطُوبى للمؤمنين الصَّالِحين.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة].

* * *

٥ - نفوسُنا آية من آيات كمال القدرة ناطقة بكمال رحمته وعظمته سبحانه

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

أمّا بَعْدُ:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

إن الله عز وجل يدعونا إلى إجالةِ الفكرِ فيما حولَنا من بديع صُنعِه، وفى أنفسِنا؛ لأن طالبَ الحقِّ إذا تأمَّل كتابَ الكونِ، وتدبَّرَ فى خَلْقِ الإنسانِ استقرَّ يقينُه بالإيمانِ بوجودِ الخالِق، وبوحدانيتِه، وعمومِ قدرتِه، وكمالِ حكمتِه، واطمأَنت نفسُه يقينًا بعظمةِ الخالقِ مُعترفًا ومُقرًّا بواسعِ رحمتِه بعبادِه وعظيمِ لُطفِه وعدلِه.

وفى كلِّ شىء لَهُ آية تَدُلُّ على أنّه واحدُ

نَدَبنا اللهُ إلى التفكُّرِ فى خلقِ الإنسانِ، وفى أَطواره، وكيفيةِ تركيبِه: فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾. [الطارق].

فالإنسانُ الذى يَضربُ فى الأَرضِ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ، تامَّ الأَعضاءِ، أَصلُه نُطْفةٌ كانت مُغَيَّبَةً فى صُلْب الرجلِ وفى تَرائبِ المرأَة، لا يعلمُ بمكانِها إلَّا خالقُها ومدبِّرُ أَمرِها، وإلى ذلك يَلفِتُ الحقُّ تبارك وتعالى عبادَه:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان].

وأَصلُ البشرِ أَبوهم آدمُ، وآدمُ خُلِق مِنْ طِين:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

فابنُ آدمَ خُلِق من نُطفةٍ، وهى قطرةٌ من ماءٍ ضعيفٍ مُسْتَقْذَرٍ، ساقها الله عز وجل بقدرته إلى مُستقرّها فى رَحِم المرأةِ، حيث القرارُ المكينُ الذى لا ينالُه هواءٌ يُفسِدُه، ولا بَرْدٌ يُجَمِّده، ولا آفةٌ تَتَسَلَّطُ عليه، ثم بقدرتِه قَلَبَ تلك النطفةَ علقةً حمراءَ، ثم مُضْغةَ لحمٍ، مخالفةً للعلَقَةِ فى لونِها، وفى حقيقتِها وشكْلِها، ثم جعل الْمُضغةَ عِظامًا مُجَرَّدةً لا كسوةَ عليها، وهى مُغايرةٌ للمُضْغةِ فى شكلِها، وهيأتِها، وقَدْرِها، ولونِها، ثم كَسا سبحانه العظامَ لحمًا، ثم تأَملْ كيف صار الإنسانُ بعد ذلك مُركَّبًا من أَجزاءٍ متناسقةٍ، ومن أَجهزةٍ متعاونةٍ، وماذا نقول: عن الأعصابِ، والعُروقِ، والعِظَامِ والمفاصِل وعن أَجهزةِ التنفُّسِ، والهضمِ، ودورةِ الدمِ، وكيف شقَّ سبحانه لهذا الجسمِ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، وَفَمَهُ وَأَنْفَهُ؟ ثم ماذا نقولُ عن مَدِّ اليدين والرِّجْلين والأَصابعِ.

وماذا نقول عن الأَناملِ، والأَسنانِ، والأَضراسِ، واللسانِ، والحنجرةِ والأَحبالِ الصوتيةِ، والكُراتِ الحمراءِ، والكُراتِ البيضاءِ، والعقلِ، والقلبِ والْمخِّ؟ وماذا نقولُ عن الْمَعِدَةِ والكَبِدِ والطِّحالِ والرِّئةِ، وعن رَحِمِ المرأَةِ والْمَثانةِ؟ كيف تَمَّ كلُّ ذلك وغيره؟ وَهُيئَ فِى قرارِه الْمَكينِ فى ظلماتِ الرَّحِم؟ حتى خرج الإنسانُ ليستقبلَ الضوءَ، ويبدأَ الجَولةَ إلى أن ينقضى الْعُمْرُ، وفى خلال ذلك عِبَرٌ وعِظَاتٌ.

أَلا يدلُّ كلُّ ذلك على وجودِ الخالِقِ الحكيمِ الإلهِ القادرِ العظيمِ؟ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

ولنتدبَّر - ياأَهل العقل والحكمة - قولَ الحقِّ تبارك وتعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم].

فالإنسانُ يخرجُ من بطنِ أُمه ضعيفًا نحيفًا واهنَ القُوى، ثم يَشُبُّ قليلًا

قليلًا، حتى يكونَ صغيرًا، ثم حَدَثًا، ثم مُراهقًا، ثم شابًا، وهو القوةُ بعد الضعف، ثم يبدأُ الإنسانُ فى النقص فيَكْتهِلُ، ثم يَشيخُ، ثم يَهْرَمُ، وهو الضعفُ بعد القوة، فتضعُفُ تبعًا لذلك الهِمَّةُ والحركةُ، وتَشيبُ الرأسُ وتتغيَّرُ الصفاتُ الظاهرةُ والباطنةُ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥٤]. أى يفعلُ ما يشاءُ، ويتصرفُ فى عبيده بما يريد ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

إن الإنسانَ لا ينبغى له أن يغفُلَ عن النظر إلى نفسِه، وَتَأَمُّلِ ذاتِهِ، فلم يُخْلَق الإنسانُ عَبثًا، وإنَّما خُلِقَ لغايةٍ، فإذا لم تتحققْ فيه الغايةُ ضيَّعَ نفسَهُ وأَهلَكَها. . يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات].

هل فكَّر الإنسانُ فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].

هَلَّا نظَر كيف حَسَّنَ الله شَكْلَ عينيه ومقدارَهما، ثم جَمَّلَهما بالأجفانِ غِطاءً لَهما وسِتْرًا وحِفْظًا وزينةً، فهما يتلقَّيان عن العينِ الأذى والقَذى والغُبارَ ويَقيانها من البارِدِ المُؤذى، والحارِّ المُؤذى، ثم كيف غَرس فى أطراف تلك الأجفانِ الأهدابَ جَمالًا وزِينةً ولِمنافعَ كثيرةٍ، ثم جعل فى العينين خاصيةَ النورِ الباصرِ الذى يَخرِقُ ما بين السماءِ والأرضِ، وكلُّ ذلك وغيرُهُ فى تلك الحدَقةِ الصغيرةِ التى تُمَثِّلُ جزءًا ضئيلًا من جسم الإنسان. . . ثم هلَّا تأمَّلَ الإنسانُ لسانَه وما فيه من صنوفِ النِّعَم والرحمة، ثم هلَّا تأملَ الإنسانُ رحمةَ ربِّه فى شفتيه وأُذنَيْه ورأسِه. . وكيف يدخلُ طعامُه وشرابُهُ من مكان واحدٍ، ثم يخرجُ كلٌّ منهما من مكان خاصٍّ به.

مَن المدِّبر لكلِّ هذا؟.

أليس الْمُدَبِّرُ هو اللهَ الخالقَ الرازقَ الْمُنعمَ الربَّ الْمدبِّرَ الحكيمَ، عظيمَ القدرةِ والسلطانِ، الذى لا شريكَ له فى مُلكِه، ولا مُعِينَ له، ولا زوجَ ولا ولد؟.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر].

سبحانه وتعالى صوَّر الإنسانَ فأحسنَ صورتَه، خَلَقه فى أَحسنِ تقويم وجعل بينَ أَعضائِه من التناسُقِ والانتظامِ والتعاونِ ما فيه عبرةٌ لِمَنِ اعتبر فيهتفُ من أَعماقِ قلبِه ومن كل عقلِه وشعورِه:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

أيها الْمُسلمون:

إن أَقربَ شىء إلى الإنسانِ نفسُه، وفيه من العجائب الدالةِ على عظمة اللهِ ما تَقتضى الأَعمارَ فى الوقوفِ على بعضها، والإنسانُ غافلٌ عن الفكر مُعْرِضٌ عن التفكرِ والتأَمُّلِ، ولو فكَّر فى نفسِه لَزجَره ما يعلمُ من عجائبِ النفسِ، وبديعِ صُنْعِها، وإحكامِ تركيبِها عن الكفرِ والْمعصية:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس].

لقد كَرَّر الله على أَسْماعِنا وأَفهامِنا وعقولِنا لفظَ النطفةِ والعلَقةِ والْمُضغةِ والترابِ، لنتدبرَ ونتأَملَ ونَعِى، فيزدادَ الْمُؤمنُ يقينًا وإيمانًا، ويَرعَوِىَ الجاحدُ، ويرجعَ إلى عقلِه، ويتوبَ إلى رَبِّه نادمًا على ما كان منه من غفلةٍ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف].

ولنتدبر قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾. [السجدة].

لقد جحدَ الجاحدونَ لقاءَ ربِّهم فلم يتدبَّروا فى النشأةِ الأُولى، وإن خالقَهُم الرَّحيمَ بهم يدعوهم إلى التأمُّلِ والتدبُّر:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾. [الواقعة].

وما خَلْقُ جميعِ الناسِ وبَعثُهم يومَ الْمعادِ بالنسبةِ إلى قدرةِ الله إلَّا كنسبةِ خَلْقِ نفسٍ واحدةٍ، الجميعُ هَيِّنٌ عليه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان] .. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

عن بُسْرِ بن جَحَّاشٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فى كَفِّهِ، ثم وَضَعَ عليها إِصْبَعهُ السبَّابةَ، ثم قال: قالَ الله تعالى: «ابنَ آدمَ أَنَّى تُعْجِزُنى وقد خلقتُكَ من مِثْلِ هذه، حتَّى سَوَّيْتُك وَعَدَلْتُك، مَشَيْتَ بينَ بُرْدَيْكَ وللأرضِ منك وَئِيدٌ، فجمعْتَ ومَنعْتَ، حتَّى إذا بَلَغَتِ التَّراقِى، قُلْتَ: أَتصدَّقُ، وأَنَّى أَوانُ الصَدَقةِ». [أخرجه النسائى].

فاتقوا الله - عبادَ اللهِ - وتُوبوا إليه فالتائِبُ من الذنب كمن لا ذنب له.

* * *

للخطبة الثانية:

قال قتادةُ: من تفكَّر فى خَلْقِ نفسِه عَرف أنه إنَّما خُلِق ولُيِّنت مفاصلُه لعبادةِ الله.

لقد دعا اللهُ عبادَه إلى النظرِ والفكرِ فى مبدَإ خلقِ الإنسانِ، ووسطِه وآخره؛ إذ نفسُ الإنسانِ وخَلْقُهُ من أعظمِ الدلائِل على كمال قدرةِ خالقِه وفاطرِه وعلى وجُودِه سبحانه ووحدانيته: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور].

أَيُمكن أن يُخْلَقَ الإنسانُ ويُوجَدَ من غيرِ خالقٍ حيّ قادرٍ واحدٍ، أم أنَّ الإنسانَ هو الذى خَلَقَ نفسَه وأَوجدها؟.

أى لا هذا ولا ذاك، بل اللهُ هو الذى خَلَقهم وأنشأهم بعد أن لَمْ يكونوا شيئًا مذكورًا.

يا أهل الإيمان:

رُوى أن النبىَّ ﷺ قال: قال الله تعالى فى الحديث القدسى: «يا ابنَ آدمَ قد أنعمتُ عليكَ نِعَمًا عِظَامًا لا تُحصِى عدَدَها، ولا تُطيقُ شُكْرَها، وإنَّ مِمَّا أَنعمتُ عليكَ: أَن جعلتُ لك عينين تنظُرُ بهما، وجعلتُ لَهُمَا غِطاءً فانْظُرْ بعينيكَ إلى ما أَحللتُ لك، وإن رأَيتَ ما حرَّمتُ عليكَ فَأَطْبِقْ عليهما غِطاءَهما، وجعلتُ لك لِسانًا، وجعلتُ له غُلافًا، فانطِقْ بما أمرتُكَ وأَحللتُ لك، فإن عَرَض لَكَ مَا حَرَّمتُ عليك فأَغْلِقْ عليكَ لِسَانَك، وجعلتُ لك فَرْجًا، وجعلتُ لك سِتْرًا، فأَصِبْ بِفَرجِك ما أَحللتُ لك، فإنْ عَرَضَ لَكَ ما حَرَّمْتُ عليك فأَرْخِ عليك سِترَكَ.

يا ابنَ آدمَ إنك لا تَحْمِلُ سُخْطى، ولا تطِيقُ انتقامى».

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأبو سعيد رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: يُؤْتَى بالعبدِ يومَ القيامةِ فيقولُ اللهُ لهُ: «أَلَمْ أجعلْ لكَ سَمْعًا وبَصَرًا، ومالًا، وَوَلَدًا، وسَخَّرتُ لك الأنعامَ والحَرْث، وتركتُكَ تَرْأَسُ وتَربَعُ؟ فكنتَ تظنُّ أنَّك مُلاقِيَّ يومَك هذا؟ قال: فيقول: لا، فيقولُ له: «اليومَ أنساكَ كما نَسِيتَنى».

[رواه الترمذى وقال: حديث صحيح غريب].

أعاذنا الله من غضبه وسُخْطِه ونسأله التوفيق لما يُحِبُّه سبحانه ويرضاه وأن يشملنا بعفوه ورحمته.

* * *

توجيه ودروس:

حَدَّث أبو هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «كَذَّبَنى ابنُ آدمَ، ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك.

فأمَّا تكذيبُهُ إيَّاى فقوله: لن يُعيدَنى كما بدأنى، وليس أولُ الخلْقِ بأهونَ علىَّ من إعادته.

وأمّا شتْمه إيَّاى فَقوله: اتَّخَذ اللهُ ولدًا، وأنا الأحَدُ الصمدُ، لم ألِدْ، ولم أُولَد، ولم يكن لى كُفُوًا أحَدٌ». [أخرجه البخارى].

وعنه أن النبى ﷺ قال: قال الله تعالى: «يا ابنَ آدمَ تَفَرَّغْ لعبادتى أمْلأْ صَدْرَك غِنًى، وأسُدَّ فقرَكَ، وإلا تَفْعَلْ، ملأْتُ يديْك شُغلًا، ولم أسُدَّ فَقْرك». [أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب].

٦ - لا يعلمُ الغيبَ إلا الله

أمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان].

نزلتْ الآيةُ الكريمَةُ - يا عبادَ الله - فى الوارث بنِ عَمرو بنِ حارثةَ أتى النبىَّ ﷺ فقال: «يارسولَ اللهِ، أَخْبرنى عن الساعة، متى قيامُها؟ وإنى قد أَلقيتُ حَبَّاتى فى الأرض، وقد أبطأَتْ عنا السماءُ فمتى تُمْطِرُ؟ وأَخبِرْنى عن امرأَتى فقد اشتملتْ - أى حُبلَى - ما فى بطنها أذكرٌ أمْ أُنثى؟ وإنى عَلِمتُ ما عَمِلتُ أَمسِ، فماذا أَعملُ غدًا؟ وهذا مولدى قد عرفتُه فأَينَ أَمُوت».

[وجاء بمعناه عند الطبرى وغيره عن مجاهد ومُقاتل وعند ابن ماجه عن ابن مسعود].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «مَنِ ادَّعى عِلْمَ هذه الخمسةِ فقد كذَب، إيَّاكُم والكهانةَ، فإن الكَهَانةَ تدعو إلى الشِّركِ، والشركُ وأَهلُهُ فى النار».

أيها الْمُؤمنون:

إن مفاتيحَ الغيبِ خَمْسَةٌ لا يعلمُها إلا اللهُ، ومن ادَّعى عِلْمَ شيء منها فهو كاذب أَثيمٌ مغضوبٌ عليه.

إن الله عنده عِلْمُ الساعةِ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] فاللهُ عز وجل وحده يعلم متى تقومُ الساعةُ ولَم يُؤتِ عِلمَ ذلك أَحدًا من خلقه، إذ لا فائدةَ للعباد فى معرفةِ وقْتِها، وإنَّما عليهم أَن يَستعدُّوا لَهَا بالخوف من الله، وخشيته وبالعمل الصالح ومداومةِ الطاعة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات]. أى أَنت يا محمدُ لَم تُبْعَثْ لِتُعلِمَهم بوقت الساعةِ الذى لا فائدةَ لهم فى علْمه وإنَّما بُعثْتَ لتنذرَ مِنْ أَهوالها مَنْ يكونُ إنذارُك لُطفًا له فى الخشية

منها .

وقال الحق تباركَ وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ [فصلت: ٤٧] ويقول سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك].

فمتى تقومُ الساعةُ؟ ومتى يَنتهى العالَمُ؟ عِلْمُ ذَلكَ عندَ الله وحده لا يعلمُهُ نَبىٌ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقرَّب، والله يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى].

يا أهل الإيمان:

وإن الله عز وجَل هو الذى يُنزل الغيثَ فى إبَّانِه ووقتِه من غير تقديم ولا تأخير، وفى بلدٍ لا يتجاوزُه به، وهذا من الغيب الذى لا يعلمُه إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهو عز وجل يعلمُ ما فى الأرحام.. أذكَرٌ أم أنثى؟ أتامٌ أَم ناقص؟ أَبيضُ أَم أَحمر؟. وكذلك ما سِوى ذلك من الأَحوال البدنيَّةِ والنفسيَّة الظاهرةِ وما يكون عليه باطنُه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.
[آل عمران].

ثمّ إن الْمُستقْبَلَ بيد الخالقِ العليم الخبيرِ وحده، وعلى العبدِ أن يأْخذَ بالأَسباب مع التوكُّلِ على الله وحده، أَمَّا ماذا يحدُثُ غدًا فهذا غيبٌ، لا يعلمُه إِلَّا القادرُ الحكيمُ، الذى يقول للشيء: كن. فيكون، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بَرَّةٌ أَوْ

فَاجِرةٌ مَاذَا تكْسِبُ غَدًا مِن خير أو شر، ورُبَّما كانت عازمةً على خير فَعمِلتْ شرًّا، وعازمةً على شرٍّ فعملتْ خيرًا. . وقديمًا قال الشاعر الحكيم:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنى عَنْ عِلْمِ مَا فِى غَدٍ عَمى

أجلْ إن الغدَ - يا أهلَ الإيمان - غيبٌ، والغيبُ مفاتيحُه بيد علام الغيوبِ سبحانه وتعالى جل شأنه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام].

يا عباد الله:

لهذا فقد اشتدَّ غضبُ الله على السحَرةِ والكُهَّانِ والعرَّافين وغيرِهم من الدجّالين، الذين يُوهِمُون الناسَ أنهم يَعرفون الغيبَ، ويشاركونَ عَلَّامَ الغيوبِ فى معرفة الْمُستقبلِ، ألا ساءَ ما يَدَّعون؟.

وقد تبرَّأ النبىُّ ﷺ من كلِّ مَن يتعلقُ بغير الله، ويَجْرِى وراءَ الوهْم والباطل، فعن عِمران بن حُصَين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطيَّرَ أَو تُطُيِّر له، أَو تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ له، أَوْ سَحَر، أَو سُحِر له، ومَنْ أَتى كاهِنًا فَصَدَّقَه بَما يقولُ فقد كفَرَ بِمَا أُنْزِل على محمد ﷺ».

[أخرجه البزار بإسناد جيد].

فَلْيَحْذَر الْمُؤْمِنُ الْجَرْى وَرَاءَ الأَوهام، وَلْيَحْذَر الدجَّالين والعَرَّافِين، لأَنهم كَذَّابون أَفَّاقون، ولْيعتصِم الْمُؤمِنُ بإيمانِهِ برَبِّهِ وحُسْنِ توكُّلِه عليه فى الأَمورِ كلِّها، مع الأَخذ بالأَسبابِ التى أَمر الله بها.

فلقد أَمر الإسلامُ بالأَخذ بالأَسبابِ مع حسنِ التوكُّلِ على الله وحده وبالإيمانِ بأنه لا نافعَ ولا ضارَّ إلا هو، وأَن الأَمرَ بيده وحده سبحانه وتعالى فعن أَبى هريرة رضي الله عنه - كما فى الصحيح - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أَنزلَ اللهُ داءً إِلَّا أَنْزَلَ لهُ شفاءً. . .» ومن حديث آخر: «تَدَاوَوْا ياعِبادَ الله فإن الله

تعالى لَم يَضَعْ داءً إلَّا وَضَعَ له شِفَاءً إلَّا السَّام». والسَّامُ أى الْموت.

وهكذا يحثُّنا دينُنا الحنيفُ على الأخْذ بالأسباب، وينهانا عن الجرى وراءَ الأوهام والأباطيلِ، ويحذِّرُنا من الدجَّالين، والسحرةِ، والكُهَّانِ وغيرِهم مِمن غَضِبَ اللهُ عليهم.

يا ذوى الألباب:

وإن الموتَ حقٌّ، وعلى الْمُؤمِن أن يضعَ الْموتَ دومًا أمامَ عينيه، ولا يغفُلُ عن تذكُّره ليستعدَّ دائمًا للقاءِ ربِّه ولكن: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. فربَّما أَقامَ الْمرءُ بأَرضٍ وضَرَبَ أَوتادَه بها، وقال: لا أَبرحُها حتى أُقبرَ، فترمى به مرامى الأَقدارِ حتى يَموتَ فى مكانٍ لَم يَخطِرْ ببالِه، ولا حدَّثَتْهُ به نفسُه ذلك لأَن هذا غَيْبٌ عِلمُهُ بيدِ صاحبِ الأَمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤] وفى الحديث: «إذا أَراد الله قبضَ عبدٍ بأَرضٍ جعلَ له إليها حاجة».

[رواه عبد الله بن مسعود وأخرجه البزار].

فسبحانَ الواحدِ الأَحدِ الذى جعل لكل نفْسٍ أجلًا، سبحانَ علام الغيوبِ، القائمِ على كلِّ نفسٍ بِما كسبتْ، ونحن تحت قَهْرِه وسُلطانِه، لا يَعْزُب عن علمه شىءٌ فى الأَرض ولا فى السماءِ.

وطوبى للعبد الْمؤمنِ الصالحِ الْمُتوكِّلِ على ربِّه.. طوبى للعبد الْمؤمنِ الْمُقرِّ بعَجْزِ نفسِه أمامَ كمالِ القدرةِ الإلهية، وكمالِ العلمِ الإلهىِّ، طوبى لِمَن يَستعدُّ للقاء العزيزِ الجبارِ بالعملِ الصالحِ واليقينِ الصادق.

قال رسول الله ﷺ: «مفاتيحُ الغيبِ خمسةٌ لا يعلمهم إلا الله تعالى، لَا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلَّا الله، ولا يعلمُ ما تَغِيضُ بهِ الأَرحامُ إلَّا الله، ولا يعلمُ ما فى غدٍ إلا الله، ولا يعلمُ بأَىِّ أَرضٍ تَموتُ إلَّا الله، ولا يعلمُ متى يَنْزِلُ الغيثُ إلا الله».

[أخرجه البخارى ورواه ابن عمر وجاء عند أحمد وغيره بعبارات متقاربة].

فاتقوا الله فى دينكم، صُونوه عن شوائبِ الشرك، وأخلِصُوا التوحيدَ لله وتوبوا إليه لعله يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

يقول الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]. ويقول عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك].

عن أنس بنِ مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أتى كاهِنًا فصدَّقه بِمَا يقول فقد بَرِئ مِمَّا أُنْزِلَ على محمد ﷺ، ومَنْ أتاه غيرَ مصدِّقٍ له لَم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعين ليلة». [أخرجه الطبرانى من رواية رشيد بن سعد].

وفى صحيح مسلم عن أم الْمُؤمنين صفية ﷺ أن النبى ﷺ قال: «من أتى عَرَّافًا فسأله عن شىء لم تُقْبل له صلاةٌ أربعين ليلةً»، ومن سأل كاهِنًا طُرِدَ من رحمةِ الله، ولا يُقبَلُ له عملٌ، فعن واثلةَ بنِ الأَسقع ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَتى كاهِنًا فسأله عن شىء حُجِبَت عنه التوبةُ أَربعين ليلةً، فإن صدَّقه بما قال كفر». [أخرجه الطبرانى].

يا عباد الله:

إن الساحرَ والكاهنَ والْمُنجِّمَ والعَرَّافَ وقارئَ الكفِّ ونحوهم أهلُ باطلٍ وزورٍ، يعيشون على الدَّجَل والتمويه والكذب، ويأكلون أموالَ الناسِ بالباطل، ويُخادِعون ويَمكرون، قلوبُهم من الخير خاليةٌ، ونفُوسُهم بالشرِّ مُتعلِّقةٌ، قد

باءُوا بغضبٍ من الله، وفى الحديث الذى رواه أبو موسى ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ مُدْمِنُ خَمْرٍ، ولا مؤمنٌ بسحْرٍ، ولا قاطعُ رَحِمٍ». [أخرجه ابن حبان فى صحيحه].

وإن الْمُؤمنَ بالسحر يشملُ الْمُشتغلَ بالسحر، والْمُصدِّقَ للسَّحَرةِ وأمثالِهم، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «مَنْ عَقَدَ عُقَدةً ثم نَفَثَ فيها فقد سَحَر، ومن سَحَرَ فقد أشْرَكَ، ومَن تَعلَّق بشىءٍ وُكِلَ إليه». [أخرجه النسائى].

وفيه - يا عباد الله - تحذيرٌ شديدٌ من تعليق التمائم والحروزِ والخَرز والوَدَعَ ونحو ذلك على الصغار والكبار.

وفى الحديث الذى رواه عقبةُ بنُ عامر وأخرجه أحمد والحاكم: «مَن عَلَّقَ تميمةً فلا أَتمَّ اللهُ له، ومَن عَلَّق وَدَعةً فلا وَدَعَ الله لهُ» وفى هذا الدعاءِ زجرٌ شديدٌ لذوى العقول والبصائر.

وفى الحديث الذى رواه جابر عن مسلم: «لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ بَرَأَ بإذنِ اللهِ عزّ وجلّ».

فطوبى لِمن صَحَّ يقينُه، وأخذ بالأسباب الْمشروعةِ والْمُباحَةِ، مع الصدقِ فى حُسْن التوكُّلِ على الله، والإيمانِ بأنه سبحانه خالقُ الأسبابِ والْمُسبَّبَاتِ، ولا يعلمُ ما فى الغيبِ إلا هو.

* * *

٧ - الإسلامُ هو صراطُ الله المستقيم

الحمد لله، إذا أَراد بأُمةٍ خيرًا وفَّقها للتمسُّك بدينها، والْمُحَافظةِ على كيانها. . والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا وهادِينا محمدٍ جاءَ بعقيدةِ التوحيدِ والتنزيهِ وأَمر بالطاعةِ، وحَثَّ على التحَلِّى بأَخلاق الإسلامِ العالية.

أَحمدُ الله، وأَستغفره وأَشهَدُ أَن الهادِى الحبيبَ محمدَ بنَ عبدِ الله هو رسولُ ربِّ العالَمين إلى الناسِ كافةً، وهو الإمامُ والقدوةُ. . اللهُمَّ صلِّ على هادينا محمدٍ وعلى آلِه وأَصحابِه الذين اقتَدَوْا به، فأَحْيَوْا دِينَه، ونَشَرُوا شريعَتَهُ الغَرَّاء.

أمَّا بعد. . . فياأيها الْمُسلمون:

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

أيها الْمُسلمون:

قبلَ أَن تُشْرِقَ على الدُّنيا أَنوارُ الدعوةِ الْمُحمديَّة، كانَ البشرُ يعيشونَ فى حَيرةٍ وعَمًى. . كانت العقائدُ زائغةً باطلة، والأَخلاقُ كانت فاسدةً. . وأَفكارُ البشرِ متضاربةً متخالفةً. . فتنافرت القبائلُ. . وتنابذتْ الأُممُ. . يأْكلُ قويُّها ضعيفَها. . وفشا الإثمُ والعدوانُ، واضطربَ حبلُ الأَمنِ، وحُرِم الناسُ من نعمةِ الاستقرارِ والطمأْنينةِ. . وضَلَّ سعيُهم فى الحياة الدنيا.

وأَراد الله عز وجل أن يَهدِى عبادَه إلى صراطِه المستقيم، وأن يُنقذَهم من الكفر والضلالِ والعَمَى والجهل.

أراد الله عز وجل للناس أن يعيشوا فى محبةٍ، وكرامةٍ، فأرسلَ نبيَّه محمدًا ﷺ برسالة الإسلام، بعث الله عز وجل نبيَّه محمدًا ﷺ داعيًا إلى دين الفطرة.. وهاديًا إلى الحق، ومُرشدًا إلى كل خير.. فنادى محمدٌ ﷺ فى الناس قائلًا عن ربه عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء].

نادى محمدٌ ﷺ فى الناس داعيًا إلى الحق والخيرِ والهدى.. والناسُ فى لَهَفٍ شديد، إلى نورٍ جديد.. يُبَدِّد ظلماتِ الْمُعتقداتِ الباطلة، والأفكارِ البشريةِ الْمُضِلَّةِ، فأَقبلَ الناسُ على صوت الحق، يدخلون فى دين الله أفواجًا.

أَقبل الناسُ على دين الإسلام، لأنه الدينُ الذى يُحققُ لهم الخيرَ فى الدنيا، والفوزَ فى الآخرة، فتعاليمُ الإسلامِ ونُظُمه هى صراطُ اللهِ الْمُستقيمُ الذى لا عِوَج فيه، ولا انحراف.

يا عباد الله:

إنَّ الإسلامَ صراطٌ مستقيمٌ فى العقيدةِ، إذْ دعا إلى التوحيد الخالص، فلا شِرْكَ ولا تعدُّدَ ولا إنكارَ ولا جحود، فقد دعا الإسلامُ إلى الإيمانِ بأن اللهَ واحدٌ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

والإسلامُ صراطٌ مستقيم فى الأَخلاق حثَّ على التحلِّى بالفضائل بلا إفراطٍ ولا تفريط.. فلا جُبنَ، ولا تَهَوُّر، ولا استكبارَ، ولا استِخْذاءَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

والإسلامُ صراطٌ مستقيمٌ فى صلةِ الإنسانِ بالحياة ونعيمها: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ

ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

والإسلامُ صراطٌ مُستقيمٌ فى طريقة التشريع، وَوَضْعِ القوانين التى تَهدِفُ إلى خيرِ الفردِ والجماعة.. فالقرآن الكريمُ.. كتابُ اللهِ عزَّ وجل، دستورٌ خالدٌ، ومبادئُه صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ولكلِّ مكانٍ.. وقد أَمرنا الله عز وجل وهو خالقُ البشر، والعليمُ بِما تَصْلُح به حياتُهم، وتستقيمُ عليه أُمورُهم، أَمرنا سبحانه باتِّباع كتابهِ، والعملِ بِسُنَّةِ نبيِّه ﷺ وبالامتثالِ لِما جاءَ به الوحْىُ واتخاذِهِ سبيلَ الحياةِ ودستورَها: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويقول عز وجل: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

أيها الْمُسلمون:

الإسلامُ - ياعبادَ الله - هوَ دينُ اللهِ الذى رَضِيَهُ لعباده، وتعاليمُ القرآن ومبادئُه هى صراطُ اللهِ المستقيمُ الذى لا يَضِلُّ سالِكُه، ولا يَهتدى تاركُه.. ورسولُ الإسلام محمدُ بنُ عبدِ الله ﷺ هوَ رسولُ ربِّ العالَمين إلى الناس كافةً.. أَنقذ البشرَ برسالةِ الإسلام من الضلالِ.. ودعاهم إلى ما يُحققُ لهم السعادةَ الكاملةَ فى كل جَوَانبِ حياتِهم.

والْمُسلمون - ياعبادَ الله - بخيرِ ما استمسكُوا بكتابِ ربِّهم وسُنةِ نبيِّهم ورجعوا إليهما فى كلِّ أُمورهم، وجعلوا مبادئَ الإسلام أَساسَ حياتهم، يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾. [النساء].

وقال الهادى الحبيب ﷺ: «لقد تَرَكْتُكُمْ عَلى المَحَجَّةِ البيضاءِ لَيْلُهَا كنهارِها، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِى إِلَّا هَالِكٌ». [رواه أبو داود الترمذى وابن ماجه]

اللهم اهدِنا صراطَكَ المستقيم، واتَّقوا الله - عبادَ الله - وتوبوا إليه وسَلُوا الله العافيةَ والْمعافاةَ، واطلبوا منه الْمغفرةَ يغفرْ لكم.

وصَلَّى اللهُ على الحبيب الهادى وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

للخطبة الثانية:

قال عليُّ بنُ أبى طالبٍ رضى اللهُ عنه: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «أَمَا إنها ستكونُ فِتْنَةٌ». قلتُ: فما الْمُخْرِجُ منها يا رسولَ الله؟ قال: «كتابُ الله تعالى، فيه نبَأُ ما قبلَكُمْ، وخَبَرُ ما بَعْدَكم، وحُكْمُ ما بينكم، هو الفصْلُ ليس بالهزْل، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله تعالى، ومن ابتغى الهدى فى غيره أَضلَّهُ اللهُ تعالى، وهو حَبْلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكْرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذى لا تَزِيغُ به الأهواءُ، ولا تَلتبِسُ به الألْسنةُ، ولا تَشْبَعُ منه العلماءُ، ولا يَخْلُقُ على كثرةِ الردِّ، ولا تنقَضِى عجائبُه، وهُو الذى لَم تنتَهِ الجِنُّ إذ سَمِعتْهُ حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢] مَنْ قالَ بهِ صَدَق، ومَنْ عَمِلَ به أُجِر، وَمَنْ حَكم بهِ عَدَل، ومَن دُعِى إلَيهِ هُدِى إلى صرَاطٍ مستقيم». [أخرجه الترمذى].

* * *

٨ - آيةُ الكرسيّ تضمّنت التوحيدَ النقيّ الخالصَ

الحمدُ لله، نَحْمَدُه ونَستعينُه ونستغفِرُهُ، ونعوذُ بهِ من شُرورِ أَنفسِنَا ومن سيِّئات أَعمالنا، مَن يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، وَمَن يُضْلِلْ فلا هَادِي له، ونَشْهَدُ أَن لّا إله إلّا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه بالحقّ بشيرًا ونذيرًا بينَ يَدَى الساعةِ، مَنْ يُطِع الله ورسولَه فقد رَشَد، ومن يَعْصِهما فقد غَوى، نسأَلُ اللهَ ربَّنا أَن يجعلنَا مِمَّن يُطيعه، ويُطيعُ رسولَه، ويتَّبعُ رضوانَه، ويَجْتَنبُ سخطَه، فإنَّما نحنُ بهِ وله.

نحمده سبحانه أن هدانا للإسلام، وجعلنا من أَهل التوحيدِ الخالصِ ومن أَتباع نبيِّه الهادى محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابِه ومن اقتدى به وعمِلَ بسُنته وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

ياعبادَ الله:

«كلُّ ما هُوَ آتٍ قريب، ولا بُعْدَ لِما هُو آتٍ، لا يُعَجِّلُ اللهُ لعَجَلَة أَحد، ولا يَخِفُّ لأَمر الناس، ما شاءَ اللهُ لا ماشاءَ الناسُ، يُريد اللهُ أَمرًا ويُريدُ الناسُ أَمرًا، ما شاءَ اللهُ كانَ ولو كَرِه الناسُ، ولا مُبْعِدَ لِمَا قرَّب الله ولا مُقَرِّبَ لِمَا بَعَّد الله، لا يكونُ شيءٌ إِلّا بإذنِ الله جلَّ وعزَّ».

أما بعد: . . . فيا أيها المُوحِّدون:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

أفضلُ آية:

هذه آيةُ الكُرسيّ، وهى ذاتُ شأنٍ عظيم، إذْ تضمَّنت التوحيدَ، وَنَفتْ عن

الذاتِ العَليَّةِ ما لا يَليقُ بها، وأثبتتْ لَها صفاتِ الكمالِ، ونعوتَ الجلال وَبيَّنتْ عظمةَ الْمُلْك، وَدَلائلَ القُدرة، وبراهينَ الوَحْدَانية.

وعن أُبيِّ بنِ كَعْب رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «يا أبا الْمُنْذِر، أتدرى أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فضرب فى صدرى وقال: «لِيَهْنِكَ العلمُ أبا الْمُنذرِ». وقال: «والذى نفسى بيده إنَّ لَها لِسانًا وَشَفتين تقدِّس الْملِكَ عند ساقِ العرشِ».

[مسند أحمد].

ورُوى أنّ عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ كان إذا دخلَ بيتَه قرأ آيةَ الكرسىّ فى زوايا بيتِهِ الأَربع، كأنه يَلْتَمِس بذلك أن تكونَ له حارسًا، من جوانبِهِ الأربعة وأن تَنْفى عنه الشيطانَ من زوايا بيته.

وروى أن عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه صارع جِنِّيًا، فصرعَهُ عُمَرُ فقال له الجنِّىُّ: خَلِّ عنِّى، حتى أُعَلِّمَكَ ما تَمْتَنعون به منَّا، فخَلَّى عنه وسأله فقال: «إنكم تَمْتَنِعُون منا بآيةِ الكرسىّ».

وقد رواه ابنُ مسعود رضي الله عنه وفيه أن الجنىَّ قال لعمرَ: «تقرأُ آيةَ الكرسىّ فإنه لا يقرؤُها أحدٌ إذا دخل بيتَه إلا خَرَج الشيطانُ..».

[تفسير ابن كثير نقلًا عن أبى عبيد فى كتاب الغريب].

يا أهل الإيمان:

لقد اشتملت آيةُ الكرسىّ على اسم «الله» واللهُ اسمٌ مختصٌ بالْمعبودِ بالحقِّ لَم يُطلقْ على غيرِه سبحانه وتعالى، وهُو عَلَمٌ عَلَى الذَّاتِ الواجبِ الوجودِ المستحقِّ لجميعِ الْمَحامدِ، وهو أَعظمُ أَسْمائِه تعالى لدلالَتِه على الذاتِ العَليَّةِ الجامعةِ لكل صِفاتِ الألوهيةِ، الْمَنعوتةِ بنعوتِ الربوبيةِ، الْمُنفردةِ بالوحدةِ فى الذاتِ والصفاتِ والأَفعالِ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إنها كلمةُ الإخلاصِ تدلُّ على نَفْى الإلهيةِ عن كلِّ ما سِوى اللهِ تعالى كائنًا مَنْ كان، وعلى إثباتِ الإلهيةِ لله وحْدَه دون ماسِواه، فهو سبحانه الْمُنفردُ بالإلهيةِ لجميع الخلائقِ، وهذا هو التوحيدُ الذى دَعت إليه رسلُ الله صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين، ودلَّ عليه القرآنُ الكريم.

و «لا إله إلا الله» أَصدقُ الكلام، وأَهلُها العالِمون بها، العاملون بِمُقتضاها هم أَهلُ الله وحِزْبُه، والْمُنكرون لها هم أَعداءُ الله، وأَهلٌ لغضبه ونقمَتِه لأَنهم شِرارُ الناس.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: ﴿ٱلْحَىُّ﴾: أَى المتصفُ بالحياةِ الأَبديَّةِ التى لا بدايةَ لها ولا نهايَة، فهو سبحانه الباقى الذى لا سبيلَ عليه للفناءِ، قال تعالى من سورة الفرقان: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ أى هو الدائمُ القِيامِ بتدبير الخلْقِ وحِفْظِه، فهو سبحانه القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ حتى يُجازِيَها بعملِها، من حيثُ هو عالِمٌ بها، لا يَخْفَى عليه شىء من أُمورِها، وهو سبحانه القائمُ الحفيظُ لكلِّ شىء، والمُعْطِى له ما بِه قِوامُه كما قال تعالى من سورة طه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ومن تَمامِ القيُّوميةِ أَنَّه سبحانَه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والسِّنَةُ ما يَتَقَدَّم النعاسَ، فإذا صار فى القلبِ سُمِّى نومًا، فهو سبحانه له الكمالُ المطلَقُ لا يعتريه نقصٌ ولا غفلةٌ ولا ذُهولٌ عن خلقه، وهو تأْكيدٌ للقيُّوم القائمِ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ، الحفيظِ لكل شىء، لا يَغيبُ عنه سبحانه شىء، ولا تَخفى عليه خافيةٌ.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكُلُّ مَا فِى السمواتِ والأَرضِ خاضعٌ لحكمهِ، واقعٌ تحت سلطانِه وقهرِهِ لا يشاركُه أَحدٌ فى هذا الْمُلكِ، وليس لأَحد معه أَمرٌ ولا نَهى، ولنتدبرْ قولَه

تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

ولتأكيدِ بيان هذا الْمَلكوتِ العظيمِ تُقرِّر الآيةُ أن أحدًا لا يتمالكُ أن يشفعَ لأحدٍ يومَ القيامةِ إلَّا إذا أَذِنَ له الرحمنُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. [البقرة: ٢٥٥].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨] ثم إنَّهم - أيضًا - لا يَشفَعون إلا لِمَن ارتَضى، وهذا دليلُ عَظمتِه سبحانه وجلالِه وكبريائِه، ومن حديث الشفاعةِ يقول الهادى الحبيب ﷺ: «آتى تحتَ العرشِ فأَخِرُّ ساجدًا، فيَدَعُنِى ما شاءَ اللهُ أن يَدَعَنِى، ثم يقال: ارفَعْ رأسَك واشفَعْ تُشَفَّعْ - قال - فَيَحُدُّ لى حَدًّا فأُدْخِلُهم الجنَّة».

[من حديث طويل رواه أبو هريرة عند الترمذى وأنس عند ابن ماجه واللفظ هنا من تفسير ابن كثير].

وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَعِلْمُ الله عزَّ وجلَّ مُحيطٌ بجميع مخلوقاتِه ماضيها، وحاضرِها، ومستقبلها يعلمُ ما كان منهم وما سيكونُ، ويعلمُ دنياهم وأُخراهم.

أما عِلْمُ البشرِ فقاصرٌ مهما ارتقت علومُهم ومعارفُهم، فهم لا يعلمون إلا ما شاءَ اللهُ أن يُعَلِّمهم، وما علَّمه لعبادِه أَشبهُ بما يَأْخذُ مِنقارُ العُصفورِ من ماءِ البحرِ إذا قِيسَ بعلمِ الله تعالى، وما أراد اللهُ أن يُمِدَّ به عبادَه من المعلوماتِ عَلَّمهم إياه، ويسَّر لهم سبلَ التحصيلِ، فالأمرُ بيده وحده ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ولذا أمر الله نبيَّه بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وتلك - يا عباد الله - آيةٌ من آياتِه الدالَّةِ على عظيم قدرتهِ عز وجل، ومِمَّا يجب علينا أن نؤمنَ به من عَالَمِ الغيبِ، الذى أَخبر الله به فى كتابِه وعلى أَلسنة

رُسُلِه، وفى الكرسىّ يقول الرسولُ الحبيبُ ﷺ: «يا أَبا ذَرّ، ما السمواتُ السبعُ والأرضون السبعُ عِند الكرسىّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلقَاةٍ فى أَرضٍ فلاة - صحراء - وإنَّ فضلَ العرشِ على الكرسىّ كفضلِ الفلاةِ على تلك الحلقةِ».

[رواه ابن مردويه عن أبى ذرّ].

وهذا يُنبئُ عن عِظَمِ مخلوقاتِ الله عزّ وجل، فكيف يُعجزُه حِفظُ السمواتِ والأَرضِ ومَن فيهما، وما فيهما، وما بينهما، بل حِفْظُهما سهلٌ يسيرٌ لديه سبحانه وتعالى، لا يَئُوده ذلك، ولا يَشُقُّ عليه، ولا يُثْقِلُه.

والكونُ البديعُ الجميلُ الْمُحيطُ بنا بِمَا فيه من تناسق ونظامٍ، وما تناثَر فيه من كواكبَ ونجومٍ، وما جرى على يابستِه من بحارٍ وأَنهارٍ، كلُّ هذا وغيرُهُ مضتْ عليه أُلوفُ السنين، وهو مُسَخَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، لَم يختلّ نِظامُه، ولا تصادمتْ أَجرامُه.. أَلا يدلُّ ذلك كلُّه على وجود الخالقِ المدبِّرِ الحكيمِ القادرِ العالِم:

﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

حقًّا... إنه العلىُّ الشأْنِ الذى علا بذاته وبصفاتِه عن مداركِ الخلقِ بالكُنْهِ والحقيقةِ، وتاهتْ الأَلبابُ فى جلالِه، فهو عزَّ وجل الأَعلى من كلّ شىء، ولذا أَمرنا بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى].

وهو سبحانه «العظيم» القدرةِ الذى لا تصلُ العقولُ إِلى كُنْهِ ذاتِه، ولا تُدركُه الأَبصارُ، فهو سبحانه أَعظمُ من كلّ عظيم فى ذاتِه، ووجودِه، وَعِلْمِه وقُدرتِه، وسُلطانِه، وحِكمتِه، ونفاذِ حُكمِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌ﴾ [الشورى: ١١] فسبحان ربِّى العظيمِ الآمرِ بقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة].

فاتقوا الله - عبادَ الله - وأَخْلِصُوا التوحيدَ، واجعلُوا عبادتَكم خالصةً لله، وتُوبوا إِليه يَتُبْ عليكم، واستغفروه يَغفِرْ لكم.

أقول قولى هذا وأستغفرُ اللهَ لى ولكم.

* * *

للخطبة الثانية:

عن على بنِ أبى طالب رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى: «إنِّى أنا اللهُ لا إله إلا أنا، مَنْ أقرَّ لى بالتوحيد دَخَل حِصْنِى، وَمَن دَخَل حصنى أَمِنَ عَذابِى».

وجاء عن ابن عباسٍ وأبى ذرٍّ رضي الله عنهما أن رسُول الله ﷺ قال: يقولُ ربُّ العزّةِ فى الحديث القدسىِّ: «مَنْ عَلِم مِنكُم أنى ذو قُدْرةٍ على مَغْفِرَةِ الذنوبِ، ثم اسْتغفرنى غفرتُ له ولا أُبَالى، ما لَم يُشرِكْ بى شَيئًا».

[جامع العلوم والْحِكَم].

جاء فى صحيح البخارى عن عائشة رضي الله عنها أن النبىَّ ﷺ، بَعَث رجلًا على سَرِيَّةٍ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فَيختِمُ بِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]. فَلَمَّا رجعوا ذَكَرُوا ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ، فقال: «سَلُوه لأىِّ شىء صَنَعَ ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صِفَةُ الرحمن، وأنا أُحِبُّ أن أقرأ بها». فقال النبى ﷺ: «أَخْبِروه أن اللهَ تعالى يُحِبُّه». أى لحبِّه لله ولتَعلُّق قَلبِه بالوحدانية.

* * *

٩ - احفظوا أيمانَكم ولا تحلِفُوا إلا وأنتم صادقون

قال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة].

أيها الْمُؤمنون:

شُرِعت اليمينُ فى الشريعةِ المطهَّرة صيانةً للحقوق من الضياع عند عدم القدرةِ على إقامةِ البيِّناتِ، وعند إنكارِ الخَصْم على ذى الحقِّ حقَّه، ذلك أن الذى عليه الحقُّ ولا بينةَ عليه إذا طُولب باليَمين، لِيكُفَّ يدَ خَصْمِه، رُبَّما أَدركته الخشيةُ من الله فَيتصوَّرُ عظمةَ شأْنِ اللهِ القاهرِ فوق عبادِه، فتحصُلُ عنده الإنابةُ وتَردُّه إلى الحق الرهبةُ من عقاب البارئ عزَّت قدرتُه، فيعطى الحقَّ لِمُستحقِّه وتنحسمُ الْمنازعاتُ.

هذه هى الحكمةُ التى لأَجلها شُرِعت الأَيمانُ، ولكنَّ كثيرًا من الناس ذهبوا بها فى غير مَذهبِها، وتجاوزوا الحدَّ بها فى مَوضعِها، وفى غيرِ موضعِها، وجرت الأَيمانُ على أَلسنتهم عن قَصْد وعن غير قصدٍ، وبِمُناسبةٍ وفى غيرِ مناسبة، مع أَنَّ الْمُؤمنَ مأْمورٌ أَن يحفظَ أَيمانَه، وبأَن يصونَ اسْمَ اللهِ عن كثرة الترْدَادِ، وبأَلا يجعلَهُ مُضغةً فى فمه.

ونحن حين نتدبرُ قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] نجد الآيةَ الكريمَةَ تُرشدُنا إلى ترك الحَلِف بالله تعالى إلَّا عند الحاجةِ إلى ذلك إذ معنى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أى لا تُكثِروا الحلفَ باسْمه تعالى، ولهذا أَمر الله الْمُؤمنين بحفظِ أَيْمانهم فقال: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وذَمَّ سبحانه الشخصَ كثيرَ الحلِفِ فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم].

فَلْيَحْذَر الْمُؤمنُ من غضَبِ ربِّه، ولْيَحْفَظْ لسانَه عن الحلِفِ، وليحْذَر الكذبَ فيه وبخاصة إذا كان القصدُ من الحلف أكلَ حقوقِ الناسِ بالباطل، أَو الخيانةَ والغشَّ.

فتعريضُ اسمِ الله تعالى للحلِف بدون سَبَبٍ قويٍّ ولا حاجةٍ داعيةٍ إليه، ينشأ عنه فقْدُ هيبةِ الله وإجلالِه فى نفسِ الحلَّافِ، وعلى هذا فيكون قولُه تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] عِلَّةً للنهى، أى لا تجعلوا اللهَ مُعرَّضًا لأَيْمَانكم إرادةَ أن تَبرُّوا، وتتقُوا، وتُصلِحُوا؛ لأن من يُكْثِرُ الحلفَ بالله يجترئُ على الحِنْث، إذ قد يَعْجَزُ عن الوفاء بيمينه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أى لأَقوالِ العبادِ، ولِمَا يَلْفِظُون به من الحلف وغيره ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤] بنيّاتهم وبما يصدُرُ عنهم، فعلى العبدِ أَن يراقبَ ربَّه، وأَن يحاسبَ نفسَه عند كلِّ قولٍ أَو عملٍ ليكونَ من الْمُفلحين.

إذا كان اللهُ عز وجل قد نهانا عن أَن نجعلَ اسْمَهُ الكريمَ عُرضةً لأَيماننا ولو حقًّا، فكيف يستبيحُ إنسانٌ الحلِفَ بالله كذِبًا؟ لقد عظَّم اللهُ سبحانه وتعالى جزاءَ الذين يشترون بأَيمانهم ثَمنًا قليلًا، وأَوْعَدهم بحلول نقمتِه عليهم جزاءَ اجترائهم على الإقدام على الأَيمان مع الإصرار على الكذب:

فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران].

إن الكذِبَ فى نفسِه جريمةٌ، لأنه قلبٌ للحقائق، وتَعميةٌ على الناسِ وفيه ضلالٌ وإضلالٌ، كما أَن الكذبَ داعيةٌ إلى فَقْدِ الثقةِ فى الْمُعاملة، وفى الْمُحادثةِ، فإن انضمَّ إليه تأْكيدُه بالأَيمانِ الكاذبةِ، كانت الجريمَةُ أَكبر ولنتدبر - أَيها الْمُؤمنون - الوعيدَ الذى جاء فى الحديث الشريف.

يقول الصادقُ الأمينُ ﷺ: «مَن حلف على يَمينٍ وهو فيها فاجرٌ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ[١]، لقِي اللهَ وهُو عليه غضبان». وفى رواية: «فلْيتبوأْ مَقْعَدَه من النار». [متفق عليه ورواه ابنُ مسعود].

فالحبيبُ الهادى ﷺ يُبيِّنُ لنا أن من أَقْدَمَ على حَلِف الْيمين الكاذبةِ ليهتضمَ بها حقوقَ الناسِ، غضِبَ الله عليه يومَ لقائِه، ومن يَحْلِلْ عليه غضبُ الله عز وجل فقد خسِر الدنيا والآخرة.

والذى يَحلف بالله كذبًا متعمِّدًا سُمِّيَتْ يَمينُه غَموسًا؛ لأنها تَغْمِسُ صاحِبَها فى الإثم الذى يستحقُّ به النار، والْيمينُ الغموسُ من الكبائر، ولا يُكَفِّرُها عِتْقٌ ولا صدقةٌ ولا صيامٌ، بل لابدَّ من التوبة الصادقةِ وأداءِ الحقوقِ والاستقامة، وقد جاءَ فى الحديث الذى رواه عبدُ الله بنُ عَمْرو رضى اللهُ عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «الكبائرُ الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفسِ، والْيمينُ الغموس». [أخرجه البخارى].

لقد كان من فضل الله علينا ورحمتِه بنا أن رفع عنا سبحانه وتعالى إثمَ الأَيمان التى تَجرى على اللسان، من غير قصدٍ لليمين، ولا إرادةٍ للحلِف يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة]. واللَّغْو: هو الساقطُ الذى لا يُعتَدُّ به من كلامٍ وغيره، واللغْو من الْيمين هو الساقطُ الذى لا يُعْتدُّ به فى الأَيْمان وهو الذى لا عَقْدَ مَعَه ولا نيَّة.

وفى اليمين التى هى لَغْوٌ يقول ابنُ عباس رضى الله عنهما: «هو قولُ الرجلِ فى دَرَجِ كلامِه واستعمالِه فى الْمُحاورة: «لا واللهِ، وَبَلَى والله» دون قصدٍ لليمين». وروى البخاريُّ وابنُ أبى حاتم عن عائشةَ رضى الله عنها مِثْلَه، ومِما قالته: «هم القومُ

---

(١) وفاجرٌ: أى كاذب، وقُيِّد بالْمُسلم نظرًا للغالب وإلا فالذمّىُّ والْمُعَاهَدُ مثله.

يتدارءُونَ فى الأمر - أى يختلفون فيه - فيقول هذا: لا واللهِ، وبلى واللهِ، وكَلَّا واللهِ، يتدارءُونَ فى الأمر، لا تُعقدُ عليه قلوبُهم». وقال الْمروزيُّ: «الغْو اليمينِ التى اتفق الْعلماءُ على أنها لغْوٌ هو قولُ الرجل: «لا واللهِ، وبَلَى واللهِ» فى كلامه ومحاورتهِ غيرَ معتقِدٍ لليمين ولا مُريدِها».

وقال أبو هريرة ﷺ: إذا حلف الرجلُ على الشىء يَظنُّه على ما حَلف عليه ثم يَظْهَرُ خلافُه، أى فإذا ليس هو فهو اللغو، وبه قال أبو حنيفةَ وأصحابُه، وقال به مالكٌ، ومثالُه كما إذا حلف شخصٌ باللهِ أنه لا نقودَ معه الآن ظانًا أنها ليست معه وهى معه، أو حلف أنه ما ذَهَب إلى السوق أمسِ مُعتقِدًا صِدْقَ نفسِه مع أنه ذهب إليها.

قال مالك: أَحسَنُ ما سَمِعتُ فى هذا أن اللغْوَ حَلِفُ الإنسانِ على الشىء يستيقِنُ أنه كذلك، ثم يُوجدُ الأَمرُ بخلافِه فلا كفارةَ فيه، وأَمَّا الذى يَحلِفُ على الشىء، وهو يعلمُ أنه فيه آثِمٌ كاذبٌ ليُرضِى به أَحدًا، أَو يعتذرَ لِمخلوق، أَو يقتطعَ به مالًا، فهذا أَعظمُ من أن يكونَ فيه كفارةٌ، وإنَّما الكفارةُ على مَنْ حلفَ أَلَّا يفعلَ الشىءَ الْمُباحَ له فعلُه ثم يفعلَه، أَو حلف أَن يفعلَه ثم لا يفعلَه، مِثْل: أَن يحلفَ أَلا يبيعَ ثوبَهُ بعشرةِ دراهمَ، ثم يبيعَه بِمثل ذلك، أَو حلَفَ لَيُسافرنَّ غدًا ثم لا يسافر.

والْمعنى لا يؤاخِذُكم الله، أَى لا يعاقبُكُمْ بلغْو الْيمينِ الذى يَحلفُ أَحدُكم بالظن، ولكنْ يعاقبُكم بِمَا كسبتْ قلوبُكم، أَى اقترفتْه من إثْمِ القصْدِ إلى الكذب فى اليمين، وهو أَن يحلفَ على ما يعلمُ أنه خلافُ ما يقولُه، وهى اليمينُ الغَمُوس.. والْمعنى (لا يُؤاخِذُكم) أى لا يُلْزِمُكُمْ الكفارةَ بِلغْو اليمينِ الذى لا قصدَ معه، ولكن يُلْزِمُكُمْ الكفارةَ بِما كسبتْ قلوبُكم، أَى بِمَا نَوَت قلوبُكم وقصدتْ من الأَيمان، ولم يكن كَسْبَ اللسانِ وحده، وتِلك هى اليمينُ

الْمُنعقِدةُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] حيث لم يؤاخذكم باللغو فى أَيْمانكم؛ فضلًا منه سبحانه وإحسانًا ورحمةً بعباده.

أيها الْمُؤمنون:

إن المسلمَ إذا حلفَ فلا يحلِفُ إلا باسم من أسْماءِ اللهِ تعالى أو بصفةٍ من صفاتِه، ولا يحلفُ إلا وهو صادقٌ، ولا يحلفُ إلا عند الحاجةِ الْمُلجئةِ لِلْحَلِفِ؛ لإظهار حقٍّ، أو دَفْعِ تُهمَةٍ وظلمٍ وإبطالِ باطِل، ولْيَحْذَر التاجرُ الْمسلمُ الحلفَ فى البيع والشراءِ؛ لأن كثرةَ الحلفِ تُفْقِدُ الثقةَ، والله أمرنا بأن نحفظَ أيْمانَنا.

فاتقوا الله فى الأيمان، وراقِبوه فى أقوالكم، واخْشَوْه فى كل شؤونكم وتوبوا إليه لعلَّه يَرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: سمِعَ رسولُ الله ﷺ عُمَرَ رضي الله عنه يحلِفُ بأبيه، فقال: «إن الله ينهَاكُمْ أن تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ، فَمَن كان حالفًا فَلْيَحْلِفْ بالله أو ليصْمِتْ». [متفق عليه]. وأمر رسولُ الله ﷺ المسلمين أن يقولوا: «وربِّ الكعبةِ» إذا أرادوا أن يَحلفوا ولا يقولوا: «والكعبةِ».

وعن أبى أُمَامة إياسِ بنِ ثعلبةَ الحارثى رضي الله عنه: قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن اقْتطَعَ حقَّ امرئٍ مُسلم بيمينه، فقد أوجَب اللهُ له النَّارَ وحَرَّم اللهُ عليه الجنَّةَ» قالوا: ولو شيئًا يسيرًا يا رسولَ الله قال: «وإنْ كان قَضيبًا مِنْ أرَاك». [أخرجه مسلم].

إن الحلفَ تعظيمٌ وتقديسٌ، والتعظيمُ والتقديسُ لله وحده، وإن الحلِفَ مع تعمُّدِ الحالِف الكذبَ إثْمُه عظيمٌ، وعلى صاحبه أن يتوبَ إلى الله توبةً نَصوحًا نادمًا على ما كان منه، وهذِه هى اليمينُ الغَموس، أما إذا حلَف الْمسلمُ على

أَمر مباحٍ يُريدُ عملَه في الْمستقبلِ العاجلِ أَو الآجلِ، ثم لَمْ يعملْه أَو على شيء أَنه لا يفعلُه، ثم فَعلَه فهذه هي اليمينُ المنعقِدةُ، وفيها الكفارةُ عند عدم الوفاءِ بِمَا حلَف عليه بإطعام عشرةِ مساكينَ، أَو كِسْوتِهم أو تحريرِ رَقبةٍ، فمن لَم يجدْ صام ثلاثةَ أَيام.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة].

ومن فضلِ اللهِ علينا أَن تجاوز لنا عن الأَيْمان التي تجرى على اللسان بدون قصدٍ، ولا نيةٍ، ولا يُرادُ منها عزمُ الشخصِ على فِعْلِ شيء أو تَركِه، كما رَحِمنا بعدم الْمؤاخَذةِ على اليمين يَحلفُها الْمُسلمُ مُعتقِدًا صِدْقَ نفسِه ثم يتبيَّنُ له أنه كان ناسيًا، وهذه هي اليمينُ اللَّغو.

وإن الإنسانَ إذا أَكثر الحلِفَ قلَّت مهابتُه، وكثُر حِنثُه، واتُّهم بالكذب، وانعدمت ثقةُ الناسِ به، وفاته ما يريدُ من قبول قولِه وتصديقِه، قال بعضُ الْمُفسِّرين: من مَذامِّ كثرةِ الحلفِ أَنه يُقلل ثقةَ الإنسانِ بنفسه وثقةَ الناس به فهو يشعرُ بأَنه لا يُصَدَّقُ فيحلفُ، ولهذا وصَفه الله تعالى بالْمَهِين، وكثيرًا ما يُعَرِّضُ الحلافُ نفسَه للخطإِ إذا حلف على المستقبل، ثم إنه لا يكون إلا قليلَ الخشيةِ والتعظيم لله تعالى، لا يُهِمُّه إلا أن يُرضِي الناسَ ويكونَ موثوقًا به عندهم.

فعلى أهل الصلاح والخشية أن يلتزموا الصدق والأمانة وأن يعظموا أسماء الله وصفاته.

❊ ❊ ❊

١٠ - مَنْ أولياءُ الله؟

أمَّا بعدُ: فقد قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

أيها الْمُؤمنون:

يُخبِرُ اللهُ عز وجل أَنَّ أولياءَه هم الذين آمنوا، وكانوا يتقون، فكلُّ مَنْ كان تقيًا كان لله وليًا.

كلُّ مَنْ آمن بالله وأَطاعَهُ وَوالَاهُ، فأَحبَّ ما يُحبُّه الله، وأَبغض ما يُبْغِضُه اللهُ، وائْتَمَرَ لِمَا أَمر به، وانتهى عمَّا نهى عنه، ورَضِي بِمَا يَرْضَى، وأَعطى مَنْ يُحِبُّ أَن يُعطَى، ومَنع من يُحب أَن يُمنَعَ، فهو وليٌّ لله، ومَن كان كذلك فإن الله يتولَّى حِفظَه ورعايتَه ويواليه بإحسانه، فهو سبحانه: ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

واللهُ عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة].

فالناسُ إِمَّا أَولياءُ لله عزَّ وجل يُواليهم بإحسانه، ويُنيرُ بصائرَهُمْ بالحقِّ، وإِمَّا أَولياءُ للطاغوت [الشيطان] يَصدُّهم عن الهدى، ويُورِدُهم مَوارِدَ الرَّدَى، وإذا كان أَولياءُ اللهِ هم الْمُؤمنين الصالحين الأَتقياء، فإنه تبعًا لذلك تتفاوتُ درجاتُهم، فمَنْ كان أَكملَ إيمانًا وأَشدَّ تَقْوى كان أَكملَ وَلايةً، وذلك أَن الناسَ يتفاضلون فى وَلاية الله عز وجل، بحسب تفاضُلِهم فى التقوى والإيمان، ولذا فإن أَفضلَ أَولياءِ اللهِ، هم أَنبياؤُه، وأَفضلَ أنبيائِه الْمُرسَلون منهم، وأَفضلَ الْمرسَلين أَولو العزم: نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُه، وإن أَفضلَ أُولى العزمِ محمدٌ ﷺ، فهو سيدُ

الأولياءِ، وإمامُ الأنبياءِ، جاء فى الترمذى رواية أنس: «وأنا أكرمُ وُلْدِ آدمَ على ربِّى»، وقال: «أنا سيدُ وُلْدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ». وفضائله وفضائلُ أُمَّتِه ﷺ كثيرة. [الوفا بأحوال الْمُصطفى عن أبى سعيد وعند مسلم عن أبى هريرة].

وأَولياءُ الله يُوجَدون فى جميع مَنْ آمنَ بالنبىِّ محمد ﷺ وأَطاع الله ورسولَه، ولَم يكنْ من أَهل البِدَعِ الظاهرةِ والفجورِ؛ فالأولياءُ يُوجَدون بين أَهل القرآن، وأهلِ العلمِ، وفى أَهلِ الجهاد، كما يُوجدون فى التجارِ والصُّناعِ والزُّراعِ، وغيرِ هؤلاء من كلِّ مَن استقام واعتدلَ على طاعة الله: عَقْدًا، وقَوْلًا، وفِعْلًا، ودَاوَمَ على ذلك حتى يأْتِيَهُ اليقينُ، قال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

فالأتقياءُ الصالحون أولياءُ الله، لا يحزنون على ما خلَّفوا وراءَهم فى الدنيا، ولا يخافون مِمّا يَستقبلون من أَهوال الآخرة إذ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس: ٦٤] فالولىُّ عند موته يقول له مَلَكُ الْموت: «السلامُ عليك يا ولىَّ الله، الله يُقرِئُكَ السلام» إنها تحيةٌ مباركَة تملأُ القلبَ أَمنًا وسرورًا، يقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل].

وفى حديثِ البراء فى مسند الإمام أحمد: «إن الْمُؤمنَ إذا حضره الْموتُ جاءَه ملائكةٌ بِيضُ الوجوهِ بيضُ الثيابِ، فقالوا: اخرجى أَيتُها الروحُ الطيبةُ إلى رَوْحٍ وَرَيْحَان وربٌّ غيرِ غَضبان، فتخرجَ من فمِه كما تَسيلُ القطْرةُ من فَم السقاءِ».

ومن بُشْراهم فى الآخرة كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

يا أهلَ الإيمان:

ومن أماراتِ أَولياءِ اللهِ أَنهم يَسْتدِيمُون الخوفَ من الله، والخشيةَ من غضبه وانتقامِهِ، إلى أن تتنزلَ عليهم الْملائكةُ لتبشرَهم، وتُلقِىَ عليهم السلام.

وإِنَّ الَّذين بُشِّروا بالجنةِ من أَصحاب رسولِ الله لَم يَزُلْ خَوْفُهم بسببِ هذه البشرى، بل كانوا أَكثرَ تعظيمًا لله عز وجل، وأَشَدَّ خوفًا وهيبةً.

والولىُّ - أيضًا - تُذَكِّر بالله رؤيتُه، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسولَ الله، مَنْ أَولياءُ الله؟ قال: «الذين إذا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ»

[أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وقال البزار وقد رُوى عن سعيد بن جبير مُرْسَلًا].

وفى رواية عن عمَر رضي الله عنه : «الذين يُذْكَرُ اللهُ برؤيتهم».

والولىُّ يؤدِّى فرائضَ الله؛ لأَنها أَحبُّ الأَعمالِ إلى الله، ويدخلُ فيها الفرائضُ الظاهِرةُ والفرائضُ الباطنةُ؛ أَما الظاهرةُ: فهى ما أُمِرَ العبدُ بفعله كأَداءِ الصلواتِ الْمكتوبات، وإِخراجِ الزكاةِ، وصومِ رمضانَ، وحجِّ البيتِ مَنْ استطاع إليه سبيلًا، وكذلك ما أُمِرَ العبدُ بتركه؛ كتركِ السرِقَةِ، والزِّنَى وشُربِ الخمرِ، والنَّميمةِ والْغِيبةِ، وتركِ كلِّ ما حرَّمه اللهُ على عباده، ونهى عنه.

أَمَّا الفرائضُ الباطنةُ: فهى الْمتصلةُ بالعقيدة كالعِلْم بالله، والتوكُّلِ عليه وتوحيدِه والإِيمانِ بكلِّ ما أَخبر به فى كُتبه وعلى أَلسنةِ رسلهِ.. فكلُّ مَنْ صَحَّتْ عقيدتُه، وطَهُرَ باطنُه وظاهِرُه، واستقام على أَمر الله، فهو ولىٌّ لله على تفاوتٍ فى درجات الأَولياءِ تَبعًا لتفاوتِ درجاتِهم فى التقوى ومنازِلهم فى الإِيمان، وفى حديث أَبى أمامةَ عند الطبرانى أن الله عز وجل يقول فى الحديث القدسىّ: «ابنَ آدمَ، إنك لن تُدْرِكَ ما عندى إلا بأداءِ ما افْتَرَضْتُ

عليك. . » الحديث.

أيها المُؤمنون:

إن أَولياءَ الله الْمتقين هم المقتدون برسولِ الله ﷺ، فيفعلون ما أَمر به وينتهُون عمَّا نَهَى عنه وزجر، ويتَّبعون سُنَّته، ولا يخرجونَ على شريعته فيؤيِّدهم اللهُ بملائكتِه وروحٍ منه، ويُنير قلوبَهم بهدايتِهِ، ولهم الكراماتُ التى يُكرِم الله بها أَولياءَه الْمتقين وخيارَ أَولياءِ الله، وهذه الكراماتُ إنّما تحصل بِبَركةِ اتِّباعِ النبىّ الْمصطفى ﷺ، وبهذا يكونون من أَهل النعيم.

عن تَمِيم الدارىّ عن النبى ﷺ قال: «يقول اللهُ لِمَلَك الْموتِ: انْطَلِقْ إلى وَلِيِّى فلان فأْتِنى به، فإنِّى قد جرَّبتُه بالسَّراءِ والضَّراءِ فوَجدتُه حيثُ أُحِبُّ، ائتِنى به فلأُريحنَّه».

فطُوبى لَمن سَلك طَريقَ التُّقى والهُدى، وأَقامَ الفرَائضَ، واجتهد فى سائر الطاعات، وداوَم على الإخلاص ليكونَ ذا منزلةٍ بين أَولياء الله الصالحين.

واتقوا الله، وتوبوا إليه - عبادَ الله - فالتائبُ النادمُ كمن لا ذنبَ له.

* * *

للخطبة الثانية:

قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: مَن عَادَى لى وليًّا فقد آذنْتُه بالحرب، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أَحبَّ إلىَّ مِمَّا افترضتُ عليه».

فإذا أَراد العبدُ أَن يترقَّى فى منازلِ الصالحين، ويصعدَ فى مدارجِ الوَلايةِ فعليه أَن يُداوِمَ على أَداءِ الفرائضِ أولًا، وأَن يُكْثِرَ من النوافِل ثانيًا، فإذا فعل مع الإخلاص والرغبةِ فيما عند الله تولَّى اللهُ أَمرَه، ظاهِرَه وباطِنَه، وكفَّ حواسَّه عن الشرور والمعاصى.

ففى الحديث القدسىّ: «وما يزالُ عبدى يَتقرَّبُ إلىَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذى يَسْمعُ به، وبَصرَه الذى يُبْصِر به، ويَدَه التى يَبْطِشُ بها، ورِجْلَه التى يَمْشى عليها، ولئن سألنى لأُعْطِيَنَّه، ولئن استعاذَنِى لأُعيذنَّه».

[أخرجه البخارى والراوى أبو هريرة].

أى: تصيرُ حواسُّه منقادةً لأمرِ الله خَيِّرةً دائمًا بتوفيقٍ من الله وفَضْل.

فإذا وصل العبدُ إلى هذه المنزلةِ كان الْمُعادِى له مُعاديًا لله عز وجل، ومن عاداه فقد حاربَه.

وفى الحديث القدسى: «فَبِى يَسْمَعُ، وَبى يُبْصِرُ، وَبِى يَبْطِشُ، وبِى يَمْشِى» وفى حديث قُدسىّ: «إنِّى لأثأر لأولِيَائِى كَما يَثْأَرُ اللَّيثُ الحَرِب».

وإن الْمُؤمنَ التقىّ يُحِبُّ أَهلَ التَّقوى والصلاح، ويُؤاخِيهم لله، وفى هؤلاء يقول النبىُّ ﷺ: «إنَّ من عبادِ الله عبادًا ما همْ بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامة؛ لِمكَانهم من الله تعالى»، قيل: يا رسولَ الله، خَبِّرنا مَنْ هم؟ وما أَعمالُهم فلعلَّنا نُحِبُّهم؟ قال: «هم قَومٌ تَحَابُّوا فى الله على غيرِ أرحامٍ بينهم، ولا أَموالٍ يَتعاطَوْنها، فو اللهِ إن وجوهَهُم لنورٌ، وإنهم على منابرَ من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يَحزنون إذا حزِن الناس، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾».

[أخرجه النسائى وابنُ حبان والراوى أبو هريرة وقد جاء عند أبى داود عن عمر].

* * *

للدرس:

اللهُم اجعَلنا منهم

من حديث البراء بن عازب فى مسند الإمام أحمد جاء من حديث قدسيّ عن حال الْمُؤمن الناجى الذى وَالَى طاعةَ الله فى الدنيا وما يكون من شأنه فى القبر: «فيأتيه مَلَكَان، فيُجلسانه، فيقولان له: «مَن رُبك؟» فيقول: «ربِّى الله» فيقولان له: «ما دينُك؟» فيقول: «دِينى الإسلامُ» فيقولان له: «وما عِلمُك؟» فيقول: قرأتُ كتابَ اللهِ، فآمنتُ به، وصدَّقتُ، فيُنادى مُنادٍ من السماء: «أن صَدَق عبدى، فأفْرِشُوه من الجنَّة، وألبسُوه من الجنّة، وافتحُوا له بابًا إلى الجنَّة» فَيأتيه مِن رَوْحِها وَطِيبِهَا، ويُفْسَحُ له فى قبره مَدَّ بَصَرِه.

قال عليه السلام: ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجْهِ، حَسَنُ الثيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبْشِرْ بالذى يَسرُّك، هذا يومك الذى كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ له: مَنْ أنت؟ فوجْهُك الوجْهُ يجىء بالخير، فيقول: أنا عملُكَ الصالحُ، فيقول: ربِّ أَقِم الساعةَ، رَبِّ أَقم الساعةَ، حتى أرجِعَ إلى أهلى ومالى».

أى يقول ذلك فرحًا بما أُعِدَّ له فى جنات النعيم.

جعلنا الله منهم ووقَانا مصيرَ الأشقياءِ أصحابِ النفوسِ الخبيثة، وحَشَرنا فى زمرة أوليائِه وأحبابِه، آمين.

قال ابن مسعود: قال لى رسولُ الله ﷺ: «يا عبدَ الله بنَ مسعود، أتدرى أىُّ عُرَى الإسلامِ أَوْثَقُ؟» قلتُ: اللهُ ورسولهُ أعلمُ قال: «الوَلايةُ فى الله عز وجل، والحبُّ فيه، والبُغْضُ فيه».

[الاستذكار لابن عبد البر نقلًا عن التمهيد].

* * *

١١ - منزلةُ السُّنَّةِ النبويَّةِ من القرآنِ الكريم(١)

أما بعد . . . فيا أيها الْمُؤمنون:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: ٦٣].

أيها الْمُؤمنون:

إن هذه الآياتِ دلتْ على وجوبِ اتِّباع أَمرِ النبيِّ محمدٍ ﷺ والأَخْذِ عنه وعلى لزومِ طاعتهِ، والانقيادِ لكلِّ ما جاءَ به، فلا يَسَعُ أحدًا ردُّ أَمرهِ لفرضِ الله طاعتَه.

وقد قرن اللهُ طاعتَه بطاعةِ نبيِّه فى آياتٍ كثيرةٍ، وجعل طاعَتَهُما سببًا للنجاة والفوزِ برِضْوانِ الله، والإعراضَ عنهما سببًا للعذاب والهلاك.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

ذكر ابنُ عبدِ البر فى كتابٍ له عن عبد الرحمن بنِ زيد: أَنه رأَى مُحْرِمًا عليه ثيابُه، فَنهَى الْمحرمَ، فقال: ائتنى بآية من كتاب اللهِ تَنْزِعُ ثِيابى - أَى تأْمرُ بأَن يَنزِعَ الرجلُ الْمُحرِمُ الْمَخِيطَ - قال: فقرأَ عليه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

أيها الْمُؤمنون:

إن تشريعَ الرسولِ ﷺ بِوَحْيٍ وإِن لَم ينزلْ قرآن. . فقد روى أبو داودَ عن

---

(١) مختار من كتاب «مع القرآن الكريم» للمؤلف بشيء من التصرّف.

الْمِقدام بنِ معد يكربَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَلَا وإنى أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه، أَلا يُوشكُ رجلٌ شبعان على أَريكةٍ يقول: عليكُمْ بهذا القرآنِ، فما وجدتُم فيه من حلالٍ فأَحِلُّوه، وما وجدتُم فيه من حرام فحَرِّموه، ألا لا يَحِلُّ لكم الحمارُ الأَهليُّ، ولا كلُّ ذى نابٍ من السِّباع، ولا لُقَطةُ مُعاهدٍ، إلا أَن يَستغنِى عنها صاحبُها، ومَن نَزل بقوم فعليهم أَن يُقْروه، فإن لَم يُقْروه فله أَن يُعْقِبَهُمْ بمثل قِراه».

فقولُه ﷺ: أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه، معناه أَنه أُوتى من الوحْى الباطنِ غيرِ المتلوِّ مثلَ ما أُعطِى من الظاهر الْمتلُوِّ.

وأَنه أُوتِى الكتابَ وحيًا يُتْلى، وأُوتِى من البيانِ مِثلَهُ، أَى أُذِن له أَن يُبينَ ما فى الكتاب، فيعُمَّ ويَخصَّ ويزيدَ عليه، ويشرعَ ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العملِ به ولزومِ قبولِه كالظاهرِ الْمتلوِّ من القرآن.

وقوله: «يُوشِكُ رجلٌ شبعان» الحديث، يُحذِّر بهذا القولِ من مخالفةِ السُّنَنِ التى سَنَّهَا، مِمَّا ليس له فى القرآنِ ذِكر.

[والأَريكة: السرير] وأَراد أَصحابَ الترفُّهِ والدَّعَة، الذين لَزِموا البيوتَ ولَم يطلبوا العلمَ من مَظَانِّه. وقوله: «فله أَن يُعقِبَهُمْ[1] بِمثل قِرَاه[2]»: هذا فى حالِ الْمُضطَّرِّ الذى لا يجدُ طعامًا، ويخافُ التلفَ على نفسِه، فله أَن يأْخُذَ من مالهم بقدرِ قِراه - أَى ما يكفى طعامه وسدَّ جُوعه - عِوضَ ما حَرَمُوه، أَى من الطعام يقدِّمُونه له.

وفى هذا الحديثِ دلالةٌ على أَنه لا حاجةَ بالحديثِ إلى أَن يُعْرَض على الكتاب، فإنه مهما ثَبتَ عن رسول الله ﷺ كان حُجَّةً بنفسه.

---

(١) يُعقبهم: من الْمعاقبة ويُروى مُخففًا ومُشددًا.
(٢) القِرى: بكسر القاف ما يُقدم للضيف.

وفى هذا الحديث أيضًا حرَّم ﷺ الحمارَ الأهليَّ وكلَّ ذى نابٍ من السِّباع ولُقَطَةَ المعاهدِ إذا لَم يستغن عنها، ولَم يَرِدْ لذلك نصٌّ صريحٌ فى القرآن. وقال رسول الله ﷺ يُحذِّر الْمُعْرِضين عن سُنته: «يوشكُ أن يقْعدَ الرجلُ على أريكته يُحدِّثُ بحديثى فيقول: بينى وبينكم كتابُ الله، فما وجدنا فيه حلالًا استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرَّمناه، ألَا وإن ما حرَّم رسولُ الله ﷺ مثل ماحرَّم الله». قال البيهقىُّ: وهذا خَبَرٌ من رسولِ الله ﷺ عَمَّا يكونُ بعده من ردِّ المبتدعةِ حديثَه، فوُجدَ تصديقُه فيما بعده.

ومن الآيات السابقةِ وغيرِها ومن الحديثين السابقين يتضحُ لنا: أن المسلمَ لا يستطيعُ أن يعبدَ اللهَ حقَّ عبادتِه، وأن يؤدِّى فرائضَه على الوجه الذى طلبه الله من عباده إلا إذا عَمِل بالسنَّةِ النبوية.

إن الذين تعلَّقوا بظاهر القرآن الكريم - قديمًا وحديثًا - وتركوا السنةَ التى قد ضُمِّنَتْ بيانَ الكتابِ ضالُّون مُضِلُّون، وليسوا على طريق الإسلامِ، وإن ماتوا على إنكارهم السنةَ الصحيحةَ، ماتوا على الكفر والعياذُ بالله.

أَخرج البيهقىُّ بسنده عن شبيب بنِ أبى فضالة الْمكِّى: أن عمرانَ ابنَ حُصَين رضي الله عنه ذكر الشفاعةَ، فقالَ رجلٌ من القوم: يا أبا جنيد إنكم تُحدِّثُونَنا بأَحاديثَ لَم نجدْ لها أَصلًا فى القرآن، فغضِبَ عمرانُ وقال للرجل: «قرأْتَ القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدتَ فيه صلاةَ العِشاءِ أَربعًا، ووجدتَ الْمغربَ ثلاثًا، والغداةَ ركعتين، والظهرَ أَربعًا، والعصرَ أَربعًا؟ قال الرجل: لا. قال عمران: فعن مَن أَخذتم ذلك؟ ألستم عنَّا أَخذْتُموه[1] وأَخذناه عن رسول الله ﷺ؟ أَوجدتم فى القرآن من كل أَربعين شاةً شاةٌ، وفى كُلِّ كذا بعيرًا

---

(١) أى عن الصحابة لِمن بعدهم لأن الصحابة واسطة بين النبى ﷺ ومن جاءوا بعدهم من التابعين.

كذا، وفى كل كذا درهمًا كذا؟. قال الرجل: لا، قال: فعن من أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتُموه وأخذناه عن النبى ﷺ؟. وقال: وجدتم فى القرآن ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، أوجدتم فيه: «فطوفوا سبعًا واركعوا ركعتين خَلْفَ الْمَقَام»؟ ثمّ قال عمران: أما سَمِعتُم الله قال فى كتابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا۟﴾». [الحشر: ٧].

أيها الْمُؤمنون:

إن البيان من النبىّ ﷺ لِما جاء فى القرآن الكريم يقعُ على ضربين وهما:

بيانٌ لِمُجْمَلٍ فى الكتاب الحكيم؛ كبيانه للصلواتِ الخمسِ فى مواقيتها وسجودِها وركوعِها وسائرِ أحكامها.

عن حسان بنِ عطيةَ قال: كان جبريلُ عليه السلام ينزلُ على رسولِ الله ﷺ بالسنة، كما ينزلُ عليه بالقرآن، يُعلِّمه إياها كما يعلِّمه القرآن.

وقال الإمامُ أحمدُ: «إن السنةَ تُفسِّرُ الكتابَ وتُبيِّنُه».

وبيانٌ آخرُ وهو زيادةٌ على حُكمِ الكتابِ كتحريم نِكاحِ المرأةِ على عمَّتِها وخالتِها، وتحريم الحُمُر الأهليَّةِ وكلِّ ذى نابٍ من السباع، والقضاءِ باليمين مع الشاهدِ، وغيرِ ذلك.

قال الإمامُ الشافعىُّ: «فَرض اللهُ على الناس اتباعَ وَحْيه وسننِ رسولِهِ فقال فى كتابه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران] مع آيِ سِواها ذَكَر فيهنّ الكتابَ والحكمةَ.

قال: فَذَكَرَ الله الكتابَ وهو القرآن، وذَكَرَ الحكمةَ فسمعتُ مَنْ أَرضاه من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمةُ سنةُ النبىّ ﷺ».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ يعنى اختلفتم فى شَىء ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يعنى - والله تعالى أعلم - إلى ما قاله الله والرسول. قال الشافعىُّ: فأَعْلَمَهُمْ أن طاعةَ رسولِ الله ﷺ طاعتُه، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء].

وإن ما رواه بعضُهم من أن النبىَّ ﷺ قال: «إذا جاءَكم الحديثُ فاعرِضوه على كتابِ الله، فإن وافَقه فخُذوه، «وإن لَم يوافقْه فاتركوه» باطلٌ لا أَصلَ له، فهو حديثٌ موضوعٌ. قال البيهقىُّ: إن هذا الحديثَ ينعكس على نفسه بالبُطلان، فليس فى القرآن دلالةٌ على عَرْضِ الحديثِ على القرآن».

وقد أَلزمَنا الله عز وجل بالعمل بالكتاب والسنةِ معًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمد].

وعن المُطلب بنِ حنطب أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما تركتُ شيئًا مِما أَمركم اللهُ به إلا وقد أَمرتُكم به، ولا تركتُ شيئًا مِما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتُكم عنه».

فاتقوا الله - عبادَ الله - واستغفروه يغفرْ لكم، وتوبوا إليه لعلكم تُرحمون.

* * *

للخطبة الثانية:

إن طاعةَ رسولِ الله ﷺ طاعةٌ لله، يقول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وأخرج البخاريُ عن أَبى هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «كلُّ أُمتى يدخلون الجنةَ إلا مَنْ أَبى»، قالوا: يا رسولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبى؟ قال: «مَنْ أَطاعَنى دخلَ الجنةَ ومَنْ عصانى فقد أَبَى».

وإن السنةَ - يا عبادَ الله - مع الكتاب أُقيمتْ مَقامَ البيانِ عن الله، فهى مُبَيِّنَةٌ لأحكامه ومُفصِّلةٌ لِمُجْمَلاته، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وإن العملَ بالسنة النبويةِ فرضٌ لازم.

قال الإمام أَحمدُ بنُ حَنْبَل: السنةُ عندنا آثارُ رسولِ الله ﷺ، والسنةُ تُفسِّرُ القرآن، وهى دلائلُ القرآن.

ورَوى ابنُ عباس أَن رسولَ الله ﷺ خَطب الناسَ فى حَجَّة الوداع فقال: «إِنى قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضلُّوا أَبدًا، أَمرين اثنين: كتابَ اللهِ وسنةَ نبيِّكم، أَيها الناسُ، اسْمَعُوا ما أَقولُ لكم تَعيشوا به».

وهذا الحديثُ ورد بعبارات متعدِّدةٍ، وكلُّها تحضُّ الْمسلمين على التمسُّك بالكتاب والسنة.

وعن أَنس بنِ مالك أَن رسول الله ﷺ قال: «من أَحيا سُنَّتى فقد أَحبَّنى، ومن أَحبَّنى كان معى فى الجنة».

* * *

١٢ - الحياء لا يأتى إلا بخير

الحمدُ لله، نستعينُه، ونستهديه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أَنفسنا، ومن سيئات أَعمالِنا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضللْ فلا هادِىَ له، ونُصلِّى ونُسلِّم على رسولِ الهدى والحقِّ محمدِ بنِ عبدِ الله وعلى آله وأَصحابهِ الأَطهارِ الأَبرار.

أما بعد:

ففى الصحيحين عن أَبى هريرةَ ﷺ، عن النَّبى ﷺ أنه قال: «الإيمانُ بِضعٌ وستون - أَوبِضع وسبعون - شُعبةً، أَعلاها قولُ لَا إله إِلَّا اللهُ، وأَدناها إماطةُ الأَذى عن الطريق، والحَياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان».

أيها الإخوةُ الْمُؤمنون:

جاءَ الإسلامُ بعقائدَ وخِصالٍ، هى أَركانٌ لبناءِ الأُمة، وأُسسٌ لسعادتِها وعمادٌ مُحْكَمٌ لبناءِ مدنيتِها الصحيحةِ.. وفى كل فضيلة، وفى كلِّ خَصلةٍ من الخصال التى جاءَنا بِها هذا الدينُ الحنيفُ باعثٌ للأُمة على استكمالِ مُقوِّماتِ حياتِهَا الراقية، وَمُحَرِّكٌ للهممِ إلى إسعادها.

ومن الخصال الجليلةِ التى حثَّ عليها الإسلامُ خَلَّةُ الحياءِ، وهو تأَثرُ النفسِ وانفعالُها من كل ما يَعِيبُه الدينُ، أَوْ لا يَرضى عنه ذوقُ الْمُؤمنين الصادقين الذين يخشَوْن الله، ويرجون رحمتَه.

وفى الحديث المتفق عليه ورواه عمرانُ بنُ حُصَين ﷺ: «الحياءُ لا يأَتى إلا بخير» لأن مَنْ كان الحياءُ له زِينةٌ فإنه يرتدعُ عن القبيح، ويمتنعُ عن مجاوزةِ الحدودِ التى رسَمها له الدينُ، ويعودُ دائمًا إلى الحق والعدل والإنصاف.. فكأَن الحياءَ لصاحبِه رقيبٌ على أَفعاله، وحاجزٌ يردُّه عن الآثام يردُّه عن الفسوق والعصيان، لذا كان الحياءُ من أَجلِّ الأَخلاقِ التى يمنحُها الله عبدَه،

ويَجبِلُه عليها.

فصاحبُ الحياءِ يتحلّى بالفضائل، ويتخلّى عن الرذائل، صاحبُ الحياءِ لا يجورُ ولا يفسُقُ، ولا يُؤذى أَحدًا بيدٍ أَوْ بلسان، يخجلُ ويستحْيى من إغضابِ الله عز وجل، ولا يَرْتكب ما يُغْضِبُ الرحمنَ، ثم هو يَخْجَلُ من الناس.. ويذوبُ خَجَلًا من نفسه إذا حدَّثتْهُ بكسرِ حِجابِ الفضيلة، وَوُلوجِ بابِ الرذيلة، صاحبُ الحياءِ يراقبُ الله دائمًا، ويحاسبُ نفسَه.

وقيل فى بيان معنى الحياء كذلك: الحياءُ وَسَطٌ بين الخَجَلِ والوقاحة.. أَمَّا الخجلُ فهو حَيْرَةُ النفسِ لفرْطِ الحياءِ، ويُحْمَد الخَجَلُ فى النِّسَاءِ والصبيان، ويُذَمُّ فى الرجال.. وأَما الوقاحةُ فهى مذمومةٌ بكلِّ إنسان - رجلًا كانَ أَو امرأَة - إذ الوقاحةُ انسلاخٌ من الإنسانيةِ، وحقيقتُها لَجَاجُ النفسِ - أى تَماديها - فى تعاطى ما يُغضب الله.

وقال الْماورديُّ: «الحياءُ فى الإنسان ثلاثةُ أَوْجُه، أحدُها: حياؤُه من الله تعالى، والثانى: حياؤُه من الناس، والثالث: حياؤُه من نفسه».

فأَمّا حياءُ الإنسانِ من الله، فيكون بامتِثال أَوامرِه، والكفُّ عن زواجرِه وهذا يكونُ من صحةِ الدين، وقوةِ اليقين.

وقد روُى عن النبىِّ ﷺ أَنه قال: «اسْتَحْيُوا من الله عزَّ وجل حقَّ الحياءِ» فقيل: يا رسولَ الله: إنا لنستحْيى من الله، والحمدُ لله، قال: «ليس كذلك، ولكنْ الاستحياءُ من الله حقَّ الحياءِ: أَن تحفظَ الرأْسَ وما وعَى[1] وتحفظَ البطنَ وما حَوَى[2]، وَلْتذْكرِ الْموتَ والبِلَى، وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ ترك زينةَ الحياةِ

(١) ماوعى الرأس: السمع والبصر واللسان.

(٢) ماحوى البطن: المأكول والمشروب، أى طلب الحلال من الرزق واستعمال جوارح الإنسان فى طاعة الله.

الدُّنيا، وآثَرَ الآخِرَةَ على الأُولى، فَمَنْ فعل ذلك، فقد استحْيا من اللهِ حقَّ الحياء». [أخرجه الترمذى والراوى عبد الله بن مسعود والطبرانى عن عائشة].

فصاحبُ الحياءِ يكونُ دائمًا على خشيةٍ من الله عزَّ وجل، فهو يُؤمن بالحقِّ، ويتَّبِعُه، ويُنكرُ الباطلَ وينبذُهُ، ويأنفُ من تعاطى الْمنكرَاتِ، ويَغارُ على الحقوق، ويصونُ الحُرُمَاتِ.

والإنسانُ الصدوقُ حَيِىٌّ، والعفيفُ حيِىٌّ، فالحياءُ كُلُّه خيرٌ، وثَمراتُه الطيبةُ تعودُ على الفردِ وعلى الجماعةِ بكلِّ خير.

قال الرسولُ الهادى ﷺ: «الحياءُ والإيمانُ قُرِنَاءُ جميعًا، فإذا رُفِعَ أحَدُهما رُفِعَ الآخرُ». [أخرجه الحاكم والراوى ابن عمر وقال صحيح على شرط الشيخين].

وأَمَّا حياءُ الإنسانِ من الناس فيكونُ بكفِّ أَذاه عنهم، ورعايةِ حقوقِهم كما يكونُ بترك الْمُجَاهَرَةِ بالقَبيح ؛ فالْمرءُ إذا كَمُلت مروءَتُه استحيا من الناس، وحَسُنتْ سيرتُه فى الْمجتمع، وَوَثِقَ به الْمُحيطون به وأَحبُّوه.

ولقد أَكَّد الحبيبُ الهادى ﷺ قُبْحَ صنيع مَن يُجاهرُ بالْمعصية، ويُظْهِرُ على الملإِ عدمَ الْمبالاةِ، بقولٍ أو بفعلٍ مِمَّا لا يُرضى اللهَ عز وجل، مِنْ تلك الأَقوالِ والأفعالِ التى تُنافى كمالَ المروءَةِ وحُسْنَ الخلق. فقالَ ﷺ فى تقبيح ذلك كما فى الصحيحين من رواية أبى هريرة: «كُلُّ أُمَّتى مُعافًى إلَّا الْمُجاهرين، وإنَّ مِنَ الْمَجَانةِ أن يعملَ الرجلُ بالليل عملًا، ثم يُصْبحُ وقد سَتَرهُ الله فيقول: يا فلانُ عَمِلْتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد باتَ يستُره ربُّه، ويُصبحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عنه».

وأما حياءُ المرءِ من نفسِه - يا أهل الإيمان - فيكون بالعفةِ، وصيانةِ خَلَواتِه، وهذا قد يكونُ من فضيلةِ النفسِ، وحُسنِ السريرة، والشعورِ الدائمِ بأَن الله عزَّ وجل يعلمُ سرَّ العبدِ، وعلانيته، ولا

يَخفَى عليه سبحانه خافيةٌ.

فالحياءُ - يا أهل البصيرةِ والحِكمة - لا يَأتى إلا بخير، ويَصونُ المرءَ من كل شرٍّ، وقد قيل: متى كَمُل حياءُ الإنسانِ من وجوهه الثلاثة؛ أى حياؤُه من الله، وحياؤُه من الناس وحياؤُه من نفسه، فقد كَمُلت فيه أَسبابُ الخيرِ، وانتَفَتْ عنه أَسبابُ الشر وصار بالفضل مشهورًا، وبالجميل مذكورًا.

إنَّ فاقدَ الحياءِ يَموتُ فى نفسه الشعورُ بالخجل من فِعل الشرِّ ومن إتيانِ القبيح، ولذا تجدُه ساقطَ الهِمَّةِ، قليلَ المروءة، عيَّابًا فحَّاشًا، يتجنبُ أهلُ الخيرِ مخالطَتَهُ، ولا يرضَى ذو مروءةٍ معاشرتَه، ولا يُؤتَمنُ على عِرْضٍ أَو مالٍ أَو سِرٍّ، فهو بَغيضٌ إلى الله، بغيضٌ إلى الناس؛ لِما له من جُرأة على الْمعاصى. يقول الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ: «إن الله إذا أراد أن يُهْلِكَ عبدًا نَزَع منه الحياء، فإذا نُزِع منه الحياءُ لَم تُلْفِهِ إلَّا مَقِيتًا» أى لم تَجِدْه إلَّا بغيضًا مكروهًا. [أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر].

وإنَّ من أَماراتِ أَهلِ الصلاح أَنَّ الواحدَ منهم إذا عُرِضت عليه أَفعالُه التى يَهُمُّ بِفِعْلها، فإنه يجعلُ حياءَه حَكَمًا عليها، فإذا لَم يَرَ فِيها ما يُسْتحيا منه لحسْنها وجمالها، ولموافقتِها لِما يُرضى اللهَ، فإنه يُقْدِم عليها، وفى هذا الْمعنى جاءَ فى الحديث: «ما أحببتَ أن تسمعَه أُذناك فأْتِه، وما كرِهتَ أن تسمعَه أُذناك فاجْتَنِبْه». وسُئلَ حكيمٌ عن الْمروءَة فأَجاب: «أَلَّا تعملَ فى السرِّ شيئًا تَستحْيِى منه فى العلانية».

إن معرفَةَ الْمُؤمنِ بالله، ومعرفتَه بعظمته عزَّ وَجَلَّ، وبقُربه من عباده واطِّلاعِه عليهم، وعِلْمِهِ بخائنةِ الأَعين وما تُخفى الصدورُ، لَمِنْ أَعلى خِصال الإيمان؛ بل من أَعلى درجاتِ الإحسان، ذلك أَن زيادةَ العلمِ بالله وأن الشعورَ الدائمَ بِمراقبته سبحانه وتعالى، يجعلُ الْمُؤمنَ يَسْتَحْيِى أَن يراه ربُّه

حيث نهاه، ويخشى أن يُعَرِّضَ نفسَه لغضبِ الله، لذا فهو يُقْبِلُ على الخير ويَتزودُ بكلِّ ما هو جميلٌ ومحبوبٌ من الفضائلِ والآدابِ، ويُحِبُّ أن يراه ربُّه حيثُ أمره. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾. [الحج].

عن زيد بن طلحةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ دينٍ خُلُقًا، وَخُلُقَ الإسلامِ الحياءُ». [أخرجه مالك].

فاتقوا الله عبادَ الله، وتوبوا إليه إنه هو التواب الرحيم.

* * *

للخطبة الثانية:

إنَّ الحياءَ - يا أهلَ الإيمان - للإنسان بمثابة الماءِ للزرع، فكما أن الزرعَ إذا نال حاجته من الماءِ نما وصارت له نضارةٌ وبَهاء، فكذلك الْمُؤمنُ الحيِيُّ نرى في وجهه بهاءَ الخير، وسِماتِ الصلاح، ونلمحُ في أفعاله ما يدلُّ على نَماءِ الإيمان وقوةِ اليقينِ في قلبه، ولذا كان الْمُؤمنُ الحييُّ من أهل النعيمِ الأُخروي، أما أَهلُ الجراءة على القبيح الذين لا يَجدون من الحياءِ ما يزجرُهم عن ارتكاب الْمحظورِ فإِنَّهم أَهلُ البذاءِ، وهؤلاءِ يقول فيهم الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه أَبو هريرة رضي الله عنه: «الحياءُ من الإيمان، والإيمانُ في الجَنَّةِ، والبذاءُ من الجفاءِ، والجفاءُ في النار».

[أخرجه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

وفي الحديث الْمُتفق عليه ورواه ابنُ عمر: «الحياءُ من الإيمان».

عن معاذ بن جبل قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لكلِّ دِينٍ خُلُقٌ، وخُلُق

الإسلامِ الحياءُ، مَن لا حياءَ له لا دينَ له». [الموطأ].

إنَّ الحياءَ زينةُ أهلِ الإسلام، وهو شعبةٌ من الإيمان، إذ الإيمانُ والحياءُ سببانَ إلى فِعْل الخير، والكفُّ عن الشرِّ ؛ لأن الحياءَ مِثْلَ الإيمان يمنعُ من ارتكاب ما يُغضِبُ ربَّ العالمين.

قال الراغب: «الحياءُ انقباضُ النفسِ عن القبائح، وهو من خصائصِ الإنسان، وجعله اللهُ سبحانه فى الإنسان - أى سَجِيَّةً من سَجاياه - ليرتدعَ به عمَّا تَنْزِعُ إليه النفسُ من القبائح».

وعن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما كان الفُحْش فى شىء إلَّا شانَهُ، وما كان الحياءُ فى شىء إلا زانَه».

[أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال: حديث غريب].

ذلك أَن عدمَ حياءِ الْمرءِ يجرُّه إلى أن يُسايرَ هَواه، وإلى أن يقتحمَ حدودَ الله، وفى مثل هذا يقول النبىُّ ﷺ: «إن مِمَّا أدركَ الناسُ من كلامِ النبوَّةِ الأُولَى: يا بنَ آدمَ إذا لَم تستحى فاصْنَعْ ما شِئْتَ».

[أخرجه البخارى عن ابنِ مسعود].

* * *

فائدة «الدرس»:

جاء عند الترمذى وصححه من رواية عبد الله بن سلام رضي الله عنه : «يا أيها الناسُ، أَفشوا السلامَ، وصلوا الأرحامَ، وأَطْعِمُوا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناسُ نيامٌ تدخُلوا الْجنَّةَ بِسلام».

* * *

* * *

١٣ - الصلواتُ المكتوبات

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة].

يا عبادَ الله:

فى الآية الكريمَةِ السابقةِ، يأمر اللهُ عبادَه بإقامة الصلاة، وبإيتاءِ الزكاةِ والأمرُ معناه الوجوبُ، وإقامةُ الصلاةِ: أداؤها بأركانها، وسُننِها، وهيئاتِهَا فى أوقاتها، على النحوِ الذى بيَّنته سُنَّةُ النبىِّ الهادى ﷺ، والصلاةُ عِمادُ الدينِ الذى لا يقومُ إلا به، وهى من أعظم أركانِ الإسلام، مَن حافظ عليها فهو السعيدُ الرَّابح، ومن أضاعها فذلك الشقىُّ الخاسر.

قال رسول الله ﷺ: «رأسُ الأَمرِ الإسلامُ، وعمُودُه الصلاةُ، وذِروةُ سَنامِه الجهادُ فى سبيل الله». [الراوى معاذ بن جبل وأخرجه أحمدوالترمذى].

والصلاةُ نورٌ وبهاءٌ للعبد يومَ يَلْقى رَبَّه، عن أبى مالكٍ الأَشعرىِّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأُ الْمِيزانَ، وسبحانَ اللهِ، والحمدُ لله تَملآن - أَو تَملأُ - ما بين السماءِ والأَرض، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ بُرهان، والصبرُ ضِياء، والقرآنُ حُجَّةٌ لك أَو عليك». [أخرجه مسلم وغيره].

وقد فرض اللهُ عز وجل الصلاةَ على كلِّ مسلمٍ بالغٍ عاقل، وأَمرَنا سبحانه بالْمُحافظة عليها، وعدمِ التهاون بأَمرها، أَو التكاسلِ عن أَدائها أَو التفريط فيها.. فالْمُسلمُ مطالَبٌ بأَدائها ما دامت روحُه فى جسده؛ الصحيحُ والْمريضُ فى ذلك سواءٌ، وكذلك الْمُسالمُ، والْمُحارب، والْمُقيمُ والْمُسافر والرجلُ والمرأَةُ - إلا فى حَالَى حيضِ المرأَةِ ونفاسِها -.

فَطُوبى لِمَن أَدَّى الصلاة بِتَمامها وكمالِهَا وخشوعِها، وحافظ عليها حتى

يفارقَ الدنيا، والويلُ لِمَن فرَّط فيها، واستكبر عن أدائها، ثم خرج من الدنيا ولَم يسجُدْ لربِّ العالَمين، الويلُ له: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.
[القلم].

نعم.. إنهم لا يُدْعَوْن إلى السجود يومَ القيامة تعبُّدًا وتكليفًا، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجودَ في الدنيا، وهي دارُ الابتلاءِ والعمل فتخشعُ إذ ذاك أبصارُهم فلا تعودُ تُرفع، ويَغْشَى الذلُّ وجوهَهُم، ويذكرون أنَّهم: ﴿كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣] أي وهم أَصحاءُ قادرون فجحدوا، وأَبَوْا، واستكبروا، وكذَّبوا.

وقد صَرَّحت الأَحاديثُ الشريفةُ بكُفر تاركِ الصّلاةِ متعمدًا، تكاسلًا أَو تشاغُلًا عنها، وعدم مبالاةٍ بها، بتركُها بِمَا لا يُعَدُّ في الشرع عُذرًا، فعن جابر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بَيْنَ الرجلِ والكُفرِ تركُ الصلاةِ». [أخرجه مسلمٌ وأحمد]. وعن بريدة كما جاء عند أحمد وبعض كتب السنن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاةُ فمَن تَركَها فقد كَفر..»، ومن الأَحاديث المصرِّحةِ بأن تاركَ الصلاةِ عَمْدًا من غيرِ عذرٍ تَشتدُّ عُقوبتُه في الدنيا وفي الآخرة؛ ما رواه ابنُ عمرَ رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «أُمرتُ أَن أُقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إلهَ إلَّا الله وأَن محمدًا رسولُ الله، ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا منِّي دماءَهم وأَموالَهم إلا بحقِّ الإسلامِ وحسابُهم على الله عز وجل...».
[متفق عليه].

يا أهلَ الإيمَان:

هذه الأَحاديثُ الشريفةُ تدلُّ على عِظَم فضْلِ الصلاة، وعلى وجوب الْمحافظةِ عليها، وأَدائِها في أَوقاتها. وقد أَخبرنا الحبيبُ الهادي ﷺ أَنَّ من

حَافَظ على الصلاة، وأَدَّاها بتمامها وكمالها، مع الخشوع فيها، كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ يقوم الناسُ لرب العالَمين، فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبى ﷺ: أنه ذَكر الصلاةَ يومًا فقال: «مَنْ حَافظ عليها كانت له نُورًا، وبُرهانًا، ونَجَاةً يومَ القيامة، ومَنْ لَم يُحافظْ عليها، لَم يكن له نورٌ، ولا بُرهانٌ، ولا نَجاةٌ وكان يومَ القيامةِ مع قارونَ، وفرعونَ، وهامانَ، وأُبَىّ بنِ خَلَف». [أخرجه أحمد والطبرانى وابن حبان].

كما أن أداءَ الصلواتِ الخمسِ فى أوقاتِها فيه تكفيرٌ للسيئاتِ، ومغفرةٌ للذنوب بفضلِ اللهِ وإحسانِه، فعن عبادَةَ بنِ الصامتِ سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خَمسُ صلواتٍ افترضهُنَّ اللهُ مَنْ أَحْسَنَ وضوءَهُنَّ، وصَلَّاهُنَّ لوقتِهنَّ، وأَتَمَّ ركُوعَهُنَّ، وسُجُودَهُنَّ، وخُشوعَهُنَّ، كان له على الله عهدٌ أَن يَغْفِرَ له، وَمَنْ لَم يَفعل، فليس على الله عهدٌ، إن شاءَ غَفَرَ له، وإِن شاءَ عَذَّبه». [أخرجه مالك وأبو داود وغيرهما واللفظ لأبى داود].

وعن عثمانَ بنِ عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنَ امرئٍ مُسلم تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ فيُحْسِنُ وضوءَها، وخشوعَها وركوعَها إلا كانت كفارةً لِما قبلها من الذنوب ما لَم تُؤْتَ كبيرة، وذلك الدهرَ كلَّه..».
[أخرجه مسلم].

وإن الصلاةَ أَولُ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ مِنْ عملِه، فإن صلَحَت فاز ونجا، وإن فَسدت خاب، ورُدَّ عليه سائرُ عمله.

فعن أَبى هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن أَولَ ما يُحاسَب به العبدُ يومَ القيامةِ من عمله صلاتُه، فإن صلَحَت فقد أَفلح وأَنجح، وإن فَسدت فقد خاب وخَسِرَ، فإن انْتُقِصَ من فريضته شىء، قال الربُّ عزَّ وجل: انظروا هل

لعبدى من تطَوُّع، فيُكمَّلَ بها ما انتُقِص من الفريضة، ثم تكونُ سائرُ أعماله على هذا». [أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن].

ومن دُعاءِ الأنبياء: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم].

وفى الحديث: «أَحَبُّ الأَعمالِ إلى الله؛ الصلاةُ لوقتِها، ثُمَّ بِرُّ الوالِدَين ثم الجهادُ فى سبيل الله». [الراوى ابن مسعود وأخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى].

فاتقوا الله - عبادَ الله - وتوبوا إليه، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له.

* * *

للخطبة الثانية:

لقد أَمر الله عز وجل جميعَ أَنبيائه ورسلِهِ بالصلاة، وفَرضها على الْمُؤمنين فى كلِّ العُصور، فهذا رسولُ الله عيسى عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ يقول حين أَشارت إليه أُمُّه وهو فى الْمهد صَبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

ولنتدبر ما جاءَ فى وصية لقمانَ الحكيم لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾. [لقمان].

لنرى كيف أَن الصلاةَ لَم تَزَلْ عظيمةَ الشأْن، سابقةَ القِدَم على ما سِوَاها مُوصًى بها فى الأديان كلِّها، وقد أَمر الله عز وجل رسولَه الهادى وخاتمَ رسله ﷺ بأَن يُقبِلَ هو وأَهلُه على عبادة اللهِ والصلاةِ فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]،

وأمر الله عبادَه الْمُؤمنين بإقامة الصلاة، والإنفاقِ مِمَّا رزقهم الله انقيادًا لأمر الله، وابتغاءَ وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾. [إبراهيم].

وقال الله عز وجل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة]. والأمرُ فى قوله تعالى: «حافِظُوا» خطابٌ لجميع الْمُكلَّفين ذُكورًا وإناثًا، والآيةُ أَمْرٌ بالْمحافظة على إقامة الصلواتِ فى أَوقاتها بجميع شروطِها، والْمحافظةُ: هى الْمُداومةُ على الشيء، والْمُواظبةُ عليه. وفى الآية السابقةِ دليلٌ على أَنَّ الصلاةَ لا تسقطُ عن الْمسلم فى حالِ الخوفِ من عدوٍّ أو غيرِه، فأَحْرَى أَلا تَسْقُطَ بغيره من مرضٍ أو سَفرٍ أو نحوِهما؛ وبهذا تَميَّزت الصَّلاةُ عن سائر العِبادات.. ولهذا قال العلماءُ فى حُكم تاركِ الصلاةِ: «الصلاةُ إِحدى دعائمِ الإِسلام، لا تجوزُ النيابةُ عنها ببدنٍ ولا مالٍ». ولذا رَأَوْا أَنَّ لوليِّ الأمرِ أَخْذَه بأقصى عُقوبةٍ.

ولَمَّا كان للصلاة هذه الْمَنزلةُ، فإن الإِسلامَ شدَّد النكيرَ على مَن يفرِّط فيها، وهدَّد الذين يُضيِّعونها، قال الله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم].

فَمنَ - إذن - هؤلاء الذين أَضاعوا الصلاةَ؟. وما معنى إضاعتِهم الصلاةَ حتى توعَّدهُم اللهُ بالويل إِلَّا إن تابوا، وعادوا إِلى الحقّ بإقامةِ الصلاة؟. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «هم اليهودُ تركوا الصلاةَ الْمفروضة». وقال غيره: هم أُولئك الذين أَضاعوها بالتأخير.

ويُفَسِّرُ ذلك قولُ سعيدِ بنِ الْمُسيِّبِ يرحمه الله: هو أَلَّا يُصلِّىَ الظهرَ حتى يأتِى العصرُ، ولا يصلى العصرَ حتى يأتى الْمغربُ، ولا يصلِّىَ الْمغربَ إلى العشاء، ولا يصلِّى العشاءَ إلى الفجر، ولا يصلى الفجرَ إلى طلوع الشمسِ فمن مات وهو مُصِرٌّ على هذه الحالةِ، ولَم يَتُبْ توَعَّده اللهُ بغَىٍّ، وهو وَادٍ فى جهنَّمَ بعيدٌ عُمقُه، خبيثٌ طعمُه. وقيل: غَىّ، وادٍ فى جهنمَ تستعيذُ منه أَوديتُها، والْمعروفُ فى لغةِ العربِ أن الغَىَّ يُطلَقُ على كلِّ شرٍّ، ونقيضُه الرشادُ، فهو يُطْلَق على كلِّ خيرٍ.. فينبغى لِمَن يتهاونُ فى أَمر الصلاةِ بتركها أَو تأخيرِها عن أَوقاتها بدون عُذرٍ شرعىٍّ أَن يُسرعَ إلى التوبة والإنابةِ. ولنتدبرْ الوعيدَ والتهديدَ للمتهاونينَ فى أَمر الصلاةِ فى قول الحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون] أى فويلٌ للمصلين الذين يَسْهون عن الصلاة قِلَّةَ مُبالاةٍ بها، حتى تفوتَهم، أَو يخرجَ وقتُها.

وعن عثمانَ كما فى الصحيحين قال: سَمعتُ الرسولَ ﷺ يقول: «لا يتوضأُ رجلٌ فيحسِنَ وضُوءَه، ثم يُصلِّىَ الصلاةَ إلا غفَر اللهُ له ما بينها وبين الصلاةِ التى تَليها». [أخرجاه].

ومِمَّا ينبغى أَن يلتفتَ إليه الْمُؤمنون أَن يأمروا أَبناءَهم بالصلاة إذا بلغ الابنُ سبعَ سنين، ويُعنِّفه عليها إذا بلغ عشرًا ليتمرَّنَ الولدُ عليها، ويعتادَها بعد البلوغ، بهذا أَمرنا الهادى الحبيب ﷺ فى قوله: «مُروا أَولادَكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضربُوهم عليها وهم أبناءُ عَشرٍ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع..». [رواه سبرةُ بنُ معبد وأخرجه أبو داود والترمذى].

* * *

١٤ - صلاةُ الجمعة

(أ) (فَضلُها . حُكمُها . آدابُها)

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ ...﴾ [الجمعة].

أيها الْمُسلمون:

يومُ الجمعةِ يومٌ مبارَكٌ، وهو خيرُ يومٍ من أيام الأسبوع، كما أَخبرنا الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ، فعن أبى لُبابةَ بنِ عبد الْمُنذر ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «... إن يومَ الجمعةِ سيدُ الأيامِ وأَعظمُها عندَ الله، وهو أَعظمُ عند اللهِ من يوم الأَضحى، ويوم الفِطر، وفيه خمسُ خِلال: خَلق الله فيه آدمَ، وأَهْبَطَ الله فيه آدمَ إلى الأرض، وفيه تَوفَّى اللهُ آدمَ، وفيه ساعةٌ لا يسأَل اللهَ فيها العبدُ شيئًا إلا أَعطاه إياه، ما لَم يسأَل حرامًا، وفيه تقُوم السَّاعةُ، ما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا سَماءٍ، ولا أَرضٍ، ولا رياحٍ، ولا جبالٍ، ولا بحرٍ إلا وَهُنَّ يُشفِقْن من يومِ الجُمعة».

[أخرجه أحمد وابن ماجه].

أى إن هذه المخلوقاتِ يَخَفْنَ فى هذا اليومِ فَيُكْثِرْنَ من تسبيحِ الله، وتحميدِه ويَخشَيْن النشرَ، وقبضَ الأرضِ، وَنَفْخَ الصُّور، وفى هذا اليومِ تقومُ الساعة.

وكما أَن يومَ الجمعةِ أفضلُ الأيام، فإن صلاةَ الجمعةِ أَفضلُ الصلواتِ، وهى فرضٌ بالكتاب والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمة ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ...﴾ [الجمعة: ٩].

التحذير من التهاون بشأن صلاة الجمعة:

وفى الحديث عن أَبى هريرةَ وابنِ عمرَ أَنهما سَمِعا النبيَّ ﷺ يقول على أَعواد

منبره: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقوامٌ عن وَدْعِهِم - أى تَرْكِهم - الجُمُعَاتِ أو لَيَخْتِمَن الله على قُلوبهم، ثم لَيَكُونُنَّ من الغَافلين..». [أخرجه مسلم وابن ماجه].

ومعنى «ليختِمَنّ الله على قلوبهم» أى يطبعُ على قلوبهم، ويَحُول بينهم وبين الْهُدى والخير.. وقد جاء فى الحديث: «رَواحُ الجمعةِ واجبٌ على كل مسلم».

ولقد حذَّر الحبيب الْمُصطفى الْمُؤمنين من التهاون فى شأن صلاة الجمعة وعدمِ السعْى إليها، والتفريطِ فى أَدائها مع الجماعة، بغير عذرٍ شرعى، فقال ﷺ: «مَنْ تَركَ ثلاثَ جُمَع تهاوُنًا بها طَبعَ الله على قلبِه».

[رواه أبو الجَعْد الضُّمْرى وأخرجه أحمد وبعض أصحاب السنن].

وتاركُ الجمعةِ ثلاثَ مراتٍ من غير عذرٍ أَو ضرورة يُكتب من الْمُنافقين.

فعن أَسامةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن تَرَكَ ثلاثَ جُمُعَاتٍ من غيرِ عُذْر كُتِب من الْمُنافقين». [أخرجه الطبرانى].

ولنتدبرْ هذا النذيرَ الذى رواه ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه قال: إن النبىَّ ﷺ قال لقوم يتخلَّفون عن الجمعة: «لقد هَممْتُ أن آمُرَ رجلًا يصلِّى بالناس ثم أُحَرِّقَ على رجال يتخلَّفون عن الجمعة بيوتَهُم». [أخرجه مسلم والحاكم].

أيها الْمُؤمنون:

إنَّ صلاةَ الجمعةِ تجبُ على المسلم الحُرِّ العاقل البالغِ الْمُقيم القادرِ على السعى إليها الخالى من الأعذار الْمُبيحةِ للتخلُّف عنها.

قال رسولُ الله ﷺ: «الجمعةُ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ فى جماعةٍ إلا أَربعة: عبدٌ مَملوك، أَو امرأَةٌ، أَو صبىٌّ، أَو مريضٌ».

[رواه طارقُ بن شهاب، قال النووى: إسنادُه صحيح].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «مَن سَمِع النداءَ فلم يُجِبْهُ، فلا صلاةَ له إلا من عذر»، قالوا: يا رسولَ الله وما العذرُ؟ قال: «خوفٌ أَوْ

مرض». [أخرجه أبو داود بإسناد صحيح].

وقد رُوى موقوفًا على ابنِ عمرَ ﵄: «لا جمعَةَ على مسافر» فاحرِصْ - يا أخى الْمُؤمن - على أداء الصلواتِ، وحضورِ الجماعاتِ، واحرِصْ على السعْى يومَ الجمعة لأداء صلاتِها، وإياكَ والتهاونَ بشأْنها، وقد جاءَ الوعيدُ الشديدُ للمفرِّطين فيها على لسان الصادقِ الأمينِ ﷺ.

فضْلُها:

أمَّا من أَدَّى الصلواتِ الخمسَ ؛ وصلَّى الجمعاتِ، فإن الحبيبَ الْمُصطفى ﷺ بشَّرهُ بتكفير ذنوبِه، بشرط أَن يجتنبَ كبائرَ الإثم والفواحشَ، ومن الكبائر تركُ ركنٍ من أَركانِ الدينِ كالزكاة والصيامِ، أَو ارتكابُ ما حرَّم اللهُ كالسرقةِ وقتلِ النفسِ بغيرِ حقٍّ، والربا وشُربِ الخمرِ، والزنَى، وشهادةِ الزور، وما إِلى ذلك، مِمَّا يشتدُّ فيه مقْتُ الله وغضبُه، إذا لَم يُصِرّ على الصغائر، فإن الإِصرارَ عليها يُحيلُها إِلى كبائر، فعن أَبى هريرةَ ﵁ أَن رسولَ الله ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إِلى الجمعةِ، ورمضانُ إِلى رمضانَ، مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتُنِبَتْ الكبائِرُ». [أخرجه مسلم].

فطُوبَى لِمن أَدَّى صلاةَ الجمعةِ، وحافظ عليها وعلى آدابِها وسنَنِها. . طوبى لِمن اجتهد فى الدعاءِ والتضرُّعِ يومَ الجمعةِ، ففيها ساعةٌ لا يُوافقُها عبدٌ مؤمنٌ يسأَل الله شيئًا إلا حقَّق رجاءَه بفضله وإحسانِه، فعن أَبى هريرةَ ﵁ أن رسول الله ﷺ ذكر يومَ الجمعةِ فقال: «فيه ساعةٌ لا يُوافقُها عبدٌ مسلمٌ، وهو قائمٌ يصلِّى، يسأَلُ الله شيئًا إلا أعطاه» - وأَشار بيده يقلِّلها. [متفق عليه].

ويُستحبُّ للمؤمنين المبادرةُ والتبكيرُ إِلى الْمساجد يومَ الجمعةِ، وعليهم السكينةُ والوقار، ففى الحديث: «إذا كان يومُ الجمعةِ قَعدت الْملائكةُ على

أبوابِ المسجدِ بأيديهم صحفٌ من فضةٍ وأقلامٌ من ذهب، يكتبون الأوَّلَ فالأوَّلَ على مراتِبهم» وقد قيل: إن أولَ بدعةٍ فى الإسلام تركُ البكُور إلى الجمعة، وإن الشياطين ينتشرون يومَ الجمعة يُثَبِّطون عزائمَ المُسلمين ويُغْرونهم بالاستمرار فى البيع والشراءِ أو غيرِهما رجاءَ ضياع التبكير.. فاحذروا - أيُّها المُؤمنون - كيدَ الشياطين، وبادروا إلى المساجد مبكِّرين لتحْظَوْا برضوان اللهِ ربِّ العالَمين، وقد جاءَتْ الإشارةُ فى الحديث إلى أنه: «إذا كان يومُ الجمعةِ خرجتْ الشياطينُ يُرَيِّثُون الناسَ إلى أسواقهم..»، أى يؤخِّرون الناسَ، ويُغْوونَهم كى يتأخروا عن أدائها.

[أخرجه أبو داود عن على بن أبى طالب ﷺ].

فاستَعِينوا يا عبادَ الله بطاعةِ الله على نَيْلِ ما عندَه من خَيرى الدُّنيا والآخرة، واتقوا الله، وحافِظوا على الجمعة والجماعات، وتُوبوا إلى الله لعله يرحمكم.

❊ ❊ ❊

للخطبة الثانية:

جاء عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة له[1]: «يا أيُّها الناسُ تُوبوا إلى الله قبل أن تَموتوا، وبادِرُوا بالأعمال الصالحةِ قبل أن تُشْغلُوا، وَصِلُوا الذى بينكم وبينَ رَبِّكم بكثرةِ ذِكْرِكُمْ له، وكثرةِ الصدقةِ فى السرِّ والعلانية تُرزَقُوا، وتُنْصَروا، وتُؤْجَروا، واعلمُوا أن الله قد افترَضَ عليكم الجمعةَ، فى مقامى هذا، فى يومى هذا فى شَهْرى هذا، من عامى هذا إلى يوم القيامة، فَمنْ تَركها فى حياتى أو بعدَ مَماتى، وله إمامٌ عادلٌ أو جائرٌ استخفافًا بها، أو جُحودًا لها، فلا جَمَعَ الله شَمْلَهُ، ولا باركَ لهُ فى أمره، ألا ولا صلاةَ له، ألا ولا زكاةَ له، ولا حجَّ له ألا ولا صومَ له ألا ولا بِرَّ له حتى يتوبَ، فمن تَابَ تابَ الله عليه». [أخرجه ابن ماجه].

---

(١) النص فى نهاية تفسير سورة الجمعة فى كتاب الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبى».

خطبة أخرى فى الجمعة:
(ب) من آداب الجمعة

أيها الْمُؤمنون:

عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنهما قال: جاءَ رجلٌ يتخَطَّى رقابَ الناسِ يومَ الجمعةِ والنبىُّ ﷺ يخطبُ، فقال النبى ﷺ: «اجْلِسْ فقد آذيتَ وآنيتَ» أى تأخرتَ وأَبطأْتَ. [أخرجه أبو داود والنسائى وأحمد].

والحديثُ الشريفُ يدلُّ على كراهة تَخطِّى الرقابِ يومَ الجمعةِ والنهى عن ذلك، كما فيه النهى عن التأَخُّرِ والإبطاء فى الحضور للجمعة، فينبغى للمؤمن أَن يحرِصَ على التبكيرِ، وأَن يبتعدَ عن كلِّ ما مِنْ شأْنِه يُؤذى الْمُصلين وَيُسْتَثْنَى من ذلك الإمامُ، أَوْ مَنْ كان بين يديه فُرجَةٌ لا يَصِلُ إليها إلا بالتخَطِّى، وَمَنْ يريدُ الرجوعَ إلى موضعه الذى قام منه لضرورة.

وعن معاذِ بنِ جبل رضى الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تخَطَّى رِقابَ الناسِ يومَ الجمعةِ اتَّخذ جِسْرًا إلى جهنم». [أخرجه ابن ماجه والترمذى].

فعلى الداخل إلى المسجد أَن يَجلسَ حيث انتهى به الْمَجلسُ مُكمِّلًا الصفوفَ الناقصةَ، شاغلًا الأَماكنَ الخالية، وليس له أَن يَتخطَّى رقابَ الناسِ ولا أن يجلسَ فى مؤخرة المسجدِ، مع وجود تلك الأَماكنِ الخاليةِ، حتى لا يُعرِّضَ نفسَه وغيرَه بِتَخَطِّى الرقابِ للعقابِ الشديد، وهو اتخاذُه جسرًا إلى جهنم.

كما ينبغى للمؤمن أَن يُنصِتَ للخطبة، ويتدبرَ معانيَها، ويَعِى الْموعظةَ ولا ينشغِلَ عن الإنصات، وَلْيحذر الكلامَ والإمامُ يخطب.

فعن أَبى هريرةَ رضي الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال: «إذا قلتَ لصاحبِك يومَ الْجُمعَةِ

والإمامُ يخطبُ: أَنْصِتْ، فقد لَغَوْتَ». [أخرجاه وبعض أصحاب السنن].

ومعنى لغوت: خِبْتَ من الأجر.. وقيل أخطأت، وقيل بَطَلَتْ فضيلةُ جُمعتِك.

وروى عن ابن عباسٍ رضى اللهُ عنهما أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ تَكلَّم يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطبُ، فهو كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسفارًا، والذى يقول له: أَنْصِتْ ليس له جُمعَةٌ». [أخرجه أحمد والبزار والطبرانى].

أَى أَن قلبه خالٍ من خشية الله، وهو غافلٌ عن وعظِ الإمام، وعن فائدةِ الجمعة، لهذا شُبِّهَ بالحمار يحملُ الكتبَ ولا يَعِى ما فيها.

ويُسَنُّ للمؤمن أن يبكِّرَ بالذهاب إلى الْمسجد، يَتعبَّدُ فيه بما شاء اللهُ له، حتى يخرجَ الإمامُ ويُؤذَّن لصلاة الجمعةِ، ويحظى بأجر التبكير، فإنه: إذا كان يومُ الجمعةِ كانَ على كلِّ بابٍ من أَبوابِ الْمسجدِ ملائكةٌ يكْتُبون الأَولَ فالأَولَ، فإذا جَلس الإمامُ، طَوَوْا الصُّحفَ، وجَاءُوا يستَمِعُون الذِّكْرَ ؛ أى يستمعون خطبةَ الجمعةِ، كما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة.

ما يُسْتحَبّ يوم الجمعة:

أيها الْمُؤمنون:

ويُسْتَحَبُّ للمؤمن أَن يَغْتَسِلَ، وينظفَ بدنَهُ، ويلبسَ أَحسنَ الثيابِ، ويتطيبَ بالطيب، ويتنظفَ بالسواك ونحوِهِ.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن هذا يومُ عيدٍ جعله اللهُ للمسلمين، فمن جاءَ الجمعةَ فلْيغتسِلْ، وإن كان عِنْدَه طِيبٌ فلْيَمسَّ منه، وعليكُم بالسواك». [أخرجه ابنُ ماجه].

ويُستحَبُّ كثرةُ الصلاةِ على النبىِّ ﷺ: فى يوم الجمعةِ وليلتِه.. وقد وردت

الأَحاديثُ فى الحث على ذلك منها قولُه ﷺ: «أَكْثِرُوا من الصلاةِ عليَّ يومَ الجمعةِ». [رواه أوسُ بن أوس وأخرجه الخمسة إلا الترمذى].

قال ابن القيم: يُستحب كثرةُ الصلاةِ على النبى ﷺ فى يوم الجمعة وليلتِه لقوله: «أكثِروا من الصلاةِ عليَّ يومَ الجمعَةِ وليلةَ الجمعةِ».

كما يُستحَب أَن يحافظَ الْمُؤمنُ على قراءَةِ سورةِ الكهف يومَ الجمعةِ وليلتَه؛ فإِنَّ مَنْ فعل ذلك أَضاءَ اللهُ قلبهُ بالطاعات، وشرح صدرَهُ للعبادات، فعن أَبى سعيد الخدرىِّ رضي الله عنه أَن النبىَّ ﷺ قال: «مَنْ قرأَ سورةَ الكهفِ يومَ الجمعةِ أَضاءَ له من النور ما بين الجمعتين». [أخرجه النسائى والبيهقى].

فيَا أَيُّها الْمُؤمن: إِن الرسولَ الحبيبَ ﷺ يريدُ منك أَن تَشتغلَ بالدعاءِ والاستغفارِ والتسبيح والصلاةِ على الْمُصطفى ليلةَ الجمعةِ، وبتلاوة القرآنِ وَذِكْرِ الله، ويطلبُ منك أَن تغتسلَ مُبكّرًا، وتشتغلَ فى ضَحْوتها بطاعةِ الله ثم تتزيَّنَ، وتَتَنظَّفَ وتتطيبَ، ثم تسعى إِلى الجمعة خاشعًا متواضعًا ناويًا للجلوس فى الْمسجد، وأَن تصلِّىَ من النوافل ما شِئتَ قبلَ خروج الإمام ويتحقَّقُ ذلك بالبُكور، ففضلُه عظيمٌ، كما يريد الرسولُ ﷺ منك أَن لا تَمُرَّ بين أَيْدِى الناسِ، ولا تتخطَّى رقابَهُم بل تُبادرَ إِلى الجلوس فى الصف الأَولِ ثم الذى يليه وهكذا. . ثم تشتغلَ بجوابِ الْمُؤذِّن، وتُنصِتَ إِلى الخطبة، ولا تشتغلَ بشىء ساعَتها.

عن أَبى سعيد الخذرى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «غُسْلُ يومِ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ مُحْتَلمٍ، وسِواكٌ، ويَمَسُّ من الطِّيب ما قَدَرَ عليه».
[أخرجه البخارى ومسلم].

وعنه أيضًا: «على كلِّ مسلمٍ الغُسْلُ يومَ الجمعة، ويلبسُ من صالح ثيابِه وإِن كان له طِيبٌ مَسَّ منه». [أخرجه أحمد والشيخان].

وعن سلمانَ الفارسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يغتسِلُ رجلٌ يومَ

الجمعة، ويَتطَهَّرُ ما استطاع من طُهْرٍ، ويَدَّهِنُ مِن دُهْنِه، أو يَمَسُّ مِن طِيب بَيتِه، ثم يخرجُ فلا يُفرِّقُ بين اثنين، ثم يُصلِّي ما كُتبِ له، ثم يُنصتُ إذا تكلَّمَ الإمامُ، إلَّا غُفِر له ما بينه وبين الجمعةِ الأخرى». [أخرجه البخارى].

فاتقوا الله - وسَلُوه العونَ على طاعته، وأكثروا من الدعاءِ فى هذا اليومِ الْمُباركِ، وتوبُوا إليه توبةً نصُوحًا فإنه توابٌ رحيم.

* * *

توجيه نبوى شريف للخطبة الثانية:

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا كان يومُ الجمعةِ فاغتسل الرجلُ، وغَسَل رأسَه، ثم تطيَّبَ من أطيبِ طِيبِه، ولَبِسَ من صالح ثِيابِه، ثم خرج إلى الصلاة، ولم يُفرِّق بين اثنين، ثم استمع الإمامَ، غُفِرَ له من الجمعةِ إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام». [أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه].

فضل الجماعات:

ثم إن حضورَ الجماعاتِ فيه مرضاةُ الربِّ سبحانه وتعالى، وفيه تأليفُ القلوبِ بالْمحبة، ويَبْعثُ على التواضع والْمُؤاخاةِ، والتعاطفِ والتراحم، وإنَّ الجماعاتِ مَظْهرٌ لتأكيد الأُخوةِ بين الْمُؤمنين والمساواةِ بين الْمُسلمين، فهم يَقفون صفوفًا بين يَدَىْ الخالق عزَّ وجل فى ذلٍّ وانكسار، يرجون رحمتَه ويخشَوْن عذابَه، ويَذكرون موقفَهُم بين يديه سبحانه وتعالى، حيث لا ينفعُ العبدَ إلا عملُه الصالح، فترتجفُ منهم القلوبُ، ويَعظُمُ لديهم الرجاءُ، فَيتَّجِهون بكل مشاعرهم إلى خالق الأرضِ والسمواتِ قائلين: ربَّنا اجعلنا مِمَّن قلتَ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

* * *

١٥ - أمُّ الكتاب

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، الرَّحمنِ الرَّحيمِ، أَنعمَ علينا فهدانا وجعلنا مسلمين، نحمَدُه سبحانه ونستعينُه، ونستغفرُه، ونتوبُ إليه، وأَشهد أَن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأَشهد أَن حبيبَنا وهادِيَنا محمدًا رسولُ الله بعثه ربُّه رحمةً للعالَمين، لينقذَ الناسَ من الضلال، ويَهْدِيَهُم إلى الصراطِ الْمُستقيم، حتى لا يكونوا من الضالين، ولا من الْمغضوب عليهم.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على حبيبك الأمين، وعلى آله وأَصحابِه ومن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمَّا بعد: فيا أيها الْمُؤمنون:

قال الله تعالى فى الحديث القدسى:

«ابنَ آدمَ، أنزلتُ عليك سبعَ آياتٍ: ثلاثٌ لى، وثلاثٌ لك، وواحدةٌ بينى وبينك، فأَمَّا التى لى: فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، والتى بينى وبينك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ منك العبادةُ، وعلىَّ العونُ، وأَما التى لك: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

يُرشِدُنا الحديثُ القدسىُّ إلى أن الله تعالى أَنزل سبعَ آياتٍ هى فاتحةُ الكتابِ، وثلاثٌ منها مختصَّةٌ بالله تعالى، وأَولها «الحمد لله رب العالَمين» والحمدُ على الحقيقة لا يكون إلا لله جلَّ اسمُه، وتنزَّهت صِفاتُه، لأَن النعمَ منه سبحانه وتعالى وإليه، وفى الحديث: «اللهُمَّ لك الحمدُ كلُّه».

[رواه أبوسعيد وأنس ومصعب بن سعد وأخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى].

وقال ﷺ: «أفضلُ الذِّكر لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ لله».

[رواه جابرُ بنُ عبد الله وأخرجه النسائى وابن ماجه والترمذى وقال: حسن غريب].

وقد أجمع الْمُسلمون على أن الله عز وجل محمودٌ على عظيم فضْلِه وجميع نعمه، ومنها نعمةُ الإيمانِ التى هى أَجلُّ النعم.

وقد جاءَ فى الحديث الذى رواه أَبو هريرةَ، وأَبو سعيد الخدرىُّ عن النبى ﷺ قال: «إذا قال العبدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: صدق عبدى الحمدُ لى. .».

والحمدُ - يا أهلَ الإيمان - أَفضلُ ما يُرْزَقُه العبدُ الْمُؤمن: فعن أَنس ابنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو أَن الدنيا كلَّها بحذافيرها بيد رجلٍ من أُمتى ثم قال «الحمدُ لله»، لكانت الحمدُ لله أَفضلَ من ذلك».

[نوادر الأصول كما فى تفسير القرطبى].

والْمعنى أَن الْمُؤمنَ لو أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أَثرها هذه الكلمةَ حتى نطق بها حامدًا ربَّه، فإن هذه الكلمةَ تكونُ أَفضلَ من الدنيا كلها؛ لأن الدنيا فانيةٌ، والكلمةَ باقيةٌ من الباقيات الصالحات. قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف].

والثانية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾. فهو سبحانه وتعالى الرحمن أى الْمنعمُ بجلائلِ النعم، والرحيمُ أى الْمنعمُ بدقائقها، والرحيم إنَّما هى رحمتُه بالْمُؤمنين خاصة قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ اسمٌ عامٌ فى جميع أَنواعِ الرحمة، فهو سبحانه العاطِفُ على البَرِّ، والفاجرِ مِن خَلْقِه، وأَكثرُ العلماءِ على أَن الرحمنَ مختصٌ بالله عز وجل، لا يجوزُ أَن يُسمَّى به غيرُه قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فعادلَ الاسمَ الذى لا يشركُه فيه غيرُه.

سبحانه وتعالى جلَّ شأْنُه، هو ربُّ العالَمِين أَى مالِكُهم، وهو سبحانه مدبِّرٌ

لخلقه ومُربِّيهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء].

وهو سبحانه الرحمنُ الرحيمُ الذى إذا سُئل أعطى، وإذا لَم يُسأل غضِبَ.

اللهُ يغضَبُ إن تركتَ سؤالَهُ وبُنَىَّ آدمَ حينَ يُسأَلُ يَغْضبُ

الثالثة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾. أى مالكِ يوم الحسابِ والجزاءِ، أى يومَ يَدِينُ اللهُ تعالى العبادَ بأعمالهم، ويُجازِى كلَّ شخصٍ بما كسب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

وعن أَبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرضَ - يومَ القيامةِ -، ويَطوى السماءَ بيمينه، ثم يقولُ: أنا الْملِكُ، أَين ملوكُ الأَرض؟».
[أخرجه البخارى ورواه مسلم من طريق آخر].

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾: لا يُدعَى به إلا الله تعالى، وكذلك لفظُ ملِكِ يوم الدين، ومالكِ الْمُلك، وملكِ الأملاك، ومثلها شاهان شاه.. أَمّا الوصفُ بِمالك ومَلِك، فيجوزُ أن يُوصَفَ بهما مَنْ اتَّصَفَ بمفهومِهما قال الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فهذه الثلاث ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ للهِ وحده.. فالحمدُ لله - وحده - وهو مالكُ الْمُلكِ، ومُرَبِّى الخلقِ والْمنعمُ عليهم، وهو الرحمنُ الرحيم، وهو سبحانه مالكُ يومِ الدينِ، أى فى يوم القيامةِ لا يكونُ مالكٌ ولا قاضٍ ولا مُجازٍ غيره، سبحانه لا إله إلا هو.

فطوبى لِمن يستعدُّ للقاء ربِّهِ بالإِيمَانِ الصادقِ والعملِ الصالح، طُوبى لِمن

دان نفسَه وحاسَبها، وعَمِلَ لِما بعد الْموتِ.

أيها الْمُؤمنون:

وجاءَ في الحديث: «والتي بيني وبينك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ منك العبادةُ وعليَّ العَوْنُ».

ومعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لا نعبدُ غيرَك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي لا نستعين إلا بك سبحانك فمنك - يا ربَّنا - العونُ، ومنا لك العبادةُ أي غايةُ الذلِّ مع غايةِ الخشوع، وهذا معنى أن هذه الآيةَ مُشتركةٌ بين اللهِ تعالى وعبده.

وأما الآياتُ الثلاثُ الخاصةُ بالعبد فأولها ﴿... ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾. أي أرْشِدْنا وَوفِّقْنَا إلى الدينِ الحقِّ الواضِح، الذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف وإلى الصراطِ السويِّ الذي هو دينُ الإسلامِ.. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال القُرطُبيُّ: ﴿ٱهْدِنَا﴾ دعاءٌ من الْمربوبِ إلى الربِّ، والْمعنى دُلَّنا على الصراطِ الْمستقيم، وأرْشِدْنا إليه، وأَرِنا طريقَ هدايَتِكَ الْمُوصِّلةَ إلى أُنسِك وقُربك. وقال محمدُ بنُ الحنفية: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ هو دينُ اللهِ الذي لا يَقْبَلُ من العباد غَيْرَهُ.

ومن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران].

والثانيةُ من الآيات الثلاثِ الخاصةِ بالعبد: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾ أي صراطَ النبيِّين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين.. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء].

والثالثةُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أى غيرِ الذين فَسدَت إرادتُهم، فعَلِمُوا الحقَّ ثُمَّ عَدَلُوا عنه، وغيرِ الذين فقدُوا العلمَ، فهم هائِمون فى الضَّلالِة، لا يهتدون إلى الحقِّ، ذلك أن بعض أهلِ الكتاب فَقَدُوا عِلمَ الدين، وأَساسُه التوحيدُ، الذى جاء به موسى وعيسى وسائر الرسل عليهم السلام.

وقد ورد أَن الْمغضوبَ عليهم هم اليهودُ الذين قال الله فيهم: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]. وقال ﴿. . . وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦] وأن «الضالين» هم الذين انحرفوا عن التوحيد من أهل الكتاب فحكَم اللهُ عليهم بالضلال فقال: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾.

[المائدة: ٧٧].

أيها الْمُؤمنون:

جاءَ من حديث أبى هريرةَ عند أحمد أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الحمدُ لله رب العالَمين: هى أمُّ القرآنِ، وهى السبعُ الْمثانى، وهى القرآنُ العظيمُ الذى أُوتيتهُ. .» ومعنى كوْنِها مثانى أنها تُثَنَّى وتُعادُ فى كل ركعةٍ من الصلاة لفرضيتها فيها، وقيل معناه أَنها يُثْنَى فيها على الله تعالى بِما أَمر.

عن أَبى هريرة كما عند ابن جرير الطبرى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ: هى أُمُّ القرآنِ، وهى فاتحةُ الكتابِ، وهى السبعُ الْمثانى».

نسأل الله العظيمَ أن ينفَعنا بالقرآنِ العظيم، وأن يثبِّتَنا على صراطِه الْمُستقيم.

فاتقوا الله - عبادَ الله - وتوبوا إِليه، وسَلُوه العفْوَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة.

* * *

للخطبة الثانية:

عن أبى سعيد بن الْمُعلَّى كما عند البخاريّ قال: كنتُ أُصلى فى الْمسجد فدعانى رسولُ الله ﷺ فلم أُجِبه حتى صليتُ وأَتيتُ، قال: «ما منعك أن تأتِيَنى؟» قال: قلتُ يارسولَ الله إنى كنتُ أُصَلِّى، قال: «أَلَم يقُلِ الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(١)» ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ سُورةً هى أعظمُ السُّورِ فى القرآن، قبل أن تخرُجَ من الْمسجد». ثم أَخَذَ بيدى، فلَمَّا أرادَ أن يَخرُجَ من الْمسجدِ قلتُ: يارسولَ الله إنك قلتَ لأُعلمنَّك سُورةً هى أَعظمُ سورةٍ فى القرآن قال: «نَعَمْ، الحمدُ لله ربِّ العالَمين، هى السبعُ الْمثانى ؛ والقرآنُ العظيمُ الذى أُوتيتُه».

وفى الحديث القدسيّ الذى رواه أبو هريرة ﷺ، كما عند مسلم وغيره يقول ربُّ العزَّة: «قسمتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نِصْفَيْن، ولعبدِى ما سأَل فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: قال الله: حَمِدَنى عبدى، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال: أثنى علىَّ عبدى، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قالَ: مجَّدنى عبدى، وإذا قال العبدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأَل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ...﴾ [الفاتحة] قال: هذا لعبدى ولعبدى مَا سأَل.

إننا يا ربَّنا نخصُّك بالعبادة والاستعانةِ، فكلُّ عبادةٍ لغيرك تكونُ إشراكًا بك، وأنت يا ربَّنا أَغنى الأغنياءِ عن الشِّرك: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وإن الاستعانةَ لا تكونُ إلا بك، جَلَّ اسْمُك، وعظُم سلطانُك فمن استعان

(١) أحاديث «قسمتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل..» جاءت فى صحيح مسلم والْموطأ وعند بعض أصحابِ السُّنَن من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

بغيرك، أَو أَشرَك معك سِواكَ، فقد كفَركَ، وجحَد نَعماءَك، وضَلَّ عن سَواءِ السبيل.

يا أهل الإيمان:

إن سورة الفاتحة هى القرآنُ العظيمُ، سُمِّيتِ بذلك لتضمُّنها جميعَ علومِ القرآنِ، وذلك أنها تشتملُ على الثناءِ على الله عز وجل بأَوصافِ كمالِه وجلالِه، وعلى الأمرِ بالعباداتِ والإخلاصِ فيها، وعلى الاعترافِ بالعجزِ عن القيام بشىء منها إلا بإعانتِه تعالى، كما تشتملُ سورة الفاتحة على الابتهالِ إليه فى الهداية إلى الصراطِ المستقيمِ وكفايةِ أَحوالِ الناكثين، وعلى بيانِ عاقبةِ الجاحدين.

اللهم ثَبِّتَ قلوبنا على دينك الذى أرسلتَ به رسلَك - عليهم صلوات الله وسلامه - ورضيتَه لعبادك، يا أرحم الراحمين.

* * *

فوائد «للدرس»:

أخرج الدارَقُطنىُ عن أبى هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا قرأتمُ: «الحمدُ لله ربِّ العالمين» فاقرءوا: «بسم الله الرحمن الرحيم» إنها أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبعُ الْمثانى، و ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أحدُ آياتها.

وجاء فى تفسير البيضاوى بلفظ: «فاتحةُ الكتاب سبع آياتٍ أُولاهنّ: بسم الله الرحمن الرحيم».

جاء عند أبى داود والنَّسائى والحاكم وصححه: أنّ عُلاقَةَ بنَ صُحَار مَرَّ على قوم عندهم رجلٌ مجنونٌ مُوثَقٌ بالحديد، قال: «فرَقيتُه بفاتحة الكتاب فَبَرَأ» ولمَّا عَلِمَ رسولُ الله ﷺ أقرَّه، وأجاز له أخْذَ الأجرةِ على ذلك، وقال له: «لقد أكلْتَ برُقْيةِ حقٍّ».

وفى رواية لأبى داود قال صُحَار: فقرأتُ بفاتحة الكتاب ثلاثةَ أيام غُدوةً وعَشيَّةً كلما ختمتُها جمعتُ بزاقى ثم تفلتُ، فكأنما أُنْشِط من عِقالٍ. أى بَرَأ بفضل الله، أى كأنه حُلَّ من رباطٍ وقيدٍ، والعِقال هو الحبل.

* * *

١٦ - الزكاةُ رُكنُ الإسلام

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة].

أيها الْمُؤمنون:

يأمر اللهُ عز وجل بِأَخذ زكاةِ الأموالِ من القادرين لإنفاقها فى وجُوه استحقاقِها، ولسدِّ حاجةِ الفقراءِ والْمساكين وأبناءِ السبيل ؛ إذ تقومُ الحياةُ فى الْمجتمع الإسلامىِّ على أساسٍ وثيقٍ من الْمحبةِ والإخاءِ والْمساواةِ والتكافلِ والتعاطفِ، وتلك ميزةٌ تحقِّقُ الخيرَ للناس جميعًا، وتَنزِعُ ما فى الصدور من أَحقادٍ وضغائنَ، وَتُطَهِّرُ النفوسَ من البُخل والشحِّ والقسوة، وتُزكِّيها بالخيرات والبركات، وتُنمِّيها بالرحمة والبرِّ ونورِ التوفيقِ والسدادِ والرشاد: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفى الزكاةِ والصدقةِ تحصينٌ للأموال، وصيانةٌ لها، فهى سببٌ لِنماءِ الْمالِ بالبركةِ فى الدنيا، ويضاعِفُ اللهُ ثوابَها لصاحبها فى الآخرة.

وفى الحديث الذى رواه الحسنُ أن النبىَّ ﷺ قال: «حَصِّنُوا أَموالَكُمْ بالزكاة، ودَاوُوا مَرْضاكُمْ بالصدقة، واستقبِلوا أَمواجَ البلاءِ بالدعاء والتضرع». [أخرجه أبو داود والطبرانى والبيهقى].

وإن الزكاةَ - يا عباد الله - ركنٌ من أركان الدين، وقاعدةٌ فى بنائه الْمتين، فرضها الله فى كتابه على عباده، ووضَّحتها السنَّةُ النبويةُ الْمُطهَّرةُ، وأَجمعت على فرضيتها الأمةُ، ومُنكِرُ فرضيةِ الزكاةِ كافرٌ مُرتَدٌّ؛ لأَنها معلومةٌ من الدين بالضرورة، ولَم يَخْبُ لها نورٌ فى أَىِّ عصرٍ من عصور الإسلام.

والله عز وجل يقول: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفى الحديث الذى رواه ابنُ عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ لَما بَعَث مُعاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تُقدِمُ على قوم أهلِ كتابٍ فليكنْ أولُ ما تدعوهم إليه عبادَةَ اللهِ تعالى، فإذا عرفوا اللهَ تعالى، فأَخبِرْهم أن الله تعالى قد فَرض عليهم خمسَ صلواتٍ فى يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخْبِرهم أن الله قد فرضَ عليهم الزكاةَ فى أموالهم، تُؤخَذُ من أَغنيائهم، وَتُرَدُّ فى فقرائهم».

[متفق عليه].

وأَكّد الإسلامُ أن الزكاةَ حقُّ الفقيرِ فى مال الغنىّ، لا يجوزُ حبسُه عنه، وَيَحْرُمُ البخلُ به، ويشتدُّ الوعيدُ على مَن يتهاونُ بأمر الزكاةِ وقد وجبتْ عليه، والحقُّ تبارك وتعالى يقول: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

والحقُّ هنا هو الزكاةُ التى بيَّن الشرعُ مقدارَها وجِنْسَها ووقتها، وفى التحذير من مَنْع الزكاةِ والتخويفِ من عواقبِ ذلك، يَروى أَنسٌ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «ويلٌ للأَغنياء من الفقراء يومَ القيامة، يقولون: ربَّنا، ظَلَمُونا حقوقَنا التى فَرضْتَ لنا عليهم، فيقول الله تعالى: وَعِزَّتى وجَلالى لأُقرِّبَنَّكُمْ ولأبعِدَنَّهم، ثم تلا رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾. [المعارج].

[أخرجه الطبرانى وابن حبان].

وجاءَ فى الْموطإِ عن أَبى هريرةَ رضى اللهُ عنه أنه كان يقول: «مَنْ كان عنده مالٌ لم يؤدِّ زكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شُجاعًا أَقرعَ - أَى أفعَى عظيمة السُّمّ - له زَبيبتان، يَطلبُه حتى يُمكِنَهُ، يقول له: أَنا كَنزُك». وقد رُوِى هذا الْمعنى مرفوعًا إلى النبى ﷺ.

وعن أبى هُريرةَ - أيضًا - أَن رسولَ اللهِ ﷺ أَنذر بأَنَّ الْمالَ الذى لا تُؤَدَّى زكاتُه سيكونُ وبالًا على صاحبه فى يومٍ لا ينفعُ فيه دِرْهَمٌ ولا دِينار ولا ذهبٌ ولا فضّةٌ، فيقول: «ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولافِضةٍ لا يؤدِّى مِنها حقَّها - أَى

زكاتَها - إلا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له - أى هذه الأَموال - صفائحَ من نار، فأُحمِى عليها فى نارِ جَهَنَّم فَيُكوَى بها جنبُه، وَجَبِينُه وظهرُه كُلَّما بَرِدَت أُعِيدت له فى يوم كان مقدارُهُ خمسين أَلفَ سنةٍ، حتى يُقضَى بين العباد، إما إلى الجنَّة وإما إلى النَّار». [أخرجه البخارى ومسلم].

يا أهل الإسلام:

ولقد أَخبرنا النبىُّ ﷺ أَن الشُّحَّ لا يتفقُ مع صِدق الإيمانِ، وصِحةِ اليقين فقال: «لا يجتمعُ الشُّحُّ والإيمانُ فى قلبِ عبدٍ أَبدًا».

[من حديث رواه أبو هريرة وأخرجه النَّسائى وابن حبان والحاكم].

والله عز وجلّ يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وإن الْمُؤمنَ حقًّا هو الذى يُبادِرُ إلى الخيرات، ويُسارع إلى الصالحات، ويُنفقُ مِمَّا آتاه الله، ولا يَبْخل بالزكاة الْمفروضةِ، ولا يسوِّف، ولا يغْفُل حتى لا يندمَ فى ساعةٍ لا ينفعُ فيها الندمُ، ولا تُقبَلُ توبة، ولنسمع اللهَ عز وجل يقول: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون].

وفى هذا دليلٌ على وجوب تعجيلِ الزكاةِ، ولا يجوز تأْخيرُها إذا تَعيَّن وقتُها مثل سائرِ العباداتِ، والذى يتهاون حتى يُوافيَهُ الْموتُ فإنه يَسْأَل الرجعةَ إلى الدنيا، ليعملَ صالحًا.

يقول ابنُ عباس رضي الله عنهما: «تَصَدَّقُوا قبل أَن ينزلَ عليكم سلطانُ الْموتِ، فلا تُقْبَلُ توبةٌ، ولا ينفعُ عملٌ»، ويقول: «ما يَمنعُ أَحدَكُمْ إذا كان له مالٌ أَن يُزكِّى، وإذا أَطاق الحجَّ أَن يَحُجَّ، من قبل أَن يأْتيَهُ الْمَوتُ فيسأَلَ ربَّه الرجعةَ فلا يُعْطاها».

ولنتدبر - يا أهل الإيمان - توجيهاتِ الحبيبِ الْمُصطفى ﷺ، ففى رواية مسلم للحديث الذى رواه أبو هريرة جاء: «يقول العبدُ: مالى مالى، وإنَّما له من ماله ثلاثٌ: ما أكل فأفنَى، أوْ لبِسَ فأبْلَى، أو أعْطى فاقْتَنى، وما سِوى ذلك فهو ذاهِبٌ، وتارِكُه للناس».

[واقتنى: أى ما تصدّق به أبقاه لآخرته]

وعند البُخارى والنسائى فى رواية ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم مالُ وَارِثِه أحبُّ إليه من ماله؟» قالوا: يارسولَ الله، ما مِنّا أحدٌ إلّا مالُه أحبُّ إليه، قال: «فإنَّ مالَهُ ما قَدَّم ومالَ وارثِه ما أخَّر».

فاتقوا الله وأَخرِجُوا زكاةَ أموالِكم، وتوبوا إلى الله واستغفروه يغفرْ لكم.

* * *

للخطبة الثانية:

إن الزكاةَ ركنٌ لا يَتمُّ إسلامُ الْمرءِ إلا به، فمن أَدَّاها كان مسلمًا حقًّا، ومَن تركها فقد هَدَم ركنًا من أركانِ الدين، وهذا رسولُ الله ﷺ يُبيّن لبعض القبائلِ ما يجب عليهم بعد إسلامهم فكان مِمَّا قاله: «إن تَمامَ إسلامِكم أن تُؤدُّوا زكاةَ أموالِكم».

[أخرجه البزار ورواه علقمةُ ﷺ].

فطوبى للأسخياء الذين لا يبخلون بِما آتاهم الله من فضله، ويَرْعَوْن حقَّ اليتامى والأرامل والْمساكين، ويَحرصون على أداءِ الزكاةِ وإقامةِ هذا الركنِ الذى فرضه اللهُ على عباده الْمُؤمنين؛ تحقيقًا للعدل الاجتماعى، وامتحانًا لإيمان الْمُسلم، ولذا كان الْمؤدُّون زكاةَ أموالهم من الناجين الْمُفلحين يوم يندم الْمُفرّطون، ولنتدبر قولَ الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون].

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: «بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنُّصحِ لكلِّ مسلمٍ». [أخرجاه].

وإن أَكْلَ الزكاةِ لمن علاماتِ النفاقِ وأسبابِ الشقاءِ والبلاءِ؛ ففى الحديث الذى رواه ابنُ عمر: «ظهرتْ لهم الصلاةُ فَقبِلُوها، وخَفِيَتْ لهم الزكاةُ فأكلوها، أولئك هم الْمُنافقون». [أخرجه البزارُ].

إن الْمرءَ - يا أحبابَ الله - لن ينفعَهُ فى حياته الأَبديةِ إلا ما قدَّمه من عمل صالح وصدقةٍ خالصةٍ لوجْه اللهِ، فما يُؤَخِّره الْمرءُ بعد موته إنَّما هو لورثته، وما يُقدمُه فى وجوهه ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فهو لنفسِه، فالصدقةُ الخالصةُ لوجه الله عَزَّ وجَلَّ هى الذُّخْرُ الباقى الذى يدومُ نفعُه، كما لفتَنا القرآنُ العظيم وبيَّن لنا الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ، وذلك أَن النفقةَ فى سبيل اللهِ سرًّا وعلانيةً، هى التجارةُ التى لا تبور، ولا تَكسَدُ، ولا تَخسرُ، وإنَّما هى فى ربح دائم؛ بركةٌ فى الدنيا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].. ورحمةٌ ونعيمٌ فى الآخرة.. ولنتدبرْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر].

وفى الحديث: «ما مَنَع قومٌ الزكاةَ إلا ابتلاهم اللهُ بالسنين».

[أخرجه الطبرانى والراوى بُرَيدة ﷺ].

وفى لفظ عند الحاكم والبيهقى: «إلا منَعَ الله عنهم القَطْر».

❊ ❊ ❊

دعاء مبارك:

«اللهم إنَّا نسألُكَ من خيرِ ما سألَكَ نبيُّكَ محمدٌ، ونستعيذُكَ ممَّا استعاذَكَ منه نبيُّكَ محمدٌ ﷺ، اللهمَّ أنتَ المُستَعان، وعليك البلاغُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله».

[رواه أبو أمامة وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى والطبرانى عنه وعن أبى هريرةَ].

وعليك البلاغُ: أى منكَ وَحْدكَ نطلبُ ما يُغنينا وما يُبلِّغُ إلى المطلوبِ من خيرِ الدنيا والآخرة.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

[البقرة: ٢٠١].

* * *

١٧ - شهر الخيرات والبركات(١)

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أيها الْمُؤمنون:

الشهرُ هو شهرُ رمضانَ المباركِ، وقيل إنَّما سُمِّى رَمضانَ؛ لأنه يَرْمَضُ الذُّنوبَ، أى يَحْرِقُها بالأعمال الصَّالحةِ، من الإِرْمَاضِ وَهو الإِحْراقُ(٢).

وهو شهرُ رحمةٍ ونعمةٍ، فيه تَلينُ القلوبُ من حَرارةِ الْموعظةِ، وتتجهُ النفسُ إِلى الفِكْرِ فى أَمرِ الآخرةِ والاستعدادِ لها، وفيه تَخِفُّ وطأةُ الشهواتِ على النفسِ الْمُؤمنة، ويُحْفَظُ النادمون من شَرِّ الشيطانِ ونَزْغِهِ، ويعظُمُ الرجاءُ فى عفْو اللهِ وجودِه وكَرَمِه، وتُسْكَبُ العَبَراتُ لتغسلَ أَدرانَ الْمعاصى والْموبقاتِ، وتُرْفَعُ أَكفُّ الضراعةِ بالليل والنهارِ لتستقبلَ الرحَمَات.

يقول أَبو هريرةَ ﷺ: قَال رسول الله ﷺ: «أَتاكُمْ رمضانُ شهرٌ مباركٌ، فَرَضَ الله عز وجل عليكم صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فيه أَبوابُ السَّماءِ، وتُغلَقُ فيه أَبوابُ جَهَنَّم، وتُغَلُّ فيه مَرَدةُ الشياطين، للهِ فيه ليلةٌ خيرٌ من أَلفِ شهرٍ، مَنْ حُرِم خَيْرَها فقد حُرِم». [أخرجه النسائى والبيهقى].

فما أَعظمَ رحمةَ اللهِ على عباده الصالحين فى هذا الشهرِ الكريم، وطوبى للتائبين العابدين الشاكرين، الذين يشملُهم فضلُ اللهِ العظيم، فى هذه الأَيام والليالى المباركاتِ، وفى الحديث الذى رواه أَبو هريرةَ ﷺ: «إذا جاءَ رمضانُ فُتِّحَت أَبوابُ الجنةِ، وغُلِّقَتْ أَبوابُ النارِ، وصُفِّدَت الشياطينُ».

[أخرجه الستة إلا أبا داود].

---

(١) فى الأسبوع الأول من رمضان.

(٢) ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء: شدة الحر.

فرض اللهُ عز وجل صيامَه على الْمُكلَّفين فقال آمرًا بذلك: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أى مَن كان مُقيمًا عند دخول الشهرِ من الْمُسلمين البالغين العقلاءِ الأَصحاءِ وجبَ فى حقِّهِ الصومُ، وفى الحديث الذى رواه عبدُ الرحمن بنُ عوف ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إن الله تعالى فرضَ صيامَ رمضانَ - عليكم - وسَنَنْتُ لكم قيامَه، فَمَنْ صَامهُ وقَامَهُ إيمانًا واحتِسَابًا خَرج مِن ذُنُوبه كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّه».

[أخرجه النسائى].

وإن الصومَ فى الشرعِ هو الإمساكُ عن الْمُفطِّرات مع اقترانِ النيةِ به من طلوع الفجرِ إلى غروبِ الشمسِ، وتَمامُه وكمالُه باجتنابِ الْمَحْظُوراتِ وعدم الوقوع فى الْمُحَرَّمات؛ لقوله ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «مَن لَم يَدَعْ قولَ الزُورِ والعملَ به، فليس للهِ حاجةٌ فى أن يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرابَه - من أَجْلِه -».

[أخرجه البخارى وبعض أصحاب السنن].

فليس غايةُ صومِنا - يا أحباب الله - أن نُمْسِكَ عن الطعام والشرابِ ونحوِهما من الْمُفطِّرات، وإنَّما أَن يكونَ الصائمُ مراقِبًا ربَّه، مُتَّقيًا غَضَبَه، راجيًا رحْمتَه وعفْوَه، لذا فإنَّه يكفُّ جوارحَه عن معاصى اللهِ، ويُمسِكُ لسانَه عن فضولِ الكلامِ وحرامِه، فلا يشهدُ زُورًا، ولا يَكذِب، ولا يَشتُمُ أَحدًا، ولا يتكلمُ إلّا بخير، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرةَ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «الصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان أَحدُكُمْ صائِمًا، فلا يَرْفُثْ ولا يَجهَلْ[1]، فإنِ امْرُؤٌ قَاتَلَه أَو شاتَمه فليقُلْ: إنِّى صائمٌ».

[فى الصحيحين وعند بعض أصحاب السنن].

[والرَّفَثُ هو الفُحْشُ فى القول، والجهلُ هو السفهُ، والاستطالةُ على الناس]

(١) يجهل: يسفه ويستطيل على الناس.

وقد حثَّ الرسولُ ﷺ الْمُؤمنين الصائمين على التَّحَلِّى بِمكارِمِ الأَخلاقِ، وعلى عدمِ مجاوزةِ حدِّ الأَدَبِ بالتعدِّى بالفعل أَو بالقولِ، بل يَنبغى لهم أَن يقابلوا الإِساءَة بالتجاوُزِ والصفحِ، وليقُلِ الصائمُ حينئذٍ: إِنِّى صائمٌ، إِنِّى صائمٌ؛ ليُذَكِّرَ نفسَه بأَنه صائمٌ فلا يخوضَ مع السَّفيه، ولا يكافِئَهُ على شَتْمِه؛ لئلا يَفْسُدَ صَوْمُه، ويُحْبَطَ أَجْرُ عَمَلِه.

ياأهل الإيمان:

إِنَّ على الْمُسلم فى شهرِ الصوم الْمُباركِ أَن يَبَرَّ أَهلَه، وأَن يَصِلَ رَحِمَهُ وأَنْ يُصافِىَ مَنْ عاداه من الْمُؤمنين، وأَن يصالِحَ مَنْ خاصَمه، وأَن يتحبَّبَ إِلى أَهل الفقرِ والْمسكنةِ بِمواساتِهم، وإِظهارِ الْمودةِ لهم، وتقديمِ العونِ لهم، وبذلِ ما يَقْدِرُ عليه فى سبيلِ الله.

وطُوبى للمؤمنِ إِذا حَرَص على أَداءِ الصلواتِ فى أَوقاتها، وشهِد الْجُمعة والْجَماعاتِ، ولم تَفُتْه ليلةٌ دون أَن يُقَدِّمَ خيرًا لنفسه من صلاةٍ وصدقةٍ وذِكْرٍ للَّهِ وسائرِ القُرباتِ، فالعملُ الصالحُ فى هذا الشهرِ الْمُباركِ يُضَاعَفُ ثوابُه، يقولُ النبىُّ ﷺ من خطبة له: «جَعَلَ اللهُ صيامَه فريضةً، وقيامَ ليلهِ تطوُّعًا، مَنْ تَقَرَّب فيه بخصْلةٍ من الخيرِ، كان كمَنْ أَدَّى فريضةً فيما سِوَاه، ومَنْ أَدَّى فريضةً فيه، كان كمَنْ أَدَّى سبعين فريضةً فيما سِوَاه..».

[رواه سلمانُ وأخرجه ابنُ خزيمة وأبو الشيخ].

فطُوبى لِمن كسا عاريًا، وفَطَّر صائمًا، وسعى بالخيرِ والبرِّ، وجعل عملَهُ للهِ خالصًا، وطوبى لِمن يُحافِظُ على فضائلِ الصومِ وآدابِه؛ لِيحْظَى بِما أَعدَّ اللهُ للصائمين من الثوابِ والْمنزلةِ، يقول الهادى الحبيبُ ﷺ مُخبِرًا عن ربِّه: «يقولُ تبارك وتعالى: كلُّ عمَلِ ابنِ آدمَ له، إِلا الصومُ، فإنه لى وأَنا أَجزى به». الحديث. [أخرجاه ورواه أبو هريرة].

وإنَّما خَصَّ الصومَ بأنه له، وإن كانت العباداتُ كلُّها له سبحانه لأمرين بَايَنَ الصومُ بهما سائرَ العبادات؛ أحدُهما: أن الصومَ يَمنعُ من ملاذِّ النفسِ وشهواتِها ما لا يَمنعُ منه سائرُ العباداتِ. الثانى: أَن الصومَ سِرٌّ بين العبدِ وربِّه لا يَظْهَرُ إلّا له، فلذلك صار مُختَصًّا به سبحانه وتعالى، وما سِواه من العبادات ظاهرٌ، رُبَّما فَعلَه المرءُ تَصنُّعًا ورياءً، فلهذا صار أَخصَّ بالصوم من غيرِه.

فَطُوبى لِمن صام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، وأَمسك لسانَه عن لغوِ الكلامِ وباطلِهِ، وحافظ على الصلواتِ فى أَوقاتها، وأَقبلَ على ذكرِ اللهِ وشكرِه.

واتقوا الله - عبادَ الله - وتوبوا إليه، إنه توابٌ غفور رحيم.

* * *

للخطبة الثانية:

إن هذا الشهرَ الْمُباركَ عظيمُ الخيرِ، وإنَّ الْمُوفَّقَ هو الذى يَحرِصُ على الاستزادةِ من فضل اللهِ فيه، ولهذا يُنَبِّهُ الْمُصطَفى ﷺ الْمُؤمنين إلى ذلك فيقول: «لو يعلمُ العبادُ ما رمضانُ لَتمنَّتْ أُمتى أَن تكونَ السنةُ كلُّها رَمَضانَ».

[أخرجه ابنُ خزيمة عن أبى مسعودٍ الغِفَارى].

فعلى الْمُسلمِ إذا أَرادَ أَن يجنِى أَعظَمَ الثمراتِ، فى هذا الشهرِ الْمباركِ ويخرجَ منه بغنيمةٍ، هى أَعظمُ من الدنيا وما فيها من متاع وزينة، عليه أَن يُداومَ على طاعة الله، وأَن يجتنبَ كلَّ ما يُغضِبُ الله، وأَن يَغُضَّ بصرَه عن الحرام، وأَن يَلْهَجَ لسانُه بذكرِ اللهِ وشكرِه، وأَن يُكثِرَ من تلاوةِ القرآنِ الكريم وسَماعِه وتدبُّرِ آياتِه ومعانيه، وأَن يَغْشَى مجالسَ العِلم، وأَن يجالسَ الأَتقياءَ الحلماءَ، ويبتعدَ عن أَهل اللهوِ والطيشِ ليلَه ونهارَهُ.

وإن أَفدحَ الخَسَارة - يا أحباب الله - أَن يُفطِر الْمُسلمُ يومًا من رمضانَ عامدًا بلا عُذر، وفى هذا يقول الرسولُ ﷺ: «من أَفْطَرَ يومًا من رمضَانَ من

غيرِ رُخْصةٍ ولا مَرَضٍ، لَم يعوِّضْهُ صومُ الدهرِ كلِّه وإن صَامَهُ».

[رواه أبو هريرة، وأخرجه الترمذى وغيره].

فَلْيتَّقِ اللهَ الْمُسلمُ فى صيامه فإنَّ العبادةَ أَمانةٌ، والله رقيبٌ على عباده ومحاسبُهم ومجازيهم.

ولْيحذَر الْمُؤمنُ أَن يكونَ مِمَّن قال فيهم رسولُ الله ﷺ: فيما رواه ابنُ عمر وأخرجه الطبرانى: «رُبَّ صائِم حَظُّه من صيامِه الجوعُ والعطَشُ» وهؤلاء هم الذين لا يراقبون الله ولا يتوَرَّعُون عمَّا حرَّم الله ولا يَحفظُون أَلسنتَهم، بل يُطْلِقونها بِفُحْشِ القولِ وسيِّئِ الكلامِ، ولا يتزيَّنُون بالفضائِل التى يُحِبُّها الله.

كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا رأى الهلالَ قال: «اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ علينا بالأَمنِ والإيمانِ، والسلامِ والإسلام، ربِّى وربُّك اللهُ تعالى» وكان إذا نظر إلى الهلال قال: «اللهُمَّ اجعلْه هلالَ يُمْنٍ وَرُشْد، وآمنتُ بالله الذى خلقَك فَعَدَلَك، فتبارك اللهُ أَحسنُ الخالِقين».

* * *

فوائد «للدرس»:

* عن أنسِ بنِ مالك ﷺ قال: «كُنَّا نُسافِرُ مع النبيّ ﷺ، فَلَمْ يَعِبِ الصائمُ على المُفطر، ولا المُفْطِرُ على الصائم». [لفظ البخارى].

* عن ابن عباس ﷺ قال: «جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال: يارسولَ الله إنَّ أُمِّي ماتت، وعليها صومُ شهرٍ، أفأقضِيه عنها؟ قال: «نعم، فَدَيْنُ اللهِ أحقُّ أن يُقضَى». [لفظ البخارى].

* وفى الحديث: «تسحَّروا فإن فى السحور بركةً».

[رواه أنس واللفظ فى البخارى].

* وفى الحديث: «لا يزال الناسُ بخيرٍ ما عجَّلوا الفِطرَ».

[رواه سهلُ بنُ سعد واللفظ فى البخارى].

* * *

١٨ - السُّنَنُ الرَّوَاتب

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

عن أمِّ الْمُؤمنين عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ ثابرَ على ثِنْتى عَشرةَ ركعةً فى اليومِ والليلة دخل الجنَّةَ: أَربعِ ركعاتٍ قبلَ الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد الْمغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبلَ الفجر». [أخرجه النسائى والترمذى وابنُ ماجه].

وجاء مثلُه عند مسلم وبعضِ أصحابِ السنن عن أمِّ الْمُؤمنين حبيبةَ بنتِ أبى سفيان رضي الله عنها.

أيها الْمُؤمنون:

فرض اللهُ عز وجل على الْمُؤمنين خمسَ صلواتٍ فى اليوم والليلة، وأمرهم بالْمُحافظة عليها، وعدمِ التهَاونِ بشأنها، وأَحَبُ عملٍ يَتقرَّبُ به العبدُ الْمُؤمنُ إلى ربِّه هو أداءُ فرائضهِ، وفى الحديث القدسىِّ: «وما تقرَّب إلىّ عبدى بشىء أَحبَّ إلىَّ مِمَّا افترضْتُ عليه» وللترقِّى فى مدارج الخيرِ والفلاحِ والصلاح شرع اللهُ لعباده النوافِلَ والسُّننَ، وأَوحى بها إلى نبيِّه ﷺ، والنافلةُ تكون من جِنْسِ فريضةٍ، وفى الحديث القدسىِّ: «وما يزالُ عبدى يتقربُ إلىَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه».

وإنّ النوافلَ مجالٌ عظيمٌ للخير، وفيه يتنافسُ الْمُتنافسون، وتتفاوتُ منازلُ الصالحين، وأَعلى الْمقاماتِ بين الناسِ هو مقامُ النبوة، وكان النبىُّ الهادى ﷺ أَصبرَ الناسِ على طاعةِ الله، وأَشدَّهم خوفًا، وأَعظمَهُمْ إخلاصًا ومحبةً، حتى لقد كانت قدماه تَتورَّمان من طول القيام بين يَدَىْ الرحْمنِ، فيُسأَل عن ذلك إشفاقًا عليه فيقول: «أَفلا أَكونُ عبدًا شكورًا».

[رواه المغيرة وأخرجه الجماعةُ إلا أبا داود].

وكان من سُنَّته ﷺ الْمُداومةُ على اثنتى عشرةَ ركعةً مُوزَّعةً قبلَ الفرائضِ وبعدَها فى اليوم والليلة، وكانت تَزِيدُ على هذا أَحيانًا على النحو الذى بينه بعضُ أَزواجِه ﷺ وبعضُ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم، والرسولُ ﷺ هو قدوتُنا فى طريق الخيرِ والهدى والنور، وينبغى للمؤمنين أن يَحرِصوا دومًا على الاقتداءِ بالحبيب الهادى ﷺ، وأَن يَعَضُّوا على سُنَّته بالنواجذ، وقد ثبت أَنه ﷺ كان يُثابر على الصلاة قبل الظهر، وبعده، وبعد المغرب، وبعد العشاء، وقبل صلاة الصبح، كما ثبت أيضًا أَنه كان يصلِّى قبلَ صلاةِ العصر، وبعضُ هذه السننِ كان يصلِّيها عليه السلام ثنتين أو أَربعًا أو سِتًّا.

يا أحباب الله:

إن الْمُثابرةَ على أَداءِ هذه السننِ الرواتبِ ثوابُها عظيم؛ لأَن فيها تقربًا إلى الله عز وجل، واقتداءً بنبيِّه الهادى ﷺ. . ولنتدبرْ ما يقوله النبىُّ ﷺ فى ركعَتَى الفجر: «ركعتا الفجرِ خيرٌ من الدنيا وما فيها».

[أخرجه أحمد ومسلم والترمذى عن عائشة].

وعندهم عنها أنه ﷺ قال: «لَهُما أَحبُّ إِلىَّ من الدنيا جميعًا» وفى حثِّ الْمُؤمنين على الحرص عليهما يقول فيما رواه أبو هريرة: «لا تَدَعُوا رَكْعَتَى الفجرِ ولو طَرَدَتْكُمُ الخيلُ». [أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما].

وَمَنْ دخل الْمسجدَ والْمؤذنُ يُقِيمُ لصلاةِ الصبحِ، أَو وجدَ الجماعةَ قائمةً ولَم يكن صلَّى ركعتى الفجرِ، فعليه أَن يُصلِّيَهُمَا بعد طلوع الشمسِ وارتفاعِها ففى الحديث الذى رواه أبو هريرةَ: «مَنْ لَم يُصلِّ ركعَتَى الفجرِ حتى تطلعَ الشمس فَلْيُصَلِّهما». [أخرجه البيهقى].

وثبت لدى مالكٍ رضي الله عنه أَن ابنَ عمرَ فاتته ركعتا الفجر فقضاهما بعد أَن طلعت الشمسُ.

ورُوى أيضًا أن الرسولَ ﷺ لَم يَنْهَ مَنْ صلَّاهما بعد صلاةِ الصبحِ وقبلَ الشروقِ، فقد روى محمدُ بنُ إبراهيمَ التيمىّ عن قيس بنِ عمرَ قال: خرج رسولُ الله ﷺ فأُقيمت الصلاة، فصليتُ معه الصبحَ، ثم انصرف النبىُّ ﷺ فوجدنى أُصلى، فقال: «مَهْلًا يا قيسُ، أصلاتان معًا؟ فقلت يارسولَ اللهِ إنى لَم أكن ركعتُ ركعتَى الفجرِ، فقال: فلا إذن».

أَما الراتبةُ قبلَ الظهرِ فقد صلّاها النبىُّ ﷺ ثِنتين، كما صلاها أربعًا وكذلك كان يفعلُ فى الراتبة بعد الظهر، ورغَّب فى صلاتها أربعًا، ففى حديث أُمِّ حبيبةَ رضِى اللهُ عنها أَن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَلّى قبل الظهرِ أَربعًا، وبعدها أَربعًا حَرّمه اللهُ على النار». [أخرجه أحمد وبعض أصحاب السنن].

وفى رواية عبدِ اللهِ بنِ السائب، أَن رسولَ اللهِ ﷺ كان يصلى أَربعًا بعد أن تزولَ الشمسُ قبلَ صلاةِ الظهرِ، وقال: «إنها ساعةٌ تُفتَحُ فيها أَبوابُ السماءِ، وأُحِبُّ أَن يَصعدَ لى فيها عملٌ صالح». [أخرجه أحمد والترمذى].

أَما قبلَ فريضةِ العصرِ فقد جاءَ أَن الرسولَ ﷺ صلى ركعتين قبلها كما أَنه صلَّى أَربعَ ركعاتٍ بتسليمتين، يقول ابنُ عمرَ: قال رسولُ الله ﷺ: «رحم اللهُ امرأً صَلَّى قبل العصر أَربعًا» ويقول علىٌّ رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يُصلّى قبل العصر أَربعَ ركعاتٍ، يَفْصِلُ بينهنَّ بالتسليم على الْمَلائكةِ الْمُقرَّبين، والنبيِّين ومَنْ تَبِعَهُم من الَمُسلمين والْمُؤمنين». [أخرجه أحمد والترمذى].

وجاء عند أبى داود عن علىّ: أن النبى ﷺ كان يُصلِّى قبل العصر ركعتين.

وجاءَ الترغيبُ فى التعجيل بصلاة ركعتين بعْد صلاةِ الْمغربِ، وقال ابنُ عمرَ رضِى اللهُ عنهما: «صلَّيتُ مع النبىِّ ﷺ ركعتين بعد الْمغربِ فى بيته».

أَما النافلةُ بعد الغروبِ وقبلَ الإقامةِ لصلاة الْمغربِ فقد بيَّن النبىُّ ﷺ أَنها «لِمَنْ شاءَ» ولَم يَنْهَ عنها مَنْ رآهم يُصَلُّونها فى مسجده حين خرج إليهم لصلاة

المغرب. [فى رواية عبد الله المزنى عند البخارى].

أما راتبةُ بعد العِشاءِ فمُؤكَّدةٌ، وقد ورد أَنها ثِنتان، كما ورد أنه ﷺ صلَّاها أربعًا وسِتًّا، قالت عائشةُ رضي الله عنها فى جواب سؤال: «ما صَلَّى العشاءَ قَط فدَخل بيتى إلا صلَّى أَربعَ ركعاتٍ، أَو ستَّ ركعاتٍ».

أَما عن الراتبةِ بعدَ صلاةِ الجمعةِ فقد جاءَ عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنه : «وكان لا يصلِّى بعدَ الجمعةِ حتى ينصرفَ، فَيُصَلِّى ركعتين فى بيته».

كما جاءَ الترغيبُ - يا أهلَ الإيمان - فى صلاة أَربعِ ركعاتٍ بعد الجمعةِ ففى الحديث: «مَن كان مُصلِّيًا بعد الجمعةِ فليصلِّ أَربعًا». . وَمَنْ صلى النافلَة فى المسجد بعد الجمعةِ فلْيفصِلْ بينها وبين الفريضةِ بِذكْرٍ ونحوه، وهكذا يَفْصِلُ بين الفريضةِ والتطوعِ بِمقدار خَتْم الصلاةِ ونحوه.

وصلاةُ الوِتر يُحبها الله عز وجل، وثابر عليها النبىُّ ﷺ، والسلفُ الصالح وفى الحديث: «إن الله وِترٌ يُحِبُّ الوِترَ فأَوتِرُوا يا أَهلَ القرآن» وقال عليه السلام: «الوترُ حقٌّ، فمن لَم يُوتِر فليس منا». قالها ثلاثًا. [رواه على وأخرجه أبو داود والترمذى]. أَما عددُ ركعاتِ الوتر فَهُو: واحدةٌ، أَو ثلاثٌ، أَو خمسٌ، أَو سبعٌ، أَو تِسْع. [رواه عبد الله بن بريدة وأخرجه أحمد وأبو داود].

وقد ورد: أَن النبىَّ ﷺ كان يُوتِر بسبع أَو خمس لا يفصلُ بينهنّ بتسليم كحديث أُمِّ سلمةَ: «كان رسولُ الله ﷺ يوتر بسبع وبخمسٍ لا يفصل بسلام ولا بكلام». [أخرجه أحمد والنسائى].

وكان ﷺ يقول بعد التسليم من الوتر: «سبحان الْملكِ القُدُّوس» ثلاثًا، كما فى حديث أُبىّ بن كعب عند أبى داود، وزاد الدارقطنى ويقول: «ربِّ الْملائكةِ والرُّوح».

وفى الحديث «من نام عن وِترهِ فلْيُصَلِّ إذا أَصبح».

[رواه أبو هريرة وأخرجه البيهقى والحاكم].

فاستكثِروا من الخيرات - أَيها الْمُؤمنون - وسابقوا إلى مغفرة من ربكم - واتقوا الله - وتوبوا إليه.

* * *

للخطبة الثانية:

ومِنْ فَضلِ التطوُّعِ - يا أهل الإيمان - أنه يَجْبر ما عسى أن يكون قد وقع فى الفرائض من نقص.

فعن أَبى هريرة رضي الله عنه أَن النبى ﷺ قال: «إن أول ما يُحاسب الناسُ به يوم القيامة من أَعمالهم الصَّلاةُ، يقول ربُّنا لِملائكتِه، وهو أَعلم: انظروا فى صلاةِ عبدى أَتمها أَم نَقَصها؟ فإن كانت تامَّةً كُتِبتْ له تامَّةً، وإن انتقصَ منها شيئًا، قال: انظُروا هل لعبدى مِن تَطوُّعٍ؟ فإن كان له تطوُّعٌ قال: أَتِمُّوا لعبدِى فريضتَهُ من تَطَوُّعِهِ، ثم تُؤخَذُ الأَعمالُ على ذلك».

[أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما من حديث تميم الدارى].

وفى الحديث: «من صلَّى ركعتين مُقبلًا على الله بِقَلْبِه خرج مِنْ ذُنُوبِه كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّه».

وعن ابن عباس فيما أخرجه البخارى قال: «شَهِد عندى رجالٌ مرضيُّون، وأرضاهم عندى عمر، أنّ النبىّ ﷺ نَهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تُشرِقَ الشمسُ، وبعد العصرِ حتى تَغْرُب الشمس». وجاء مثله عن أبى هريرة عند البخارى.

ومن حديث رواه زيد بنُ ثابت وأخرجه البخارى: «صَلُّوا أيها الناسُ فى بيوتكم، فإن أفضلَ الصلاةِ صلاةُ المرءِ فى بيته إلا المكتوبة» أى: إلا الفرائض

الخمس، وفى هذا الحديث، ومِن عمَلِ النبى ﷺ الدَّلالةُ على أن صلاة النافلة فى البيت أفضل، فمن لم يَخْشَ ضياعَها فليُصلِّها فى بيته وإلَّا صلّاها فى المسجد.

وقد سأَل عبدُ اللهِ بنُ شفيقٍ يرحَمُه الله أُمَّ الْمُؤمنين عائشةَ رضي الله عنها عن تطوُّع رسولِ اللهِ ﷺ فقالت: «كان ﷺ يُصلِّى فى بيتِهِ قبل الظهرِ أربعًا، ثم يخرجُ فيصلِّى بالناس، ثم يدخل فيصلى ركعتين، وكان يصلِّى بالناس الْمغربَ، ثم يدخل فيصلِّى ركعتين، ويُصلِّى بالناس العشاءَ ويدخلُ فيصلِّى ركعتين، وكان يُصلِّى من الليل تسعَ ركعاتٍ فِيهِنَّ الوترُ.. ثم قالت: وكان إذا طلع الفجرُ صلَّى ركعتين، ثم يخرج فيصلى بالناس صلاةَ الفجر».

وعن علىٍّ رضي الله عنه : أَن رسولَ اللهِ ﷺ كان يصلِّى فى إثرِ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ ركعتين إلا الفجر والعصر.

وينبغى لنا فى بيوتنا أن نُكثر من ذِكر اللهِ، وتلاوة القرآن والاجتهاد فى النوافل كصلاة الضحى، وصلاةِ الليل وغير ذلك.

جاء عن ابن عباس وعائشة: أن رسول الله ﷺ: «كان يُصلِّى من الليل ثلاثَ عَشرةَ ركعةً، منها الوِتر وركعتا الفجر». [أخرجه البخارى].

وقال خارجةُ بنُ حُذافةَ: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يومًا فقال: «قد أَمدَّكُم اللهُ بصلاةٍ هى خيرٌ لكم من حُمْرِ النَّعَم، وهى الوِترُ، فجعَلها فيما بين العشاءِ الآخرةِ إلى طلوع الفجر». [أخرجه أبو داود وابنُ ماجه والترمذى].

فطوبى لِمن أقبل على ربِّه بالإخلاص والمحبة.

* * *

١٩ - فَرضٌ على المُستطيع

أمَّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. [آل عمران: ٩٧].

أيها المُؤمنون:

الحجُّ أحدُ أركانِ الإسلام، ثَبَتَتْ فرضيتُه بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمةِ، فلو أنكر فرضيتَه إنسانٌ حُكِمَ بكُفْرِه وارتدادِه عن الإسلامِ؛ لأنه من الفرائضِ التى عُلِمت من الدِّينِ بالضرورة.

ودليلُ فرضيتِهِ من الكتاب قولُ الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن أدلةِ الفرضيةِ فى السُّنَّةِ قولُ أبى هريرةَ رضي الله عنه عند مسلم: «خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال: يا أيُّها الناسُ قد فُرِضَ عليكُم الحَجُّ فَحُجُّوا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الأَقرعَ بنَ حابسٍ سأَل رسولَ اللهِ ﷺ فقال: الحَجُّ فى كلِّ سَنةٍ أَو مرَّةً واحدةً؟ فقال: «بل مرةً واحدة، فَمَنْ زَاد فتطوُّع».

[أخرجه الخمسة غير الترمذى].

والحجُّ فرْضٌ على الْمُكلَّفِ الْمُستطيعِ، وهو الإنسانُ الْمُسلمُ البالغُ العاقل الحرُّ القادرُ بالْمالِ والبدن، وليس لديه موانعُ شرعيةٌ، لا تَتَحَقَّقُ معها الاستطاعةُ.

أَما القدرةُ بالْمال فهو أَن يكونَ مالكًا نفقاتِ السفرِ والإقامةِ على حسب ظروفِ زمانهِ، زائدًا على نفقاتِ من تَجِبُ عليه نفقتُهم شرعًا طَوالَ مدةِ غيبتِه حتى يعودَ إليهم؛ إذ نَهَى الرسولُ ﷺ عن تضييعِ الْمرءِ مَنْ يعولُهم، وفى الحديث: «كَفَى بالْمرءِ إثْمًا أَن يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت». [أخرجه أبو داود].

ولا يلزمُ الْمُعْسِرَ أن يستدينَ لحجَّتِه أو عُمْرتِه، كما لا يَلْزمُه أن يَقْبلَ الْمالَ الْموهوبَ له لذلك، فإذا استدانَ الْمُسلمُ، أو قَبِلَ مالًا موهوبًا له وحجَّ، فحجُّه صحيحٌ.

وأما الاستطاعةُ بالبدن، فهى أن يكونَ الْمكلَّفُ سليمَ الجسم، صحيحَ البدنِ خاليًا من الأمراضِ الْمُعيقةِ عن الحركة، وعن تَحَمُّلِ مشاقِّ الركوب والانتقالِ من مكانٍ إلى مكان، فمَنْ كانت به زَمَانةٌ أو مرضٌ لا يُرْجَى شِفاؤه، أو تَقَدَّمتْ به السنُّ، فلم يَعُدْ يَقْوَى على الرحلةِ، فكلُّ هؤلاءِ لا تتحققُ فيهم شروطُ الاستطاعة.

وقد يتحققُ لإنسانٍ شروطُ الاستطاعةِ بالْمال والقدرةِ البدنيةِ، ولكن تُقَابلُه عوارضُ تَمنعُ استطاعتَهُ وذلك مثلُ: أن يكونَ شخصٌ محبوسًا، أو خاف على نفسِه من وَباء فى طريقه، أو عَلِمَ أن الطريقَ غيرُ مأمونةٍ، ويخشى على نفسه أو على مالِه ونحو ذلك، وينبغى للمرأة أن تسافرَ معَ مَحْرَم كالأب والابنِ والعمِّ ونحوِهم، أو مع زوجِها، فإذا تحققت شروطُ الاستطاعةِ وجب على الْمسلم - رجلًا كان أو امرأة - أن يُبادرَ إلى أداءِ الحجِّ، وعلى هذا حثَّ رسولُ الله ﷺ. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «مَن أرادَ الحجَّ فلْيَتعَجَّلْ».

وإذا كان الْمُسلمُ مستطيعًا بِماله ولكنه عاجزٌ ببدنه، لزمه أن يُنيبَ شخصًا يَحُجُّ عنه، ويُعطيَهُ نفقاتِه لسفره وإقامتِه حتى يعودَ، والأَصلُ فى ذلك ما رواه ابنُ عباس رضي الله عنهما أَن امرأَةً من خثعم جاءَت النبيَّ ﷺ تَسْتَفْتِيه، فقالت يا رسولَ الله: إنَّ فريضةَ اللهِ على عبادِه فى الحجِّ أدركتْ أبى شيخًا كبيرًا لا يستطيعُ أَن يَثْبتَ على الراحلة، أفأَحُجُّ عنه؟ قال: «نعم». وكان ذلك فى حجَّة الوداعِ، وقد روى هذا الحديثَ أَيضًا علىُّ بنُ أَبى طالبٍ رضي الله عنه. [متفق عليه].

وفى هذا الحديثِ دليلٌ على أن الْمرأَةَ يجوزُ أَن تحجَّ بالنيابة عن الرجلِ، سواءٌ

كان حيًا عاجزًا ببدنه أو كان ميّتًا، كما يصحُّ للرجل أن يحجَّ عن الْمرأةِ كذلك.

أيها الْمُؤمنون:

ويجوز الحجُّ عن الْميت أَوصى بذلك أَو لَم يُوصِ، سواء كانت النيابةُ عن حجةِ الإِسلامِ أَو عن نَذْرِه الذى لَم يَفِ به حتى ماتَ، فعن ابنِ عباس ﵄ قال: سَمِع النبىُّ ﷺ رجلًا يقول: لَبَّيْك عن شُبْرمَة؟ قال: «وَمَنْ شُبْرمَةُ؟». قال أَخٌ لى أَو قريبٌ لى - والشكُّ من الراوى - فقال: «أَحَجَجْتَ عن نفسِك؟». قال: لا. قال: «فَحُجَّ عن نَفْسِكَ ثمّ حُجَّ عن شُبْرُمَةَ». [أخرجه أبو داود وغيره].

وفى هذا الحديثِ إِشارةٌ إِلى أَن مَن يُريد الحجَّ عن غيره ينبغى له أَن يكونَ قد أَدَّى الفريضةَ عن نفسِهِ، وبهذا تَمسَّك كثيرٌ من أَهل العلم.

وفى الحَجِّ عمَّن نذرَ أَن يحُجَّ ولَم يتمكنْ من الوفاءِ بنذرِه حتى مات، جاءَ حديثُ ابنِ عباس ﵄ قال: جاءت أمْرأة من جُهَينةَ إِلى النبىِّ ﷺ، فقالت: إِن أُمى نَذَرَتْ أَن تَحُجَّ فلم تحج حتى ماتت أفحُجُ عنها؟ فقال ﷺ: «أرأيتِ لو كان عَلَيْهَا دَيْنٌ أَكنتِ قاضِيَتَهُ عنها؟». قالت: نعم. قال: «فاقضوا اللهَ تعالى فاللهُ أَحقُّ بالوفاءِ». [أخرجه البخارى].

وهذا من باب إِيصالِ البِرِّ والخيراتِ للأَمواتِ، أَن يَحُجَّ الْمُسلمُ عن الميتِ برًا به ووفاءً له، خصوصًا الحجّ عن الأَبوين أَو أَحدِهِما حِرْصًا على إِيصالِ الثوابِ والخيرِ إِليهما، قالَ بعضُ أَهلِ العلم: جاءَت الرُّخْصَةُ فى الحجِّ عن الكبير الذى لا مُنْهِض له ولَم يحجّ، وعمَّن مات ولَم يحجّ، أَن يَحُجَّ عنه ولدُه، وإِن لَم يوصِ به، ويُجْزِئُه إِن شاءَ اللهُ تعالى.

فطُوبى للمؤمنِ الذى يؤدّى فرائضَ الله بإخلاصٍ، وَيتَّبعُ سُنةَ نبيِّه ﷺ ويبادر لأَداءِ حجةِ الإِسلامِ عند الاستطاعةِ، مبتغيًا وجْهَ الله.

واتقوا الله - عبادَ الله - وسلُوه العونَ على طاعتِه، وأَخلِصُوا العبادةَ لله،

وتوبوا إليه، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له.

* * *

للخطبة الثانية:

إن الْمُسلمَ الْمُكَلَّفَ الْمُستطيعَ ينبغى له أن يؤدِّى حجةَ الإسلام، ولا يُسَوِّف، فإنه لا يدرى ما يأتى به الغدُ، والحجُّ فريضةٌ من فرائض الإسلام وأَحَبُّ الأعمالِ إلى الله أن يتقرَّبَ العبدُ إلى ربِّه بأداءِ ما افترضه عليه.

وقد جاءَ عن ابن عباس رضي الله عنهما - ويَرْفَعُه بعضُهم - قولُه: «مَن كان عنده مالٌ يُبلِّغُهُ الحجَّ فلم يحجّ، أو عنده مالٌ تَحِلُّ فيه الزكاةُ فلم يُزَكِّه سأَلَ عندَ الْموتِ الرَّجْعَةَ. فقيل: يابنَ عباسٍ، إنَّا كُنَّا نَرى هذا للكافرين، فقال: أنا أَقرأُ عليكم قرآنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون].

ورُوِى عن عليِّ بنِ أبى طالب رضي الله عنه فى التحذير من التهاون بشأن الحج لِمن كان مستطيعًا: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته: «يا أَيُّها الناسُ إن الله فرضَ الحجَّ على مَن استطاع إليهِ سَبيلًا، ومَنْ لَم يفعلْ فَلْيَمُتْ على أىِّ حالٍ شاءَ، إن شاءَ يَهُوديًا، أَو نصرانيًا، أو مجوسيًا، إلَّا أَن يكونَ به عُذْرٌ من مرضٍ أَو سلطانٍ جائر، لا نصيبَ له فى شفاعَتِى ولا وُرودِ حَوْضى».

[روى بعبارات مختلفة عند الترمذى وعند البيهقى عن أبى أمامة].

ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال فيما يَرويه قتادةُ عن الحسن: «لقد هَمَمْتُ أَن أَبعثَ رجالًا إلى الأَمصارِ فينظروا إلى مَن كان لهُ مالٌ ولَم يَحُجَّ فيضْرِبُوا عليهِ الجِزْيَةَ» فاللهمَّ اجعلنا من أهل طاعتك.

٢٠ - بُيوت الله

أما بعد: فيا أيها الْمُؤمنون:

عن أَبى سعيدٍ الخدرىِّ ﷺ عن النبىّ ﷺ قال: «إذا رأيتمُ الرجلَ يعتادُ الْمساجدَ فاشهَدُوا له بالإيمان». قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. [أخرجه الترمذى وغيره].

أى إنَّ الرجلَ الذى يتعلقُ قلبُه بالْمسجد، ويحرصُ على الذهابِ إليه، وعلى أن يواظِبَ على أداءِ الفرائضِ مع الإمام، فإنَّ الشهادةَ له بالإيمان جائزةٌ؛ لأنَّ الله عز وجل جعل عمارةَ الْمسجدِ من أماراتِ الإيمانِ وصِدْقِ اليقين، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة].

وقد أَخبر الهادى الحبيبُ ﷺ أن من السبعة الَّذِينَ يُظِلُّهم الله فى ظل رحمتِه يومَ تدنُو الشمسُ من الخلائق رجلًا قلبُه معلَّقٌ بالْمساجدِ، وقال بعض السلف: «إذا رأَيتم الرجلَ يَعمرُ الْمسجدَ فحَسِّنوا الظَّنَّ به».

إنَّ الْمساجدَ - ياعباد الله - بيوتُ الله عز وجل، فيها يُعَبدُ، وفيها يُذكَر اسمُه، وهى مناراتُ الهدى وأَعلامُ الدين، شرَّفها الله عز وجل وعظَّمها بإضافتِها إليه: فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن] أى توجَّهوا إليه وحده بالعبادة والدعاءِ، واحذروا الشرْكَ بسؤال غيره، وإنما تُبنى الْمساجدُ للصلاة، وذِكْرِ اللهِ عز وجل، وقراءَةِ القرآن، والتقربِ إلى الْمولى، والذلِّ بين يديه، والرغبةِ فيما عنده من الثواب، والخشيةِ من غضبه.

إن عمارةَ الْمساجدِ من أَعظم القُرباتِ إلى الله عز وجل، وتكونُ عمارتُها ببنائها وتنظيفِها، وفرشِها، وبإنارتِها، وإمدادِها بالْمياهِ الطاهرةِ للتيسير على الْمؤمنين، وغيرِ ذلك من صنوف العنايةِ بالْمساجد، كما تكون عمارتُها

بالاعتكاف فيها، والصلاةِ، وكثرةِ الترددِ عليها لإقامة الجماعات.

وإن زائرَ المسجدِ يكونُ فى رعايةِ اللهِ ورحمتِه، مادام جالسًا فيه مُراعيًا آدابَ الجلوس، مُنصرفًا بقلبه إلى الله، وقد جاءَ فى الحديث القدسى: إن الْمُؤمنَ إذا مَشى إلى الْمسجدِ قال الله تبارك اسْمُه: «عَبْدِى زَارنى، وعلىَّ قِراهُ، ولن أَرضَى له قِرًى دُونَ الْجنَّةِ».

وعن أَبى هريرةَ رضى عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «أَلا أَدُلُّكُمْ على ما يَمحُو اللهُ به الخَطايا، ويرفعُ به الدَّرجات؟» قالوا: بَلى يارسولَ الله. قال: «إسباغُ الوضوءِ على الْمكارِه، وكثرةُ الْخطا إلى الْمساجدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّباطُ، فذلِكُمُ الرِّباطُ». [مالك ومسلم وغيرهما].

واللهُ عزَّ وجَلَّ يحفظُ عُمَّارَ الْمَسَاجِدِ الْمتعَلِّقَةَ قلوبُهم بها الْمواظبين على حضور الجماعاتِ فيها، يَحفظُهم فى أَنفسِهم وأَموالِهم وأَهليهم، كما جاء فى الخبر عن الحبيب الْمُصطفى ﷺ أنه قال: : «مَنْ أَحَبَّ اللهَ فَلْيُحِبَّنى ومَنْ أَحَبَّنى فَلْيُحِبَّ أَصحابى، ومَنْ أَحبَّ أَصحابى فليُحِبَّ القرآنَ، ومن أَحبَّ القرآنَ فليُحِبَّ الْمساجدَ، فإِنها أَفنيةُ اللهِ أَبنيتُه، أَذِنَ فى رَفْعِها، وبارَكَ فيها، ميمونَةٌ ميمونٌ أَهلُها، محفوظةٌ محفوظٌ أَهلُها، هم فى صلاتهم، واللهُ عزَّ وجل فى حوائجهم، وهم فى مساجدهم، واللهُ مِن ورائهم».

وقال تعالى ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أى أن الْمساجدَ تُبنى، وتُعظَّم ويُرفعُ شأْنُها وتُطَهَّرُ من الأَنجاس والأقذار، ويُعْنَى الْمُؤمنون بأَمرها، وقد جاءَ فى الحديث:

«إن الْمسجدَ لَيَنْزَوِى من النَّجاسةِ كما يَنْزوى الجلدُ من النار». . وقال ﷺ كما عند ابن ماجه عن أبى سعيد: «مَنْ أَخرَجَ أَذًى مِنَ الْمسجدِ بنى الله لهُ بيتًا فى الجنَّةِ»، وكانت أُمُّ الْمُؤمنين عائشةُ تقول، كما عند أحمد والترمذى: «أَمرنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نَتَّخِذَ الْمساجدَ فى الدورِ وأن تُطهَّرَ وتُطَيَّبَ» كما أَن الْمساجدَ وهى بيوتُ الله، وأَحَبُّ البقاعِ إليه ينبغى لنا أن نصونَها، وأَن ننزهَها عن الروائح الكريهةِ، والأَقوالِ السَّيِّئةِ وكلِّ ما يُؤذى الْمصلِّين.

وقد جاءَ فى الصحيحين حديثٌ رواه جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه أَن النبىَّ ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ ثومًا أَو بَصَلًا فلْيعتزلْنا أَو فلْيعتزِلْ مساجدَنا وليقعُدْ فى بيتِهِ» وفى لفظ آخر: «من أَكلَ الثومَ والبصلَ والكراثَ فلا يَقْرَبَنَّ مسجدَنا؛ فإِن الْمَلائكةَ تتأَذَّى مِمَّا يتأذى منه بنو آدمَ».

وجاءَ فى خطبةٍ لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: «لقد رأَيتُ رسولَ الله ﷺ إذا وجدَ رِيحَهما من رجلٍ فى الْمسجد أَمر به فأُخرج إِلى البَقيع، فمَن أَكلَهما فلْيُمِتْهُما طَبخًا» والْمرادُ أَلَّا تكونَ لهما رائحةٌ فى الفم. [مسلم وغيره].

فعلينا معاشرَ الْمُؤمنين أَن نراعِى آدابَ الْمسجد، ونحن فى زيارة الْمولى عز وجل، والْملائكةُ تحفُّ بالجالسين والْمُصلين.

قال أَهلُ العلم: وإِذا كانت العِلَّةُ فى إِخراجه من الْمسجِدِ أَنه يُتَأَذَّى به - أَى بسبب رائحةِ البصل والثوم - ففى القياس أَن كلَّ من تأَذَّى به جيرانُه فى الْمسجد، بأَن يكونَ ذَرِبَ اللسانِ سَفيهًا عليهم، أَو كانَ ذا رائحةٍ قبيحةٍ لا تُفارقهُ لسوءِ صناعتِه، أَو كان ذا عاهةٍ مُؤذيةٍ كالْجُذام وشِبْهه، وكلِّ ما يَتأَذَّى به الناسُ، فإِنه ينبغى له أَن يعتزلَ الْمسجدَ، مادامت العلةُ موجودةً فيه، حتى تزولَ، ومِثْلُها الْمجالسُ العامَّةُ كمجالس العِلمِ والولائمِ ونحوهما.

ومِما ينبغى الاحترازُ منه فى الْمساجد: البيعُ والشراءُ فيها، ونِشْدانُ الضالةِ،

قال النبىُ ﷺ لرجل طلب ضالَّته فى الْمسجد، كما عند مسلم عن بريدة: «لا وجدتَ، إنّما بُنِيَتْ الْمساجدُ لِما بُنيت له» أى إن الْمساجدَ تُعمر للعبادة والذكرِ وقراءَةِ القرآنِ، لا للاشتغال بأعمال الدنيا، وفى حديث عند البخارى وعند أحمد عن أبى هريرة: «إنما هى لذكْرِ اللهِ والصلاةِ وقراءَةِ القرآن». وسمِعَ عمرُ رجلًا يرفعُ صوتَه فى الْمسجد فأنكر عليه ذلك وقال له: ما هذا الصوتُ؟ أتدرى أين أنت؟. [أخرجه النسائى عن عبد الرحمن بن عوف].

أى إنه فى بيتِ الله وينبغى له أن يلازمَ الوقارَ اللازمَ للمسجد.

وعن واثلةَ بنِ الأسقع أن النبىَّ ﷺ قال: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ ومَجَانِينَكُمْ، وشِراءَكم، وبَيْعَكم، وخُصوماتِكم، ورفْعَ أَصواتِكم، وإِقامَةَ حُدُودِكم، وسَلَّ سُيوفِكم، واتَّخِذُوا على أبوابِها الْمَطَاهِرَ، وجَمِّرُوها فِى الْجُمَعِ». [ابن ماجه والطبرانى].

جَمِّروها: أى بَخِّرُوها

فطُوبى لزوارِ الْمساجدِ الْمتعلقةِ قلوبُهم بها العاملين على عمارتها.

واتقوا الله - عبادَ الله - وحافظوا على أَداءِ الصلواتِ الخمسِ فى الْمساجد، وتوبوا إِلى الله، وسلُوه العفْوَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة.

* * *

للخطبة الثانية:

من الآداب التى ينبغى أَن تُراعى: دخولُ الْمسجدِ مُبتدئًا بالرِّجل الْيُمنى والصَّلَاةُ على النبىِّ ﷺ وسؤالُ الله الرحمةَ، والخروجُ مُبتدئًا بالرِّجلِ اليسرى وسؤالُ الله من فضله، ومِمَّا أَوصى به الرسولُ ﷺ أَن نقولَ عند الدخول: «باسم الله، اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، ربِّ اغفر لى ذُنُوبى وافْتَحْ

لِى أَبوابَ رَحْمَتِكَ» وعند الخُروجِ: «باسم الله، اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ ربِّ اغْفِرْ لِى ذُنُوبى، وافْتَحْ لى أَبوابَ فضلِك».

[روته فاطمة الزهراء ﵂ وأخرجه أحمد والترمذى].

ومن السُنَّةِ: أن يبدأ الْمسلمُ بصلاةِ ركعتينِ تحيةً للمسجد، فعن قتادةَ أَنَّ النبىَّ ﷺ قال: «إذا دخل أَحدُكم الْمسجدَ فلْيَرْكع ركعتَين قبلَ أن يجلسَ»

[أخرجه مسلم ورواه أبو قتادة].

وهذه مزيةٌ للمسجد يتميَّزُ بها عن سائر البيوتِ ولداخِل الْمسجد أَلَّا يتخطَّى رقابَ الناسِ، ولا يُنازعَ أَحدًا فى الْمكان، وأَلَّا يُضَيِّقَ على أَحدٍ فى الصف، وأَن يتحاشى الْمرورَ بينَ يَدَى الْمُصلِّى، ويُنهَى الجالسون فى الْمسجدِ عن البُصاق، والتنخُّم، وفرقعةِ الأَصابعِ، وعن أحاديثِ الدنيا ورفعِ الأصواتِ، وعن كل ما لايتفقُ مع وقار الْمسجد وحُرمتِه.

إن الْمساجدَ بيوتُ الْمُتَّقين، وإن الحرصَ على زيارتها ومراعاةَ آدابِ الجلوسِ فيها يَرفعُ الدرجاتِ، ويكونُ سببًا فى عظيم الثواب، وقد جاءَ فى الحديث: «إِن الْمساجدَ بيوتُ الْمُتَّقِين وَمَن كانت الْمساجدُ بيتَه ضمِنَ الله تعالى له الرَّوْحَ والرَّاحةَ والجوازَ على الصراط». وقال علىٌّ ﵁، كما عند ابن أبى حاتم: «إذا مات العبدُ يبكى عليه مُصلَّاه من الأَرضِ ومَصعَدُ عملِه من السماءِ» ثمّ قرأ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان] وقال رسول الله ﷺ «مَنْ تطهَّر فى بيتِهِ ثمَّ مَشَى إِلى بيتٍ من بيوتِ الله ليقضى فريضةً من فرائضِ الله، كانت خطوتاه إِحداهُما تحُطُّ خطيئةً والأُخرى ترفَعُ درجةً». [أخرجه مسلم ورواه أبو هريرة].

وفى التحذير من أحاديث الدنيا والاشتغال بغير العبادة قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «سيكونُ فى آخر الزمان قومٌ يكونُ حديثُهم فى مساجدهم،

ليس للهِ فيهم حاجةٌ». [أخرجه ابن حبان فى صحيحه].

كما لا يجوز البيعُ والشراء فى المساجد، وفى هذا يروى أبو هريرة ﷺ: «إذا رأيتم من يبيع أو يَبْتاعُ - يشترى - فى المسجد فقولوا: لا أَرْبَحَ اللهُ تجارتَك، وإذا رأيتم من يَنْشُدُ ضالَّةً، فقولوا: لا ردّها الله عليك».

[أخرجه النسائى والترمذى وقال: حديث حسن صحيح].

فطوبى لأهل المساجد المحافظين على نظافتها وعلى آداب الجلوس فيها، المنصرفين إلى ذِكْرِ الله وعبادته.

* * *

توجيهات شريفة «للدرس»:

*** عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».** [متفق عليه].

وزادت عائشة رضى الله عنها: «كانوا إذا مات فيهم الرجلُ الصالح بَنَوْا على قبره مسجدًا، أولئك شِرارُ الخلقِ». [أخرجاه].

*** عن حكيم بن حزام الأسدى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقامُ الحدودُ فى المساجد ولا يُستقاد فيها».** [أخرجه أحمد وأبو داود بسند ضعيف].

*** وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البُصاق فى المسجد خطيئة، وكفَّارتُها دفنُها»** [متفق عليه].

فمن وقع منه شىءٌ مثل هذا فليقم بإزالته بنفسه.

* * *

٢١ - صيام التطوع

الحمدُ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أَنفسِنا ومن سَيِّئات أَعمالِنا، من يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هادِىَ له. وَأَشْهَدُ أَن لَّا إِلهَ إِلَّا الله وحدهُ لا شَرِيك له، وأَشْهَدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

نحمَدُ اللهَ الذى شَرع لنا من العباداتِ، ما يُطهِّرُ النفوسَ، ويُزكِّيها ويَرْفَعُها بالخيرات والبركاتِ؛ لتكونَ أَهلًا للسعادة الأُخروية، وأَجْزَلَ الثوابَ لِمَنْ يصومُ طاعةً لله، وطلبًا لِمرضاته، ورغبةً فيما عنده.

ونُصلى ونُسلمُ على الحبيب الهادى، رسولِ ربِّ العالمين، وقائِدِ الغُرِّ الْمُحَجَّلين يومَ الدين، وعلى آله وأَصحابِهِ وَمَنِ اقْتدى به إِلى يوم الدين.

أَمَّا بعد: فيا عبادَ الله:

عن أَبى أُمامةَ ﷺ قال: قلتُ: يارسولَ الله، مُرْنى بأَمرٍ يَنْفَعُنى اللهُ تعالى به. فقال: «عليك بالصومِ فإِنه لا عِدْلَ له». [أخرجه النسائى].

أيها الْمُؤمنون:

الصومُ مَفهومُهُ الشرعىُّ الإِمساكُ عن الْمُفطِّرات من طلوع الفجرِ الصادقِ إِلى غروبِ الشمسِ مع النيّة، والصومُ عبادةٌ يتقرَّبُ بها العبدُ الْمُؤمنُ إِلى خالقه، يرجو رحمتَه، ويطلبُ ثوابَهُ، ويشكرُ له نِعمتَه، مُبتغيًا تكفيرَ السَّيِّئاتِ والرِّىَّ يومَ يظمأُ الغافِلون، والقربَ من الرضوان يومَ يُبْعَدُ الْمُعانِدون.

والنبىُّ ﷺ وهو أَعلى الناسِ منزلةً عند ربِّه، كان قلبُه معلَّقًا بالعبادات مُداوِمًا على الطاعات، مُكثِرًا من القُربات، وكان هَواه فيما يُرضِى ربَّه، ومن ذلك حِرصُه على الصوم، فكانَ ﷺ لا يَمرُّ عليه شهرٌ دون صيام تقرُّبًا إِلى الله، ورغبةً فى رفيع الدرجات، وعلوِّ الْمنزلة.

تقول السيدةُ عائشةُ ﵂ : «كان رسولُ اللهِ ﷺ يصومُ حتى نقولَ لا يُفطِر،

وَيُفطِرُ حتى نقولَ لا يصومُ، وما رأيتُ رسولَ الله ﷺ استكمل صيامَ شهرٍ قَط إلّا رمضانَ، وما رأيته فى شهرٍ أكثر منه صيامًا فى شعبان.

[متفق عليه واللفظ لمسلم].

أى إن من هَدْيِهِ ﷺ الإكثارَ من الصيام فى شهر شعبانَ، مع المُداومة على الصيام فى كلّ شهرٍ من شهور العام، ولكنه لم يكن يُتِمُّ صيامَ شهرٍ سوى شهرِ الفريضةِ وهو رمضانُ. وفى الحديث الذى رواه أنسٌ ﷺ قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أىُّ الصوم أفضلُ بعدَ رمضان؟ قال: «شعبان لتعظيم رمضانَ» وأىُّ الصدَقةِ أفضلُ؟ قال: «فى رمضان». [أخرجه الترمذى].

وكان الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم يَجتهدون فى الاقتداءِ بالنبىّ ﷺ وتَتبُّعِ أحوالِه فى عباداته؛ لِحرْصهم على الخير، ولَمَّا رأَوْا أنه ﷺ يُكثِر من الصيام فى شعبانَ سأله أُسامةُ بن زيد ﷺ: يا رسولَ الله، لَمْ أَرَكَ تصومُ فى شهرٍ من الشهور ما تصومُ من شعبان؟ فقال: «ذلك شهرٌ يَغْفُلُ عنه الناسُ بين رجَب ورمضانَ، وهو شهرٌ تُرْفَعُ فيهِ الأعمالُ إلى رَبِّ العالَمين، وأُحِبُّ أن يُرْفَعَ عملى وأنا صائم». [أخرجه النسائى وأبو داود وصححه ابنُ خزيمة].

أيها المُؤمنون:

طُوبى لِمن يَقتدى بالنبىّ ﷺ، ويسعى لتكميل نفسِه بطاعة ربِّه، ويَحرِصُ على الاستزادة من الخير، والصومُ بابٌ من أبواب الخيرِ عظيمٌ، وعبادةٌ يُجْزَلُ لصاحبِها الثوابُ، وتكونُ له وقايةً من عذاب النار، وفى الحديث الذى يَرويه أبو هريرةَ ﷺ، يقول النبىُّ ﷺ: «مَنْ صَامَ يومًا فى سبيلِ اللهِ تعالى جعل اللهُ بينه وبينَ النارِ خَندقًا كما بين السماءِ والأَرضِ». [أخرجه الترمذى].

وفى رواية أَبى سعيدٍ الخدرىّ ﷺ: «ما مِن عبدٍ يصومُ يومًا فى سبيلِ الله إلا باعَد اللهُ بذلك اليومِ وجْهَه عن النارِ سبعينَ خريفًا». [متفق عليه].

وإنّ الصومَ - يا أحباب الله - وسيلةٌ فعّالةٌ لتربية النفسِ على الكمالاتِ، وصيانتِها من الرذائل والآفات؛ لذا أَوصى الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ به الشبابَ غيرَ القادر على نفقاتِ الزواج، ليكونَ الصومُ للشابِّ - وهو فى قوته ونشاطه - وِجَاءً، أى حاميًا من مزالقِ الشهوات، ومُعينًا على تَوقِّى الرَّذائل، ذلك أَن الصومَ يُقَوِّى الإرادةَ، وَيُنمِّى فى النفس الوازعَ عن الشرِّ، والرغبةَ فى الخير، ويَجعلُ الْمُؤمنَ أَكثَرَ قدرةً على ضبط نفسِه عن شهواتها ورغباتِهَا.

إن خير العمل - يا أهلَ الإيمان - ما كان عن إخلاص لله عز وجل، وفيه اتِّبَاعٌ للنبىِّ ﷺ، وقد نهى النبىُّ ﷺ عن صوم الأَيام كُلِّها، فقال ﷺ فى الحديث الذى رواه ابنُ عمر رضي الله عنهما: «لا صامَ منَ صام الأبد». [متفق عليه].

وعن أبى قتادة عند مسلم بلفظ: «لا صام ولا أفطرَ».

ومن وصايا الرسولِ ﷺ للمستزيدين من الخير، الراغبين فى صيام الدهرِ كُلِّه قولُه فيما يرويه ابن عَمْرو وأخرجه البخارى ومسلم: «أَحَبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داودَ، وأَحَبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داودَ كانَ ينامُ نِصْفَ الليلِ، ويَقوم ثُلثَه، وينامُ سُدسَه، وكان يُفْطِر يومًا ويَصومُ يومًا» إذ إن الإفراطَ يُضْعِف البدن، ويدعو إلى السآمةِ والْمللِ ويُعِيق عن السعى والكسبِ، وخيرُ الأُمورِ أَوساطُها، وأَحبُّ الأَعمالِ إلى الله ما داومَ عليه صاحبهُ، وكان ﷺ عملُه دِيمةً.

ومن هَدْيه ﷺ فى صيام التطوُّع صيامُ يومِ الاثنين والخميسِ من كلِّ أُسبوع وقد سُئل عن ذلك فقال: «إن يومَ الاثنين والخميسِ يَغفِرُ الله فيهما لكلِّ مسلمٍ إلا مُهْتَجِرَيْن، يقول: دَعْهما حتى يَصْطَلِحا». [أخرجه ابنُ ماجه بإسناد حسن].

وكان ﷺ يقول: «إن هَذين اليومَيْن تُعْرَضُ فيهما الأَعمالُ».

[من رواية أبى هريرة عند مسلم والترمذى].

وكان ﷺ يُرَغِّب فى صيامِ الأيامِ البيضِ، فعن عبد الله بنِ قتادةَ بنِ ملحان عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يأمُرنا أن نصومَ أيامَ البِيض: ثلاثَ عشرةَ، وأربعَ عشرةَ، وخمسَ عشرةَ، وقال: «هُنَّ كَهَيْئَةِ الدَّهر».

[عند أصحاب السنن].

وكان ﷺ يُوصى بصيام ثلاثةِ أيام من كلِّ شهرٍ؛ لأنَّهَا تَعْدِلُ صيامَ الشهرِ كلِّه إذ الحسنةُ بعشرِ أمثالها، وفى حديث أبى ذَر رضي الله عنه أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «مَنْ صامَ من كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ فذلك صيامُ الدهرِ، فأنزلَ الله تصديقَ ذلك فى كتابهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٦]. واليوم بعِشرة أيام».

[أخرجه أحمد والترمذى].

ومن هَدْيهِ ﷺ فى صومِ التطوُّعِ صيامُ يومِ عاشوراءَ، وهوَ العاشِرُ من الْمُحرَّم، وفيه يقولُ أبو قَتادةَ وأخرجه مسلم وغيره: سئل رسولُ الله ﷺ عن صيامِ يومِ عاشوراءَ فقال: يُكَفِّرُ السنةَ الْماضية» وقَدْ صَامه ﷺ، وأَمرَ بصيامهِ قبل فرْضِ صيامِ رمضانَ، فلمّا افْتُرِضَ رمضانُ قال: «إن عاشوراءَ يومٌ من أيام الله، فَمَن شاء صامَه» وحين صامه ﷺ فى المدينة قال فيما يرويه ابنُ عباس عند مسلم: «لئن بقيتُ إلى قابل لأَصُومَنَّ التاسعَ» فلم يَأْتِ العامُ الْمُقبلُ حتى تُوفِّى رسولُ الله ﷺ، وكان ابنُ عباس يقول: «صوموا التاسعَ والعاشرَ، وخالِفُوا اليهود».

وورد عنه ﷺ الترغيبُ فى صيام ستةِ أيام من شوال، فعن أَبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن صَامَ رمضانَ، ثمَّ أَتْبعه سِتًّا من شوال كان كصيامِ الدَّهر». [أخرجه مسلم].

وهذه الأَيامُ الستةُ تُصام متفرقةً أو متتابعةً وفى أى وقت من الشهر، وكره مالكٌ رضي الله عنه وَصْلَها بيومِ الفِطْر، وحذَّر من الظنِّ بوجوبها، وذلك من حرصهم

على أن تظلَّ الفرائضُ واضحةً فى أذهانِ الناسِ، لا يُضافُ عليها مِنْ وَهْمِ الناسِ ما ليس منها.

وقد نُدِبَ لنا أن يصومَ الْمُؤمنُ يومَ عرفةَ وهوَ التاسعُ من ذى الحجةِ، وذلك لغيرِ الحاجِّ بِعرفةَ، وفيهِ يقولُ الرسولُ ﷺ فيما يرويه أبو قتادةَ: «صيامُ يومِ عرفةَ إنى احتسِبُ على الله تعالى أن يُكفِّرَ السنة التى قبلَهُ والسنةَ التى بَعْدَهُ».

[أخرجه مسلم وهذا لفظ الترمذى].

وكان ﷺ يصومُ تسعةَ الأيام الأولى من ذى الحِجَّةِ كما روتْ أزواجُه رضى الله عنهنَّ، وقد رغَّب فى الاجتهاد فى الطاعة والعبادة والذِّكر والصيام فى هذه الأيام، فعند البخارى رواية ابن عباس: «مامِن أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه».

وفى الحديث المتفق عليه جاء النهى عن صوم يومى عيد الفِطْر وعيد الأضحى، (رواية أبى سعيد الخدرى) لا يجوز صومهما لا تطوعًا ولا نذرًا.

هذا بعضُ هَدْيه ﷺ - يا عبادَ الله - فى صيامِ التطوعِ، وفى ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتنافِسون.

فاتَّقوا الله - عبادَ الله - وأَطِيعُوه، واطْلُبوا مغفرتَه ورضوانَه، واقتدوا بنبيِّه الأمين: وأَحْيُوا سُنَّته، فالله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّ الهُدى والرحمةِ، وعلى آله وأَصحابهِ ومَن تَبِعَهم بإحسان إلى يومِ الدِّين.

أما بعد:

فقد قالت عائشةُ رضي الله عنها كما فى الصحيحين: «لَم يكن النبىُّ ﷺ يصومُ شهرًا أكثرَ من شعبانَ»، ثم قالت: وكان يقول: «خذوا من العملِ ما تُطيقون، فإن الله لن يَمَلَّ حتَّى تَمَلُّوا». وكان أَحبَّ الصلاةِ إلى النبىِّ ﷺ ما دُووِم عليهِ، وإن قَلَّتْ، وكان إذا صلَّى صلاةً داوم عليها، وفى رواية مسلم والنسائى والترمذى: «ما رأيتُ النبى ﷺ فى شهر أكثرَ منه صيامًا فى شعبان كان يصومُه إلا قليلًا».. الحديث.

وفى الحديث: «وإنَّ رِيحَ فَمِ الصائمِ أَطيبُ عند الله من ريحِ الْمِسْكِ».

إن العباداتِ - يا عبادَ الله - تطهِّر النفوسَ، وتُنير البصائرَ، وتقرِّبُ من الله عز وجل، وإن أَفضلَ الأعمالِ وأَحبَّها إلى الله فرائضُه التى فرضها الله على عبادِه، وإن التطوعَ مجالُ التنافسِ فى الخيراتِ، والصعودِ فى مدارجِ الْوَلاية لله، والقربِ منه سبحانه وتعالى.

وإن الصومَ من أَعظم القرُباتِ، حَرَص عليه الصالحون، ولَم يتهاون بشأْنه أَهلُ الخير، وطلابُ الرضوان، فطوبى لِمن اقتدى بالحبيب الْمُصطفى ﷺ وحَرص على الاستزادة من الصالحات، وداوَم على طاعة اللهِ بالصلاة والصيام وسائرِ القُربات، ولقد كان النبىُّ ﷺ يُكثِرُ من الصيام فى شهرِ شعبانَ، ولَم يُتمَّ صيامَ شهرٍ سِوى رمضان، وهو الْمعلم والهادى ﷺ.

إن أَهل الصومِ فى الدنيا - يا عبادَ الله - هم أَهلُ الرِّىِّ يومَ يظمأُ الناسُ، فطوبى لهم وحسنُ مآب، قال ﷺ كما جاء فى الصحيحين عن سهل بن سعد: «إن فى الجنة بابًا يقالُ له الريَّان، يدخل منه الصائمون يومَ القيامةِ، لا يدخلُ منه أَحدٌ غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِقَ فَلا يدخلُ منه أَحدٌ».

اللهمّ أَعِنَّا على ذِكْرِك وشُكرك وحسنِ عِبادتِك، واجعلْنا مِمَّنْ يستمعون القولَ فَيتَّبعون أَحسنَه، واغفِرْ لنا، وارحَمْنا، واعفُ عنَّا، وبارِكْ لنا فيما أَعطيتنا

يا أَرحمَ الراحمين، اللهم اجعلْنا من التوَّابين، واقْسِم لنا من خشيتِك ما تحولُ به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبَلِّغنَا به جنَّتَك، ومن اليقين ما تهوِّنُ به علينا مصائِبَ الدُّنيا. اللهمّ اجعلْ ثأْرَنا على مَنْ ظَلَمنا، وانصُرْنا على من عادانا ولا تجعَلْ مُصيبتَنا فى ديننا، ولا تجعلْ الدنيا أَكبرَ هَمِّنا، ولا مَبْلغَ عِلْمِنا، ولا تُسَلِّطْ علينا مَن لّا يرحَمُنا.

اللهم لا تَدَعْ لهذا الجمْع فى هذا اليوم الْمبارك ذنبًا إلَّا غفرتَه، ولا هَمًّا إلَّا فرّجْتَه ولا دينًا إلا يسَّرتَ قضاءَه، ولا ولدًا إلَّا هَدَيته، ولا كَرْبًا إلا كشفته، ولا مَرَضًا ولا مريضًا إلا شفيتَه برحمتك وعفْوِك يا ذا الجلالِ والإكرام.

اللهمَّ انصُرْ الإسلامَ وأهلَه، واخذُلِ الباطلَ وأَهلَه، وارضَ اللهم عن أَصْحَابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وصلِّ اللهم على الحبيب الْمُصطفى، وأَكثروا من الصلاةِ عليه فقد قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب].

* * *

توجيهات شريفة للدرس:

وقد سُئلت السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها : هل كان رسول الله يختصُّ من الأيام شيئًا؟ قالت: «لا، كانَ عملُه ديمةً، وأيُّكمْ يُطِيقُ ما كانَ رسولُ الله ﷺ يُطِيقُ». أى إنه كان ﷺ يُداومُ على العمل الصالح مع الرِّفق والتوسُّط.

روى أَبو هريرةَ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «شهرُ الصبرِ وثلاثةُ أيامٍ من كلِّ شهرٍ صومُ الدهرِ».

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة كما عند مسلم: «أفضلُ الصيام بعدَ رمضانَ شهرُ اللهِ الْمُحرَّم، وأفضلُ الصلاةِ بعد الفريضةِ صلاةُ الليل». وإن فضلَ صيام شهر الْمحرّم إنما هو بالنسبة للأشهر الحرم؛ لأن فضيلة التطوع بالصيام فى شهر شعبان تَعْظُمُ على سائر الشهور - والله أعلم -.

وروى أبو هريرة كما عند البخارى: «لا يَحِلُّ للمرأةِ أن تصومَ - أى تطوُّعًا - وزَوْجُها شاهدٌ إلّا بإذنه». وزاد أبو داود: «غير رمضان».

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «من نسِى وهو صائمٌ فأكَلَ أو شَرِب فَلْيُتِمَّ صومَه فإنما أطعمه اللهُ وسقاه». [اللفظ فى صحيح مسلم].

عن أبى قتادة الأنصاريِّ رضي الله عنه -- عند مسلم - أن رسولَ الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه وُلِدْتُ وفيه أُنزِل عَلَيّ» - أى فيه بَدْءُ نزولِ القرآن الكريم -.

عن مُعَاذةَ العدويةِ أنها سألت عائشةَ رضي الله عنها : أكان رسولُ الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثةَ أيام؟ قالت: نعم، فقلتُ لها: من أىِّ أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: «لم يكن يبالى من أىِّ أيام الشهر يصوم». [أخرجه مسلم].

وقال ﷺ: «من مات وعليه صيامٌ، صام عنه وَلِيُّه».

[روته عائشة واللفظ عند مسلم].

* * *

٢٢ - عيدُ الفطر

الحمدُ لله الذى هدانا لهذا وما كُنَّا لِنهْتدِى لولا أن هدانا الله - الله أكبر تسعًا - الله أكبرُ وهو الكبيرُ الذى عَنتِ الوجوهُ لكبريائه وعظمته، اللهُ أكبرُ وهو الحىُّ القيومُ الذى دَبَّر الكائناتِ بحكمته، الله أَكبرُ وهو القادرُ الذى أَبدع الْموجوداتِ، وعمَّها بإحسانه ورحمتهِ، الله أَكبر، والحمدُ لله كثيرًا وسبحانَ اللهِ على الدوام.

وأَشهد أَن لّا إِله إلا الله، جعل فى تعاقُبِ الأَعيادِ عِبرَةً لأولى الأَلبابِ، وأَشهدُ أَن سيدَنا محمدًا رسولُ الله الداعى إلى الهُدى والصوابِ. اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمدٍ خاتمِ النبيين، وعلى آله وصحبِه الحافظين لحدودِ الله العاملين بأَحكام الدينِ ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الْمُؤمنون:

عن سعد بنِ أَوسٍ الأَنصاريِّ عن أَبيه ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا كان يومُ عيدِ الفطرِ وقفت الْملائكةُ على أَبوابِ الطرقِ فنَادَوْا: اغْدُوا يا معشرَ الْمُسلمين إلى ربٍّ كريم، يَمُنُّ بالخيرِ ثم يُثِيبُ عليه الجزيلَ، لقد أُمِرْتُمْ بقيامِ الليلِ فَقُمتُمْ، وأُمِرْتُم بصيامِ النَّهَارِ فَصُمْتُم، وأطعتُم ربَّكم، فاقْبِضُوا جَوَائِزَكُم فإذا صَلَّوا نادى منادٍ: أَلا إنَ رَبَّكم قَد غفر لكُم، فارجِعُوا راشدين إلى رِحَالكم فهو يومُ الجائزةِ. ويُسَمَّى ذلك اليومُ فى السماء يومَ الجائزة».

[أخرجه الطبرانى فى الكبير من رواية أبى جعفر الْجُعْفى].

هذه بشرى - أَيها الْمُؤمنون - ساقها الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ للموحِّدين، فالْملائكةُ تقفُ لهم على أَبوابِ الطُّرقِ فى يوم عيدِ الفطرِ، تدعوهم للإقبال على صلاة العيد، والتوجُّهِ إلى ربٍّ كريم، لا يُخَيِّبُ مَنْ قَصده، وَيُوفِّقُ إلى الخيرِ، ثُمَّ يُثِيبُ عليه أَجزلَ الثوابِ تفضُّلًا منه سبحانه وتعالى وإحسانًا.

ثم إنَّ الْملائكةَ تُبشِّر منْ صَام رَمَضَانَ، وقام لياليَهُ بالبُشْرَياتِ الطَّيبات فَطُوبى

لِمَنْ قَام ليالىَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، وصام نهاره مخلصًا لله وحدَه وإذعانًا لأمره، فالْملائكةُ تناديه اليومَ هلُمَّ إلى جائزتِك ومكافأتِك، وإذا صلَّى الْموحِّدُ العيدَ ناداه الْمُنادى: ألَا إن الله قد غَفَر لك، فارْجعْ إلى بيتك رَاشدًا مُوفَّقًا، فإن اليومَ هو يومُ الجائزةِ، وهذا هو اسْمُه فى السماء، أى هو يومُ البَراءَةِ من الذنوب، والطهارةِ من العيوبِ، والنقاءِ من الأدناسِ والكُروبِ.

فَطُوبى لِمن أَحْيا ليلةَ العيد، ووطَّد العَزْمَ على توبةٍ نَصُوحٍ، وعلى الْمُداومةِ على طاعةِ عَلَّام الغيوب.. طوبى له وحسنُ مآب.

أيها الْمُؤمنون:

إن يومَكم هذا يومُ سُرور لِمَنْ صَدَقَ يَقِينُه، وَصَحَّتْ نيتُه، وقُبِلَ صيامُه وقيامُه، يومُ فَرح وسرور، لِمن طابتْ سَرِيرتُه، وحَسُن فى رمضانَ عملُه ومَسلكُه، إننا فى يوم مباركٍ، إنه يومُ عَفْوٍ وإحسانٍ لِمَن عَفا عمَّن ظَلَمَه، وأَحْسَنَ إلى مَنْ أساءَ إليه وَسَعَى بالصُّلح بين الأنام، ووصَل رَحِمه، وأكرم جارَه، وطَهَّر قلبَه من الغشِّ والغِلِّ والبغضاءِ للمسلمين، وطهَّر لسانَه مِمَّا يُغضِبُ الرحْمن.

هذا يومُ عيدٍ ولكنَّ العيدَ فى الحقيقةِ لِمنْ تَمسَّكَ بالدِّين، هذا يومُ الفلاح والنَّجاحِ، لو كان الْمُسلمون فيه مُتَّحِدين مُؤتلِفين، قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحد، ودستورُهم كتابُ الله.

هذا يومٌ مُبارَكٌ سَعيدٌ لو كنَّا بديننا مُتَمسِّكين، وبنبيِّنا محمد ﷺ مُقْتدين ولِمستقبل أُمةِ الإسلام عاملين، ولأَرض الإسلامِ مُطهِّرين من الإلحاد والزندقةِ ومن كلِّ مَظاهرِ الْمروقِ عن الدين، فلا تعلو فى أى بقعةٍ من بقاعِ الْمسْلمين كلمةٌ فوقَ كلمةِ التعظيم لله والتمجيد، ولا يكون للإلحادِ أىُّ صوتٍ فى بلادِ التوحيدِ، ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف].

فى هذا اليوم الْمباركِ يتجلَّى اللهُ على عبادِه الْمخلصين، بِمزيدٍ من الإنعام ينظُر فيه سبحانه إلى أَهل الصدَقةِ والإخلاص، والوفاءِ والْمودَّةِ والْمحبَّةِ، ينظرُ فيه سبحانه إلى التائبين توبةً نصوحًا، الْمراقبين فى السرِّ والعلانية ربَّهم، الراجين رحمتَهُ الخائفين من عقوبته.

أَما الذى يَهنأُ بالعيد حَقًّا - يا أحباب الله - فهو ذلك الذى استقام فى رمضانَ وبعد رمضانَ، ولَم يَعدِلْ عن الطريقِ الأَقوم، والصراطِ الأَعدلِ، ولَم يلعبْ به الشيطانُ فيصرفَه إلى اللهْو والعبَث، ونسيانِ حقوق الرحمن.

إن الذى يفرح بالعيد هو ذاك الذى يَخْفِضُ جناحيه ذُلا ورحمةً ورِقَّةً ولينًا لِوالديه، يَقْبَلُ نُصْحَهُما، ويُصغِى إلى كلامِهما، ويرجو رِضاهما بعد رجاءِ رِضَا ربِّهِ، أَما الْمطرودُ من قلبِ الوالدين لمعصيته لله فيهما، فهو مَطرودٌ من رحمةِ الله مغضوبٌ عليه والعياذُ بالله، حياتُه شقاءٌ وتعاسَةٌ، ومصيرُه عذابُ جهنَّمَ، وبئس الْمصيرُ إن لَم يرحَمْه الله بتوبة وأَوبةٍ إلى الحقِّ.

إن الذى يفرح بالعيد هو الذى يُسْعِد قلوبَ اليتامى، ويساعِدُ الأَراملَ والْمساكينَ وأَبناءَ السبيلِ بالصدقةِ والإحسانِ، أُولئك هم أَهلُ الصِّدقِ إن أَرادوا وَجْهَ الله، قلوبُهم مَملوءَةٌ بالتقوى عامرةٌ بالإيمان والهدى.

فاتَّقُوا الله - عبادَ الله - وتباعدوا عن كلِّ ما يُغْضِب الرحمنَ، وطهِّروا القلوبَ من الحَسدِ، والبغضاءِ، والخُصوماتِ، وكونوا عبادَ الله إخوانًا فى صفاء، وأَطعِموا الطعامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، واعفُوا عمَّنْ أساء، وارحموا البائسَ والفقيرَ، تنالوا غايةَ القبولِ والإكرام.

جاءَ فى صحيح مسلم عن أَبى هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله لا ينظرُ إلى أَجسامِكُمْ وَلا صُورِكُم ولكن يَنْظُرُ إلى قُلوبكم».

أَخبر الحبيبُ الهادى ﷺ، بأَنه إذا كان آخرُ ليلةٍ من رمضانَ غفر الله لعباده

الصائمين الْمُوحِّدين، فقال رجلٌ لرسول الله ﷺ: أَهِى ليلةُ القدْرِ يارسولَ الله، فقال: «لا، أَلَم تَرَ إِلى العُمَّالِ يَعملون، فإذا فَرغُوا من أَعمالِهم وُفُّوا أُجُورَهم».

نسأَل الله عزَّ وجل أَن يتقبلَ صِيامَنا وقِيامَنا، وأَن يَجْعَلَنا مِمَّنْ شَمِلَهم بِعَفْوِه ورِضْوانِه ورحمتِه وجودِه وبِرِّه وكرمِهِ فى هذا اليوم الْمبارك، وأَن يجمعَ قلوبَ الْمُسلمين على الْمحبة والوفاء.

أَقول قولى هذا وأَستغفر الله لى وَلكم ولسائِر الْمُسلمين من كلِّ ذنب، وتوبوا إِلى الله توبةً نصوحًا، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنْبَ له.

❋ ❋ ❋

توجيهات ودروس:

عن أبى أمامةَ ﷺ أنَّ النبىَّ ﷺ قال: «مَن قام ليلتَى العيد مُحتَسِبًا لم يَمُتْ قلبُهُ يومَ تَموتُ القلوب». [أخرجه ابنُ ماجه].

وجاء فى الحديث الذى رواه عبادةُ بنُ الصامت عند الطبرانى فى الأوسط والكبير: «مَن أحيا ليلةَ الفِطرِ، وليلةَ الأضحَى، لم يَمُت قلبُه يومَ تَمُوتُ القلوب».

وعن أنس عند البخارى: «كان ﷺ لا يَغدُو يومَ الفِطرِ حتى يأكلَ تَمرَات» وعند أحمد زيادة «ويأكلهنَّ أفرادًا». أى: وترًا.

وعن ابن عباس عند البخارى وأبى داود: «أن النبى ﷺ صلّى العيدَ بِلا أذانٍ ولا إقامة».

وعن عمرو بنِ شُعيب عند أبى داود: قال نبىُّ اللهِ ﷺ: «التكبيرُ فى الفطر سبعٌ فى الأولى، وخمسٌ فى الأُخرى، والقراءةُ بعدهما كِلتَيهِما». والأظهرُ أن التكبيراتِ السبعَ من دون تكبيرةِ الإحرام.

❋ ❋ ❋

٢٣ - فى عيد الأضحى الْمُبارك
من أحكام اليوم الْمُبارَك وآدابه

قال الله عز وجل لنبيِّه الأمين ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾. [الكوثر].

يوم عظيم مبارك:

جَمَعَ الله سبحانه وتعالى فى السورة الكريمة بين الأمرِ بالصلاة والأمرِ بالنَّحرِ، مِمَّا حَدا ببعض الْمُفسِّرين إلى تأويله بصلاة عيدِ الأضحى، وَبِذْبح الأضحيةِ بعد انتهاءِ الصلاةِ فى هذا اليومِ العظيمِ المبارك؛ كما بَيَّنت ذلك السنةُ النبويةُ الْمُطهَّرة.

كما تَضمَّن هذا الأمرُ معنَى الإخلاصِ، والتوجيهَ بالبُعد عن الرياء، أى اجْعَلْ صلاتَكَ ونَحْرَكَ خالِصَين لربك تُعطَ ثوابَهُما، وتنلْ مرضاتَهُ سبحانه[1].

وفى مشروعية العيدِ للمسلمين وبيانِه قال أنس رضي الله عنه : «قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال ﷺ: قد أَبْدَلكُم اللهُ بِهما خيرًا منهما: يومَ الأضحى، ويومَ الفِطر». [أخرجه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح].

يوم بهجة وألفة وشكر:

وإن يومَ العيدِ - يا أهل الإسلام - يومُ فرح وسرورٍ لأهل الإسلام، يومُ تعاطفٍ وتراحُم وتوادٌ لتأكيد الأُلفةِ والْمحبةِ بين أهل الإيمان. وهو يومُ تَوسِعَةٍ على العيال، ويومُ بِرٍّ وكَرَم وشُكرٍ للمنعم الوهَّاب.

ولذا يُستحَب فى العيد الْمُبارك لبسُ أحسن الثياب، والتطيُّبُ بأجود ما يجدُ من الطِّيب، ويُزاد فى عيد الأضحى الضحيةُ بأسْمن ما يجد؛ فقد رُوى عن

(١) هذا بعض ما جاء فى تأويل الآية الكريمة.

الحسن السبطِ ﷺ أنه قال: «أمرنا رسولُ الله ﷺ فى العيدين أن نلبسَ أجودَ ما نجد، وأن نتطيبَ بأجودِ ما نجد، وأن نُضحىَ بأسْمنِ ما نجد» ثم قال: «وأن نُظهرَ التكبيرَ والسكينةَ والوَقار».

[أخرجه الحاكم، وقد جاء عن طريق إسحاق بن برزخ وقد ضعفه الأزدى ووثقه ابن حبان].

ويُسنُّ لأهل كلِّ بيتٍ من الْمُسلمين القادرين أن يتقربوا إلى الله عز وجل فى هذا اليوم الْمُباركِ بتقديم الأضحيةِ مُتبعين فى ذلك سنةَ الحبيب الهادى ﷺ بأن يكونَ الذبحُ أو النحرُ بعد طلوع الشمسِ وارتفاعها، أى بعد مرورِ وقتٍ كافٍ لأداء صلاةِ العيدِ، أى بعد انتهاء الإمام من صلاتها يبدأ وقتُ ذبح الأضاحى، وما يُذبح قبل هذا الوقتِ أو ليلةَ العيدِ فإنه لا يُجزِئُ عن الأضحية، بل هو لحمٌ للتوسعة على نفسه وعياله، وإن قدَّم شيئًا منه للفقراء فهُو صدقة.

ففى الحديث الذى رواه البراءُ بنُ عازب ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولَ ما نبدأ به يومَنا هذا أن نُصلىَ ثم نرجعَ فننحرَ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سُنَّتنا، ومَن ذَبح قبل ذلك فهو لحمٌ قدَّمه لأهله، ليس من النُسُك فى شىء». أى فاته ثوابُ الأضحية ولم يؤدِّ سُنتها.

وعند الشيخين: «مَن ذبح قبل الصلاة فإنَّما يذبحُ لنفسه، ومن ذبح بعد الصلاةِ والخطبتين فقد أتمَّ نُسكَه وأصاب سُنةَ الْمُسلمين».

والأضحيةُ تكونُ بالضأن والْمعزِ والبقرِ والإبل أيها شاء.

وإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا فينبغى للمسلم أن يجعلَ نيتَه خالصةً لله عز وجل، راغبًا فى إحياء سنةِ أبينا إبراهيمَ الخليلِ عليه أفضلُ الصلاةِ والتسليم.

وعلى الْمسلم أن يجتهدَ فى اختيار البهيم السَّمينِ الْمتحققةِ فيه الشروطُ الشرعيةُ من حيث الخلوُ من العيوب المَانِعَة، كالْهُزال والْمرض والعَرج ونحوها، ومن حيث العمرُ، فالشاةُ تكون بِنتَ ستةِ أشهر فما فوقها، والْماعزُ

بنتَ سنة فما فوقها، وتُجزئ الشاةُ الواحدةُ والماعز عنه وعن أهل بيته، ومن البقر يُجزئ ما يكون ابنَ سنتين فما فوقهما، ومن الإبل ما يكون ابن خمسِ سنين، وتُغنى البقرةُ عن سبعة وكذلك البعير.

ويُسَنُّ أن يأكلَ أهلُ البيتِ من أُضحيتهم وأن يتصدَّقوا منها، وأن يُهدوا للأقارب والجيرانِ، تأكيدًا للبِرّ وحُسْنِ الصلةِ، ولا يُعْطَى الجزارُ أجرتَه منها وفى الحديث: «كلُوا وأطعموا وادَّخِروا».

إن أهلَ الطاعة والاقتداءِ والتضحِيةِ أهلٌ لرحمة اللهِ بفضله وإحسانه، وقد أكَّد الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ على القادرين بإحياء هذه السُّنَّةِ كلَّ عام، ففى الحديث الذى رواه أبو هريرةَ وأخرجه الحاكم: «من وَجَد سَعةً لأن يُضحِّىَ فلم يُضحِّ فلا يحضر مُصَلَّانا». [قيل إنه موقوف].

إن هذه الأيامَ الْمُباركاتِ - يا أهل الإسلام - لَمن أعظم أيام العام بركة وأكثرِها خيرًا وبِرًّا، إنها أيامُ ذِكْرٍ لله وشكرٍ له على عظيم فضلِه ونعَمِه.

إنها أيامُ رحمةٍ ومَغفرةٍ للطائفين والعاكِفين والركَّع السُّجود، والْمُخلصين التائبين، وللساعين فى الخير وإصلاح القلوبِ بالهديَّةِ، وبالكلمة الطيبة.

إنها أيامُ التسامُح والتجاوُز، وإن خيرَ أهلِ الإسلام هو البادئُ بالخير والساعى إلى الصلح، وإلى السؤال عن الأقارب والأرحامِ والجيرانِ والأصدقاءِ وتَفَقُّدِ أحوالِهم بنفْس طيبةٍ وصدرٍ رَحْب.

إنه لا عيدَ لعاقٍّ والديه، فلْيبادرْ إلى مرضاتهما فيما لا مَعصِيةَ فيه لله، إنه لا عيدَ لساعٍ فى فسادٍ أو شَرٍّ أو داعٍ إلى فُرقةٍ وتغييرِ القلوب، إنه لا عيدَ لِمُصرٍّ على معاصى الله مفرِّطٍ فى الصلاة، مانعٍ للزكاة شحيحٍ بالخير على عباد الله.

إنه عيدُ التَّوابين، عيدُ الأوَّابين، عيدُ أهلِ الخير والْمحبَّةِ والإصلاح بين

الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

عن أبى الدرداء أن النبىَّ ﷺ قال: «ألا أُنبِّئكم بَدَرجَةٍ أفضلَ من الصلاة والصيام والصدَقةِ؟ قالوا: بَلى يارسول الله، قال: صَلاحُ ذاتِ البَيْنِ، وفَسادُ ذاتِ البيْن هى الحالقةُ». [أخرجه البخارى وبعض أصحاب السنن].

وعند البخارى قال ابنُ عباس: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. [الأنفال: ١].

قال: «هذا تَحريجٌ من الله على الْمُؤمنين: أن يتقُوا الله وأن يُصلحوا ذاتَ بينهم». [أخرجه البخارى والطبرى].

والتحريجُ: التضْييقُ والتشديدُ.

وعند البخارى من حديث أنس: «لا تَباغضوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا عبادَ الله إخوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسلم أنْ يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث».

وفى حديث أبى أيوب عند البخارى: «وخَيْرهما الذى يَبدأُ بالسلام».

فَطُوبى لأهل الْمودَّةِ والإخلاص، الراغبين فيما عند اللهِ من الرحمة والرِّضْوان، طوبى لِمَن نالته دعوةُ ملائكةِ الرحمن فى يوم الغُفران، طوبى لِمن يرحمُ الضعيفَ، ويُوقِّر الكبير، ويُواسى الْمسكين، ويَصلُ الرحِمَ، ويعمل الخير ويجتنب الشر.

طوبى للحجَّاج والعُمَّارِ والْمُصلِّين الذِينَ أخلصُوا العملَ لله، وجمعوا القلوبَ، وصبروا على الطاعة والْمشَقَّةِ، طوبى لهم وحُسْنُ مَآب.

فاتقوا الله - عبادَ الله - وسَلُوه العفوَ والعافية.

* * *

للخطبة الثانية:

صلاة العيد ومن نفحات هذا اليوم

ومن سُنَن هذا اليوم الْمُبارك - يا أهل الإيمان - اجتماعُ الناس لصلاة العيد، وهى تَصحُ من الرجال والنساءِ والصبيانِ، ومن الْمُقيم والْمسافر.

والذى تفوتُه صلاةُ العيدِ مع الجماعة صَلَّاها مُنفرِدًا فى بيته، أو فى الْمسجد أو فى الْمصلَّى، وصلاةُ العيد ركعتان، وقد أخرج السبعةُ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أن النبىَّ ﷺ صلَّى يومَ العيدِ ركعتين لم يُصَلِّ قبلهما ولا بعدهما». - أى فى الْمصَلَّى -.

وفى حديث ابنِ عُمرَ وابن عباس الْمُتفق عليه: «كان رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمرُ يُصلُّون العيدين قبل الخطبة، وكان ﷺ يبدأ الخطبةَ بالحمد». وقد أُثِرَ أن التكبيرَ كان يأتى فى تضاعيف الخطبة، فينبغى لأهل الإسلام الاقتداءُ بنبىِّ الْهُدى والرحمةِ، والْمُبادرةُ يومَ العيد إلى الصلاة، ثم الاستماع إلى الخطبةِ ومشاركةِ أهل الإيمانِ فى سرورِهم وأفراحِهم، فى هذا اليوم الْمُبارَكِ المشهود الذى يقول فيه الْمُسلمُ للمسلم مُهَنِّئًا «تَقَبَّل اللهُ منا ومنك».

وتَتمُّ صلاةُ العيدِ بلا أذانٍ ولا إقامةٍ، فعند أبى داودَ، وأصلُه فى البخارى عن ابن عباس: «أن النبىَّ ﷺ صَلى العيدَ بلا أذانٍ ولا إقامة».

وفيه دليلٌ على عدم شَرعيتِهما فى صلاةِ العيد.

وفى الحديث الْمُتفَق عليه عن أبى سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان النبىُّ ﷺ يخرجُ يوم الفِطر والأضحى إلى المصَلَّى، وأولُ شىءٍ يبدأ به الصلاةُ، ثم ينصرفُ فيقوم مقابلَ الناس - والناسُ جلوسٌ على صفوفهم - فَيعِظُهم ويأمرهم ويُوصِيهم.

وفيه بيانٌ لِمشروعية خُطبةِ العيدِ، وأنها كخُطَب الْجُمَع تتضمنُ الأمرَ والوعْظَ، وأنها تكونُ فى العيدين بعد الصلاة.

وكان من سُنَّته ﷺ أنه يُخالف الطريقَ يومَ العيد، أى يرجعُ من مُصَلَّاه من جِهَةٍ غيرِ الجهةِ التى خَرَج منها إلى الصلاة، وقد جاء فى حديث جابر عند البخارى: «كان رسولُ الله ﷺ إذا كان يومُ العيد خالف الطريقَ»، ويكونُ ذلك مشروعًا للإمام والْمأموم، وهو أمرٌ مندوب إليه مُستحَبٌّ، ومن حكمة ذلك أن تَكثُرَ شهادةُ البِقَاع له، فإن الذاهبَ إلى الْمسجد أو الْمصَلَّى إحدى خُطواتِه ترفعُ درجةً، والأخرى تَحطُّ خطيئةً حتى يرجعَ إلى منزله، كما أن الْمُسلمَ يُسلِّمُ على مَن يُقابله من أهل الطريقين، ويَعظُمُ ثوابُه لذلك، إذ فى السلام والتهنئةِ بالعيد زيادةُ أُلفَةٍ وتأكيدٌ لقوة الروابطِ بين الْمُسلمين، وإزالةٌ لِما يكونُ من الجفْوَةِ.

التكبير:

ومن السُّنةِ التكبيرُ فى العيدين؛ قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وهذا فى عيد الفِطر، أى على ماوُفِّقتُم من الصيام وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. الأيامُ الْمعدوداتُ أيامُ التشريقِ، ويدخلُ فيها يومُ الأضحى، وقد جاء عن على وابنِ مسعود: أن التكبيرَ فى الأضحى من صُبح يومِ عرفة إلى عصر آخرِ أيام مِنى. [أخرجه ابن المنذر].

ومن صُوَرِه الْمأثورة: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد» جاء عن ابن عمر وابن مسعود. ومن طريق سلْمانَ بسند صحيح عند عبد الرزاق: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرًا».

اللهم اجعلها أيام خيرٍ وبَركةٍ علينا وعلى سائر الْمُسلمين، فاذكروا الله ذكرًا

كثيرًا، وأكثروا من الصلاة على النبى الهادى وعلى آله ومن تبعه.

❊ ❊ ❊

أحكام فى الأضحية ودروس:

عن البراء بنِ عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «قام فينا رسولُ الله فقال: أربعٌ لا تجوز فى الضحايا: العوراءُ البيِّنُ عَوَرُها، والْمريضةُ البيِّن مرضُها، والعرجاءُ البيِّن ضَلْعُها، والكبيرةُ التى لا تُنْقِى». [رواه أحمد والأربعة وصححه الترمذى وابن حبان].

هذه العيوبُ الأربعةُ مانعةٌ من صحة التضحية، إذا وُجد فيها عيبٌ واحدٌ منها، وذهب الجمهوُر إلى أنه يُقاس عليها غيرُها مِمَّا يكونُ أشدَّ منها أو مساويًا لها كالعمياء ومقطوعةِ الساق. وضَلعُها: أى اعوجاجُ الساق.

ولا تُنْقى: هى التى لا نِقْيةَ لها بكسر النون وإسكان القاف وهو الْمخُّ.

قال بعضُ العلماء إذا قُطعتْ إليَةُ البهيم أو ذَنَبُهُ قبل تَعيينه أو شرائهِ للأضحية فإنه لا يصلح للأضْحيةِ، أمَّا إذا حَدث ذلك بعد تعيين البهيم للأضحية لسببٍ مَّا خارجٍ عن إرادة الْمُضحِّى فإنه لا يضرُّ، كما قال ابن تيمية، وكما جاء فى حديث أبى سعيد قال: «اشتريت كبشًا لأضحى به فعدا الذئبُ فأخذ منه الإليةَ فسألتُ الرسولَ ﷺ فقال: ضَحِّ به».

[وفى سنده جابر الجعفى وشيخه محمد بن قرطة مجهول].

وقد جاء فى الصحيحين: «أن النبى ﷺ ضحَّى بكبشين أملحَين أقْرنَين ذبحهما بيده الشريفةِ وسَمَّى وكبَّرَ». كما جاء أنه ﷺ ذبح كبشًا، وقال: «اللهم هذا عَنِّى وعن من لم يُضحِّ من أمتى». [رواه أبو داود والترمذى].

وهذا من عظيم رِفقِه ورحمتِهِ بأمته، وإن ثوابَ الأضحية مع إخلاص النيةِ عظيمٌ، وأجرَها جزيل: ففى الحديث: «يا أيها الناسُ ضَحُّوا واحتسِبوا

بدمائها؛ فإن الدمَ وإن وقع فى الأرض فإنه يقعُ فى حِرز الله عز وجل».

[رواه الطبرانى فى الأوسط].

إن الأضحية - يا أهلَ الإسلام - من تمام اكتمالِ الفرحةِ والطاعةِ فى يوم الأضحى، ومن سُننه الماضية، وإن فى عناية الأسرةِ بها تعليمًا وتربيةً للأولاد وإحياءً لقصة الفداءِ الخالدة، ولقصةِ انقيادِ أبينا إبراهيمَ الخليلِ وابنِه إسماعيلَ عليهما الصلاةُ والسلام وتَسليمِهِمَا لأمر الله، ففى هذا التسليم والانقيادِ الرحمةُ والنعيمُ والبركةُ والخيرُ العميم، وعلينا أن نتدبرَ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾.

[الصافات].

لقد جزاه ربُّه خيرَ الجزاءِ، وأنعم عليه وعلى ولده بأعظم النعم لِصِدْق اليقينِ والإخلاصِ فى الطاعة، ومعرفةِ حقوقِ ربِّ العالَمين: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾.

[الصافات].

* * *

دعاء مبارك:

فى البخارى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسولِ اللهِ ﷺ: عَلِّمنى دعاءً أدعُو به فى صلاتى، قال: قُلْ: «اللهُمَّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفسى ظُلمًا كثيرًا، ولا يَغفرُ الذنوبَ إلا أنت، فاغْفِرْ لى مَغْفِرةً من عِندك، وارحَمْنى إنكَ أنت الغفورُ الرحيم».

٢٤ - التطهر والنظافة فى حياة المسلمين

قال الله تعالى: ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أيها الْمُؤمنون:

هذه مِنَّةٌ إلهيَّةٌ عُظمى، ونِعمةٌ كُبرى على عبادِه الذين يَرجعون إليه نادِمين على ما كان منهم من شِرْك أو ذنب، طالبين عَفْوَه ومَغفرتَه، عازِمين على توبةٍ نَصُوح، وكذلك هى مِنَّةٌ ونعمةٌ على عباده الذين طَهَّروا قلوبَهم من الشِّرك والشكِّ والنفاقِ، ومن كلِّ الآفاتِ التى تُفسدُ على المرء حياتَه، كما طهَّروا ظواهِرهم بالْماء من الجنَابةِ ومن الأَحداثِ، ذلك أن الإِسلامَ كما عُنِى بالطهارة الْمعنويةِ، عُنى أيضًا بالطهارة الحِسِّيةِ، وجعلها جُزءًا من حياة الْمسلم، وطَابَعًا لا غِنًى له عنه فى يومه وليلتِه، وفى الحديث: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمان».

[أخرجه مسلم والراوى أبو مالكٍ الأَشعرىُّ].

ومِمَّا يؤكِّدُ عنايةَ الإِسلام بالتطهُّر أن الله عزَّ وجلَّ مدَح أصْحَابَ رسولِ الله ﷺ بالْمحافظة على تطهيرِ ثيابِهم وجُسومِهم، وبالعنايةِ بالنقاءِ من البَوْلِ والغائطِ، والغُسلِ من الجنابة، يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨] بَعث رسولُ اللهِ ﷺ إلى عُوَيْم بنِ ساعدةَ الأنصاريِّ فقال: «ما هذا الطُّهورُ الذى أثنى الله به عليكم؟» فقال: يارسولَ الله ماخَرج مِنَّا رجُلٌ ولا امرأَةٌ من الغائطِ إلا غَسَل مَقْعَدتَهُ، فقال النبىُّ ﷺ: «هو هذا».

[رواه مجاهد وأخرجه الطبرانى].

والطهارةُ فى ديننا الحنيفِ تشملُ تَطهيرَ الباطنِ وتطهيرَ الظاهرِ، قال الله

تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدثر] أى طَهِّر ثيابَك بالْماءِ من النجاسات فإن التطهيرَ واجبٌ للصلوات، محبوبٌ فى غيرها، كما ينبغى أن يَتحرَّزَ الْمُؤمنُ من النجاسات بتقصير الثيابِ مخافةَ جَرِّ الذيولِ فيها، وتشملُ الآيةُ أيضًا الأمرَ بتطهيرِ القلبِ من كل ما يُغْضِبُ الربَّ، وبتطهير النفس من الأخلاق الذميمةِ، ومِمَّالا يَليقُ، ومن ذلك الطهارةُ من الشِّرك والنِّفاقِ والغِلِّ والحسدِ والحِقدِ وغيرِ ذلك.

ومن عناية الإسلامِ بالطهارة - يا أحباب الله - أنه جعلها شَرطًا لصحةِ الصلاة، ومُقدِّمةً لها، والرسولُ ﷺ يقول: «مِفْتاحُ الصلاةِ الطُّهُور» وهى الطهارةُ من الحدثِ والخَبثِ وكلِّ ما يُنجِّس الثوبَ أو البدنَ، وشدَّد رسولُ الله ﷺ فى الاستنجاء والتنزُّهِ من بقايا البول وإزالة أثره، يقول الحبيب الْمُصطفى ﷺ فيما أخرجه الدارقطنى ورواه أبو هريرة: «اسْتَنْزِهوا من البَوْلِ ؛ فإنَّ عامَّةَ عَذابِ القبرِ مِنْه» ولفظه عند الحاكم عنه: «أكثرُ عذابِ القَبْرِ من البَوْلِ».

وحكمةُ الإسلام فى ذلك واضحةٌ، وأثبتها الطبُّ الحديث، ذلك أن الفضَلات التى يُفرِزُها الجسمُ، كالبول والغائِط، تَحوى كثيرًا من جراثيم الأمراض.

وكما تَتمُّ طهارةُ الجسم والثوبِ من الأخباث بالغَسلِ بالْماء، فإن الطهارةَ من الحدَثِ تكونُ بالوضوء أو بالغُسْل، وفى الوضوءِ: تطهيرُ الفمِ، وتنظيفُ الأسنان التى هى مفتاحُ البطن، والْمعِدَةُ بيتُ الدَّاء، وهذا يُبيِّنُ لنا الحكمةَ فى الأمر بالسِّواك، كقوله ﷺ فى الحديث الْمُتفق عليه ورواه أبو هريرة: «لولا أن أَشُقَّ على أُمتى لأَمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ صلاةٍ» وجاء فيما روته عائشة: «السِّواكُ مَطْهرةٌ للفَمِ، مرضاةٌ للربِّ». [أخرجه النسائى وابن خزيمة].

وربط الإسلامُ الوضوءَ بأَسبابٍ تتكررُ، وتتجدَّدُ كالبول وغيره من نواقض

الوضوء ليتكرّرَ التطهيرُ، وتُصبحَ النظافةُ طابعَ الْمُؤمن، وفى الأثر: «بُنى الإسلامُ على النَّظافةِ».

وأوجبَ الإسلامُ الاغتسالَ فى حالاتٍ كالجنابة، وطهارةِ الْمرأةِ من الحيض والنّفاس، وسَنَّهُ فى حالاتٍ كالأعياد والجُمَع ولحضور كلّ اجتماع عامٍّ، وفى الغُسل تنظيفٌ للبدَن بإزالة أَوساخ الجِلدِ وإفرازاتِه من العَرق والوسخ.

وإنَّ حِرْصَ الإسلامِ على النظافة شاملٌ لكلّ ما يتصلُ بحياةِ الناسِ، ولذا نهى عن التَّغَوُّط فى الْمياه الجاريةِ، وفى الْمياهِ الراكِدَةِ، وفى الطرق، ومُسْتظلّ الناس، وتحت الأَشجارِ الْمُورقة، وفى الحديث الذى رواه معاذ وأخرجه أبوداود: «اتَّقُوا الْملاعِنَ الثلاث: البَرازُ فى الْموارِد، وقارعةِ الطريق، والظلّ»، ونهى ﷺ أن يُبال فى الماء الراكد أى الساكن، كما جاء فى صحيح مسلم عن جابر، وعنه عند الطبرانى: «نهى رسولُ الله ﷺ أن يُبال فى الماء الجارى»، ومعلومٌ أن البلهارسيا تنتقلُ عَدْواها إلى السَّليم، إذا استَخْدمَ ماءً راكدًا بَالَ فيه مريضٌ، لنرى إلى أى مَدًى يَحرِصُ الإسلامُ على سلامة الأَذواقِ مِمَّا يُؤذيها، وعلى سلامة الصحةِ العامةِ من مُسبِّبَات نَقلِ العدْوى.

ومن عناية الإسلام بالنظافةِ أَمْرُه بالاستحْدادِ، والخِتانِ، وبنتْفِ الإبطِ، وقَصِّ الأَظفار، وبتنظيفِ الأَناملِ، يقول الرسول ﷺ فى الحديث المتفق عليه ورواه أبو هريرة: «خمس مِن الفِطرة: الاستحدادُ، والختانُ، وقصُّ الشاربِ، ونَتفُ الإبط، وتقليمُ الأَظافر» وقد جاءَ التوجيهُ بتقليم الأَظافرِ والاستحداد ونتفِ الإبط وقصِّ الشارب كلَّ أُسبوع، وعلى أَلا يتجاوَز ذلك أَربعين يومًا.

وأَمر الإسلامُ بنظافة البيوتِ والطرقِ، ونظافة الطعامِ والشرابِ، وقد جعل مِن شُعَبِ الإيمان نظافةَ الطريق، والرسولُ ﷺ يقول فى الحديث الْمُتفق عليه ورواه أبو هريرة: «الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون شُعبةً - أو بِضْعٌ وستون شُعبةً - وأَفضلُها قولُ

لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذَى عن الطريق، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان» أى إزالة ما قد يكون فى الطريق من الشَّوك أو الحجَرِ أو القمامة ونحو ذلك.

أيها الْمُؤمنون:

إن دينًا تلك تعاليمُه ينبغى لأتْباعِه أن يكونوا أصحَّ الأمم أجسامًا وأكثرَهم عنايةً بالنظافةِ، نظافةِ الجسمِ والثوبِ والبيتِ والطريقِ، ونظافةِ الْمآكلِ والْمشاربِ، إلى جانب نظافةِ القلب، وطهارةِ النفسِ، وفى الحديث الذى رواه أبو ذَرٍّ وأخرجه مسلم وابنُ ماجه: «عُرضتْ علىَّ أعمالُ أُمتى حَسَنُها وقَبيحُها، فوجدتُ فى محاسن أعمالِها: الأذى يُمَاطُ عن الطريق، ووجدتُ فى مساوئ أعمالها: النُّخامةَ تكونُ فى الْمسجدِ لا تُدفن». وقال ﷺ: «مرَّ رجلٌ بِغُصنِ شجرةٍ على ظهْرِ الطريقِ فقال: واللهِ لأُنحِّيَنَّ هذا عن الْمُسلمين لا يُؤذِيهم، فأُدخِلَ الجنةَ». [رواه أبو هريرة وهو فى الصحيحين وعند أبى داود مثله].

فاتقوا الله - عبادَ الله - واطلبوا عفوَه ومغفرتَه وسلوه أن يجعلنا من التوابين ومن الْمُتطهرين.

* * *

توجيه وتحذير: جاء عن ابن عباس فى الصحيحين وعند بعض أصحاب السنن، أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِقَبْرين، فقال: «إنّهما لَيُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان فى كبير، بلى إنه كبيرٌ، أمَّا أحدُهما فكان يمشى بالنميمة، وأمَّا الآخرُ فكان لا يستَترُ من بَوْله». وفى لفظ: «فكان لا يَسْتَنْزِهُ مِن البَوْل» أو «لا يَستَبْرِئ من البول». وكلها عبارات تدلُّ على عدم تحفُّظه من البول، فكان يُصِيب جسْمَه وملابسه لعدم تَحرُّزه مِنه وهو الْمقصود بعدم الاستتار، أو كان لا يستنجى بعد التبوُّل فتبقى النجاسةُ فى بدنه أو ملابسه. أما النميمة فهى السعى بالإفساد بين طرفَين، وهذه من الأمور التى يظن الْمُستخفُّ بها أنها ليست كبيرة، وهى فى الواقع كبيرة، يندم صاحبها أشد الندم إذا لم يتُب، ويُقلع عنها قبل الْموت.

٢٥ - الصبر والمصابرة والمرابطّة والتضحية عناصر أساسية لتحقيق النصر

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

يا أهلَ الإسلام وأنصارَه:

أمَرَ الله الْمُؤمنين أن يَصبروا على دينهم الذى ارتضاه لهم، وهو الإسلام، فلا يَدَعُوه لسرَّاءَ ولا لضرَّاءَ، ولا لشدَّةٍ ولا لرخاء، حتى يَموتوا مُسلمين مُؤدِّين ما كُلِّفُوا به، وكما أُمروا بالصبر على الدين وتكاليفِه وبالثبات عليه والْمداومةِ على الطاعة، فإنهم أيضًا مأمورون بالصبر فى البأساء والضرَّاءِ وحين البأس، فللجهادِ مَشقَاتُه، وللحرب أعباؤها، والْمُؤمنُ مأمورٌ بالصبر على شدائدِ الحربِ، ومشقَّاتِ الجهادِ، ولهذا أمر اللهُ عبادَه الْمُؤمنين بالْمُصابرة ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أى صابروا أعداءَ الله فى الجهاد، أى غَالِبُوهم فى الصبر على شدائدِ الحربِ، ولا تكونوا أقلَّ منهم صبرًا وثباتًا، وفى الْمُصابرة مجاهدةٌ للنفس أيضًا، وَمُغَالَبةٌ لأهوائِها وما يَعْتريها من جَزَع أو قلق ؛ لتستمرَّ صابرةً على ما يجبُ الصبرُ عليه، فمِن أَخَصِّ صفاتِ الْمُؤمنين أنهم لا ييأسون من رحمةِ الله، ولا يَعتريهم قُنوطٌ أو خَوَرٌ إذا تأخر عليهم النصرُ لحكمةٍ يُريدها عز وجل.. بل من واجبهم أن يداوموا على إصلاح نفوسِهم، وأن يُحسنوا تَوكلَهم على ربِّهم، ويزدادوا ثِقةً فى وعْده بالنصر والتأييدِ لعبادِه الْمُؤمنين الصالحين، وهذا يدفعُهم إلى الْمزيد من اتخاذ الأَسبابِ الدينيَّةِ والدنيويَّةِ، وإلى الاعتصام بالصبر.

وأمر الله عبادَه بالْمرابطة ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أى وأَقيمُوا فى الثُّغور بالعُدَّة الْملائمةِ والعَتادِ، مُترصِّدين مستعدِّين للغزو، وأَصلُه من رِباطِ الخيلِ فى

الثغور لِحفظِها وصيانتِها عن دخول الأعداءِ إلى حَوزة بلادِ الْمُسلمين، وإن الرباطَ - يا أهل الإسلام - كلمةٌ تتسعُ لكلِّ ما عُرف، وما يُعرف أيضًا فى تحصين الثغور، وتحصين الْمداخلِ التى يُحتمَلُ أن تكونَ مَداخِلَ للعدوِّ.

وقد رغَّب اللهُ عبادَه الْمُؤمنين الْمُجاهدين فى كِلا الأَمرين: الصبرِ والرِّباطِ، لأنهما سببان قويَّان لحفظ هَيبةِ الأُمةِ فى صدور أَعدائِها، ولاستجلاب النصرِ من عند اللهِ عز وجل.. قال الله تعالى فيما يَحكيه عن الْمجاهدين الذين تمَّ لَهُم النصرُ والظفرُ فيما مضى؛ لنتأَسَّى بهم، وننهجَ نهجَهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

الصبر:

فالذين يظنُّون أنهم ملاقو اللهِ يُحسنون التوكُّلَ عليه، ولا يُصيب نفوسَهم جزَعٌ؛ لإيمانهم بأَن النصرَ مع الصبرِ بإذن الله تعالى.

وقال الله عز وجل - مخاطبًا نبيَّه ﷺ - فى معرِض التذكير بموقفه يومَ بدر، وهو يحثُّ الْمجاهدين على الصبر والإقدامِ والثبات -: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران].

ويهوِّنُ الله على الْمُؤمنين ما يُصيبهم فى سبيل الله، ويُرشدُهم إلى أَن الإِيمانَ يجعلُ من صاحبه قوةً لا تَلين، وعَزْمةً لا تُفَلُّ، ويُعلِّمهم أن سنةَ الله فى القتال أن يُداوِلَ بين الفريقين، وأن العاقبةَ للمتوكِّلين على الله، الصابرين

على القتالِ وشدائدِه، وما يتطلبُه من بذْلِ النفسِ والْمالِ، وتضحيةٍ بالراحة، ولنتدبر قولَه تعالى يخاطبُ عبادَه الْمُؤمنين يَحثُّهم على الثباتِ فى الدفاع عن الحقوق، وصيانةِ الْمُعتقَداتِ، والذودِ عن الْمقدَّسات، يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

أيها الْمُسلمون:

هذا قليلٌ من كثير، مِمَّا جاءَ فى توجيه الأُمَّةِ إلى الاعتصام بحبلِ ربِّها وحسنِ التوكلِ عليه، ولزومِ الصبرِ عندَ الشدائد، لأنه مفتاحُ النصرِ، ولنتدبر فى ذلك أيضًا قولَه تعالى ليُقَوِّىَ عَزْمَ الْمُؤمنين الْمُجاهدين، ولترتفعَ روحُهم الْمعنويةُ مهما طال أمدُ الحرب، ومهما كانت ضَراوةُ القتالِ يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران].

الرِّباط:

أَما الرباطُ فهو فى معناه، يشملُ يَقَظةَ الأمةِ أيامَ سِلْمِها، ويشملُ أَخْذَها الحيطةَ والحذرَ بكل الوسائلِ الْملائمةِ لظروفِ الْمكانِ والزمانِ ولروح العصرِ؛ مخافةَ أَن ينقضَّ عليها عدوُّها انقضاضَ الصاعقةِ الْمباغِتَةِ، وهم عنه غافلون، ولنتدَبَّرْ فى إرشاد الْمسلمين إلى ذلك وحثِّهم عليه قولَ الله تعالى مُحذِّرًا من

نيات العدوِّ الخبيثةِ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء].

ويأمُر الله عز وجل عبادَه الْمُؤمنين بالإعداد للسِّلْمِ والاستقرارِ وعدمِ التهاونِ بأمر القوةِ، وبحمايةِ الثُّغورِ؛ لإرهابِ العدوِّ حتَّى لا تُحدِّثه نفسُهُ باستغلالِ ناحيةٍ من نواحى الضعفِ، يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال].

فاللهُ عزَّ وجل يأمر الأمَةَ الإسلاميةَ باتِّخاذِ الأُهبةِ، وإعدادِ القوةِ الْمادية بتدريب الْمُقاتلين، وإعدادِ السلاح والْمُؤنِ والذخائر، وغيرِ ذلك مِمَّا تتطلبُه حاجةُ الأُمة للدفاع عن نفسها، وكبْحِ جِماحِ أعدائِها، واحتفاظِها بهيبتها فى صدورهم، مع ضرورةِ عنايتِها بالرباط للحماية والتنبيهِ للخطر عند أولِ بادرةٍ له، وهذا يتطلبُ من الْمُسلمين بذلَ الجهودِ والتضحيةَ بالْمال وتقديْمَه بسخاءٍ فى سبيل الله؛ لأن الْمالَ عُنصرٌ أَساسىٌ لا غنًى عنه، للإنفاق منه فى الوجوه التى تؤدِّى إلى حماية الأمةِ ودعمِ قوتِها، وتَمكينِهَا من الْمحافظةِ على مُقدَّسَاتِها وأَراضيها، وللدفاعِ عن الْمسلمين إذا أَصابهم حَيْفٌ، وأُريدَ بهم ضُرٌّ، لذا وعَد الله أهلَ السخاءِ الذين يَرجون وَجْهَ الله بأَن يُباركَ لَهم ويوفيَهُم أُجورَهم: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفى فضلِ الرباطِ والترغيبِ فيه، ولفْتِ الأُمةِ إلى شَرَفِه، وكثرةِ ثَوابِهِ وردتْ أَخبارٌ كثيرةٌ، ففى البخارى عن سهل بنِ سعد الساعدىِّ رضي الله عنه، أَن رسول الله ﷺ قال: «رِباطُ يوم فى سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدنيا وما عليها».

والْمرابطُ فى سبيل الله يُؤمِّنُه الله من فتنة القبرِ، ويَزِيدُ له ثوابَ عملِهِ

الصالح بعد موتِهِ، فقد سُمِعِ فُضالَةُ بنُ عُبيد كما عند أحمد يقول: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كلُّ مَيِّتٍ يُخْتَم على عمله - أى لا يُكتبُ له ثوابٌ جديد - إلا الذى ماتَ مُرابطًا فى سبيلِ اللهِ، فإنه يُنْمَى له عملُه إلى يوم القيامةِ، ويأْمنُ فتنةَ القَبر».

يا أحباب الله:

إن أعداءَ الإسلام يعملون للكيْد له، ويتربصون بالْمسلمين، وحين تُواتيهم الفرصُ يَعتدون على بعض أوطانِهم، ويسلبونهم حُقوقَهم.

إن الْمِحَنَ التى يعيش فيها كثيرٌ من إخواننا الْمُسلمين لَتحتاجُ منا أَن نرجعَ إلى ديننا، نأْخذُ أَنفسَنَا بتعاليمِه، فنوحدُ صفوفَنا، ونُعِدُّ العُدَّةَ لعدوِّنا، ونصبرُ ونرابطُ، مع وقوفِ الْمُسلمين وِقْفَةَ رجلٍ واحدٍ، مخلصينَ جهادَهم لله متوكلين عليه، والله عز وجل وعد الْمجاهدين الذين ينصرونه بنصره، فقال سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فاتقوا الله - أَيها الْمسلمون - وجاهدوا فى الله حقَّ جهادِه، وتوبوا إليه وسلُوه النصر والعونَ، فهو نِعْم الْمولى ونعم النصير.

* * *

فوائد ودروس:

دعاء مبارك:

«اللهُمَّ مُنْزِل الكتابِ، سَرِيعَ الحساب، اهْزِم الأحزابَ، اللهُمَّ اهْزِمْهُم وَزَلْزِلْهُم». [رواه عبد الله بن أبى أوفى وأخرجه مسلم].

رحمة:

قال ابن عمر رضي الله عنهما: «وُجِدَتْ امرأةٌ مقتولةٌ فى بعض تلك المَغَازى، فنَهَى رسولُ اللهِ ﷺ عن قَتْل النِّساءِ والصِّبيان». [لفظ مسلم].

فى فَضْل الرِّباط:

قال سلمانُ الفارسىُّ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِه، وإن مات جرى عليه عملُه الذى كان يعملُه، وأُجرِى عليه رزقُه، وأمِنَ الفتَّان». [لفظ مسلم].

وخطب عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه كما عند أحمد فقال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «حَرْسُ ليلةٍ فى سبيلِ الله أفضلُ من ألفِ ليلةٍ يُقام ليلُها ويصامُ نهارُها». ومن حديث أَبى ريحانةَ أخرجه أحمد، وعند النسائى مثلُه، يقول النبىُّ ﷺ فى فضل السهرِ للحراسة فى سبيل الله: «حُرِّمت النارُ على عَينٍ دمعَتْ - أَو بكتْ - من خشيةِ الله، وحُرِّمت النارُ على عَينٍ سَهِرتْ فى سبيلِ الله».

* * *

❊ ❊ ❊

٢٦ - الأخُوّةُ فى الله: حقوقُها وواجباتُها

الحمدُ لله الذى يُؤلِّفُ بين قلوبِ الْمُؤمنين بالْمحبة الخالصة، والصلاةُ والسلامُ على الحبيب الْمُصطفى محمدٍ، هَذَّب النفوسَ، ودعا إلى الأُخوَّة والتراحُم، والْمحبةِ الصادقةِ الصافية.

أَحمدُ الله تعالى وأَستغفره، وأَشهدُ أن لا إله إلا الله، مُقَلِّبُ القلوبِ ومُحوِّلُها، بيده الأمرُ، وإليه الْمصيرُ، وأَشهد أَن محمدًا رسولُ الله، بَعثه ربُّه بالهدى، ليجمعَ القلوبَ على الحقِّ بإذن ربه، وليبنىَ صرحَ الأُخوَّة على أَساسٍ من الإيمان الصادق، والرغبةِ الخيِّرةِ فى إعلاءِ كلمةِ الله والتعاونِ على ما يحقق الخير للمؤمنين فى الدنيا، والفوزَ فى الآخرة.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على الحبيبِ الْمُصطفى وعلى آله وأَصحابِه، ومن اتَّبَع هُداهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فيا أَتباع محمدٍ ﷺ:

قال رسول الله ﷺ فى الحديث الْمُتفق عليه الذى رواه أَنسٌ ﷺ: «ثلاثةٌ مَن كُنَّ فيه وَجَد حلاوةَ الإيمانِ؛ أَن يكونَ اللهُ ورسولُه أَحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأَن يُحِبَّ الْمرءَ لا يُحِبُّه إلا لله، وأَن يَكرهَ أَن يعود فى الكُفْر بعد أن أَنقَذَه اللهُ منه، كما يَكرهُ أَن يُقذفَ فى النارِ».

إنَّ الإسلامَ ومبادئَه الهاديةَ - يا أَهلَ الإسلام - من أَعظم نعمِ اللهِ على بنى الإنسان، هَدى الْمُؤمنين به صراطًا مُستقيمًا.. ودعاهم إلى ما يحقق لهم خَيرى الدُّنيا والآخرة، وحثَّهم لبناءِ صَرْح حياتِهم الفرديةِ والاجتماعيةِ على الحُبِّ؛ حبِّ الله وحبِّ رسولِهِ، وأَن يكونَ حبُّ اللهِ وحبُّ الرسولِ الكريمِ مُسيطرًا على فؤادِ الْمُؤمن ولُبِّه ونفسِه، ومُستوليًا على كلِّ كِيانِه وقلبِه.. لا يُدانيه ولا يُقارِبُه حُبُّ الدنيا ومتاعِها، أَو حُبُّ الولدِ، أَو حُبُّ الأَهل. «.. أَن

يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مِمَّا سِواهما» فإذا صدق إيمانُ الْمُؤمن، وامتلأ قلبه بنور اليقين، وتعلَّق بحب خالقِه والْمُنعم عليه، واهبِ الحياةِ ومالكِ الْمُلكِ.. وأحبَّ نبيَّه وهادِيَه صاحبَ الرسالةِ العُظمى ﷺ.. إذا صَدق إيمانُ الْمُؤمنِ، كان لهذا الإيمانِ ثَمراتُه الكثيرة، ومن ثَمراتِ هذا الإيمانِ استجابةُ الْمُؤمنين لنداءِ الحقِّ بالتآخِى والتحابِّ فى الله عز وجل، والتفافِ الْمُؤمنين إخوةً مُتحابين، تَربطُ بينهم رابطةُ العقيدة، غايتُهم إعلاءُ كلمةِ الحقِّ ونصرةُ دينِ الله، والتعاونُ على ما يُحققُ لهم الخيرَ فى الدنيا والفوزَ فى الآخرة «وأن يُحِبَّ الْمرءَ لا يُحِبُّه إلا لله».

إن الإسلام - يا أتباعَ محمد ﷺ - يُقيمُ الصِّلَةَ بين الْمُسلمين على الإخاء الوثيق.. الإخاءِ الخالصِ لله عز وجل.. الإخاءِ الذى يُغذِّيه الإيمانُ، والذى يرتبطُ بأهدافِ الدعوةِ الإسلامية، هذا الإخاءُ هو روحُ الإسلام، ولبُّ مبادئِه وشرائعه وَقِوامُ جماعتِه. يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد كان الناسُ قبلَ الإسلام جماعاتٍ متنابذةً، وفِرَقًا متعاديةً، وأهواءً مُتعارضةً، فكان من فضْلِ الله عليهم أن أرسل إليهم نبيَّ الرحمةِ، يجمعُ على الإيمانِ قلوبَهم، ويُوحِّد على طريق الحقِّ صُفوفَهم، وَيُزيلُ من النفوسِ كلَّ مُسبِّبات الشحناءِ، ويُطهِّرُ القلوبَ من كل أسبابِ البغضاء.. وجاهد الهادى الحبيبُ ﷺ فى الله حقَّ جهادِه، مُستمدًّا العونَ من الله عز وجل.. حتى ارتفع صرحُ الْمُجتمع الإسلامىّ، وتَماسكتْ لَبِناتُه على أساسٍ من الأُخوة فى الله.. فحَلَّ التفاهمُ والتراحمُ مَحِلَّ التخَاصُم والتقاطُعِ، وحلَّتْ الْمُبادرةُ إلى الخير مَحِلَّ الْمبادرةِ إلى الشرِّ.. وصارت الرابطةُ التى تجمعُ الْمسلمَ إلى الْمسلم هى

رابطةَ العقيدةِ وأُخوةَ الدين، وتحطمت حواجزُ الجِنس أو اللغةِ، لِتحِلَّ محلَّها روابطُ الْمبادئ السامية.

وصار الْمسلمون فى ظِلِّ تلك الأُخوةِ الكريمةِ، يلينُ بعضُهم لبعض، ويرحمُ بعضُهم بعضًا، ويَرفُقُ قويُّهم بضعِيفهم، ويُعِين قادِرُهم عاجِزَهم، ويألَمُ الْمُؤمنُ لألَم أخيه، ويفرحُ لسروره..

صار الْمسلمون فى ظلِّ الأُخوةِ والْمحبةِ دعاةً للخير، ونُهاةً عن الشرِّ وتلَوَّنتْ عواطفُهم الإنسانيةُ بالحبِّ والبغضِ تَبعًا لِما يُصيب الإسلامَ وأُمتَه من خيرٍ أو شرٍّ، وتلوَّنَ سُلوكُ الْمسلم فى حياتِه وفقَ ما تَقضى به هذه الأُخوةُ الإيمانيةُ الكريمةُ.. فهو يَمنع أذاهُ عن إخوانه الْمُؤمنين، وهو يَردُّ عنهم عادياتِ الزمان، وهو يُؤْثِرهم على نفسه عند الحاجة، وهو يُعين مَنْ يحتاجُ إلى عونِه وبِرِّه.. وهو يُحبُّ أهلَ التقوى والصلاح، ويكرهُ أهلَ الإلحاد وَمَنْ يكون حرْبًا على دين الحقِّ، ولو كانوا يَمِتُّون إليه بقَرابةٍ أو دَم.. والْمُؤمنُ فى ظلال الأُخوةِ الإيمانيةِ يُرشِدُ أخاه إذا ضَلَّ، ويُبَصِّرُه إذا وَجَدَ فيه انحرافًا، ويُعينُه على الخير والْهُدى إن وجده مُستقيمًا على الخير والهدى، تِلكم هى الأُخوةُ الإيمانيةُ، إنها أُخوةٌ تَعتمِدُ على ركنين عَظِيمين: على رسالةٍ مُقَدَّسَةٍ تَنَزلتْ من ربِّ العالمين.. فهم يَعِيشُونَ لها، وَيَتفانَون فى سبيلها، وعلى أُمةٍ مُتَساندةٍ متعاونةٍ للعمل بهذه الرسالة السامية فى كلِّ مَجالٍ من مَجالات الحياة.

لقد جاءَ فى سنةِ رسولِ الله ﷺ - يا أتباعَ محمد ﷺ - أحاديثُ كثيرةٌ لِلْحَضِّ على الأُخوةِ وتأكيدِها، وإقامتِها على مبادئ الدينِ وأهدافِهِ وغاياتِه، وجَعْلِ هذه الأخوةِ شركةً روحيةً وماديةً، قائمةً على الوفاءِ بتعاليم الإسلام وإنفاذِ وصاياه وإبلاغِ هداياتِه، وبتلك الأُخوةِ الصادقةِ تعيشُ الأُمةُ الإسلاميةُ مُخلصةً لرسالتها حَريصةً على إنجاحها، تحيا بها، وتحيا لها، ولا تَرْضَى

سِوى رسالِتها السماويةِ مَنهجًا وفِكرًا ومَسْلكًا، فلِماذا؟ لِماذا لا يَرْضَى الْمُؤمنُ عن منهاج غيرِ منهاجِ الإسلام؟ ولا تتعلقُ نفسهُ إلا بحبِّ هذا الدينِ وإنفاذِ وصاياه ولزوم مبادئِه وأحكامِه؟

ذلك لأن الإيمانَ فى الإسلامِ ليس كلمةً تُقال، وإنَّما هو اطمئنانُ القلبِ وعملٌ تَظهرُ آثارُه فى سلوكِ الفردِ وحياةِ الجماعة.. يقول الْمُصطفى ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ وطعمَه: أَن يكونَ الله ورسولُه أَحبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأَن يُحبَّ فى الله، وَيُبْغِضَ فى الله، وأن تُوقَدَ نارٌ عظيمةٌ فيَقَعَ فيها أَحبُّ إليهِ مِنْ أن يُشركَ بالله شيئًا». [رواية أنس وجاء فى الصحيحين].

إن أَهلَ الإخلاصِ الْمُتحابِّين لله، وفى سبيل الله، يشملُهم اللُّه برحمته يومَ تدنو الشمسُ من الرءوس.

فعن أَبى هريرةَ ﷺ كما عند مسلم، أَن رسول الله ﷺ قال: «يقولُ الله عزَّ وجل يوم القيامة: أَين الْمُتحابُّون بجلالى، اليومَ أُظِلُّهم فى ظِلِّى يومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّى». وعن أَبى ذرٍّ ﷺ كما عند أبى داود أَن رسول الله ﷺ قال: «أَفضَلُ الأعمالِ، الحبُّ فى الله، والبُغضُ فى الله».

فاتقوا الله – عبادَ الله – وتوبوا إليه توبةً نَصوحًا، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له.

* * *

للخطبة الثانية:

لقد أَخبَرنا الرسولُ الحبيبُ ﷺ عن مكانةِ الْمتحابين فى الله، الْمُخلصين لدينِ الله، فقال: «إن مِنْ عبادِ الله ناسًا مَا هُمْ بأَنبياءَ ولا شُهداءَ، يَغبِطُهم الأَنبياءُ والشهداءُ بِمكانِهم من الله»، قالوا: يارسولَ الله فخبِّرنا؛ مَنْ هُمْ؟ قال: «هم قوْمٌ تحابُّوا بروحِ اللهِ على غيرِ أَرحامِ بينهم، ولا أَموالٍ يَتَعَاطَوْنها، فَو اللهِ

إن وجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وإنهم لَعَلى نورٍ، ولا يَخافُون إذا خافَ الناسُ، ولا يَحْزَنون إذا حَزِن الناسُ»، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس]. [رواية عمر ﷺ وأخرجه أبو داود].

ويَروى أَبو الدرداءِ ﷺ عن الحبيب الهادى ﷺ كما عند الطبرانى قوله: «مَا مِنْ رجُلين تحابًا فى الله بِظَهْرِ الغَيب إِلَّا كانَ أَحبَّهما إلى الله أَشَدُّهما حُبًا لصاحبه».

ولتوكيد أَواصر المحبة، يخبر المُؤمنُ أَخاه الصالحَ بأَنه أَحبه لظهور استقامتِه وصلاحِهِ، فعن المقدام بن معدِ يكربَ ﷺ، كما عند أَبى داود والترمذى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أَحَبَّ أَحدُكُمْ أَخاه فَلْيُخْبِرْه أَنه يُحِبُّه».

وليسأَل المُسلمُ أَخاه فى الله عن اسْمه وأَهلِهِ إذ إن ذلك يَزيدُ القلوبَ قُربًا، فعن يَزيدَ بنِ نعامةَ الضبِّى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آخى الرجلُ الرجلَ فَلْيسأَلْه عن اسْمِه واسمِ أَبيه، ومِمّنْ هوَ، فإنه أَوصَلُ للمودَّة».

[أخرجه الترمذى وقال: حديث غريب وقد اختلف فى صحبة ابن نعامة].

وعن أَبى إدريس الخولانى عن مُعاذٍ ﷺ أن النبىّ ﷺ قال: «يقولُ الله تعالى: وَجَبَتْ محبَّتى للمتحابِّين فىَّ، وللمُتجالسين فىَّ، وللمُتزاورِين فىَّ وللمُتباذِلينَ فىَّ». [أخرجه مالك وابنُ حبان].

إن المتحابين فى الله عن إخلاص وصدقٍ وابتغاءَ مرضاةِ الله عز وجل ويتعاونون على الخير، وعلى طاعة الله، والبعدِ عن الشرّ والفساد، هؤلاء ثوابُهم جزيل، ومَنْزلتُهُم يومَ القيامةِ عظيمةٌ بفضل الله وإحسانه.

إن الدِّينَ - يا أحباب الله - جِمَاعُ الخيرِ كُلِّه، فإذا أَحبَّ العبدُ المُؤمنُ أخاه المؤمنَ للهِ: لتديُّنِه وصَلاحِه، ولسعيه فى الخير، ولِفعْله الخيرَ، لا لغرضٍ دنيوىٍّ فإن الله عز وجل يُحبه، ومن أَحَبَّه اللهُ أكرمه، وفى الحديث الذى رواه

أنسُ بنُ مالك أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما تَحابَّ رجلان فى الله عز وجل إلا كان أفضلُهما أشدَّهُما حُبًّا لصاحبه». [البخارى فى الأدب المفرد].

فالْمُسلمون ارتبطتْ آمَالُهُم وحياتُهم بهذا الدينِ، الذى أكرمنا الله بالانتساب إليه، وإن حُبَّ اللهِ يَقْتضى اتباعَ أوامره سبحانه، وتطبيقَ أحكامِه واجتنابَ ما نَهى عنه، وإن حبَّ الرسولِ ﷺ يقتضى اتِّباعَ سُنَّتِه، والسيرَ على مِنهاجِه؛ وإن الحبَّ فى الله يقتضى أن تكونَ العلاقةُ بين الْمسلمِ والْمسلم قائمةً على الْمودَّة والتناصُحِ، والأَمرِ بالْمعروف والنَّهى عن الْمنكرِ، والوفاءِ والإخلاص فى السرِّ والعلنِ. . وإن البغضَ فى الله يقتضى أن يكرهَ الْمُؤمنُ كلَّ ما من شأنه أن يكونَ مُعاديًا لكلمةِ الله، ولِمبادىء الحقِّ والخيرِ، التى جاءَ بها الإسلامُ، ولهذا كان من الخيرِ للمؤمنِ. . أن يُقْذَفَ فى النار من أن يَحِيدَ عن منهاج الإسلامِ ومن أن يُشركَ بالله شيئًا.

وفى حديث ابن مسعود: «أَوْثَقُ عُرى الإسلام: الوَلايةُ فى الله عز وجل والحُبُّ فى الله، والبُغضُ فى الله». [الاستذكار لابن عبد البر عن التمهيد].

❊ ❊ ❊

٢٧ - الحاسد والحسد مذمومان فى الشرع والعقل

عن أبى هريرةَ رضي الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ والحَسدَ، فَإِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ». [أخرجه أبو داود].

أيها الْمُؤمنون:

الحسدُ: أَن يَتمنَّى صاحبُ النفسِ الْمريضةِ زوالَ النعمةِ عن إنسان، سواءٌ تَمنَّى أَن تتحوَّلَ إلى شَخصِه، أَم تَمنَّى زوالَها فحسب.

والحديثُ الشريفُ يبيِّنُ لنا أَن الحسَدَ مذمومٌ، ينبغى للمؤمن أَن يحذرَ منه وأنه يُسبِّبُ لصاحبه الإثمَ وذهابَ الحسناتِ.

ولَمَّا كان الحسدُ خُلقًا ذميمًا، مع إضرارِهِ ببدَنِ الحاسِد وإفسادِه للدين فقد أَمر الله عز وجل بالاستعاذة من شَرِّه، فقال عزَّ وجل: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق] وجاءَ الأَمْرُ بالاستعاذةِ من شرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ بعد الأمرِ بالاستعاذة ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق]. والحسدُ أَحدُ الشرورِ فَتَخصيصُه بِالذِّكرِ، يَدلُّ على أَنَّ الحسدَ من أَعْظِم الشرور خطرًا، وأَكثرِها ضررًا.

وقد حذَّرنا النبىُّ ﷺ من أمرين يُناقضان سلامةَ الدِّينِ وصحةَ اليقينِ هما: البغضاءُ والحسدُ؛ لأنهما عَدُوَّانِ شَرِسَانِ للإنسانِ، إذا تَسلَّطا عليهِ أَنهكَاهُ وملأَ قلبَه بالهموم، وشغلاه بتوافه الأُمور، فقال ﷺ: «دَبَّ إليكم داءُ الأُمم قبلَكُم؛ البغضاءُ والحسدُ، والبغضَاءُ هى الحالقة، ليس حالقةَ الشَّعر ولكن حالقةَ الدِّين، والذى نفسُ محمدٍ بيده، لا تدخلون الجنةَ حتى تؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتى تَحابُوا، أَلا أُنبئكُم بِما يُثَبِّتُ لكم ذلك؟ أَفْشُوا السلامَ بينكم».

[أخرجه البزار بإسناد جيد والراوى عبد الله بنُ الزبير بن العوام رضي الله عنه].

فدعانا الرسولُ ﷺ إلى التحابِّ، وإِفشاءِ السلام والْمودَّةِ، تأْكيدًا للتحابِّ وبَعْثًا عليه؛ لأَن إفشاءَ السلام يُساعدُ على نَفى الحسد.

وإن الناسَ - يا أحباب الله - يعيشون فى خيرٍ وسَلام ومحبةٍ مَا لَم يَظْهر داءُ الحسدِ بينهم، كما جاءَ فى الحديث أن النبىَّ ﷺ قال فيما رواه ضَمْرةُ ابنُ ثعلبةَ، وأخرجه الطبرانى: «لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما لَم يَتَحَاسَدُوا». حقًا إن الحسدَ قد يضرُّ الْمحسودَ إذا أَراد الله ذلك وقَدَّره، ولكنَّ ضررَهُ على الحاسدِ أَعظمُ وآكدُ، قال حكيم: «عقوبةُ الحاسدِ من نفسِه»، ذلك أن الحسدَ يضرُّ بالدين والجسمِ والنفس.

أَما ضررُ الحسدِ بالدين، فالحاسدُ - والعياذُ بالله - ناقمٌ على ربِّه، مُنكرٌ لعدْله؛ لأَنه يُبْغِضُ النعمةَ التى تَظهرُ على غيره، فأين الإيمانُ بأَن اللهَ هوَ الرزاقُ الْمُنعم؟ ولذا كان الحسدُ نقصًا فى الدين، وضَعفًا فى اليقين، مع ما فيه من مُخالفةِ لطريق الأنبياءِ، ومتابعةِ لإبليسَ اللعينِ فى حبِّ الأَذى والشرِّ للعباد، وإن الْمُؤمنَ بحَقٍّ يُحِبُّ الخيرَ لإخوانه، وتسرُّه النعمةُ إذا أَصابت الْمُؤمنين.

أَما الحاسدُ فإنه ساخطٌ لِقسْمة ربِّه، ينظرُ لدنياه، ولا يفكرُ فى العواقب فيعيشُ لذلك مهمومًا، مُعذَّبَ النفسِ، مُنَغَّصَ البالِ، وكلما رأَى نِعمةَ محسودِه زادتْه همًّا، وكأَنَّه يقول لربِّه: لِمَ قَسَمْتَ هذه القسمة؟ وذلك كما حَسَدُوا النبىَّ ﷺ لأَنه فقيرٌ يتيم وقد اصطفاهُ اللهُ للنعمة التامَّة، والرسالةِ العامةِ فماذا قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

فوبخَّهم اللهُ، وعلّمنا، فقال سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

ولَما حسد اليهودُ النبىَّ محمدًا ﷺ كانت العاقبةُ الكفرَ والهلاكَ، ووبَّخهم الله على ذلك، وعلَّمنا فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ [النساء: ٥٤].

وكما يضرُّ الحسدُ دينَ الحاسدِ، فإنه يضرُّ جِسْمَه، حتى لقد يُؤدِّى به إلى التلفِ، دون أن يُصَابَ الْمحسودُ بضررٍ، قال معاويةُ بنُ أَبى سُفيانَ رضي الله عنهما: «ليسَ فى خِصَالِ الشَّرِّ أعدلُ من الحسد، يَقتل الحاسدَ قبلَ أن يصلَ إلى الْمحسودِ». وذلك أن الحسدَ عظيمُ الضررِ بنفسِ الحاسدِ؛ لأنه يُحَمِّل القلْبَ همومًا لا يُطيقها، ولذا قال حكيم: «يَكفيك من الحاسدِ أنه يَغتمُّ فى وقتِ سرورِك». وقال الحسنُ: «ما رأَيتُ ظالِمًا أشبهَ بِمظلوم من حاسد: نَفَسٌ دائِم، وحُزنٌ لازم، وعَبْرَةٌ لا تنفَدُ».

ولَما كان للحسدِ أَثَرُه فى إفساد القلوبِ وإثارةِ العداوة؛ لأَن الحاسدَ قد يسعى فى ضررِ الْمحسود، أَو يعملُ على التشهير به، أَو ينالُ منه بلسانه ظُلمًا وعدوانًا، فإن الله عز وجل أَمرنا أَن نلتجئ إليه وحده، نستعيذُ به من شرِّ الحاسد، فهو وحده القادرُ على كَفِّ أذاه وإحباطِ سعيه، قال تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق].

أيها الْمُسلمون:

إن الحسدَ شرُّه عظيم، فهو سببُ كلِّ قطيعة، ومُفرِّقُ كلِّ جماعة، وإذا تَمكَّن من نفس صاحِبه أفسد عليه أَخلاقَهُ، وسَهَّلَ عليه الكذبَ والغِيبةَ والغدرَ والنميمةَ والسِّعايةَ، إذا وَجَد الحاسدُ فى واحدٍ منها ما ينال به غَرضَه من مْحسوده.

ولذا كان الحاسدُ ممقوتًا عند الناس، لا ينالُ فى الْمجالس إلا الندامة، كما لا ينالُ عند الْملائكة إلا لعنةً وبغضاءَ، ولا ينالُ فى الخَلوةِ إلا جَزَعًا وهَمًّا، ولا ينالُ فى الآخرة إلا حُزنًا واحتراقًا، ولا ينالُ من الله إلا بُعدًا ومَقتًا.

إن الحسدَ يَصْدرُ من نفسٍ مريضةٍ، والْمرضُ يُمكنُ علاجُه، إذا صَحَّ العزم

وصدَقت النيةُ، وهو وليدُ العجْزِ عن الفضائل، التى مَنَحها الله للمحسود ووليدُ الحِقدِ والبُغْضِ، وعلاجُه فى اتباع الدِّينِ، وفى القناعةِ بما قسم الرزّاق الوهَّاب والرِّضا بقضاءِ الله تعالى، ولذا قالوا فى الحِكْمةِ: «مَنْ رَضِى بقضاءِ اللهِ تعالى لَم يُسْخِطْه أَحدٌ، ومن قَنِعَ بعطائِهِ لَم يَدْخُلْه حَسَدٌ».

وهذا الْمعنى نجدُه فى الدعاءِ الْمأثور وفيه: «اللهمَّ إنى أَسأَلُك نفسًا بك مُطمئِنَّةً، تُؤمن بِلقائِك، وتَرْضَى بِقَضَائِك، وتَقْنَعُ بعَطَائِك».

وفى الحديث: تبرأ النبىُّ ﷺ من الحاسد والنَمَّام والكاهن، يقول: «ليسَ منِّى ذو حسدٍ، ولا نَميمةٍ، ولا كَهانةٍ، ولا أَنا منه، ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾ [الأحزاب]. [أخرجه الطبرانى ورواه عبدُ الله بنُ بُسر].

فاتقوا الله - عبادَ الله - واستعيذوا به من شرِّ حاسدٍ إذا حسد، واطلبوا منه الْمغفرةَ والرحمةَ، وتوبوا إليه لعلَّه يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

إن الحاسدَ والعياذُ بالله يخسرُ دينَه، ويخسر دنياه، ويُصبح عدوًّا لنعَم الله قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: لا تُعادوا نِعَمَ الله، قيل له: وَمَن يُعادى نِعمَ الله؟ قال: الذين يحسدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله، قال تعالى فى بعض الكتب: «الحسودُ عدوُّ نعمَتى، مُتَسخِّطٌ لقضائى، غيرُ راضٍ بقسمتى».

وإن نعمةَ الله عزّ وجل لن تزولَ عن الْمسحود بسبب الحاسدِ، فالله عز وجل قدَّر، وتقديرُه نافذٌ رضى الحاسدُ أم كَرِه، فكلُّ شىء عنده تعالى بِمقدار، ولكلِّ أَجلٍ كتاب، ولن يُغيرَ الحسدُ من قضاءِ الله شيئاً، ولو كانت كلُّ نعمةٍ تزولُ بالحسد لَمَا بَقى على الأَرض مَنْ يؤمنُ بالله؛ لأَن الكفارَ يحسدون

الْمُؤمنين على نعمةِ الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كان من دعائه ﷺ: «اللهمَّ احفَظْنى بالإسلامِ قائمًا، واحفظْنى بالإسلام قاعدًا، واحفظْنى بالإسلام راقدًا، ولا تُشْمِتْ بى عَدوًا ولا حاسدًا، اللهم إنى أَسأَلُكَ من كلِّ خيرٍ خزائنُه فى يدِك، وأَعوذُ بِكَ من كلِّ شرٍّ خزائنُه فى يدِك».

وفى الأثر: «ثلاثةٌ لا يُستجابُ دعاؤُهم: آكِلُ الحرامِ، وَمُكْثِرُ الغِيبَةِ، وَمَنْ فى قَلْبِهِ غِلٌّ أَو حَسَدٌ للمسلمين».

وروى الإمامُ أَحمدُ عن جابرِ بنِ عبدِ الله، أَن رسولَ الله ﷺ اشتكى فأَتاه جبريلُ فقال: «باسم اللهِ أَرْقِيك، من كلِّ شىء يُؤْذِيك، من كلِّ حاسدٍ وَعَيْنٍ اللهُ يَشْفِيك».

وعن عقبةَ بنِ عامر، أَن رسولَ الله ﷺ قال: «إِن الناسَ لَم يتعَوَّذُوا بِمثلِ هَذين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ [الفلق] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ [الناس].

وفى لفظٍ عند مسلم: «أَلَمْ تَرَ آياتٍ أُنزلتْ هذه الليلةَ، لم يُرَ مِثْلُهنَّ قطُّ: «قُلْ أعوذُ بربِّ الفلق» و «قُلْ أعوذُ بربِّ الناس». وفى رواية أَن النبىَّ ﷺ قال له: «ما سأَل سائلٌ بِمثلهما، ولا استعاذَ مُستعيذٌ بِمثلهما».

* * *

دعاء مبارك:

«اللهمّ لك الحمدُ كلُّه، ولك الْمُلْكُ كلُّه، ولك الخلْقُ كلُّه، وإليك يرجعُ الأمر كلُّه، أسألكَ من الخيرِ كُلِّه، وأعوذُ بك من الشرِّ كلِّه».

[لفظ البيهقي عن أبي سعيد وفيه أن جبريلَ عليه السلام نزل فقاله].

٢٨ - الأمانةُ من خِصال أهل البرّ والخير

روى عبدُ الله بنُ عُمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «أَربعٌ إذا كُنَّ فيك، فَلا عليك ما فاتَكَ من الدُّنيا: حِفظُ أَمانةٍ، وصِدْقُ حديثٍ، وحُسْنُ خَليقةٍ، وَعِفَّةٌ فى طُعْمَةٍ». [أخرجه أحمد والبيهقى بأسانيد حسنة].

أيها الْمُؤمنون:

إن الحبيبَ الْمُصطفى ﷺ يُرشِدُ أُمتَه إلى مكارم الأَخلاق، ويحثُّهم على التحلِّى بِمحاسنِ الآداب، وتلك أَربعُ خِصالٍ، مَنْ تحلَّى بها فلا عليه ما فاته من الدنيا: إذا اؤتُمِنَ حَفِظ الأَمانةَ، وإذا تَحدَّث صدَق، وأَن يكونَ حسَنَ الأَخلاق، سهْلَ الطبع، ليِّنَ الجانبِ، وأَن يتحرَّى الكسبَ الحلال، ولا يطمعَ فيما ليس له بحقّ.

والأَمانةُ هى كلُ ما يُؤمَنُ عليه الْمرءُ من أمرٍ ونهى وشأْن، من دينٍ ودنيا، فرعايةُ حقوقِ الله تعالى، بتأْديةِ الفرائض والواجباتِ، وبتركِ الْمحرّمات أَمانةٌ، وقد رُوى هذا الْمعنى عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «القتْلُ فى سبيل الله يُكفرُ الذُّنوبَ كلَّها إلا الأَمانةَ» ثم قال: «الصلاةُ أمانةٌ، والوضوءُ أمانةٌ، والوزنُ أمانةٌ، والكيلُ أمانةٌ، وأشياءُ عَدَّدها، وأَشدُّ ذلك الودائعُ».

[أخرجه أحمد والبيهقى موقوفًا].

وقد قال جمعٌ من الصحابة رضوانُ الله تعالى عليهم عن الأَمانةِ فى قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]:

الأَمانةُ فى كل شىء؛ فى الوضوءِ، والصلاة، والزكاةِ، والصوم، والكيلِ، والْميزانِ، والودائع.

ومن الأَمانة حفظُ حقوقِ العباد، فلا يطمعُ الْمرءُ فى وديعةٍ اؤتُمِنَ عليها، ولا يُنْكر مالًا وُكِلَ إليه أَمرُ حِراستِه، أَو دَينًا فى ذِمَّته.

رَوى أُبىُّ بنُ كعبٍ وأبو هريرة كما عند أحمد وغيره من أصحابِ السنن - وقيل الراوى سَمُرة ابنُ جُندب - قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَدِّ الأَمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تخُن من خَانَك». وواضحٌ من الحديث، أنه لو كان الْمُودِعُ نفسُه قد خان الأمانةَ من قبلُ، فلا ينبغى للمؤمِّن أنْ يخونَه فى وديعته، وإنَّما عليه أن يعملَ بِدِينِهِ، فيفِى له، ويُؤَدِّى إليهِ أمانتَه، ثمَّ يَستعين الله عليه، وهذا نهايةُ الكمالِ الإنسانىّ فى خُلقِ الأَمانةِ، ووجوبِ تَجَنُّبِ الخيانة.

وإن عقودَ شركاتِ التجارةِ بين التجارِ والْمُتعاملين من جُملةِ الأَمانةِ الواجبِ الاستمساكُ بها والوفاءُ بشروطها. قال رسول الله ﷺ فى رواية أبى هريرة عند رزين وأبى داود: «الْمسلمون عند شُروطِهم». وقال ﷺ: «إن الله يقول: أنا ثالثُ الشريكين، مالَم يَخُن أَحدُهما صاحبَه، فإذا خانه خرجتُ من بينهما».

فمعونةُ الله وتوفيقُه يكونان مع الشريكين الأَمينين، فإذا خان أحدُهما صاحبَهُ نُزِعَت البرَكةُ من تجارتهما، وحُرِمُوا من معونة الله وتوفيقه، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ فى الحياة، فإن صفةَ الأَمانةِ فى التاجر تُوطِّدُ ثِقةَ إخوانِهِ فيه، وتجعلُهم يُقبِلون على معاملته، فتزدادُ أَرباحُه، ويتحققُ نجاحُهُ، وعلى النقيضِ إذا كان غيرَ أمينٍ ؛ فالأَمانةُ غِنًى، والأَمانةُ تَجلِبُ الرزقَ، والخيانةُ تَجلبُ الفَقرَ، ومن صفات التاجرِ الأَمينِ أنه لا يستعملُ الغشَّ، ولا التطفيفَ فى وزن أَو كيل، ولا يُخْفِى عيوبَ السلعة، ولقد حذَّر الإسلامُ من الغِشِّ فى الْمعاملات ومن الخيانةِ فيها. قال ﷺ: «من غَشَّنَا فليس مِنَّا، الْمكرُ والخِداعُ فى النار».

[رواية ابن مسعود عند الطبرانى].

وفى رواية الحسن عند أبى داود مُرسَلًا مختصرًا: «الْمكرُ والخديعةُ والخيانةُ فى النار».

يا أهلَ الإسلام:

إن الأمانةَ عظيمةُ القدْرِ في الدِّين، ومن عِظَم قَدْرِها أنها تقومُ هي والرحمُ على جَنَبَتَي الصِّراط، فلا يُمَكَّن من الجواز إلَّا من حَفِظهما، فَلْيتقِ اللهَ الْمُؤمنُ في الأَمانة، فإنه لا إيمان لِمَن لا أَمانةَ له، كما أخبرنا الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ، وليعلم الْمُؤمنُ أن الأَمانةَ كما تكون في العبادات، وفي الأَموال، فإنها تكون أَيضًا في كِتمانِ السرِّ، وإخلاصِ الْمشُورةِ للمستشير، وفي الفَتوى، وفي الحديث، وفي الشهادة، وفي صِدْقِ التبليغِ فيما كُلِّف الشخصُ أن يبلِّغَه، فَمَنْ حَمل رسالةً فعليه أن يوصِّلَها على وجهها الصحيح، بلا زيادةٍ ولا نُقصان والذي يَستودِعُ أخاه سرًّا فهو واثقٌ به، مطمئنٌّ إلى كتمانه، فيصيرُ السرُّ أمانةً يَنبغي أن تُحفظ، والذي يستشيرُ أخاه في أمر فهو يَبغي عنده النصيحةَ والإخلاصَ، فصار من الأَمانة أَن يَنصحَ له، ولا يَغُشَّه، ولنتدبر مارواه أبو هريرة وأخرجه البخاري في الأدب الْمُفرد وغيرُه، قال الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ: «إنَّ الْمستشارَ مُؤتَمنٌ» أي فإذا استُشِيرَ الْمرءُ فَلْيُشِر بِما هو صانعٌ لنفسه، فما يُحبُّه لنفسه يَنصحُ به أخاه، وقد حذَّرَ الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ من الخيانة في الشورى فقال فيما رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري في الأدب الْمُفرد وبعضُ أصحابِ السنن: «و مَنْ استشاره أخوه الْمُسلمُ فأشار عليه بغير رُشدٍ فقد خانَهُ».

ومن الأَمانة أن يقومَ الْمُؤمنُ بواجباتِ العملِ أو الوظيفةِ التي يشغَلُها بصدْقٍ وإخلاصٍ، فيجتهدَ في أداءِ العملِ على أكملِ وجْهٍ، ولا يتوانَى فيه، فالعملُ والوظيفةُ بِمثابة العهدِ بين الْمرءِ وأُمته، أو بينه وبين صاحبِ العمل، فعليه أن يُراقبَ الله فيه، وقد مدح القرآنُ الكريمُ الأَبرارَ الناجين من عذاب جهنمَ فقال في صفتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون]. وهذا عامٌّ في كلِّ

ما اؤتُمِنَ عليه الْمُؤمنون وعُوهدوا به من جهةِ الله تعالى، ومن جهة الناسِ، كالتكاليفِ الشرعيةِ، والأموالِ الْمُودَعَةِ، والأيمانِ الْمُوثَّقَةِ والنذورِ الْمُلتزَمَةِ، والعقودِ الْمحترَمَةِ وغيرِ ذلك، ولهذا جُمِعت الأمانةُ فى الآيةِ دون العهد.

إن الأَمانةَ - يا أهل الإيمان - هى ينبوعُ السعادةِ، ومصدرُ الفلاح، بها يَثِقُ الناسُ بالْمرءِ فيمنحونه أموالَهُم يَتَّجرُ بها، وأعمالَهم يتصرفُ فيها، فَيُفيدُ ويستفيد، ويجدُ الأَمينُ الْمعونةَ على الشدائد فى كلِّ وقتٍ، وإن الأُممَ لَم ترقَ ولَم تحظَ بالغِنى إلا بالأَمانة، فما رَبحت تِجارةٌ وازدهرتْ إلّا بها، ولا راجتْ صِناعةٌ بغيرها، ولا أفلحتْ شركةٌ بسواها.

إن الأَمانةَ فى الناس، والْمحافظةَ على العهود الْمُوثَّقةِ بينهم، هى سببُ كلِّ خير وسعادةٍ وصلاح، وقد أخبرنا الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ أن أُمتَه لا تزالُ بخير، ما لَم تَرَ الأَمانةَ التى تُؤتَمَنُ عليها غنيمةً حلالًا لَها، وبيَّن أنَّ من أسباب حُلولِ البلَاءِ بالأمة: «إذا كانت الأمانةُ مَغْنمًا، والزكاةُ مَغْرَمًا».

[من حديث رواه عليٌ وأخرجه الترمذى].

وقال ﷺ كما جاء فى الصحيحين من رواية عبدِ الله بن عَمْرو: «أَربعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنافِقًا خالصًا، ومَنْ كانت فيهِ خصلةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصْلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خَانَ، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عَاهَدَ غَدَر، وإذا خَاصَمَ، فجَر».

نسأَل الله عز وجل أَن يُحَبِّبَ الأَمانةَ إلى نفوسِنا، وأَن يرزقَنا الإخلاصَ فى القول والعمل، إنه نِعم الْمولى ونعم النصير.

فاتقوا الله - عبادَ الله - وسلُوه من فضله فإن الله يحب أَن يُسألَ، وتوبوا إليه لعله يغفرُ لكم.

❊ ❊ ❊

للخطبة الثانية:

إن كلّ حقّ عندك للغير تؤدّيه فهو أمانةٌ، فالدَّينُ أمانةٌ، والوديعةُ أَمانةٌ، والرسولُ ﷺ يقول: «مَن أَخذ أَموالَ الناسِ يُريد أداءَها أَدَّى الله عنه، ومَنْ أَخذها يُريد إتلافَها أَتلفه الله» [أخرجه البخارى ورواه أبو هريرة]. والْمِعيارُ الحقُّ فى الكيل والْميزان أَمانةٌ، ونُصْحُ الناسِ أَمانةٌ، وللزوج على الزوجة حقوقٌ هى أَمانةٌ، وللزوجة على زوجها حقوقٌ هى أَمانةٌ، ودمُ الإنسانِ وعِرْضُهُ أَمانةٌ، والسرُّ أَمانة.

ومن الأَمانة أَلا يستعملَ سمعَه، أَو نظَرَه، أَو شيئًا من جوارحِه فى فُحش أَو باطل، وأَلا يقول لسانُه إلا حقًّا، وإن كلَّ ما يطلبه الدينُ منا منَ خيرٍ أَمانة، وكلَّ ما يَطلبُ منا تَرْكَهُ من شرٍّ أَمانةٌ، وإن الصادقَ فى قوله، الوفيَّ بعهدِه ووعدِه، الأَمينَ على ما اؤْتُمِنَ عليه مقرَّبٌ من الله، مُنعَّم فى أَهله، مُحبَّبٌ من الناس أَجمعين، إن قال قُبل قولُه، وإذا طلب أُجيب إلى طلبه، أَموالُ الناس كأَنها أَموالُه، وثروتُهم كأَنها ثروتُه؛ لأنهم يُقَدِّمون له ما يَحتاجُ إليه من أَموالهم، ويُسلِّمونه ما يشاء من البضائع الْمملوكةِ لهم طيبةً نفوسهُم مُنشرحةً صدورُهم، ذلك لأَنهم واثقون من دِينه وأَمانتِه، وأنه لا يُماطلُ فى حقٍّ، ولا يُسوِّفُ فى وعْدٍ.

وكان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يقول: «لا يُعْجبُكم من الرجل طنْطَنَتُه، ولكن منْ أَدَّى الأَمانةَ، وكفَّ عن أعراضِ الناسِ فهو الرجلُ». والإمامُ على رضي الله عنه قال: «أَداءُ الأَمانةِ مفتاحُ الرزق».

فالْمُؤمنُ الذى يخشى ربَّه، ويرجو ثوابَهُ، يُسارعُ إلى ردِّ الأَمانة إلى صاحبها إذا ما استردَّها منه، روى أبو أُمامةَ قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى

خُطبته عامَ حجَّةِ الوَداع: «العاريَّةُ مُؤدَّاةٌ، والْمِنْحَةُ مَردودةٌ، والدَّينُ مَقْضيٌّ، والزعيمُ غارمٌ».

وقال عليٌّ رضي الله عنه في الحديث الذى أخرجه البزار: كنا جلوسًا عند رسولِ الله ﷺ فطَلَع علينا رجلٌ من أهلِ العالية فقال: يارسولَ اللهِ أَخبرنى بأَشدِّ شيء فى هذا الدِّينِ وأَلينِه؟ «فقال: أَلينُه: شهادةُ أن لا إلهَ إلا الله وأَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأَشدُّه ياأَخا العاليةِ الأَمانةُ، إنه لا دينَ لِمَن لا أَمانةَ له، ولا صلاةَ له ولا زكاةَ له».

وقال ﷺ فى الحديث الذى رواه ابنُ عمر وأخرجه مسلم وغيره: «إذا جَمع اللهُ الأَولين والآخِرين يومَ القيامةِ، يُرفعُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ، فقِيلَ: هذه غدرةُ فلانِ بنِ فلان».

* * *

من سلامة الإيمان حفظ الحقوق وكف الأذى:

من خطبة حجة الوداع:

«إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا» صلى الله عليه وسلم.

[متفق عليه والراوى أبو بكرة رضى الله عنه].

- واليوم هو العاشر من الشهر الحرام ذى الحجة.
- والبلد «منى» وهى من أرض الحَرَم.
- والشهر هو ذو الحجة أحد الأشهر الحُرُم الثلاثة.

* * *

٢٩ - التعاطف والتراحم

الحمدُ لله نَحْمَدُه، ونَستعينُه ونَستهديه، ونَستغفرُه، ونَتُوبُ إليه، ونتوكَّلُ عليه، ونسأَلُه العفْوَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة.

أَحمدُه سبحانه، أَرسل نبيَّه محمدًا ﷺ ليتمِّمَ مكارمَ الأَخلاق، ويدعُوَ إلى التعاون والتكافلِ والتعاطفِ بين الْمُؤمنين، وأَجزل سبحانه الثوابَ لأَهل الْمروءَات.

وأَشهد أَن لَّا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، ولا معبودَ بحقٍّ سِواه، وأَشهدُ أَن حبيبَنا ومُعلِّمَنا وهادِيَنا محمدًا رسولُ الله، بَعثه ربُّه رحمةً للعالَمين، وأَدَّبَه ربُّه فأَحْسَنَ تأْديبَهُ، فكان قدوةً طيبةً لأهل التوحيدِ، الراغبين فى سعادةِ الدارين، والفوزِ بالحسنيين.

اللهمَّ صلِّ وسلِّم وباركْ على نبيِّنا الأمينِ، وعلى آله وأَصحابِه الطيبين الطاهرين، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الْمُؤمنون:

عن أَبى هريرة ﷺ عن النبىِّ ﷺ قال: «مَنْ نَفَّس عن مُؤمن كُرْبةً من كُرَبِ الدُّنْيا نفَّس اللهُ عنه كُربَةً من كُرَبِ يَومِ القيامةِ، ومَنْ يَسَّر على مُعسرٍ يسَّر اللهُ عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستَر مسلمًا سَتره الله فى الدنيا والآخرة، واللهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عون أخيه، وَمَنْ سلَك طريقًا يَلتَمِسُ فيه عِلمًا سهَّل اللهُ له بِه طريقًا إلى الجنَّة، وما اجتمعَ قومٌ فى بيتٍ من بيوتِ الله يتلُون كتابَ الله، ويتدارسُونَه بينَهُم، إلا نزلتْ عليهم السكينةُ، وغَشِيَتْهم الرحمةُ، وحَفَّتهم الْملائكةُ، وذَكَرَهُم اللهُ فيمنْ عندهُ، ومن أَبطأَ به عملُه لَم يُسرِعْ به نسبُه». [رواه مسلم بهذا اللفظ].

أيها الْمُؤمنون:

هذا الحديثُ الشريفُ من جوامعِ كَلِمِه ﷺ وقد اشتمل على جُملةٍ من الفضائل، ومكارم الأخلاقِ، ومحاسنِ الآدابِ التى تُعَدُّ من خِصال ذَوى الْمروءَات، وصفاتِ الْمُؤمنين الصالحين، الذين يَعرِفون للأُخوَّةِ فى الدين حقَّها، ويُقدِّرون الْمروءةَ حَقَّ قدْرِها، ويَستزِيدون من الخيرات بفعل الصالحاتِ، ويَرَوْن للضعيف حقًّا من قُوتِهم، وللفقير نَصيبًا من أَموالهم، وللمغبونِ حَظًّا من جاهِهم وسَعْيِهم.

ففى الحديث الشريفِ الترغيبُ فى تنفيسِ كُرباتِ الْمُؤمنين، والكربةُ هى الشدَّةُ العظيمةُ التى تُوقِعُ صاحبَها فى الكَرْبِ والضِّيق.

وتنفيسُ الكُربة: أَن يُخفِّفَ عنه منها، وأَن يُهوِّنَ من أَثرِها على نفسِه، فإذا فرَّجَها عنه كان جزاؤُه أَعظمَ ؛ لأن تفريجَ الكُرباتِ معناه إزالتُها فَيزولُ هَمُّه وغمُّه، ولذا جاءَ فى رواية ابنِ عمرَ فى الصحيحين: «ومن فرَّجَ عن مسلم - كُربةً - فرَّجَ الله عنه كربَةً من كُربِ يومِ القيامة» ذلك أَن الجزاءَ من جنسِ العمل.

فطوبى لِمن وقَف إلى جانبِ أَخٍ له مُسلمٍ فى شِدتِه ومحنتِه، يخفِّفُ عنه ويَمُدُّ له يدَه، ويَحمِلُ عنه بعضَ همومه ومتاعبِه، إن ذلك من الْمروءَاتِ التى يُجْزَلُ فيها الثوابُ، وما دام العملُ خالصًا لوجه الله، فلن يَضيعَ عند الله عز وجل، حتى إن العملَ الطيبَ لَيقِفُ إلى جوار صاحبِه يومَ الحشرِ، يومَ تَدنو الشمسُ من العباد، من ذلك ما جاءَ فى الْمسندِ من حديثِ عقبةَ بنِ عامر مرفوعًا: «كلُّ امرئٍ فى ظِلِّ صَدَقَتِه حَتى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاس».

عبادَ الله:

يقول الرسولُ ﷺ: «وَمَنْ يسَّر على مُعسرٍ يَسَّرَ الله عليه فى الدنيا والآخرة».

وقد وصف الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ بقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان] وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر].

فمن يسَّر على معسرٍ من الْمُؤمنين يَسّر الله أُمورَه فى الدنيا، ويسَّرَ عليه شدائدَ يومِ القيامة.

والتيسير على الْمعسر فى الدنيا من جهة الْمالِ يكون بأَحد أمرين:

إمَّا بإمهالِه حتى يَتيسَّرَ له الْمالُ، كما جاءَ فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وإما بالوضع عن الْمَدِينِ، أى بالتصدُّقِ عليه ببعض الدَّينِ، إذا كان الْمُتَصدِّقُ هو الْمُقْرِضُ، أَو بإِعطائه ما يزول به إعسارُه، وكلاهما له فضلٌ عظيم.

وفى الصحيحين عن أَبى هريرة عن النبى ﷺ: «كان تاجرٌ يُداينُ الناسَ، فإذا رأى مُعسِرًا قال لِفتيانِه تَجاوزوا عنه، لعلَّ الله أن يتجاوزَ عنَّا، فتجاوزَ الله عنه».

إن التفريجَ عن الْمُعسِر فيه تعاونٌ، وفيه بِرٌّ، وفيه صِلَةٌ، فطوبى لِمن جعله الله أهلًا للخير ابتغاءَ مَرضاةِ الله.

وفى حديث أَبى قتادة عند مسلم عن النبى ﷺ قال: «مَنْ سَرَّه أن يُنْجِيَهُ الله من كُربِ يومِ القيامةِ فَلْيُنَفِّسْ عن مُعسرٍ أَو يَضَعْ عنه». وفى الْمسند عن ابن عمرَ عن النبى ﷺ قال: «من أَراد أَن تُسْتجابَ دعوتُه، أَو تُكْشفَ كُربَتُه، فَلْيفرِّجْ عن مُعْسِر».

أيها الْمُؤمنون:

ومِمّا جاءَ الترغيبُ فيه، والحثُّ عليه: السَّترُ على الْمُؤمنين، وعدمُ

التحدُّثِ عن الْمساوئ، أو ذِكْرِ العيوب، أو تَتبُّع عَوراتِ البيوتِ، ففى الحديثِ: «وَمَنْ سَتر مُسلمًا سَترهُ الله فى الدنيا والآخرة».

وقد جاءَ عن بعض السلف قال: «أدركتُ قومًا لَم يكن لهم عيوبٌ، فذكَرُوا عُيوبَ الناسِ، فَذَكر الناسُ لهم عُيوبًا، وأدركتُ قومًا كانت لهم عيوبٌ، فَكفُّوا عن عيوب الناسِ فنُسيت عيوبهُم».

وقد جاءَ الوعيدُ لِمن يسعَى لإشاعةِ السوءِ عن الْمسلم وتتبُّعِ عَوْراتِه للتحدُّث عنها فى قول النبىِّ ﷺ: «مَن سَتَرَ عورةَ أخيه الْمسلم سَتَرَ الله عورتَه يومَ القيامة، ومَن كشفَ عَورةَ أَخيه الْمُسلم كَشفَ الله عَورتَه حتى يَفْضَحَهُ بِها فى بيتِه». [أخرجه ابن ماجه ورواه ابن عباس].

فطُوبى لِمن شَغَله عَيْبُه عن عيوبِ الناس، وطُوبى لِمَن ينظرُ إلى نفسِه وصلاحِ بيته وَحالِه، ويُشْغِلُ نفسَه بِما يَعْنِيه، ويقفُ عند حُدودِه، ولا يعملُ على إشاعةِ السوءِ فى الْمُجتمع، ولا يُسيء إلى مسلم مستورِ الحال، طوبَى لِمْن يَكُفُّ أذاه ويُمْسِكُ لسانَه إلا عن خير. والرسولُ ﷺ يقول كما جاء فى الصحيح: «ولا تَجَسَّسوا ولا تَحَسَّسُوا»(١) والتجسُّس البحثُ عن معايبِ الناس وأحوالِهم للتحدُّث عنها، وهذا من أقبح الخصالِ ومدانئِ الأخلاق.

ياعبادَ الله:

ثم حَثَّ الرسولُ ﷺ على السعى فى قضاءِ حوائج الْمسلم، وهذا من التعاون على الخيرِ والبرِّ، فيقول: «واللهُ فى عون العبدِ ما كانَ العبدُ فى عونِ أخيه».

فمَن سَعى فى حاجةِ أخيه الْمسلم باذلًا من وقتِه، أوْ جاهِه، أو مالِه حتى

(١) ولا تحسسوا: التحسُّس ورد بِمعنى البحث والتتبُّع بغرض معرفةِ أحوالِ الناسِ، وهم فى غفلاتهم وهو من الحس - بفتح الحاء - وهو الإدراك بإحدى الحواسّ الخمس.

تُقضَى له، فإن الله عز وجل يُيَسِّرُ له أُمورَه، ويُعينُه، ويسدِّدُه، ويرشدُه.

وفى الحديث: «ومَنْ كانَ فى حاجةِ أَخيه كان الله فى حاجتِه».

فطُوبى لِمَن جَعَله الله أهلًا للخير مِغْلاقًا للشرِّ، واتقوا الله - عبادَ الله - وتوبوا إليه توبةً نصوحًا، فالتائبُ من الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لَه.

* * *

الخطبة الثانية:

أَحمدُ الله تبارك وتعالى، وأُصلى وأُسَلِّمُ على رسوله الأَمينِ، وعلى آله وأَصحابِه، ومن اقتدى به، وعَمِل بسنته إلى يوم الدين.

أَمَّا بعد:

فقد جاءَ فى الحديث الشريفِ ما يدلُّ على فضلِ العِلْم، ومرتبةِ أهله وفضْلِ السعْى إلى طلبه، ولنتدبَّر: «وَمَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتمِسُ فيه عِلْمًا سهَّل الله لهُ بِه طريقًا إلى الجَنَّة، وما اجتمع قومٌ فى بيتٍ من بُيوتِ اللهِ يتلُون كتابَ اللهِ، ويتدارسُونه بينهم، إلا نَزلتْ عليهم السَّكِينةُ، وغَشِيَتْهم الرحمةُ وحَفَّتهم الْملائكةُ، وذكَرهم اللهُ فيمَن عنده، ومن أَبطأَ به عَملُهُ لَم يُسْرع به نسبُه».

فطالبُ العلم - يا أحباب الله - مِن أَعلَى أَهلِ الإيمانِ منزلةً، إذا هو أَخلَصَ فى طلبه، وَجَدَّ فى مُدارستِه، ورجا بطلبه وجْهَ اللهِ لِمنفعةِ نفسِه، ومنفعةِ أَهلِه وأُمَّته.

وأشرفُ عِلْمٍ يَسْعَى الإنسانُ إلى طلبه، هو ما يُعِين الْمسلمَ على معرفة ربِّه والعِلْمِ بِما يليقُ به سبحانه وتعالى من صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، والعِلمِ بحقوقِهِ سبحانه فى أَعناقِ عبادِه.

ومن سَعَى لطلبِ العِلمِ النافعِ مع الإخلاصِ والصدقِ، مَهَّد اللهُ له طريقَه

إلى جَنةِ الخُلد، حيث النعيمُ الدائم، وما أَشْرَفَ مجالسَ العلم، ومُجالسةَ العلماءِ العاملين الْمخلصين؛ فمجالسُ العِلم التى يَتَدارسُ فيها أهلُها كتابَ الله ليَعرفوا حُدودَه، ويقفوا على عِبَره وعِظاتِه، وَيَتفقهُوا شَرائعَه وفضائلَه، هذه الْمجالسُ تُظلِّلُها رحمةُ الله عزّ وجل، ويشعرُ أَهلُها بِبَرْدِ الطمأنينةِ والقناعةِ، وتُجالسُهم الْملائكةُ، ويُباهى بهم الله السميعُ العليمُ أَهلَ السماء.

وإننا فى يوم القيامةِ لا نُسألُ عن الأنسابِ والأحسابِ، إنَّما نُسأَلُ عن الأعمال والأقوال.. فَمَن عَمِل خيرًا، وقال حُسْنًا وعَدْلًا كان من الفائزين، ومن ساءَت سَريرتُه، وخَبُثَ عَملُه، وقَبُحَ كلامُه، وغلبت سَيِّئاتُه حَسناتِه فالويلُ له: «وَمَنْ أَبْطَأَ به عملُه لَم يُسْرِع به نسبُه».

فطُوبى للمتنافسين فى طاعة الله، الراغبين فى عفوه ورحمتِه.

اللهم أَصْلِحْ لنا دينَنا الذى هو عصمةُ أَمرنا، وأَصْلِحْ لنا دُنيانا التى فيها معاشُنا، واجْعلِ الحياةَ زيادةً لنا فى كلِّ خير، واجعل الْمماتَ راحةً لنا من كلِّ شر، يا أَرحمَ الراحمين.

اللهم زِدْنا ولا تُنقِصْنا، وأَكْرِمْنا ولا تُهِنَّا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا، وبارِكْ لنا فيما أَعطيتَنا، واجعلْنا من عبادك الصالحين، اللهم لا تَدَعْ لهذا الجمعِ فى هذا اليومِ ذَنبًا إلا غَفَرْتَهُ، ولا هَمًّا إلا فَرَّجْتَهُ ولا دَيْنًا إلا قَضيتَه، ولا حاجةً هى لك رضًا ولنا فيها صَلاحٌ إلا قضَيْتَها ويسَّرْتَها يا أَرحمَ الراحِمين، ولا تدَعْ لنا مَرَضًا ولا مَريضًا إلا شَفَيْتَه بِعَفوك ورحمتك.

اللهم انْصُرْ الإسلامَ وأَهلَه، واخْذُلِ الباطلَ وأَهلَه، واجمعْ كلمةَ الْمُسلمين على الْمحبَّةِ الخالصةِ، وارضَ اللهمَّ عن أَصحابِ رسولِ الله ﷺ، وصلِّ اللهمَّ على الحبيبِ الْمُصطفى، وأَكْثِروا من الصلاة عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

* * *

للدرس «أفضل عمل إنسانى»:

وفى فضل قضاءِ حوائِج الْمُؤمن والسعى فيها جاءَ فى حديث ابنِ عمر عند الطبرانى مرفوعًا: «أفْضَلُ الأعمالِ إدْخالُ السرورِ على الْمُؤمن: كَسَوتَ عورتَه، أَو أَشبعتَ جَوْعتَه، أَو قَضَيْتَ له حَاجَتَه».

والنبىُّ ﷺ وهو قدوتُنا فى طريق الخير والبِرّ والهدى، كان يَخْلُفُ الْمُسلمَ فى أهله عند سفره، فَيَقْضى لهم ما يحتاجون إليه، ويحْلِبُ لهم بَهِيمتَهم.

تقول بنتُ خَبَّابِ بنِ الأَرَتّ، كما فى مسند أحمد: خرج خَبابٌ فى سَرِيَّة فكان النبىُّ ﷺ يتعاهدُنا، حتى يَحلبَ عَنزةً لنا فى جَفْنةٍ لنا، فتمتلئَ حتى تَفيضَ، فلمَّا عاد خَبَّابٌ حَلَبَها، فعاد حِلابُها إلى ما كان.

وكذا كان يفعل أَبو بكر وعمرُ وغيرُهما من أَجلاءِ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم.

وفى الترغيب فى تفريج الكَروب، وإِزالةِ الهمُوم عن الْمسلم يقول أبو سعيدٍ الْخُدرىُّ ﷺ: «أَيُّما مؤمنٍ أَطعمَ مؤمنًا على جُوع أَطعَمه الله يومَ القيامةِ مِن ثِمارِ الجنة، وأَيُّما مؤمنٍ سَقى مؤمنًا على ظمأٍ سقاه الله يومَ القيامة من الرَّحِيق الْمخْتُوم، وأَيُّما مؤمنٍ كسا مؤمنًا على عُرْى كساهُ الله من خُضْرِ الجَنَّة».
[أخرجه الترمذى ورفعه].

وروى ابنُ أبى الدنيا عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ أَعْرَى ماكانوا قَطّ، وأَجوعَ ما كانوا قَطّ، وأَظمأَ ما كانوا قط، وأَنصَبَ ما كانوا قَطّ، فمن كسا للهِ كساهُ اللهُ، ومن أَطعمَ لله أَطعمَهُ اللهُ، ومن سَقَا لله سقاه الله، ومن عفا لله أعفاه الله».

وفى حديث أَبى بُرْدَةَ أن النبىَّ ﷺ قال: «يَا معشرَ مَنْ آمنَ بلسانِه، ولَم

يَدخُل الإيمانُ فى قلبه، لا تَغْتابُوا الْمسلمين، ولا تَتَّبِعُوا عَوراتِهم، فإنه مَنِ اتَّبع عوراتِهم تتبَّعَ اللهُ عَورتَه، ومَن تَتبَّعَ الله عورتَه يَفضحْه فى بيته».

[أخرجه الإمام أحمد وأبو داود].

وعن أَبى هريرةَ ﷺ كما فى الصحيحين قال: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «كلُّ سُلامى من الناس عليه صدقَةٌ، وكلَّ يومٍ تطلعُ فيه الشمسُ: تَعْدِلُ بين اثنين صدقةٌ، وتُعِينُ الرجلَ فى دابَّتِه فتحملُه عليها، أَو تَرْفَعُ له عليها متاعَهُ صَدقةٌ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وبكلِّ خَطوةٍ تَمشيها إلى الصلاةِ صَدقةٌ، وتُمِيط الأذَى عن الطريق صدقَة».

والسُّلامى «المِفْصَل» ولكل جسم ثلاثُمائة وستون مِفصلًا.

* * *

٣٠ - بِرُّ الوالدِين وواجِبُنا نَحوهما

الحمدُ لله الذى أَنزل الناسَ منازلَهم فى الرعايةِ والاحترام، وجَعل حقوقَ الوالدين فى أعلَى مقام، والصلاةُ والسلام على سيدِنا محمدٍ، أدَّبَ أُمتَه وأَحْسنَ تعليمها. . أَحمدُ اللهَ وأَستغفرُه، وأَشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، جعل طاعةَ الوالدين سببًا فى حُبه وَرِضاه. . وأَشهدُ أن سيدَنا محمدًا رسولُ الله، خَيرُ مَنْ حَفِظ الحقَّ لأَصحابه ورَعاه. . صلى الله على الحبيبِ الهادى محمدٍ وعلى آله وصحبِه ومَن اتَّبعَ هُداه.

أمَّا بعد:

فياأَيُّها الْمسلم: يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

أيها الْمسلم:

وَالداك سَببُ وُجودِك، وأَصلُ حياتِك، يَحفظانِكَ برعايتهما، ويَتعهَّدانِك بالتربيةِ والتهذيب.

أُمُّك حَملتْكَ فى بطنها جَنينًا، وبرغْم آلام الحمْلِ كانت فَرحةً بك قبل وِلادَتِك. . وَوضعتْك وَليدًا، ومهما تُقاسى من آلام الوضْع، فإنها تَنسى عَذابَها برؤيةِ وَجْهك، وغَذَّتك بِلَبنها رَضيعًا، وحَفِظتك فطيمًا، تسهرُ لِمَرضِكَ مُتَخوِّفةً لا تَنام، مُشفِقةً عليك مِن العِلَلِ والأَسقام. . تُفضِّلُك على نفسِها فى العطيةِ. . وتَنسى نفسَها فى سبيلك.

أَمَّا الأَبُ فإنه يُجاهِدُ الزمَنَ، ويسعى فى طلب الرزقِ ؛ لينفقَ عليك ويَسدَّ حاجتَك، ويَمْضى سَاعيًا عاملًا، فإذا رجع إليك وَالاكَ بعطْفِه وحُبِّه وحَنانِه وَبِرِّه.

وَضَع اللهُ عز وجل الرحمةَ فى قلب الوالدين من أَجلِ وليدِهما. . ولهذا لن

نَجِدَ صِلةً قويةَ البُنيانِ، مَتِينةَ الأَساس كصِلَةِ الوالِدين بولدِهما ؛ لأنها صِلةٌ طبيعيةٌ من صُنع اللهِ عز وجل، تملأُ قَلْبَ الأمِّ والأبِ برغْمِهما لا باختيارِهما . . إنه الحنانُ الإلَهى من الوالدِ لولدِه . . حَنانٌ يظهرُ أَثرهُ فى تلك الرعايةِ الشاملةِ وذلك العطفِ الأبوىِّ، وفى تلك الرحمةِ التى تَملأُ قلبَ الأبوين.

أيها المسلم:

إن فضْلَ الوالدين عظيمٌ . . لهذا قضى اللهُ فى مُحْكَم كتابِه علينا بتوحيدِه وعبادتِه وحده لا نُشركُ به أحدًا، وقَرَنَ - سبحانه - الأمرَ بتوحيدِه بالأمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين، وعدمِ الإساءة إليهما ولو بأدْنى كلمةٍ تَصدرُ من اللسانِ، أمرنا عزَّ وجل بِحُسْن الخُلقِ معهما، وَبِلينِ الجانبِ، وجميلِ القول وخَفْضِ الجَناح تواضُعًا ورِفْقًا بهما، وبخاصة إذا تقدَّمتْ بهما أو بأحدِهما السنُّ، واحتاجا إلى ولدهما الذى كان بالأمْسِ أفقرَ خَلْقِ اللهِ إليهما.

إن عليك لوالدِيْكَ دَيْنًا، لا يُمكِنُك سَدادُه، مهما بالغْتَ فى إكرامِهما، والتوَدُّدِ إليهما، ورعايةِ جانبِهما، إن لهما عليك حقوقًا واجبةَ الأداء، أَمر بها الشرعُ، وأَقرَّها العقلُ، إن من حَقِّهما عليك أن تُطيعَهُما، وتحترمَهُما وتساعدَهما بمالك إن احتاجا، وأن تتولَّى خِدمتَهما إن ضَعُفا . . وأن تُلازمَهُما فى المرض، وتجتهدَ فى إرضائِهما، وأن تُدخِلَ السرورَ عليهما بإظهارِ حُبِّك لهما، وسُكُونِك عند غَضبِهما عليك . . فَمَهْمَا خَدمتهُما وأرضَيْتَهُما فلن تكافِئَهُما بعملٍ، أو تَجزيَهُما بخدمة.

جاء عند البخارى فى الأدب المُفرَدِ عن أبى بُرْدةَ بن أبى موسى الأشعرى، أن ابن عُمَرَ شَهِدَ رجلًا يَمانيًا يطوف بالبيت حَمَلَ أُمَّهُ وراء ظَهْرِه، ثم قال: يا ابنَ عُمر، أَتُرَانى جَزيتُها؟ قال ابنُ عمر له: «لا، ولا بِزَفْرة واحدةٍ» والمقصود بالزَّفرة هو شِدَّةُ تَتابُع نَفَسِها عند الولادة حتى تَضَعَ ولدَها، أى إن الإنسانَ مهما خَدَم أُمَّه لا يُجازيها ولا بِطَلقةٍ واحدةٍ، وكم تَعِبت الأمُّ وسَهِرتْ

وأشفقتْ، وكم للأبِ من الفضل!.

إن الله - يا أهلَ الإيمان - أَوجب علينا طاعةَ الوالدين، والرفقَ بهما، ولينَ الجانبِ معهما.. فيجب علينا أَن نحرِصَ على رِضا الوالدين.

فإن رضا الوالدين سعادةٌ في العاجل والآجل، كما يجبُ علينا أَن نَحذرَ غضبَ الوالدين، فإن غضبَ الوالدين شقاءٌ في الدنيا وَوَبَالٌ في الآخرة.. قال رسولُ الله ﷺ: «رِضَا الله في رِضا الوالدِ، وسَخَطُ الله في سَخَطِ الوالد» والمراد بالوالد الأُم والأَب. [رواه ابنُ عمرو وأخرجه الترمذيُّ وغيره].

انظر - أيُّها المسلم - إلى الدين الحنيفِ يأْمرُ ببرِّ الوالدين، وإن كانا كافِرين أَو مُشركين، ولَم يجعلْ من الاختلاف في العقيدة والدِّينِ سَببًا لهجْرهما وقَطيعتِهما، فلهم دينُهم - إن كَانا على غيرِ الإسلام - ولنا دينٌ.. ولو كانا مُخالِفَين للدِّين الحق، فإن الإسلامَ لا يُبيحُ للمسلم الإساءَةَ إليهما، أَو تَرْكَ البرِّ بهما، وَتركَ الإحسانِ إليهما، قال جل شأنه: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

أَي لا طاعةَ لهما في معصية الله.. لا طاعةَ لهما إن طلبا مِن ولدِهما الْمُؤمِنِ الإشراكَ بالله أو فِعْلَ معصيةٍ من الْمعاصي، أو طلبَا منه تركَ فَريضةٍ من فرائضِ الإسلام، أو التهاونَ بشأنِ أوامرِ الدِّين ونواهيه، ولكنَّ طاعتَهُما فيما ليس فيه معصيةُ الله عز وجل.. ينبغي للولدِ أن يُصاحِبَهما بالْمعروف مع الإحسانِ إليهما، والبِرِّ بهما، وطاعتِهما وخَفْضِ الجَناحِ لهما.

وجاء في الصحيحين عن أَسْماءَ بنتِ أَبي بكرٍ رضي الله عنهما قالت:

قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مُشركةٌ في عَهْد رسولِ الله ﷺ فاستفتيتُ النبيَّ ﷺ قلت: قَدِمَت عليَّ أُمِّي وهي راغبةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قال: «نعم صِلِي أُمَّكِ». وراغبةٌ: أي ترغبُ في الصِّلةِ والْمودَّةِ، وفيما يكونُ عندي من العَون، وفي هذا

تأكيدٌ لحقِّ الوالدين فى حُسن الصلةِ والبِر.

إنَّ من برِّ الوالدين الدعاءَ لهما بعد موتهما، والوفاءَ بعهدهما بإنفاذه.. وإكرامَ أَصدقائِهما، وَصِلةَ أَرحامهما.

فعن أَبى أَسِيد مالكِ بنِ ربيعة قال: بينما نحن عندَ رسولِ الله ﷺ إذ جاءَه رجلٌ فقال: يا رسولَ الله هل بَقِى علىَّ من برِّ أبوىَّ شىءٌ أَبَرُّهُما به بعدَ وفاتِهما؟ قال: «نعم.. الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدِهما من بعدهما، وإكرامُ صديقِهما، وَصِلةُ الرحمِ التى لا تُوصَلُ إلا بِهما».

[أخرجه أبو داود وابنُ ماجه وابن حبان].

فاتَّقوا الله - عبادَ الله - وَبِرُّوا آباءَكُم تَبَرُّكم أَبناؤُكم وتُوبوا إلى الله واطلبوا منه العونَ على طاعته.

❊ ❊ ❊

توجيهات ودروس«للخطبة الثانية»:

سَمع أبو هريرةَ ؓ رسولَ الله ﷺ يقول: «ثلاثُ دَعَواتٍ مُسْتجاباتٌ لهُنَّ لا شَكَّ فيهنّ: دَعوةُ الْمظلوم، ودَعْوَةُ الْمُسافِر، ودعوة الوالدين على وَلَدِهما». [البخارى فى الأدب الْمُفرد وأبو داود وغيرهما].

روى البخاريُّ عن ابن عُمرَ أن النبىَّ ﷺ قال: «الكبائرُ: الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدين، وقَتْلُ النفسِ، واليَمِين الغَمُوس».

وعنه فى الصحيحين وعند أبى داود والترمذى أن رسولَ الله ﷺ قال: «مِن الكبائر شَتْمُ الرجل والدِيه»، قالوا: يا رسولَ الله، وهل يشْتُمُ الرجلُ والدِيْهِ، قال: «نعم ؛ يَسبُّ أبا الرجلِ، فيسُبُّ أباه ويَسُبُّ أمَّه».

وعند الحاكم عن أبى هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «أربعٌ حَقٌّ على الله أن لا يُدْخلهم الجنةَ ولا يُذيقَهم نعيمَها: مُدْمِنُ الخَمر، وآكِلُ الرِّبا، وآكِلُ مالِ اليتيم بغيرِ حقٍّ، والعاقُّ لوالديه».

٣١ - النَّميمةُ والنَّمَّامُ دُونهما سُمُّ الأفاعِي

عن حذيفةَ بنِ اليَمَانِ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ..». وفى روايةٍ «قَتَّاتٌ». [متفق عليه].

أيها الْمُؤمنون:

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَمرَ عبَادَهُ بالتوادِّ والتناصُرِ، ودعا الْمُؤمنين للتآلفِ والتآزرِ وحَذَّرهم الشحناءَ والبغضاءَ، ونهاهُم عن الخِصامِ والتنافُرِ، كى لا تَضيعَ قُواهم، ولا تَتبدَّدَ جهودُهم، ولا تَفْنى أعمارُهم فى تنابُذٍ وتشاجُرٍ وعداواتٍ.. وإن أكبرَ مِعْوَلٍ يهدمُ وحدةَ الجماعةِ هو عَملُ النَّمام.. ذلك لأن النَّمام: هو الذى ينقلُ الحديثَ بينَ الناسِ على جِهَةِ الإفسادِ بينهم، وإيغارِ الصُّدورِ والتفريقِ بين الأَحبةِ، وتَمزيقِ أَواصِرِ الأُلفةِ، وتَقطيعِ حِبالِ الْمودَّةِ، والنمامُ بعمله ذاك يُولِّدُ النفورَ، ويُوقدُ نارَ العداواتِ.. وما أَقبحَه من عَملٍ! وما أدنأَ الإنسانَ الذى يُقدِم عليه! وما أَلأَمَ مَنْ يَتصفُ بتلك الخصلة الذميمة! فالنميمةُ آفةٌ أَشدُّ خطرًا من جراثيمِ الأَمراضِ، وأَفتكُ من الوباءِ.. لأنها تقلبُ سعادةَ الْمتحابِّين شقاءً، وتُباعِدُ الْمتقاربين، وتُباغضُ الأَهلَ، وتُثقِلُ النفوسَ بالهموم وتملأُ الصدورَ بالسموم.. إلا من رَحِم ربُّك.

لهذا كان الْمشَّاءون بالنميمة شِرارَ الناسِ، يتحاشاهم العقلاءُ، كما يتحاشَوْن النارَ الْمُحرقةَ، ويَتقُون أَخطارَهم، كما يلجئُون إلى الوقايةِ مِن الأوبئةِ الفتَّاكة.

وقد أخبر الصادقُ الأَمينُ ﷺ عن شرارِ الناس فقال كما فى مسند أحمد عن عبدِ الرحمنِ بنِ غَنْم: «شِرارُ عبادِ الله الْمشَّاءون بالنميمةِ، الْمُفرِّقون بينَ الأَحِبَّةِ، الباغونَ لِلبُرَآءِ العنَتَ..». وفى لفظ: «الْمُفسدون بين الأحبة الباغون العُيوبَ».

حقًّا.. إن النَّمامَ من شرارِ الناس، فهو لِصٌّ بارعٌ، يَعرِفُ كيف يَسترقُ

أَسرارَ الناس، ويلتمسُ عُيوبَهم، وهو مُحتالٌ مُخادِعٌ، يُزَيِّن الأَقوالَ لِيَضَعَ السُّمَّ في الصدورِ، فأنت ترى العائلةَ تَعيشُ في راحة وسلام، مُؤتلفًا أفرادُها، مُجتمعًا أبناؤها، يضمُّهم الصفاءُ، ويشملُهم الهناءُ، فإذا تَسَرَّب النَّمَّامُ إلى حياتِهم، ومَشى بينهم بِسعايتِه، وتحايلَ عليهم بوقيعتِه، فإذا بهم يَنقلبُ هناؤُهم شقاءً، وصَفاؤُهم كُرهًا وعداءً، وإذا بالأخ يَنفصلُ عن أخيه، والولدُ عن أبيه، بل الرجلُ من زوجته..

وقد جاءَ في الحكمة: «النميمةُ سيفٌ قاتِلٌ».

وقال بعضُ البلغاءِ: «النميمةُ دَناءَةٌ، والسعَايةُ رَدَاءَةٌ، وهما رأسُ الغدْر، وأساسُ الشرِّ، فتجَنَّبْ سُبُلَهُما، واجْتَنبْ أَهلَهما».

يا أهلَ الإيمان:

إن النمَّامَ خبيثُ القلبِ، حُلوُ الحديثِ، وَعَملُه مِمَّا تَعْجَزُ عنه الشياطينُ؛ لأن عَمَلَ الشيطانِ بالوسوسةِ، وعملَ النمام بالمواجهة، يُعْجِبُ السامعَ قولُه إن لَم يَفطِنْ له، وهو لا يَدرى أنه كمن يُقدِّمُ السُّمَّ القاتِلَ في العسل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة].

ولقد تبرأ الصادقُ الأمينُ ﷺ من الحاسدِ والكاهنِ والنمَّام، فيما رواه عبدُ الله بنُ بُسر عند الطبراني فقال: «ليسَ منِّي ذو حَسَدٍ، ولا أنا منه، وليس منِّي ذو كَهانةٍ ولا نَميمةٍ، ولا أنا منه». ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب].

إن الناسَ لا يستقيمُ لهم أمرٌ إلا بالتعاون، ولا ينجحُ لهم عملٌ إلا بالتكاتُفِ والتسانُدِ، ولا تعاونَ إلا عن مَحبَّةٍ، وإن التسَانُدَ أثرُ الأُلفةِ والمودَّةِ، وإن الخيرَ

الذى تُنتِجه الجماعةُ الْمُتآلفةُ الْمُتحابةُ، أنفعُ مِمَّا يُنتجه الأفرادُ الْمُتباعِدون، وإن القوةَ الْمجتمِعَةَ خيرٌ من القُوى الْمفكَّكة.. لهذا فإن ديننَا الحنيفَ، يأمُرنا بالْمحبَّةِ وقوةِ الرابطةِ، وينهانا عن التنازعِ، والتفرُّق: ﴿... وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿... وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولَمَّا كان النمامُ مصدرَ إفسادٍ، يَغرِسُ الأحقادَ بين العبادِ، ويزرعُ الأضغانَ فى قلوبِ الْمُتصافين، فقد نهى الله عز وجل عن سماع قولِه وتصديقِ كلامِه حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم: ١٠-١٢].

فنعوذُ بالله من القيلِ والقالِ، وفتنةِ النمَّامين، الذين لا يعيشون إلا فى الْماءِ العَكِرِ، ولا تطيبُ لهم الْمجالسُ إلا بإغراءِ العداوةِ بين الْمسلمين، أُولئك شِرارُ الخلقِ عند الله.

إن واجبَ الْمؤمنِ ألَّا يُصدِّقَ نَمَّامًا ؛ لأن النمامَ فاسقٌ، وهو مردودُ الخبرِ، كما ينبغى أن ينهاه عن ذلك وينصحَه، ويُقَبِّحَ فِعلَه، وأن يَبْغَضَهُ فى الله عز وجل، فإنه بَغيضٌ عندَ الله، والبُغْضُ فى الله واجبٌ - إلَّا إن تاب وأقلع - كما ينبغى ألَّا يَرْضَى الْمؤمنُ لنفسِه ما يَستقبِحُه من عَمل النمَّام، فلا يَحْكى نَميمتَه ولا ينقلُ أَقوالَه.. وعلى الْمؤمن ألَّا يظنَّ السوءَ فى الْمنقولِ عنه لقوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

ألا ما أكرم الْمُؤمنَ الذى يصونُ لسانَه، ويَحفظُ سمعَه، وَيتَّقِى الله ربَّه ويُراقبُ مولاه فى كلِّ قولٍ وعملٍ، ويحاسبُ نفسَه قبلَ أن يُحاسَبَ.

إن النميمةَ حَرامٌ بإجماع الْمسلمين، وقد تظاهرتْ على تحريمها الأدلةُ من الكتابِ والسُّنَّة، والنميمةُ قبيحةٌ، وإن كانت صحيحةً، والساعِى بالإفساد

ملعونٌ ومطرودٌ من رحمة اللهِ، والعياذُ بالله.

وفى الحديث الذى رواه ابنُ عمر عند الطبرانى: «إن النميمةَ والحِقْدَ فى النارِ لا يجتمعان فى قلبِ مُسلم». وفى لفظ: «النميمةُ والشتيمةُ والحميَّةُ فى النار».

وفى الحديث الذى رواه أبو بَرْزةَ عند الطبرانى وبعض أصحاب السنن: «والنميمةُ من عذابِ القبرِ».

فاتقوا الله - عبادَ الله - واخْشَوْهُ، واذكروا أنه سبحانه يُحصى علينا كلَّ قولٍ وعمل، وأنَّ الإنسانَ مَجزِىٌّ بالإحسان إحسانًا، وبالسوءِ سوءًا وتُوبوا إليه فإنه هو التوابُ الرحيم.

* * *

للخطبة الثانية:

لقد أَمرنا دينُنا الحنيفُ بجمعِ القلوبِ، والإصلاحِ بين الناس؛ لتظلَّ الجماعةُ الْمُسلمةُ قويةً، قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال الهادى الحبيب ﷺ: «أَلا أُخبرُكُم بأَفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؟» قالوا: بلى يارسولَ الله قال: «إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ فإن فسادَ ذاتِ البَيْنِ، هى الحالقةُ، لا أقولُ تَحلقُ الشَّعر ولكن تَحلقُ الدِّين».

[رواه أبو الدرداء عند أبى داود وابن حبان والترمذى].

ولذا فإن النمَّامَ ملعونٌ على لسانِ خاتَم الأَنبياءِ، الذى لا يَنطقُ عن الهوى، ولنتدبرْ ما رواه أبو هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَلعونٌ ذو الوجهين، مَلعونٌ ذو اللسانين، مَلعونٌ كلُّ شَغَّار، مَلعونٌ كلُّ قتَّاتٍ، ملعونٌ كلُّ مَنَّانٍ..».

وفى حديث آخر رواه أنسٌ: «من كان ذا لسانين - فى الدنيا - جَعَلَ اللهُ له يومَ القيامة لسانين من نار..». [أخرجه الطبرانى والأصبهانى].

وجاء بِمعناه عند أبى داود رواية عمار بن ياسر: «من كان له وجهان فى الدنيا كان له يومَ القيامةِ لسانانِ من نار».

وذو اللسانين هو الذى يتكلم مع هؤلاء بِكلام، وهؤلاءِ بكلامٍ، وهو معنى صاحب الوجهين، والشغَّار: هو الْمُحرِّشُ بين الناسِ يُلقى بينهم بالعداوة، والقَتَّات: النَّمَّامُ يسمعُ حديثَ القوم فينقلُه إلى الآخرين بقصدِ الإفساد.

وعن عبدِ الله بنِ عباس رضي الله عنهما فى الصحيحين أن رسولَ الله ﷺ مَرَّ بقبرين فقال: «إنهما يُعَذَّبان، وَمَا يُعَذَّبانِ فِى كَبير.. بَلَى إنه كَبيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فكان يَمْشى بالنميمة، وأَمَّا الآخَرُ فكان لا يَسْتَبْرِئ مِن بَوْلِهِ» وفى رواية «لا يستترُ». ومعنى وما يُعذَّبان فى كبير، أى ليس بكبيرٍ تركُه عليهما، أو ليس بكبير فى زعمهما.

❊ ❊ ❊

* * *

توجيهات ودروس «للدرس»:

كما حَرّم الإسلامُ النميمةَ، وقبّح صُنْعَ النّمامين، فقد شَدَّد الوعيدَ على الغِيبة وأنْذَر مُقتَرفيها لسوء صَنيعهم، ولما لها من آثارٍ غاية فى الضرر بالعلاقات بين الناس مِثل النميمة؛ قال تعالى من سورة الحجرات: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. [الحجرات: ١٢].

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم والترمذى: «كلُّ المسلم على المسلمِ حَرَامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرْضُه».

وفى الحديث الذى رواه سعيد بنُ زيد ﷺ عند أبى داود: «إنَّ مِن أرْبَى الرِّبا الاستطالةَ فى عِرضِ المُسْلم بغير حقٍّ».

إن الذى يتحدَّثُ عن الناسِ بما يؤذيهم، ويَضُرُّ بهم ويسىء إليهم، هو المُغتاب الذى جاء الوعيدُ الشديدُ بشأنه، فإن كان فيهم ما يقوله فهى الغِيبة بعينها، وإن لم يكن فيهم ما يقولُه فقد جمع المتحدِّثُ بذلك بين الغِيبةِ والكذِبِ، وهما جُرْمان فظيعان لا يَليقان بمسلم أو مسلمةٍ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم أن الرسولَ ﷺ قال: «أتدرون ما الغِيبة؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قال: «ذِكْرُكَ أخاك بما يَكرهُ»، قيل: أفرأيتَ إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّهُ». وقد نقل القرطبىُّ الإجماعَ على أنها من الكبائر، وواجبُ المستمعِ أن ينهَى المتحدِّثَ عن اغتياب الناس، ويردَّ عنهم شرَّه.

فطوبَى لمن يزرعون الخيرَ ويجنون المحبَّة، والويْلُ لمن يزرعون أشواك الحزازاتِ، ويوُقدون حطبَ العدواتِ، ولا يتركون القلوبَ فى صفائها ونقائِها.

* * *

٣٢ - طُوبَى لِمَن طَابَ كَسْبُه

أما بعد:

فقد قال الله تعالى من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء].

يا أتباعَ رسولِ الله ﷺ:

يَنْهَى اللهُ عزَّ وجل فى هذه الآيةِ الكريمةِ عن أَخْذِ أموالِ الناسِ بغيرِ حَقٍّ أو الحصولِ عليها من غيرِ وجهٍ مشروع، وخَصَّ الأَكْلَ بالذِّكرِ فى الآية؛ لأنه أغلبُ وُجوهِ الانتفاعاتِ، وإن أَكْلَ أموالِ الناسِ بالباطل يَشملُ كلَّ ما أُخِذَ بغير حقٍّ؛ كالْمالِ الْمغصوب، والسرِقَةِ، وشهادةِ الزُّور، وما اقتطعه الْمرءُ من مالِ أَخيه باليمينِ الكاذِبةِ، ويدخلُ فى ذلك ما أُخِذ على وَجْهِ الهَزْلِ واللعبِ كالذى يُؤخَذُ فى القِمارِ والْملاهى ونحوِهما، وكذلك ما أُخِذَ بالْمعاوَضَات الفاسدةِ مثلِ ثَمَنِ لحمِ الخِنزيرِ والخمرِ والْميتةِ ونحوِها.

وفى صحيح البخارى وعند الترمذى أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ رجالًا يَتخَوَّضُون فى مالِ الله بغيرِ حقٍّ، فلهُمُ النارُ يومَ القِيامةِ».

[روته خَوْلَةُ الأنصاريّة].

والذين يتخوضون فى الأموال هم الذين يتملكونه، ويأخذونه لا يُبالون أَحَرامٌ أم حلالٌ، ولا يَتحرَّون الحلالَ، كما يخوضُ الإنسانُ الْماءَ يَمينًا وشِمالًا.

وقد بَيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ التى استمعنا إليها أن التجارةَ ليست من جنسِ الباطلِ، بل هى عملٌ مُباحٌ مشروعٌ، وطريقٌ للكسبِ الحلالِ الطَّيبِ، حيث تتمُّ الْمبادلاتُ فيها بالتراضى بين الْمتعاقِدَيْنِ عن طيبِ نفْسٍ، على وجهٍ يُلْزِمُ فيه الْمتعامِلان أنفسَهُمَا بحدود الله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

والإسلامُ يَحثُّ على تَقليبِ البضائعِ، وتَبادُلِ السِّلعِ والخيراتِ، وذلك بالعملِ بالتجارةِ، إذ إن الناسَ لا غِنى لهم عنها، بل إن اشتغالَ فَريقٍ من الناسِ بالتجارة وجَلْبِ البضائعِ يُعَدُّ أَمْرًا واجِبًا، يَتحتَّمُ عليهم، مادامَ أمرُ الْمعاشِ مُتوقِّفًا عليه. ولَمَّا كانت التجارةُ تَمَسُّ حياةَ الناسِ، لَزِمَ أن يكونَ القائمون عليها والْمشتغلون بها صادِقِين، أُمناءَ، أَوفياءَ، صالحين، وقد جاءَت البُشرى على لسانِ الصادقِ الأمين ﷺ للتاجر الأَمين الْمسلم الصَّدوقِ بأن له يومَ القيامةِ منزِلةً عاليةً، فقال فيما رواه أبو سعيد وأخرجه الترمذيُّ: «التاجرُ الصَّدوقُ الأَمينُ مع النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشهداءِ» وفى رواية ابن ماجه عن ابنِ عمرَ: «التاجرُ الصدوقُ الأَمينُ الْمسلمُ مع الشهداءِ يومَ القيامةِ».

ومِما يؤكِّد فضلَ التِّجارةِ أَن صفوةَ اللهِ من خَلْقِه النبيَّ محمدًا ﷺ كانَ من أَهلِ بيتِ التجارةِ، واشتغلَ ﷺ فترةً من عُمره تاجرًا، كما كان كبارُ الصحابةِ من التُّجارِ قبل الإسلام وبعده، ومنهم أَبو بكر وعثمان وغيرُهما.

إن الإسلامَ يدعو التاجرَ إلى أَن يُبينَ ما قد يكونُ فى سلعتِه من عيوبٍ ليباركَ الله له فى ثَمنِها وكسْبِها، والرسولُ ﷺ يقول كما جاء فى الصحيحين وغيرهما ورواه حكيمُ بنُ حِزامٍ ﷺ: «البَيِّعَان بالخيارِ ما لَم يَتفرَّقا، فإن صَدَقَا، وبَيَّنا، بُورِكَ لهما فى بَيْعهما، وإن كتما وكَذَبا، مُحِقَتْ بركةُ بيْعِهما».

ولقد حذَّر الإسلامُ - يا أهلَ الإيمان - التجارَ من الحلِفِ على السلعة، وجاءَ الوعيدُ الشديدُ للتاجر الذى يَتَّخذُ اليمينَ الكاذِبةَ وسيلةً، يَستعينُ بها على كسبِ ثقةِ الْمشترى بقصدِ التغريرِ به، ليَكْثُرَ بيعُه، وتَروجَ بضاعتُه، وفى الحديث السابق: «اليمينُ الفاجرةُ مَنفقَةٌ للسلعةِ، مَمْحَقةٌ للكسْبِ - والبركَة -».

وكما تَمْحَقُ اليمينُ الكاذبةُ كسبَ التاجرِ، وتُزيلُ عنه البركةَ، فإنَّ الله يَغْضَبُ عليه، ويطردُه من رحمته، وفى الحديث الذى أخرجه مسلم ورواه أبو

ذرٍّ: «ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم الله يومَ القِيامةِ ولا ينظُرُ إليهم، ولا يُزكِّيهم، ولهُمْ عذابٌ أليمٌ: الْمُسْبِلُ إزارَهُ، والْمنَّانُ - الذى لا يُعطى شيئًا إلا مَنَّهُ - والْمُنفِقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذبِ».

إن العملَ الشريفَ - يا أحباب الله - والكسْبَ الذى يأْتى عن طريقِ حلالٍ، يكفى الْمَرءُ به نفسَه وعِيالَه، مهما كان قليلًا - أَفضلُ من الطمعِ فيما ليس للإنسان حقٌّ فيه، ولذا أَثنى الإسلامُ على الْمجتهدين فى السعْى من أَجْل الحلالِ الطيِّبِ، وذمَّ الحرامَ ومَصادِرَه ومَوارِدَه، وللإمام أَحمد بإسناد جَيِّد عن أبى هريرة قال النبىُّ ﷺ: «والذى نفسى بيدِه، لأَنْ يأْخذَ أَحدُكُمْ حَبْلَهُ، فيذهبَ به إلى الجبل فَيحتطِب، ثمَّ يأْتى بِه، فيحملَه على ظَهرِه فيأْكلَ، خيرٌ له مِن أن يسأَلَ الناسَ، ولأن يأْخُذَ ترابًا فيجعلَهُ فى فِيه خيرٌ له من أَن يجعلَ فى فيه ما حَرَّمَ الله عليه». وفى البيهقى: «الدُّنيا خَضِرةٌ حُلْوةٌ من اكتسبَ فيها مالًا من حِلِّه وأَنفقَهُ فى حَقِّه، أثابه الله عليه، وأَوْرَدَهُ جَنَّتَهُ، ومن اكتسبَ فيها مالًا من غير حِلِّه وأَنفقهُ فى غيرِ حَقِّهِ أوردَهُ اللهُ دارَ الهوانِ، ورُبَّ مُتَخَوِّضٍ فى مال الله ورَسولِهِ له النارُ يومَ القِيامةِ». يقولُ الله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾. [الإسراء: ٩٧]. [رواه ابنُ عُمرَ].

فطُوبى لِمَن طاب كَسْبُه، وصَلَحَتْ سَرِيرَتُه، وكَرُمَتْ علانيتُه، وعَزَل عن الناسِ شَرَّه. طوبى لِمن عَمِل بِما عَلِم، واتقوا الله - عبادَ الله - واستعينُوا به سبحانه فى كلِّ أمورِكُمْ، وأَحسِنُوا التوكُّلَ عليه، وتُوبوا إلى الله توبةً نصُوحًا، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له.

* * *

للخطبة الثانية

إن رِبْحَ التاجرِ الأَمينِ الصادقِ من أَطيبِ الكسبِ، وعملَه من أَشرفِ الأَعمالِ، بهذا أَخبر الحبيبُ الهادى ﷺ، فقال مُحَرِّضًا التجارَ على الأَمانة

والوفاءِ بالوعد، وتَحَرِّى الكسبِ الحلال: «إنَّ أَطيبَ الكَسْبِ كَسبُ التجارِ الذينَ إذا حَدَّثوا لَم يَكْذِبوا، وإذا ائْتُمِنوا لَم يَخُونوا، وإذا وَعَدُوا لَم يُخْلِفُوا وإذا اشْتَرَوْا لَم يَذُمُّوا، وإذا باعُوا لَم يُطْرُوا - لَم يَمْدحُوا - وإذا كانَ عليهم لَم يَمْطُلوا، وإذا كانَ لَهُمْ لَم يُعْسِّروا». [أخرجه البيهقى ورواه معاذُ بنُ جبل].

وفى هذا الحديثِ يَمدحُ الرسولُ ﷺ الكسبَ الحلالَ الطيبَ، ويَمدحُ التاجرَ الصادقَ الذى لا يكذبُ، والأَمينَ الذى لا يخونُ، والوفىَّ الذى لا يُخْلِفُ الوعدَ، والْمتحرّى الحلالَ فى معاملاته، فهو لا يَذُمُّ سِلعةً يريدُ أن يَشتريَها ليبخَسَها، ويُلْجِئَ بذلك صاحبَها إلى التخلُّصِ منها، يعملُ ذلك تغريرًا وخِدَاعًا، كما يَمدحُ النبىُّ ﷺ التاجرَ الذى إذا باع سِلعةً لا يبالغُ فى الثناءِ عليها، وتحسينِها للمشترى ليغُشَّه، أو ليدفعَه إلى شرائِها - ومن صفاتِ التجارِ الأُمناءِ أَنهم يُؤدُّون الحقوقَ ولا يُؤخِّرونها، وإذا كان لهم دَيْنٌ على مُعْسِرٍ غيرِ قادرٍ على الوفاءِ أَمهلوه حتى يتيسرَ حالُه؛ فطوبى للتاجر الصدوق الأمين.

وعن عبد الله بن أَبى أَوفى كما جاء فى صحيح البخارى وعند ابن أبى حاتم: أَن رجلًا أَقام سِلعةً فى السوق، فحلفَ لقد أُعْطِى بها ما لَم يُعطَهُ ليُوقِعَ فيها رجلًا من الْمسلمين فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران].

ذلك أَنَّ التاجرَ - يا أهلَ الإيمان - يَنْبَغى له أَن يُمسِكَ لِسانَه عن الحَلِفِ بالله وأَن يَلْزَمَ الصدقَ والأَمانةَ والبيانَ والوضوحَ والوفاءَ والعدلَ، دون اللجوءِ إلى الحَلِفِ أَو الخِداعِ، وقد جاءَ النَّهْى عن كثرةِ الحَلِفِ، ولو كان الحالِفُ صادقًا فقد أَمر الله الْمُؤمنين بحفظ أَيمانهم، والرسول ﷺ يقول: «إِيَّاكُمْ وكثرةَ الحَلِفِ فى البيعِ ؛ فإِنه يُنْفِق ثُمَّ يَمْحَقُ». [أخرجه مسلم ورواه أبو قتادة].

٣٣ - الرِّبَا وآثارُه السَّيِّئة

أمّا بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة].

أيها المُؤمنون:

إن الله سبحانه وتعالى بعباده رءُوفٌ رحيم، ومن رحمتِه تعالى بهم أن أرسلَ رسولَه محمدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآنَ الكريمَ هدايةً ونورًا، يُبينُ لهم الخيرَ والشرَّ، والنافعَ والضارَّ، والحلالَ والحرامَ، ليَحْيَوْا حياةً طيبةً مُباركةً، إن هم طبَّقوا أحكامَه، واستقاموا على منهجه.

ومن رحمةِ الله بعبادِه أنه سبحانه أَحلَّ لهم الطيِّباتِ لينتفعُوا بها، وحرَّم عليهم الخبائثَ، وأَباح لهم التوسُّعَ فى كسبِ الْمالِ من طريقٍ حلالٍ وبالوسائلِ الْمشروعةِ، وحرَّم عليهم الرِّبا؛ لأَنَّ الكسْبَ عن طريق الرِّبا كسبٌ خَبيثٌ، يُدنِّسُ الأَموالَ، ويَذهبُ بالبركةِ، ويدلُّ على الجشَع، ويعودُ على الْمتعاملين به بأَفدح الأَضرار، وأَقبحِ العواقبِ فى الدنيا والآخرة.

وكم كان الرِّبا سببًا فى خراب بيوتٍ كانت عامرةً.. وكم أَرهق نفوسًا وأَذلَّها تحت وَطأَةِ الأَرباحِ التى تتضاعفُ، فيزيدُ الهمُّ، وتتضاعفُ الْمتاعبُ والآلام.

لهذا شدَّد الله الوعيدَ على الرِّبا، وجعله سبحانه وتعالى من أَفحشِ الخبائث، وأَكبرِ الكبائر، ونفَّر الناسَ من تَعاطيه بأَبلغِ الزواجرِ، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وفى هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، لِمن استمرَّ على تعاطى الرِّبا والتعاملِ به، بعد الإنذار والتحذير، وأَىُّ زاجرٍ أَبلغُ مِن جَعْلِ الْمرابى محارَبًا

من الله ورسوله؟. ذلك لأنه شوَّه وَجْهَ الْمعروفِ بأَخْذِه الزيادَةَ عن رأس مالِه بغيرِ حَقٍّ، وقَطَعَ يدَ التعاونِ بين الْمؤمنين الذى أَمر الله به فى قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إن الذين يأْكلون الرِّبا، ويتعاملون به، إنما يَرتكبون كبيرةً من الكبائر وكَسبُهم منه كسبٌ خبيثٌ لا بركَةَ فيه ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦] أى يُذهِبُ بركتَه وإن كان كثيرًا. وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبىِّ ﷺ قال: «ما أَحَدٌ أَكثرَ من الرّبا إلّا كان عاقبةُ أمره إلى قِلَّةٍ» [أخرجه ابن ماجه].

وفى لفظ له عند الحاكم قال: «الرِّبا وإن كثر، فإن عاقبتَه إلى قُلٍّ». أى عاقبتَه إلى فقرٍ؛ لأنّ الله تعالى يَنزِعُ منه البركة.

وعن ابن عباس ﷺ فى قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]. قال: لا يقبلُ منه صدقةً، ولا حَجًّا، ولا جهادًا، ولا صلة.

أيها الْمُؤمنون:

إن الله عز وجل أَحلَّ لعباده البيعَ، وحَثَّهم على الكسب، وعلى تحصيلِ الْمالِ من وُجوهِه الْمشروعة، وما أَكثَرَ ميادينَ الكسبِ الحلالِ، والربحِ الطَّيبِ.. أما التعاملُ بالرِّبا فإنه يعودُ بأَفدحِ الأَضرارِ على الْمتعاملين به فى الدنيا، مع مَا أَوْعَد الله به من عقابٍ شديدٍ، وعذابٍ أَليمٍ، لِمن يتعاملون بالربا، ثمَّ لا يتوبون منه توبةً نصوحًا بشروطها، فمن أَكل الرِّبا بُعث يومَ القيامةِ مَجنونًا يتخبط! ففى حديث عوفِ بنِ مالكٍ ﷺ عند الطبرانى وابن أبى حاتم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إيَّاكَ والذنوبَ التى لا تُغفرُ»، ثمَّ ذَكَر منها: «وآكلُ الرِّبا، فمَن أكلَ الرِّبا بُعث يومَ القيامةِ مَجنونًا يتخبَّطُ». ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والرِّبا من السبع الْموبقاتِ التى أمرنا الهادى الحبيب ﷺ باجتنابها والحذرِ

منها ؛ لأنها تجلبُ لصاحبِها غضبَ الربِّ، وتُسبِّبُ هلاكَهُ، فعن أَبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ الْمُوبقاتِ»، قالوا يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: «الشركُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النفس التى حرَّم الله إِلَّا بالحق، وأَكْلُ الربا، وأَكلُ مالِ اليتيم، والتولِّى يومَ الزحْفِ، وقَذْفُ الْمُحصَناتِ الغافلاتِ الْمؤمنات». [أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى].

وقد دعا رسولُ الله ﷺ باللعن، والطردِ من رحمةِ الله على كلِّ الأَطرافِ التى تشتركُ فى عَقْدِ الربا.. لَعَن آكلَه، ومُؤكِلَهُ، والذى يشهدُ على العقد والذى يكتبه.. فعن ابنِ مسعود رضي الله عنه كما عند أحمد ومسلم والنسائى قال: «لعن رسولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبا ومؤكِلَهُ».

وعن جابر رضي الله عنه عند مسلم وغيره قال: لَعَن رسولُ الله آكلَ الرِّبا، ومُؤكلَه، وكاتبَهُ، وشاهِدَيْه، وقال: «هم سَواءٌ»، وآكِلُه هو الآخذُ للزيادة، ومؤكلُه هو الدافعُ لهذه الزيادة؛ وإن التعاملَ بالرِّبا مع المسلم وغير المسلم حرامٌ ووبالٌ.

أيها الْمُؤمنون:

إن الْمؤمنَ يَرضى بِما قَسم الله، ويُذعِنُ لأَمره، ويُطيعُه سبحانه، ويقفُ عند حدودِه، ويسعَى لتحصيلِ الْمالِ من وُجوهِه الْمشروعة، ولا يتعاملُ بالربا لعظيم خَطرِه، وسوءِ عواقبه.. وإن التعاملَ بين الناس يَنبغى أَن يقومَ على رعاية الْمصلحةِ، وحُبِّ الخير.. وما أَجملَ القَرْضَ يُقدِّمه الْمُسلمُ لأَخيه الْمُسلم عند حاجتِه، بلا فائدةٍ تعودُ على صاحبِ الْمالِ، وبلا زِيادةٍ عند الوفاءِ بالقرضِ.. إن هذا الأسلوبَ من التعاملِ يجمعُ القلوبَ على الْمحبةِ ويُثيبُ اللهُ عزَّ وجل عليه، ففى الحديث الشريف: «ما مِن مسلمٍ يُقرِضُ مسلمًا قرضًا مرةً إلا كان كصدقتها مرتين». [عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً عند ابن ماجه والبيهقى].

نسأَل الله عز وجلّ الرزقَ الحلالَ الطيِّبَ، والتوفيقَ لطاعتِه، إِنَّ ربِّى سميعُ الدعاء.

عن عمرو بن الأحوص ﷺ قال: سَمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى حَجَّة الوَداع: «ألا إنَّ كلَّ رِبًا من رِبَا الجاهليةِ مَوضوعٌ، تحتَ قَدَمىَّ هاتين، وأولُ رِبًا رِبا العبَّاس، لكمُ رءوسُ أموالِكم لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُون». [تفسير ابن كثير].

فاتقوا الله - عباد الله - وتحرَّوا الكسبَ الحلالَ، واحذروا مقتَ الله وغضبَه فى المعاملات الْمحرمةِ، وتُوبوا إليه لعله يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

رُوى أن رجلًا جاءَ إلى مالكِ بنِ أَنسٍ ﷺ فقال: يا أَبا عبدِ الله، إنى رأَيتُ رجلًا سكرانًا، يَتعاقرُ، يُريدُ أَن يأْخذَ القمرَ، فقلتُ: امرأَتى طالقٌ إن كان يَدخلُ جوفَ ابنِ آدَمَ أشرُّ من الخمر، فقال مالكٌ: ارْجعْ حتى أَنظرَ فى مَسأَلتِك، فأَتاه من الغدِ، فقال له: ارْجعْ حتى أَنظرَ فى مسأَلتك، فأَتاه من الغد. فقال له مالك: امرأَتُك طالقٌ، إنى تصفحتُ كتابَ الله، وسنةَ نبيِّهِ، فلم أَرَ شيئًا أَشرَّ من الرِّبا ؛ لأن الله أَذِن فيهِ بالحرب». [تفسير القرطبى. آيات الربا. سورة البقرة].

وبلغ أُمَّ الْمؤمنين عائشةَ ﷺ من امرأَةٍ من أهل الكوفةِ أَنَّ زيدَ ابنَ أَرقم اشترى منها، وباع لها ما اشتراه بثمن أَقلَّ من ثَمن الشراء، وكان زيدٌ اشترى على أَجَلٍ، وباع لها نقدًا، فقالت عائشةُ للمرأَة: «بِئْسَما شَريتِ - أى بِعْتِ -، وما اشتريتِ! فأبلِغى زيدًا أنه قد أَبطل جهادَهُ مع رسولِ الله ﷺ إلا أن يتوبَ». فقالت لَها: أَرأَيتِ إن لَم آخذْ منه إلا رأْسَ مالى؟ قالت عائشةُ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وما أَفتت عائشةُ بذلك إلَّا لِما فى هذا التعامل من تحايُلٍ يُؤدِّى إلى الوقوع فى الرِّبا الْمحظور، وهُو ما يُسمَّى عند أهل العلم: «العِينَة». وفيه دليلٌ لِمَن حَرَّمها.

[رواه ابنُ أبى حاتم ونقله ابنُ كثير فى تفسيره وغيره].

وعن أَبى سعيدٍ ﷺ قال: جاءَ بلالٌ ﷺ إلى رسولِ الله بتمْرٍ بَرْنِيٍّ (جيِّدٍ) فقال له: «مِن أَين هذا؟» فقال: كان عندنا تَمرٌ رَدىء، فبِعْتُ منه صاعين بصاع لِمطْعَم النبىِّ ﷺ، فقال عند ذلك: « [أَوَّه] عينُ الرِّبا، عينُ الربا، لا تفعلْ، ولكن إذا أَردتَ أَن تشترىَ فبعْ التمرَ بَيْعًا آخَرَ، ثمَّ اشْترِ به».

ولنتدبّر جيِّدًا قول الرسول ﷺ: «الذهبُ بالذهب، والفِضَّةُ بالفِضّة، والبُرُّ بالبُرِّ، والشعِيرُ بالشّعير، والتمرُ بالتمر، والمِلحُ بالمِلح مِثْلًا بِمِثْلٍ، سواءً بسواءٍ يدًا بيدٍ، فإذا اختلفت هذه الأصنافُ فبيعُوا كيف شِئتُم إذا كان يدًا بيدٍ».

[أخرجه مسلم ورواه عبادة بن الصامت].

وهذا يفسّر لنا عِلَّةَ نهْيه بلالًا عن بيع تمرٍ ردىء بتمرٍ جيِّدٍ مُتفاضلًا لاتفاق الجنسين، فلابدَّ إذن من التماثُل فى الكيل أو الوزن، وأن يكونَ التبادُل والتقابض فى المجلس نفسه.

عن أبى هريرة ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «يأتى على الناس زمانٌ لا يُبالى الْمرءُ ما أَخَذَ: أَمِنَ الحلالِ أمْ مِن الحرام»

[أخرجه البخارى والنسائى]. وزاد رَزين فيه: «فإِذَ ذلِكَ لَا تُجابُ لهم دعوةٌ».

ومن حديث أنس عند الطبرانى: «يأتى آكلُ الربا يومَ القيامةِ مُخَبَّلًا يَجُرُّ شِقَّيْه».

وروى أحمد فى مسنده أن ابنَ عمر قال: «من اشترى ثوبًا بعشْرة دَرَاهِمَ، وفيه دِرْهمٌ من حرام، لم يَقْبلِ اللهُ عزّ وجلّ له صلاةً ما دام عليه»، قال: ثم أَدْخَلَ أَصْبُعَيْه فى أُذُنَيْه، ثم قال: «صُمَّتا إن لم يكنْ النبىُّ ﷺ سَمِعتُه يقولُه».

ومن كان عليه دَيْن فَلْيُكثر من قول: «اللهمَّ اكْفِنى بحلالِكَ عن حَرامِكَ وأغننى بفضْلِك عَمَّن سِواك» إذا فَعل ذلك مع الإخلاص والإلحاح فى الدعاء والطلب من الله، ومع اتخاذِ الأسبابِ الصحيحة، يسَّر الله له قضاء دَيْنِه بفضله

وإحسانِه، وهو من حديث رواه عليٌّ وأخرجه الترمذيُّ.

❊ ❊ ❊

توجيهات شريفة وأحكام:

*** نهى رسول الله ﷺ عن إخفاء العيب فى الحبوب وغيرها، فقد أدخل يده الشريفة فى كومةٍ من القمح بالسوق فوجد بللًا ورطوبة، فقال للبائع: ما هذا؟ قال: أصابته السماء «بسبب المطر»، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام؟ كى يراه الناس، من غشَّ فليس مِنّى».** [أخرجه مسلم ورواه أبو هريرة].

*** ونهى عن البيوع الآتية:**

بيع العنب لمن يعرف البائع أنه يعصره خمرًا، فيبيع له عن معرفة بذلك.

[بريدة عند الطبرانى].

- بيع أو شراء ما فى بطون البهائم حتى تضع حملها.

- وعن بيع أو شراء السمك فى الماء، والصوف على الظهر، واللَّبن فى الضَّرع.

- ونهى عن شراء أو بيع الثمرة على الشجرة حتى تستحقَّ أن تؤكل أى تزهو ويبدو صلاحُها، ونهى عن شراء ضَرْبة الغائص فى البحر؛ لأن ذلك بيعٌ للمجهول وفيه غَرَرٌ وندامةٌ لأحد الطرفين.

[نجد هذا فى كتب السنن عن أبى سعيد الخدرى وابن عباس وابن مسعود وغيرهم وانظر بلوغ المرام].

*** «الربا ثلاثة وسبعون بابًا، أَيْسَرُها مثل أن يَنكح الرجلُ أمَّه (أى فى الذنب) وإن أَرْبَى الرِّبا عِرْضُ الرجلِ المسلم».** [رواه ابن مسعود وأخرجه ابن ماجه وغيره].

❊ ❊ ❊

٣٤ - صِلَةُ الرَّحِم

أما بعد:

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسولَ الله ﷺ قال: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بالعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلنى وَصَلهُ الله، وَمَنْ قَطَعَنى قَطَعهُ الله». [متفق عليه].

أيها الْمُؤمنون:

صلةُ الرَّحمِ معناها: مَبَرَّةُ الأهلِ والأقاربِ والإحسانُ إليهم.

إنَّ كلَّ أُمة تتكونُ من أُسرٍ وقبائلَ وعشائرَ، فإذا تآلفت الأُسرُ وتماسكتْ العشائرُ والقبائلُ، وعمَّهم الحبُ والإخاءُ، سَعِدوا، وانتظمت أُمورُهم وقَوِيَتْ شَوكةُ الأمةِ، وتقدمتْ، وارتفعتْ رايتُها تُظَلِّلُ أَبناءَها الْمتعاونين الْمتآخِين الْمتراحمين الْمتعاطفين.

إن قريبك جزءٌ منك، منسوبٌ إليك، مُتصلٌ بك، رغبتَ أم لَم ترغب، له عليك حقوقٌ واجبةُ الرعايةِ، وعليك له واجباتٌ يَلزمُ أداؤها.

ولأجل أن يكونَ بناءُ الْمجتمعِ الإسلامى قويًا متماسكًا متساندًا أَفرادُه أَوصى القرآنُ الكريمُ بالأَقارب، ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾.
[النساء: ٣٦].

فبدأَتْ الآيةُ بتوحيدِ الله عز وجل، ثمّ جاءَ الأمرُ بالإحسان إلى الوالدين والأَقارب، وبعد ذلك أَمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى اليتيم والْمسكينِ والجارِ ذى القربى، والجارِ الجنُبِ، والصاحبِ بالجنب، وابنِ السبيل.

إن من حقِّ القريبِ على قريبه أَن يُساعدَه بِماله إذا افتقَر، وأَن يُمِدَّه وقتَ الحاجة، ويُفَرِّجَ كُربتَه، ويُنفِّسَ عنه غُمَّته، وإن كان هذا هو حقَّ كلِّ مسلم فهو بالقريب أَوْلى وأَجْدَر.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء] وأمرنا الله عز وجل بتقواه فى الأرحام فنَصِلُهم، ولا نَقْطعهم ونتوَدَّدُ إليهم، ونُدْخلُ السرورَ على قلوبهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ومن حقِّ ذَوى الرَّحِم الإحسانُ إليهم بِقْدر الطاقةِ، والشفقةُ عليهم وتقديمُ النُّصحِ لهم، وإفشاءُ السلامِ عليهم، وعيادةُ مَرضاهم، والسؤالُ عنهم، وشهودُ جنائزِهم، ومقابلةُ الإساءةِ منهم بالإحسان إليهم.

ومن كان ذا مالٍ فأقاربُه أَولى الناس بصلَتِه وَبِرِّه وصَدقتِه. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة].

والرسولُ ﷺ يقول: «أفضلُ الصدقةِ الصدقةُ على ذى الرَّحِم الكاشحِ» [أى المبغِض]. [روته أمُّ كلثوم بنتُ عُقبةَ وأخرجه الطبرانى وابنُ خزيمة والحاكم].

وعن حكيم بن حِزَام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى، وابْدأْ بِمَنْ تَعُول». [أخرجاه].

فالمسلمُ فى نَظر الإسلام كالشجرةِ الحانيةِ الوارفةِ الظلالِ، تُظِلُّ الأقربَ فالأقربَ، فيبدأُ بِمَن يعولُ؛ كالأبناء والآباء والزوجَة مِمَّن نَفَقَتُهمْ واجبةٌ، ثم تأتى المراتبُ بعد ذلك فى البِرِّ والإحسانِ كالإخوةِ، والأخواتِ، والأعمام والعَمَّاتِ، والأخوالِ والخالات وغيرِهم أى الأَقْربِ فالأقربِ. وقد وَرَد عن النبىِّ ﷺ أن الله لا يقبلُ صدقةً من مسلم، وله قرابةٌ محتاجون إلى بِرِّه وعَطفِه ثمَّ يَصْرِفُها بعيدًا عنهم، يقول ﷺ: «يا أُمةَ محمد، والذِى بعَثنى بالحقِّ، لا يقبلُ الله صدقةً من رجلٍ، وله قرابةٌ مُحتاجون إلى صِلته ويصرفُها إلى غيرهم، والذِى نفسى بيدِهِ لا ينظُر الله إليه يومَ القيامة». [أخرجه الطبرانى ورواه أبو هريرة].

وقد وَرد فى التنبيه على فضل تفقُّدِ الأقاربِ الضعفاءِ وبرِّهم قولُ رسولِ الله ﷺ: «مَنْ كانَ له أَقاربُ ضعفاءُ ولَم يُحسن إِليهم، ويصرفُ صدقَته إِلى غيرهم لَم يقبل اللهُ منه صدقَتَه، ولا ينظر إِليه يومَ القِيامةِ» وقال ﷺ: «الصدقةُ على الْمسكين صدقةٌ وعلى ذوى القرابة اثنتان: صدقَةٌ وَصِلَةٌ».

[رواه سلمانُ بنُ عامر ﷺ وأخرجه النسائى والترمذى].

والْمسلم الفقيرُ عليه أَن يصلَ رَحِمَه بالزيارة، وإِلقاءِ السلام عليهم والسؤالِ عنهم، لجلْبِ مَحبَّتهم، وتوثيقِ الصِّلةِ، وفى الحديث: «صِلُوا أَرْحَامَكُمْ ولو بالسّلام».

ومن حقوق الرَّحم تقديمُ الهدايا، والنصيحةُ، والإِرشادُ للخير والحقِّ والصوابِ، واللهُ عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ويقول سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

وامتدحَ الله رسولَه إِسْماعيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

هذه - يا أهلَ الإيمان - أَوامرُ الله، وتوجيهاتُ رسولهِ، تَنطِق بأَن صلةَ الرَّحم قُرْبَةٌ عاليةٌ وعملٌ جليلٌ عظيمُ الأَجرِ عند الله.. فهل سأَل الْمسلمُ نفسَه: إِلى أَىِّ حَدٍّ هو مُتمسِّكٌ بتعاليم دينه؟. إِلى أَىِّ حدٍّ هو بارٌّ بوالديْه؟. إِلى أَىِّ حَدٍّ هو عطوفٌ على أَهله، رحيمٌ بهم، ساعٍ فيما يُصلِحُهم، مَشغولٌ بأُمورهم، متجاوِزٌ عن هفواتهم، واصلٌ لهم وإِن هم قَطعوه.

إِن صلةَ الرحم تسببُ سَعَةَ الرزقِ، كما أنها تُسبِّبُ البركَةَ فى العُمرِ ويُرشدُنا الحبيبُ الْمصطفى ﷺ إِلى ذلك فيقول: «منْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ، ويُنسَأَ لهُ فى أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه». [متفق عليه من رواية أنس].

إن صلةَ الرحمِ - يا أحباب الله - ومساندةَ الأهلِ والدفاعَ عنهم بالحق والعدلِ أمرٌ واجبٌ، وفى الوقتِ نفسِه، إنه ليس من الخير، ولا من البرّ أن يُعينَ الْمسلمُ قريبًا له على شرٍّ، أو يساعدَه على الهروب من حقٍّ، فالله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. ويقولُ سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾ [النساء: ١٣٥]. فحذارِ أن تُعين أخاك على ظُلم أو تَشهدَ له بالباطل.

وإذا كان الإسلامُ حَبّب إلينا صِلَةَ الرحِم، وحثّنا على البرّ بهم والتوَدُّدِ إليهم، وجعل ذلك من القُرباتِ، فإنه نَهى عن قطيعة الرحم، وجَعل ذلك من أسبابِ غَضبِ اللهِ على عبده، ويلعنُ اللهُ الْمرءَ الذى إذا استغنى تكبَّر على أهله، وقَطَعَ رَحِمه، ولنتدبرْ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد]. وفى قاطع الرحِمِ الْمهملِ شأنَ أهلِهِ كالأُختِ والخالةِ والأَخِ والعمِّ ونحوِهم يقول الرسول ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ قاطعٌ».

[متفق عليه عن جُبير بن مطعم].

وقال ﷺ: «أَسْرَعُ الخيرِ ثوابًا البِرُّ وصِلَةُ الرَّحِمِ، وأسرعُ الشرِّ عُقوبةً البغى وقَطيعةُ الرحِم». [أخرجه ابن ماجه عن عائشة ﵂].

إن القريبَ - أيها الْمُؤمنون - قطعةٌ مِن قَريبه، فينبغى أن يفرَحَ لفرَحِه ويَحزنَ لألَمِه وأن يشاركَه سَرّاءَهُ وضراءَه، ولا يَمنعَ عنه نُصْحَهُ وإرشادَه، ولا يحسدَه على ما آتاه الله من فضله.

كما أن الْمسلمَ لا ينبغى له أن يُقابلَ إساءَةَ أهلِه بالإساءةِ، أو يقابلَ قَطيعتَهم بالقَطيعةِ؛ لأنه بذلك يَعيبُ شَرَّهم معه، ويَرضى لنفسِه ما عابه عليهم، وهو يَستطيعُ أن يَكْسبَ قلوبَهُمْ باستمراره فى الإحسان إليهم، فالشرُّ لا يَدْفعُ شرًّا،

وليس من الحق ولا من الصوابِ ما أَوعز به الشيطانُ إلى بعضِ النفوسِ، فزيَّن لهم الْمثَلَ: (الأقاربُ كالعقارب) فهذا الْمثَلُ ليس صحيحًا، وإنَّما هو من تَزْيين إبليسَ، ليُفسِدَ فى الأرضِ ويُباعِدَ القلوب.

فاتقوا الله - عباد الله - فى الأَقارب وصِلُوهم يرحمكم الله ويُبارك لكم.

قال ﷺ: «ما على الأرضِ مسلمٌ يدعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إلَّا آتاهُ اللهُ إيَّاها، أو صَرَف عنه من السُّوءِ مِثْلَها ما لم يدْعُ بإثم أو قطيعةِ رحم».

[رواه عبادةُ بنُ الصامت وأخرجه الترمذى].

فاتقوا الله - عبادَ الله - وَبِرُّوا آباءَكم وأُمهاتِكم، وصِلُوا أَرحامَكم وتوبوا إلى الله توبة نصوحًا، فالتائبُ من الذنبِ كمَن لا ذنبَ له.

* * *

للخطبة الثانية:

إنّ صلةَ الرحم من ثَمراتِ الإيمانِ الصحيح، وعلامةٌ على الصدق والإخلاص، فعن أبى هريرة رضي الله عنه كما فى الصحيحين قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمن بالله واليومِ الآخِرِ فليكرمْ ضيفَه، ومنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، ومن كان يُؤْمنُ بالله واليوم الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِت».

قال ﷺ عن ربِّه قال سبحانه: «أَنا الله، وأَنا الرحمنُ، خلقتُ الرحِمَ وشَققتُ لها اسْمًا من اسْمى، فمنْ وصَلَها وصَلتُه، ومَن قَطعها قَطعتُه».

[رواه عبد الرحمن بن عوف وأخرجه أبو داود والترمذى].

جاء فى مسند الإمام أحمد:

عن أَبى أَسيد وهو مالك بنُ ربيعة الساعدىُّ قال: بينما أَنا جالس عند رسول الله ﷺ إذْ جاءَه رجلٌ من الأَنصار فقال: يا رسول الله، هل بَقِى علىَّ

من برِّ أبوىَّ شىء بعدَ موتهما أبرُّهما به؟ قال: «نَعَمْ خِصالٌ أربع: الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عَهْدِهما، وإكرامُ صَديقهما، وصلةُ الرحِم التى لا رَحِمَ لك إلا مِنْ قِبَلِهما، فهو الذى بَقِىَ عليك بعد موتهما من برِّهما».

[وجاء مثله عند أبى داود وغيره].

وفى المسند: عن المقدام بن معديكَرِبَ أن النبىَّ ﷺ قال: «إن الله يُوصيكم بأُمهاتِكم، إن الله يوصيكم بأُمهاتِكم، إن الله يوصيكم بأُمهاتِكم، إن الله يُوصيكم بالأقربِ فالأقرب». [وأخرجه أيضًا البخارى فى الأدب المُفرد].

وعن رجل من بنى يربوع قال: أَتيْتُ النبى ﷺ وهو يكلم الناس يقول: «يدُ المعطى (العليا) أُمَّك، وأَباك، وأُختَك، وأَخاك، ثم أدناك فأَدناك».

ومن أقواله ﷺ:

* «لا يُجَالِسُنَا اليومَ قاطعُ رحِم».

[من حديث عبد الله بن أبى أوفى عند الأصبهانى].

* وعند البخارى فى الأدب المُفرد والبيهقى وفيه: «إنَّ الرحمةَ لا تنزلُ على قومٍ فيهِم قاطعُ رحم».

* «إن الله ليُعمِّر بالقومِ الديارَ، ويُثمِّرُ لهم الأموالَ، وما نَظَر إليهم منذ خَلَقهم بُغْضًا لهم، قيل وكيف ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «بِصِلَتهم أرحامَهم».

[من حديث ابن عباس عند الطبرانى والحاكم].

* وعن جابر ؓ أن رسول ﷺ قال: «إذا كان أَحدُكم فقيرًا فليبدأْ بنفسِه، وإن كان فضلٌ فعلى عياله، وإن كان فضلٌ فعلى ذوى قرابتِه» أَو قال: ذوى رحمِه، «وإن كان فضلٌ فها هنا، وها هنا..».

* * *

٣٥ . طُوبَى لِمفاتيحِ الخير

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

ورُوى عن سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه كما عند ابن ماجه أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ هذا الخيرَ خزائنُ، ولتلك الخزائنِ مَفاتيحُ، فطُوبى(١) لعبْدٍ جعلهُ اللهُ مِفْتاحًا للخَيْرِ، مِغْلاقًا للشرِّ، وويلٌ لعبدٍ جعله اللهُ مِفْتاحًا للشرِّ مغلاقًا للخير».

يا أحبابَ رسولِ الله ﷺ:

الإسلامُ يَحُثُّ الْمُؤمنين على التناصُرِ والتحَابُ والإخلاصِ، ويأْمُرهم بالْمعاونَة على فِعل الخيراتِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ . . .﴾ [المائدة: ٢] كما يأْمُرهم بالْمعاونة على تركِ ما يُغْضِبُ الله، والكَفِّ عَمَّا يَجْلبُ سُخطَه، أى يأمرهم بالتَّقْوى، ثم نَهاهُم عن أن يكونوا أعوانًا للشَرِّ والفساد: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وفى الحديثِ الشريفِ السابقِ يحثُّ الحبيبُ الْمصطفى ﷺ الْمُؤمنين على بابٍ عظيمٍ من أبوابِ البرِّ، به تسودُ الْمحبةُ، وتَقْوى الروابطُ بين أفرادِ الأُمةِ ذلك البابُ هو سَعْى القادِرين فى مَصالحِ الناس، والْمساعدةُ على إيصال الخيرِ لهم والعملُ على دَفْعِ الشَّرِّ عنهم.

وقد وَصَف رسولُ الله عليه الصلاةُ والسلامُ أَهلَ الْمروءاتِ بأنهم أَهلُ الْمعروف فى الدنيا، عُرفت عنهم السماحةُ وسَعَةُ الصدر، يَقصِدُهم الناسُ فى مصالحهم، فيبذلُون لهم من وَقْتهم وسَعْيهم وجَاهِهم ما يُحققُ لهم الخيرَ، أو يَدفعُ عنهم الضُرَّ، ولهذا العملِ وَفَّقهم الله، فهو يَسوقُهم إلى الخيرِ، كما يَسوقُ الْماءَ إلى الأَرضِ الْجُرُزِ(٢) فَتُنبتُ ما شاءَ اللهُ من نباتٍ وثَمرٍ، ولهذا

(١) طوبى: بضم الطاء وفتح الباء من الطيب، يقال: طوبى لك وطوباك، وطوبى اسم شجرة فى الجنة.

(٢) الجرز: أرض جُرز لا نباتَ بها.

أخبر الرسولُ ﷺ بأَنَّ هؤلاءِ «هم الآمنون من عذابِ الله».

ولنتدبر ما رواه ابن عمرَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ «. . . إن لله خلقًا خَلَقَهُم لحوائجِ الناسِ، يَفزَعُ الناسُ إليهم فى حوائجِهم، أُولئكَ الآمنون من عذابِ الله. . .». [أخرجه الطبرانى].

فطُوبى لِمن يساعدُ أخاه الْمسلمَ بجاهِه، أَو بِمالِه حتى يُدركَ ما يرجوه من خير، جاءَ من حديث شريف فى الصحيحين رواية ابن عمرَ: «مَنْ كانَ فى حاجةِ أخيه كان اللهُ فى حاجَتِهِ. . .». أَى يسَّرَ اللهُ له أُمورَه، وأَعانه، ودَفعَ عنه الْمكروه.

وقال الرسولُ ﷺ من حديث: «واللهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عونِ أَخيه». [أخرجه مسلم وبعض أصحاب السنن والراوى أبو هريرة].

أيها الْمُؤمنون:

إن كلَّ إنسانٍ مِنا يسَتطيعُ أَن يكونَ مِفْتاحًا للخير مِغْلاقًا للشرِّ ؛ بالْمالِ يَفعلُ ذلك من آتاه اللهُ الْمالَ، وبالرأْى يفعلُ ذلك مَنْ آتاه الله سَدَادَ الرأْى، وبالقلم يفعلُه من آتاه الله القلمَ، ويَسَّرَ له القُدرةَ على التعبير عَمَّا فى النفس، وبالجاه يفعلُه مَن آتاه الله الجاه، والزوجةُ تفعلُه فى بيتِ زوجِها، والابنُ مع أَبيه والأبُ مع ابنِه، والصاحبُ مع صاحبِه، والجارُ مع جاره.

فمن استطاع بِمالِهِ أَن يدفعَ حاجةَ مُحتاجٍ، فهو مِفتاحٌ للخير، مِغْلَاق للشرِّ، ومن استطاع بجاهِه وَنُفوذِه أَن يُحققَ الخَيرَ لإنسان أَو يوصِّلَه إلى حقٍّ فهو مِفتاحٌ للخير مِغْلَاقٌ للشرِّ، وإذا آتاك الله قَلمًا، تدافعُ به عن الحقِّ وتدعو إلى الخيرِ والفضيلة، وتَدفعُ به فى صَدْرِ الإلحادِ والباطلِ، فأَنت مفتاحٌ للخير مِغلاقٌ للشرِّ، والزوجةُ إذا استطاعت أَن تُرقِّقَ قلبَ زوجِها على أَهلِه ورَحمِه حتى يَصِلَهُم بِبِرِّه وإِحسانِه، فهى مِفتاحٌ للخير مِغلاقٌ للشر، وكذلك مَنْ يَجْمَعُ القلوبَ على

الْمحبة، وإن الجارَ الذى يأْمنُ جَارُه بَوائقَه[1]، والإنسانَ الذى يَسعى لأصحابِ الْمطالبِ العادِلَةِ ليقضِىَ لهم مَصالحهم، هؤلاء مفاتيحُ للخير.

وهكذا نجدُ فى ميادين الحياةِ الْمتعدِّدَةِ فُرَصًا لعمل الخيرِ ودَفْعِ الشَّرِّ، حتى وَلوْ بالكلمةِ الطيبةِ، والإرشادِ لِما فيه الخيرُ، والرسولُ ﷺ يقول: «مَنْ دَلَّ على خيرٍ فلَه مِثْلُ أجْرِ فاعِلِه». [رواه ابن مسعود وأخرجه مسلم].

ورُوى عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «أفضلُ الأعمالِ: إدخالُ السرورِ على الْمُؤمنِ: كسوتَ عورتَه، أو أشبعتَ جوعتَهُ، أو قضيتَ له حاجة..». [أخرجه الطبرانى فى الأوسط].

ومن حديث ابن عمر عند أبى الشيخ: «أَحَبُّ الأعمالِ إلى الله عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدْخِلُه على مسلمٍ، أو تكشفُ عنه كُربةً، أو تَطْردُ عنه جَزَعًا، أو تقضى عنه دينًا..».

فطوبى للمؤمن الصالح الذى يُفَرِّجُ عن أَخيه كُرَبهُ، ويدفعُ عنه الْمَضَرَّة ويجلبُ له خيرًا، وينصحُ له، ويقفُ إلى جانب إخوانِه فى عُسْرَتهم، ويفتحُ قلبَه وصَدْرَهُ لأصحاب الحاجاتِ، ويكونُ دائمًا ساعيًا فى الخير، مُحِبًّا للحقِّ معاونًا على البرِّ والْهُدى.

ولقد كان النبىُّ ﷺ إذا قدِم عليه أَحدٌ، وهو فى صلاتِه، خفَّفَ فى صلاتِه وأَقبل عليه فقال: «أَلكَ حاجةٌ»؟ فإذا فَرَغَ من حاجتِه عاد إلى صلاتِه.

روى ابنُ عمر كما عند أبى الشيخ وابن حبان: «مَنْ أعان عبدًا فى حاجته، ثبَّتَ اللهُ لهُ مَقَامَهُ يومَ تزولُ الأقدام».

فاتَّقوا الله - عبادَ الله - وتُوبوا إلى الله توبةً نَصوحًا، فالتائبُ من الذنب

---

(١) بوائقه: دواهيه ومفرده «البائقة» أى الداهية ويدخل فى الْمعنى الشر والظلم.

كَمَنْ لا ذنب له. اللهم اجعلنا من أَهل الْمعروف.

* * *

«للخطبة الثانية بشرى لأهل الخير والْمعروف»:

قال ﷺ من حديث عدىّ بنِ حاتم فى الصحيحين: «اتَّقُوا النارَ ولو بِشِقِّ تَمرةٍ» فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فبكَلِمة طيبةٍ، فالكلمةُ الطيبةُ صَدَقةٌ.

وروت عائشةُ رضي الله عنها كما عند الطبرانى: «مَنْ أدْخَلَ على أهل بيتٍ من الْمُسلمين سُرورًا، لم يَرْضَ اللهُ له ثوابًا دُون الجنة».

فهذه بشارةٌ كَريمةٌ يَنبغى أَن يفرحَ بها أُولئك الذين يَسَّرَ اللهُ لهم خِدمةَ الناس، والسعْىَ فى مصالحِهم، ومعاونةَ أَصحابِ الحاجاتِ حتى يتحققَ لهم ما يأملون، من جلب مَنفعةٍ أَو دَفْعِ مَضَرَّة. إن أَصحابَ الْمروءَاتِ ينبغى لهم أَن يَفرحُوا بالبشاراتِ النبويةِ، ويَستقبلوا حاجاتِ الناسِ التى تُوجَّهُ إليهم على أنها نِعَمٌ قد أَنعم الله بها عليهم، وعلى أَنها منازلُ عُليا، قد ارتضاها لهم، وَإِنَّ شُكْرَ النعمةِ فى هذا الْمجالِ هو أَن يبذلوا كلَّ جُهدٍ فى سبيلِ القيامِ بِما نَدَبهم الله له، وجَعلهم أَسبابَه ومفاتيحَه.

وقد روى ابنُ عمر كما عند الطبرانى: «إنَّ للهِ عند أقوامٍ نِعمًا، أَقَرَّها عندهم - أى ثبتها - ما كانوا فى حوائج الْمُسلمين، ما لم يَمَلُّوهم، فإذا مَلُّوهم نَقَلها إلى غيرهم» أى: تدوم النعمة ما دام صاحبُها فى مصالح الناس ساعيًا.

وفى رواية قبِيصةَ بن بُرْمةَ الأسدى فى الأدب الْمُفرد للبخارى: «أهلُ الْمعروف فى الدنيا هم أهل الْمعروف فى الآخرة، وأهلُ الْمُنكرِ فى الدنيا هم أهلُ الْمُنكرِ فى الآخرة».

* * *

٣٦ ـ الزّنى وآثاره السيئة[1]

الحمدُ لله حَرَّمَ الزنى ليطهرَ العباد، والصلاةُ والسلامُ على من سَلِمَتْ نفسُه من الفساد، سيدنا محمدٍ الداعى للرشاد، وأَشهدُ أن لا إله إلا الله لا يُحَرِّم علينا إلا الفواحشَ والضرر، وأَشهَدُ أن سيدَنا محمدًا رسولُ الله نَبَّهنا إلى مزالقِ الخطر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل مؤمنٍ حرٍّ كريم.

عبادَ الله:

شرفُ الْمرأةِ طهارةُ عِرْضِها، وبياضُ صحيفتها، ونقاءُ ذَيْلِها. سعادةُ الْمرأة فى العفةِ والصيانةِ، والكرامةِ والحِرصِ على السُّمعة. قيمةُ الْمرأةِ إباؤُها وعزتُها، ميزانُ الْمرأةِ نزاهتُها وترفُّعها، بل إن سعادةَ الرجلِ وسعادةَ الأسرة وسعادةَ الأُمة كلِّها فى عِرض الْمرأةِ وحُسنِ سلوكها، كلُّ خطإٍ قد يمكن إصلاحه، كلُّ داءٍ قد يُوجدُ له دواؤه، ومن أَساء لجارٍ أَو صديقٍ أَمكنه الاعتذار، ومن تسبب فى ضرر فهيِّنٌ عليه معالجةُ الْمضار، من اغتصب شيئًا فإنه يستطيع ردَّه لأَهله، إلا عِرضَ الْمرأَة إذا خُدِش، وشرفَها إذا نزل وإن سُمعتَها إذا مُسَّت هيهات أن تعودَ لسلامتها، وأن تَرجعَ لنصُوعها، ومن اغتصب شرفَ امرأَةٍ كيف يردُّ ما اغتصب، وهل تحيا الكرامةُ إذا ماتت؟ وهل يعود الْمقبورُ بعد دفنِه؟ العِرْضُ مرآةٌ يظهرُ عليها كلُّ شىءٍ حتى التنفُّس يؤثرُ على الْمرآةِ والعِرضُ زجاجٌ شفافٌ تَخدِشُه الشُّبَهُ، وتكسِرُه الرِّيَبُ والتهم، فإن كُسِر لا يلتئم، وإن عُولج والتأَم، ظل مكانُ الكسرِ واضحًا ينطقُ بالجُرم، ويشهدُ بالإثم، وإن كان متماسكًا، ولقد كان العربُ فى الجاهلية يَعتزُّون بشرف نسائِهم، ويَقفون دون أَعراضِهم أُسودًا كاسرةً ونُمورًا مفترسةً، يغسلون

(١) مختارة من مجموعة خطب الشيخ محمود على أحمد خطيب مسجد الرفاعى بالقاهرة فى العقد السابع من القرن الرابع عشر الهجرى والعقد الخامس من القرن العشرين الْميلادى وكان رحمه الله من أفاضل الوعاظ والخطباء.

إهانةَ أعراضِهم بأَسِنَّة الرِّماحِ وحَدِّ السيف، ولا ينامون على إهانة، ولا يَصبرون للعار والذلِّ أبدًا، فجاءَ الإسلامُ يُقوِّى فيهم الحِفاظَ للعِرض، والغَيْرة على النساء، ويَمتدحُ الشهمَ الكريمَ، ويندِّدُ بالديُّوث الذميم، لتبقَى الأعراضُ مُصانةً والشرفُ موفورًا.

لكنَّ الإنسانَ رُكِّبتْ فيه الشهواتُ البهيميةُ واللذاتُ البدنية، وهو فى الغالب الكثيرِ عبدٌ لشهواتِهِ مُطيعٌ للذَّاته، وفى النادر القليل يتغلب على هواه، ويَعْصِى نَفْسَهُ الأمارةَ بالسوءِ، خلق اللهُ له آلةَ الجِماعِ، وعُضوَ الوِقَاع، وجعل طلبه للمرأَة إجباريًا وشَوْقه لَها طَبَعيًا، لا مفرَّ منه ولا مَحِيص، إلا إذا كان به مرضٌ يصْرِفُه، وبذلك يكونُ بقاءُ النوعِ الإنسانى، وعَمارُ الأَرضِ بالتناسل والوِلادة، وجعل اللهُ لارتباط الذكَرِ بالأنثَى نِظامًا، هو الزواجُ يستحِلُّ به الذكرُ امرأَةً تكونُ له خاصة، لِيبنى معها بيتَ السعادةِ والنعيم.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]. ولكنَّ دافِعَ الشهوةِ شديدٌ، ولا يصدها إلا من كمل عقلُه، وسَلِم دينُه، واستقام خُلُقه، فأخضع نفسَه لقلبه، وسلَّط عقله على عواطفه، وَمِثْلُ هذا فى الرجال قليل.

كيف يَرضى الْمسلمُ لنفسه الوقوعَ فى الحرام؟ أَو يقبلُ الاستجابةَ لدعوة شيطانِه فيتمرغُ فى الآثام؟ كيف يَستبيحُ امرأةً قد حَرَّمها عليه ربُّه؟ ويتمتعُ بها بدون زواج، أو يشترى عِرضَها بقليلٍ من الْمال! وبكثيرٍ من القول الْمعسول والخداع والإضلال؟ وكيف يَفِرُّ الْمسلمُ من ميدانِ الشرفِ، إلى بُؤَر الفسادِ والتلَف، كلما تَحرَّكت شهوتُه، ألا يَدرى أن الزنَى مصدرُ الْمرضِ والوباءِ، هل يظنُّ الزانى أنه غيرُ مقيَّدٍ وأنه حُرٌّ طليق، وهو عبدٌ لكل امرأة، وتابعٌ لكل خليعة وعُرضةٌ للأمراض السِّرية، والعِلَلِ التى تُنَغِّصُ عيشَه، وتقضُّ مضجعَه من

سيلانٍ وزُهْرِىّ وقُرحِ آكلةٍ وتشويشٍ وغيره، مع ضياع الْمالِ فيما يُغضب الله وفُقدانِ الكرامة، وانهيارِ الأخلاق، وذهابِ الحياءِ، ومع الجُرأةِ فى الفجور، والتسكُّعِ على الأرصفة، وأبوابِ الدور، والتعرُّضِ للمهانة وأحيانًا للضرب والْمحاكمة، أليست هذه قيودًا أشدَّ من قيود الزواج؟ وهل من الرجولة أن يفرَّ الرجلُ من واجب العائلة، لتستعبدَهُ كلُّ مُتهتِّكةٍ فاجرة؟.

لقد حَرَّمتْ كلُّ الشرائعِ السماوية الزنَى؛ لعظيم ضرره، وشدةِ خطره وحتى لا تختلطَ الأنسابُ، ولا تضيعَ الأولادُ، ولا يُرْمَى اللقطاءُ فى الطرقات بدون شفقةٍ ولا رحمة، عرضةً للموت والعَدَم، مِما خجل منه الحياء، ويَنْدَى له جبينُ الأخلاق، وانكمش من هَوْلِه الأدبُ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء].

وليست عِلَّةُ تحريم الزنَى فى ضياع الأنسابِ والأموالِ فحسْب، بل إن التحريمَ لحفظِ العِرضِ وهو تاجُ الْمرأة، وصونِ الشرف، وهو إكليلُ النساءِ والرجالِ جميعًا، وإبقاءً على الحياءِ أن يَبِيدَ، واستمساكًا بالفضيلة أن تُزَلزلَ وتَميد، وحرصًا على الحُرمات أن تُنْتَهك، وتحريضًا على الزواج لئلَّا ينصرفَ الناسُ عنه، أيُقَاسُ الأمرُ بضررِه الْمادىِّ فقط، وقد وضحت أَضرارُ الزنَى الْماديةُ؟ إن من يَجرؤُ على هذه الفاحشة، ولا يُحِسُّ خجلًا ولا ندمًا يجرؤُ على حقوق وطنِه، فلا يُحس حياءً ولا أَلَمًا. وقد قال ﷺ: «إن مِمَّا أَدركَ الناسُ من كلام النبوةِ الأُولى، إذا لَم تَسْتَحِى فاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

[أخرجه البخارى ورواه ابنُ مسعود].

الزنَى فى نظرِ الإسلام جريمةٌ مُنكَرَةٌ، وكبيرةٌ فاحشة، جعل لَها حدًّا فى الدنيا، زجرًا وتأْديبًا وعِبرة، وجعل لَها عقابًا عظيمًا فى الآخرة، جعل الرجْمَ للمتزوج إذا زنى، والجَلْدَ للأعْزَبِ، ونَهى عن استعمال الرأْفةِ مع الزُّناة وقد

أمر بالرأفة حتى مع الحيوان، ولكنَّ الزانى تَسفَّل عن الحيوان فلم يتخذ له زوجةً يرعاها، ومن الحيوان ما يَرعى أليفتَهُ، ويصونُ صِلتَها، ولا يخونُها مع غيرها.

إنَّ الدِّينَ الذى يُحِبُّ السترَ على عورات الناسِ، يُوجبُ حَدَّ الزناةِ فى جَمْع حاشِدٍ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

[النور].

تداركوا - عبادَ الله - الْمرأةَ فهى ربةُ بيتكم، وشريكةُ حياتكم، وأُمُّ أولادكم وموضعُ شرفكم، صونوا الْمرأةَ ولا تُحرِّضوها بتعرُّضِكم لَها فى الطرقات، تُطْرون شكلَها، وتُغازلونها، وتتملَّقون لَها وتَتودَّدُون، وتدعونها للفاحشة ولا تخجلون، ثم تَذمُّون النساءَ ولا تتحرَّجون، وتُعرِضون عن تزويجها تَعفُّفًا وأنتم لِعِفَّتِها مُضيِّعون، أيرضَى أحدُكُم أن تزنِى زوجَتُه أو بناتُه؟. فإن لَم يرضَ الفسادَ لأهله فكيف يرضاه لأىِّ امرأةٍ، وهى مهما بَعُدت فهى مسلمةٌ أو إنسانةٌ مثله أيًا كان دينُها أو مَذهبُها، يقول الله يصفُ عباده: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان]. وقال ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لى ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ وما بينَ رِجْلَيْهِ تَضمَّنْتُ لهُ بالجنَّة». [أخرجه البخارى والترمذى ورواه سهلُ بن سعد].

وقال أيضًا: «لا يزنى الزانى حينَ يَزْنى وهو مُؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشرَبُها وهو مُؤمنٌ».

[أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ورواه أبو هريرة].

وأخرج البخاريُّ ومسلم وبعضُ أصحاب السنن عن ابن مسعود أن النبىَّ ﷺ

سُئل: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند اللهِ؟ قال: «أن تجعلَ لِلّهِ نِدًّا وهو خَلَقَك، قال: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتُلَ ولدَكَ خَشيةَ أن يأكلَ مَعَك، قال: ثم أيٌّ: قال: أن تُزانِي بحليلةِ جارِك». وقال ﷺ: «إذا زَنَى العبدُ خرج منه الإيمانُ فكان عليه كالظُّلَّةِ، فإذا أَقْلَعَ رجَعَ إليه الإيمانُ». [أخرجه أبو داود والترمذى ورواه أبو هريرة].

فاتقوا الله - عبادَ الله - واستغفروه، وتوبوا إليه فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

* * *

للخطبة الثانية «الرحمة والعدل»:

جاء عند مسلم عن عِمران بن حُصَينٍ رضى اللهُ عنه أن امرأةً من جُهَينَةَ أَتَتِ النبيَّ ﷺ، وهى حُبلَى من الزِّنَى فقالت: يانبيَّ الله، أصبتُ حدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعا رسولُ اللهِ ﷺ وَلِيَّهَا، فقال: «أَحْسِنْ إليها فإذا وَضَعَتْ فَائْتِنِى بِهَا» فَفَعَل، فَأَمَرَ بها فَشُكَّتْ - أى شُدَّت - عليها ثيابُها، ثم أَمَرَ بها فَرُجِمَت، ثم صَلّى عليها.

فقال عمرُ ﷺ: أَتُصَلِّى عليها يا نبيَّ اللهِ وقد زَنَتْ؟ فقال: «لقد تابتْ توبةً لوْ قُسِّمتْ بين سَبْعين من أهل المدينة لَوَسِعَتهُم، وهل وَجَدْتَ أفضلَ مِن أَنْ جادَتْ بنفسها لله تعالى».

وثبتَ فى روايةٍ أخرى عند مسلم أيضًا أنها رُجِمَتْ بعد أن فَطمتْ ولدَها، وأتتْ به وفى يده كِسْرةُ خُبزٍ، - وفى هذه الرواية اختصار -.

عن معاذ بن جبل أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَن عيَّر أخاه بذنبٍ لـم يَمُتْ حتى يَعملَه».

[أخرجه الترمذى وحسَّنه].

وفى الحديث: «مَن ضارَّ مُسلمًا ضَارَّه اللهُ، ومَن شاقَّ مسلمًا شقَّ الله

عليه». [رواه أبو صِرْمَةَ ﷺ وأخرجه أبو داود والترمذى وحسّنه].

أى من أدخل على مسلم مضرَّة فى نفسه أو مالِه أو عِرْضِه بغير حقٍّ ضارّه الله، أى جازاه من جِنس فِعله، وأدخل عليه المَضَرَّه وكذلك من شاقَّ مسلمًا ونازعَه ظلمًا وتعدِّيًا.

❊ ❊ ❊

توجيه ودروس «لدرس»:

وفى الحديث: «خَصلتان ليس فوقَهما شىء من الشَّرّ: الشركُ بالله والضُرُّ لعبادِ الله، وخصلتان ليس فوقهُما شىء من البِرّ: الإيمانُ بالله والنفعُ لعبادِ الله».

رُوى أنّ علىَّ بنَ أبى طالب كرَّمَ الله وجهَه قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «يا علىُّ، إنَّ الله تعالى خَلَقَ الْمعروفَ، وخلق له أهلًا، فحبَّبَهُ إليهم، وحبَّبَ إليهم فِعالَهُ وَوجَّه إليهم طُلَّابَهُ، كما وَجَّه الْماءَ فى الأرضِ الجَدْبةِ لتحْيَا به ويحيَا به أهلُها، إن أهلَ الْمعروفِ فى الدنيا، هم أهلُ الْمعروفِ فى الآخرة».

وروى عن الهادى الحبيب ﷺ أنه قال: «. . مَنْ قَضَى لأخيه الْمسلم حاجةً، كنتُ واقفًا عند مِيزانِه، فإن رَجَحَ وإلا شَفعْتُ له. . .». [رواه أبو نعيم فى الحلية].

وفى الحديث: «طُوبى لِمن أُجرِىَ الخيرُ على يديه، وويلٌ لِمن أُجْرِى الشَّرُ على يَدَيْه».

وقد حثَّ النبى ﷺ الْمسلمَ على أن يشفعَ لأخيه الْمسلم فى الحقّ فقال: «إنى أُوتَى وأُسْأَلُ، وتُطْلَبُ إلىَّ الحاجةُ، وأنتم عندى، فاشفَعُوا لِتُؤْجَرُوا وَيَقضى اللهُ على يَدَىْ نَبيِّه مَا أَحبَّ». [متفق عليه]

❊ ❊ ❊

٣٧ - الرشوة من مفاتيح الشر

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وفى حديثِ ابنِ عُمَرَ رضى اللهُ عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن كَان فى حَاجةِ أَخِيه كان الله فى حاجتهِ». [مُتَّفق عليه].

عباد الله:

أَمر اللهُ عز وجلَّ عبادَه الْمُؤمنين بالتعاون على الخيرِ، وحثَّهم على التناصُرِ والتآخى والسعْى فى الْمصالح، والتعاونِ على اجتنابِ الشرِّ ودفعِ الضُّر، ونهاهم أَن يُعاونوا على إِثم، أَو يَتناصرُوا على شرٍّ.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

والْمُؤمن مفتاحٌ للخير، مِغْلاقٌ للشَّرِّ، تدفُعه مروءتُه لِمعاونة إخوانِه عند حاجتِهم، والسعْى لهم فى قضاءِ مصالحِهم، ولا يرجُو من وراءِ ذلك إلا ثوابَ الله عزَّ وجل.

وقد جعل الإِسلامُ قِوامَ(١) أعمالِ الناسِ بالأَمانةِ والذمةِ، وجعل انتظامَ الروابطِ والصلاتِ بالوفاءِ وحسنِ السُّمعة، كما جعل سعادةَ الفردِ والْمجموعِ فى الحياء وشرفِ النفس، ومُجَانَبَةِ القبائح، والدنايا، فالناسُ لا يستغنون عن التعامل والتبادلِ والأخذِ والعطاءِ والتعاونِ والتسانُدِ فى جميع شئونِ حياتهم، فإذا لَم تكنْ الْمعاملةُ على الصدق والأمانةِ، ضاعت الثقةُ وساءَت الظنونُ، وتقطعت الصلاتُ، وإذا لَم يؤدِّ كُلُّ إنسانٍ واجبَه نحو الآخرين بضميرٍ نقىٍّ، وطهارةِ نفسٍ، تَعرَّضتْ الحقوقُ للضَّياع، واضطربت الأَعمالُ.

(١) قوام: بكسر أوله تقول قوام الأمر أى نظامه وعماده، وفلان قِوامُ أهل بيته وقيامهم أى الذى يقيم شأنهم - وقوام الأمر أيضًا - مِلاكه الذى يقوم به وقد يُفتح أوله.

ومن صفاتِ الْمُؤمنين الصالحين أنهم أُمناءُ على الْمصالح، أوفياءُ بالعهودِ مُتْقِنُون للأعمال، مراقبون لله فى كلِّ ما يَصْدُرُ عنهم من قول أو عملٍ يَبسطون أَيديَهم بالْمعروف، فإذا وُكلَ إليهم عملٌ، نَهَضُوا بِمسؤولياتِه وقاموا بِتَبعاتِه، على خيرِ وجهٍ وأكملِه، لا يضيعُ لديهم حقٌّ، ولا يتأخرُ عمل، أغنى اللهُ نفوسَهم بالحلال الطيِّبِ من الرِّزق، لا يأكلون الحرامَ، ولا يَمُدُّون أَيدِيَهم للسُّحتِ؛ لإيمانهم بأَن الْمالَ الذى يأْتى عن طريقِ غيرِ مشروعٍ كالرِّشْوةِ يُذْهِبُ البركة، ويُفْسِد الأخلاق، ويَهدِمُ العِفَّةَ والنَّزاهةَ، ويُمِيتُ الضَّميرَ، ويَجلِبُ غضبَ الربِّ سبحانه وتعالى، وكيف لا يُبْغضُ الْمُؤمنُ الرشوةَ ونحوَها وهو يقرأُ قولَ الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة].

كيف لا يُبْغضُ الْمُؤمنُ الرشوةَ وينزِّهُ نفسَه عنها، وهو يعلمُ أن الْمُرتشِى إنسانٌ فَقَدَ حياءَهُ ومروءتَهُ وأَمانتَه وأَضاع ذِمتَه، وأَيْقَظَ مَطَامِعَه، وسيطرت عليه أَهواؤُه، وأَغضب رَبَّهُ، ولَم يَرْعَ لأمتِه حقوقَها وديونَها فى عُنُقِه.

إن الْمالَ الذى يأْتى عن طريقِ الرشوةِ حرامٌ يَذْهَبُ بالبركةِ، ويسببُ الطردَ من رحمةِ الله لفاعليه، والساعين فيه.

وقد جاءَ عند الطبرانى من الحديث الذى رُوى عن ابنِ مسعود رضي الله عنه موقوفًا بإسناد صحيح: «والرِّشوةُ بينَ الناسِ سُحْتٌ» أى حرامٌ يُهْلِكُ البركةَ.

أيها الْمُؤمنون:

إن الْمُؤمنَ يعلمُ تَمامًا أَن الرشوةَ ما دخلتْ فى أَمر إلا جعلت نُورَه ظلامًا وطريقَه قاتِمًا، فالرشوةُ والعياذُ بالله، تطْمِسُ الحقَّ، وَتَحْجُبُ العدْلَ، وتكون سببًا فى ضَياع الحقُوق، وإعطاءِ من لَّا يَسْتَحِقُّ ما ليس له، كما أَن الرشوةَ تُساعدُ على إخفاءِ الجرائِم، وتسترُ القبائحَ، وتَقلِبُ الوقائعَ. وبالرشوةِ قد

يَفلِتُ الْمُجرمُ ويُدَانُ البرىء، ولهذا كانت الرشوةُ فى نظرِ أَهلِ الدنيا خيانةً وطنيةً، وهى فى رَأْى الشرع إثمٌ عظيمٌ، وقد جاءَ فى الحديثِ الصحيح أن رسولَ الله ﷺ قال: «لَعْنَة الله على الراشِى والْمُرْتَشِى». [رواه ابن عمر].

وعنه عند أبى داودَ والترمذى: «أن رسولَ اللهِ ﷺ لَعنَ الراشِى والْمُرتَشِى».

والراشى هو الذى يُعطى الرشوةَ، والْمُرتشى هو الذى يأخذُ الرشوةَ والْمُرتشى ملعُونٌ ومطرودٌ من رحمة الله، وكذلك الراشى خصوصًا إذا قَصَدَ بتقديم الرشوةِ أَذيةَ إنسانٍ مسلمٍ أو الحصولَ على شىء هو لا يَسْتَحِقُّه.

وقد جاءَ فى حديثٍ آخرَ من رواية ثَوبان عند أحمدَ وغيرِه: أنَّ اللعنةَ على الرائشِ أَيضًا، والرائشُ هو الشخصُ الذى يَسْعى بين الراشى والْمُرتشى لتسهيلِ توصيلِ الرشوةِ وما يتصلُ بذلك. وما ذلك إلا لأنَّ الرشوةَ خطرُها جسيمٌ، وآثارُها قبيحةٌ على الفرد وعلى الْمجموع، فهى قد تُقَدِّم غيرَ الكُفءِ على الكُفءِ، وترفعُ الخاملَ، وتخفِضُ الْمُجدَّ العاملَ، فتساعدُ على إضعافِ عزائمِ الْمُجدِّين وعلى نشرِ الخمول والتراخِى فى أَداءِ الأَعمال.

ولكى يزدادَ الأثرُ القبيحُ للرشوةِ وُضوحًا علينا أَن نتصورَ حُرَّاسَ الحدودِ لأمةٍ من الأمم يَقْبلون الرشوةَ من تُجار الْموادِّ الْمُخدِّرة ومُهرِّبيها إلى الداخل - مثلًا -؟ فماذا يترتبُ على ذلك من الْمفاسدِ والجرائم؟.. كما علينا أن نتصورَ مُرابطين على ثغورِ أُمةٍ من الأممِ يَقبلون رِشوةً من أَعدائِها، ويسمحُون لهم - مثلًا - بالتقاط صُورٍ، أَو الاطلاع على مواطنِ ضَعْفٍ، أَو الحصولِ على أَىِّ معلوماتٍ، نتصورُ هذا وما يترتبُ عليه من الْمفاسد والآثارِ البالغةِ السوءِ، لنذرِكَ مَدى قُبحِ الرشوةِ، ومدى أَهليةِ فاعليها والساعين فيها لِمَقْتِ الله وغضبِه.

إن الرشوةَ ما دخلت عملًا إلا أفسدَته، ولا قلبًا إلا أظلمتْه، ولا جَيْبًا إلا أفقرَتْه، ولا بَيْتًا إلا خربتْهُ، ما دخلت الرشوةُ على إنسان إلا بالخسارة وَنَزْعِ البرَكَةِ.

وجاء فى الحديث الشريف عند ابنِ حِبان: «من كسَب مالًا حَرَامًا فتصدَّق به، لم يكنْ لهُ فيه أجرٌ، وكان إصْرُه عليه». أى وِزرُه وذنبُه.

فطُوبى لِمن تجنَّب الحرامَ، وابتعد عن الشبهات وقنع بالحلال الطيب.

نسأَل الله التُّقى والهُدى والعفَاف والغِنَى، واتقوا الله - عباد الله - وتوبوا إليه، واستغفروه إنه تَوَّابٌ غفَّارٌ رحيمٌ.

* * *

للخطبة الثانية:

إنَّ الْمُؤمنَ يتعفَّفُ عن الحرام، ويكتفى بالحلال، ويقنعُ برزقِه ويَرْضَى بعطاءِ ربِّه، ويقفُ عند حدودِ أَمرِ الله ونهْيِه، مُحسنًا التوكلَ عليه وحدَه ؛ لأنه يعلمُ أنه سَيُحَاسَبُ على الْمال الحلالِ، وسَيُعذَّبُ على الحرامِ، ويؤمنُ بأَن الْمالَ يتخلَّفُ عن صاحبِه عند الْموت، وأَنه لن يَصْحَبَه إلا عملُه، ولن يُرافقَه سِوى فعْلِه.. كما أَن الْمُؤمنَ يعلمُ أَن الدنيا ليست غايةً مقصودةً لذاتها، وإنَّما هى مَزرعةٌ للآخرة، وسبيلٌ إليها، فالحريصُ عليها ذليلٌ وآكلُ الحرامِ فيها مردودُ الدعاءِ، لا تُفْتَحُ له أَبوابُ السماءِ، ويتوبُ الله على مَنْ تَاب، فَفَضْلُه واسعٌ سبحانه وتعالى، لا تَخفَى عليه خافيةٌ.

رَوَى أنس ﷺ أن الحبيب الْمُصطفى ﷺ قال: «لا إيمانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ له، ولا دينَ لِمَنْ لا عَهْدَ له». [أخرجه أحمد والبزار والطبرانى، وابنُ ماجه].

وقال ﷺ: «مَنْ أَصَابَ مالًا من حرامٍ فوصلَ به رَحِمًا، أَو تصَدَّقَ به أَو أَنْفَقه فى سبيلِ الله، جَمَعَ الله ذلك جميعًا ثم قَذَفَ به فى نار جهنَّمَ».

[فى مراسيل القاسم بن مُخَيْمَرةَ كما فى جامع العلوم والحكم].

٣٨ - لِم شهدتم علينا؟

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ [فصلت].

أيها المُؤمنون:

هذا مشهدٌ من مشاهدِ يوم القيامة، يومَ تُبْلَى السرائر، وتُكشفُ الخبايا حيث يُرَى الذين كذَّبُوا رسلَ الله، وخالفوا أمرَ الله يُسَاقون، ويُدْفَعون إلى جهنَّم، وقد أُوقِفَ أوائلُهم لتلحَقَهُم أواخرُهم.

وفى هذا الموقفِ العظيم يكونُ على المرءِ شاهِدٌ من نفسه، يَنْطِقُ بما فعل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾. [فصلت].

وفى صحيح مسلم عن أنس بنِ مالك: كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك فقال: «هل تَدْرون مِمَّ أَضحَكُ»؟ قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ العبدِ رَبَّهُ يقول: يا ربِّ، أَلَم تُجِرْنى من الظُّلْم، قال: يقول، بَلَى، قال: فيقولُ: فإنى لا أُجِيزُ اليومَ على نفسى إلا شاهِدًا مِنِّى، قال: يقول: كَفَى بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيدًا، وبالكرام الكاتِبين شُهودًا، قال: فيُخْتَمُ على فِيهِ، فيقالُ لأركانِه: انْطقِى، فتنطقُ بأَعمالِه، قال: ثم يُخَلَّى بينَه وبينَ الكلامِ، قال: فيقول (لجوارحه): بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكنَّ كنتُ أُناضِلُ».

وزيادةً فى تبكيتهم يقال لهم: إنكم ما كنتم تتقُون فى الدنيا أن تشهدَ عليكم جوارحُكم فى الآخرة، فتتركوا المعاصِىَ خوفًا من الشهادة، أَوْ مَا كُنتم تَظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] بأن يقول: سَمِعْتُ الحقَّ وما وعيتُ، وسَمعتُ ما لا يجوزُ من المعاصى: ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ فتقول: رأَيتُ آياتِ اللهِ وما اعتبرتُ، ونَظَرتُ فيما لا يجوز: ﴿وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ فتقول أَجزاءٌ منها: بَاشَرْتُ المعاصِى: ولنتدبر قولَه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ

ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت].

أى إن الله هو الذى ركَّب الحياةَ فيكم، بعد أن كُنتم نُطَفًا، فَمَنْ قَدَرَ على ذلك، فهو القادر على أن يُنْطِقَ الجلودَ وغيرَها من الأعضاءِ:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

فليتقِ الْمرءُ ربَّه، وليخشَ يومًا تُبلَى فيه السرائرُ، وتُكشفُ الخبايا، ولا يستطيعُ العبدُ جُحودَ ذُنوبِهِ، إذ تَشهدُ عليه الأَرضُ، وتشهدُ الأيامُ والليالى وتشهدُ الجوارحُ، وما أَحسن قولَ مَنْ قال:

الْعُمْرُ يَنْقُصُ والذُّنُوبُ تَزِيدُ وَتُقَالُ عَثَرَاتُ الفَتَى فَيَعُودُ
هَلْ يَستَطِيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُودُ
والْمَرْءُ يُسْأَلُ عَنْ سِنيه فَيَشْتَهِي تَقْلِيلَهَا وعن الْمَمَات يَحِيدُ

وعن مَعقِل بنِ يَسارٍ عن النبى ﷺ قال: «ليس من يومٍ يأتى على ابنِ آدمَ إلا ويُنادِى فيه: يا ابنَ آدمَ أنا خَلْقٌ جَدِيدٌ، وأنا فيما تعملُ فِىَّ غدًا، عليك شهيدٌ، فاعْملْ فِىَّ خيرًا أَشهدْ لكَ بِهِ غدًا، فإنى لو قد مَضيتُ لَم تَرَنى أبَدًا، ويقول الليلُ مثلَ ذلك».

ولنتدبرْ - يا أحباب الله - صورةً من صُورِ الْموقفِ العظيم، وفيها يقولُ الربُّ لعبدٍ من عباده: «أظننتَ أنكَ مُلَاقِىَّ، فيقول: أى ربِّ، آمنتُ بك، وبكتابِك ورُسُلِكَ، وصلَّيتُ، وصُمتُ، وتَصدَّقتُ، وَيُثْني[1] بخيرٍ مَّا استطاع. فيقول: أَهَا هُنا مَنْ يَشْهدُ لك؟ فيقول: لا. فيقول: الآن يُبْعَثُ عليكَ شاهدٌ، فيتفكَّرُ فى نفسه: مَن ذا الَّذى يَشهدُ عَلَىَّ؟ فَيُخْتَمُ على فِيه، فيُقال لفَخِذه ولَحْمِه

(١) يثنى: يَمدح.

وعِظامِه: انْطِقى، فتنطق فَخِذُه ولحمُه وعِظامُه بعملِه، وذلك لِيُعْذرَ من نفسِه - أى ليُزِيلَ اللهُ عُذرَهُ من قِبَلِ نفسِه، بكثرةِ ذنوبِهِ، ولشهادةِ أعضائِهِ عليه، بحيثُ لَم يبقَ له عذرٌ - وذلك الْمُنافقُ، وذلك الذى سَخِطَ الله تعالى عليه».

[من حديث رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم].

فعلى الْمُؤمن أَن يَحذَر أعمالَ الْمُنافقين وصِفَاتِهم، فهم لا يُخلصون العملَ لله عز وجل، وإنما يعملون للدنيا، حتى العباداتِ يُؤَدُّونها لغرضٍ دنيوىٍّ لهذا كثُرت معاصيهم وجرأتُهم على اقتحام حُدودِ الله.

وعلى الْمُؤمن أن يبادرَ بفعل الخيرات، وأن يُكثرَ من الصالحات، وأن يَتوبَ من ذَنبه، ويندمَ على ما فَرَطَ منه، عسى أن يُبَدِّلَ اللهُ سيئاتِه حَسنات، وأن يُوفِّقَه لأداءِ الطاعات، ولا يُرجِئ التوبةَ وفعلَ الخيراتِ إلى غَدٍ، فالإنسانُ لا يَضمنُ الغدَ، وما أَحْسَنَ قولَ مَن قال:

مَضَى أَمْسُك الأَدْنَى شَهِيدًا مُعدَّلًا ... ويومُك هَذا بالفِعَالِ شَهِيدُ[1]
فإن تكُ بالأمسِ اقترفتَ إساءَةً ... فَثَنِّ[2] بإحسانٍ وأنتَ حَمِيدُ
ولا تُرْجِ فِعْلَ الخيرِ منك إلى غد ... لَعَلَّ غَدًا يأتى وأنتَ فَقيدُ[3]

واعلم - أيها الْمُؤمن - أنك مُطالَبٌ بشُكر الْمُنعم على كلِّ نِعمةٍ له، مُطالَبٌ بشكر الحواسِّ والطعامِ والشرابِ، وما نَعِمْتَ به فى حياتك قبل أن تُسألَ عنها وتُحاسَبَ، ولنتدبر الحديثَ الذى رواه أبو سعيد وأبو هريرة ﵄ وأخرجه الترمذىُّ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالعبد يومَ القيامةِ فيقول الله تعالى له: أَلَمْ أَجْعَلْ لكَ سَمْعًا وبصرًا ومالًا وولدًا وسخَّرتُ لكَ الأَنعامَ والحرثَ، وتركْتُكَ تَرْأَسُ وترتعُ، أكنتَ تَظنُّ أَنَّك مُلاقِىَّ يومَك هذا؟ فيقول: لا. فيقول

(١) شهيدًا معدلًا: أى شاهدًا مقبول الشهادة لعدله.
(٢) فثن: أى اجعل الثانية بمعنى أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمحُها.
(٣) ولا ترج: أى لا ترجئ وتؤخر.

له: اليومَ أنساكَ كما نَسيتني».

نسأل الله التوفيق لِما يحبه ويرضاه، واتقوا الله - عباد الله - واخشَوا غضَبهُ وانتقامَه من العُصاة، وتوبوا إليه فإنه سبحانه توابٌ رحيمٌ.

* * *

للخطبة الثانية:

إنّ العاقلَ - يا أهل الإيمان - لا يَنسَى حُقوقَ رَبِّه، ولا يغفُلُ عن ذِكْرِه وشُكرِه، ولا يَنِى عن طاعته، ويُراقِبُ اللهَ فى السرِّ والعلنِ، مؤمنًا أن الدنيا إلى زوال، وأن المرءَ محاسَبٌ على كل صغيرة وكبيرة، وأنه فى حاجة إلى رحمةِ ربِّه، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليم، ولا ينبغى للعاقل أن تُلهيَهُ الأمانىُّ حتى يَخرجَ من الدنيا ولا حسنةَ له، اتكالًا على الْمَغفِرَة والرحمةِ بدونِ عَمَل، فهؤلاء هم الْمفاليسُ بعد الدنيا كما يقول عمرُ رضي الله عنه. ثم تلا: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

وفى الحديث: «لَا تَزُولُ قدما عَبدٍ يومَ القِيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَربع: عن عُمره فِيما أَفناه، وعن عِلْمِه ما عَمِلَ به، وعن مالِه من أَينَ اكتَسَبَهُ وفيما أنفقه، وعن جسمِه فيما أَبلاه». [رواه أبو بُرْدة وأخرجه الترمذى والبزار والطبرانى].

وفى رواية معاذ عند البزار والطبرانى: «وعن شبابه فيما أبلاه».

نسألك اللهم أن توفقنا لما تحبُّه وترضاه وأن تعيننا على شكرِك، وذِكرِك، وحسنِ عبادتك، وتُب علينا وارحمنا.

* * *

٣٩ - رعاية اليتيم ومسؤوليتنا عنه

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة].

وفى صحيح البخارى عن سهل بنِ سعدٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَنَا وَكافِلُ اليتيمِ فِى الجَنَّةِ هكذا - وأَشارَ بإِصْبعَيْهِ السبَّابةِ والوُسْطَى -».

أيُّها المُؤمنون:

اليتيمُ هو مَن فَقد والدَه صغيرًا، فالآجالُ بيد اللهِ، سبحانه وتعالى يَقبضُها حيثُ يَشاءُ، وقد يموتُ الرجلُ عن أطفالٍ قُصَّرٍ، وعيالٍ رُضَّعٍ، فيُحْرَمون من عطفِ الأبوةِ وحَنانِها، وهم صِغَارٌ ضِعافٌ، فى حاجةٍ إلى المُعينِ والراعى والمُجير.

هؤلاء اليتامَى هم أَحقُّ الناسِ بالشفقةِ، وأَولاهم بالحبِّ والرعاية، حيثُ فَقدوا المُعين وتعرَّضوا للذلِّ المُؤلِم والحِرمانِ المُهينِ، لذلك أَوصَى الله سبحانه وتعالى خيرًا باليتامَى، وأمرنا بالإحسان إليهم، وحُسنِ التصرُّفِ معهم والمُحافظةِ على أموالهم، والقيامِ على تَربيتِهم، والعنايةِ بتهذيبِ نُفوسِهم حتى يَكونوا أَفرادًا نافعين، وأَعضاءَ فى المجتمع صالحين.

فَما أَجْدرَ اليتيمَ بالرعاية والعطفِ والشَّفَقةِ والبِرِّ؛ إنه إنسانٌ صَغيرٌ حُرِم من حَنانِ الأَبِ وَهُو فى مَطلعِ حياتهِ، إنه طفلٌ، لا يُصْلِحُه إلَّا السرورُ والمرحُ والهدَايا والبشَاشةُ والرَّحْمةُ، فَطُوبَى لِمَن يُعَوِّضُهُ حَنانَ الأَبِ وَرِقَّتَه ورَحمتَه.

لقد عُنى القرآنُ الكريمُ بأَمر اليتيمِ أَشدَّ عِنايةٍ مُستقصِيًا أَحوالَه، مُبيِّنًا أَحكامَه وجاءَ ذلك فى آياتٍ كثيرة.

أَمَر بالإِحسانِ إليه، والرِّفقِ به، والعطفِ عليه، فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ

وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦]، وَذَكَّرَ القرآنُ الكريمُ النبيَّ ﷺ بأنه كانَ يتيمًا، يَستثيرُ بهذا التذكيرِ عَطْفَه وَعطْفَ الْمُسلمين على اليتامَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى].

ونهانا الله عزَّ وجلَّ عن إذلالِ اليتيم وإهانته فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى]. أى فلا تُذِلَّه، ولا تتكَبَّرْ عليهِ، ولا تُحَقِّرْهُ، بل المطلوبُ من الْمُؤمن أن يَحنُوَ على اليتيم، ويرْأَفَ بحاله، ويَرفعَ نفسَه بالأدبِ، ويُهذِّبَه بِمكارمِ الأَخلاقِ، ليكونَ عُضوًا نافعًا فى الجماعةِ الْمُسلمة.

وقد جعل القرآنُ الكريمُ زجْرَ اليَتيم، وَتعْنيفَه، والتعاظُمَ عليه من التكذيب بالدين، ومن عدمِ التصديقِ وضَعفِ اليقينِ، ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون].

﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أى يدفعُه، ويزجره زَجرًا عنيفًا، إذا جاءَ يطلبُ منه حاجةً احتقارًا له، واستهانةً بأمره، وتكبُّرًا عليهِ؛ لِفَقْدِه النصيرَ، وخُلوِّ ظهرِه من المُجير، واليتيمُ مُظهرُ الضعفِ والحاجةِ، فالمستهينُ به قاسٍ مُستهينٌ بكل ضَعيفٍ، مُحتِقرٌ لكلِّ محتاجٍ، مَخدوعٌ بدنياه، ولاهٍ عن يوم الدِّينِ.

وقد وبَّخَ القرآنُ أقْوامًا، وبيَّنَ فَسَادَ مُعْتَقداتِهم، وسوءَ مسالِكِهم ؛ لأنهم لا يُكْرِمونَ اليتامَى، ولا يرغِّبُ بعضُهم بعضًا فى العطفِ على الضعيف وإطعام المِسكين.. ولنتدبر قولَ الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر].

وكأن الآياتِ تقولُ لهؤلاء: إذا لم تُكْرِموا اليتيم، ولم يُوصِ بَعْضُكم بعضًا بطعامِ المسكينِ، فقد كذَبتْ مزاعِمُكُم فى أنكم من قومٍ صالحين.

وقد أَمرَ القرآنُ - يا عبادَ اللهِ - بإصلاحِ اليتيمِ فى كافةِ أَحوالِه فى نفسِه،

وفى خُلُقِه، وفى تربيتِه وتَعليمِه، وبإصلاحِه فى مالِه.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. أَى العملُ على إِصلاحِ أَحوالِهم بالتربية والتهذيبِ، والتدريبِ لاكتسابِ الخِبرةِ، وتَنميةِ أَموالهم، وتثميرها بالطرقِ الشرعيةِ ونحوِ ذلك مِمَّا يعودُ بالصلاح فى نفسِه وجسمِه وغيرِ ذلك.

يَا وصيًّا صُنِ الْمُوصَّى عليْه فى جميع الأمورِ كى لا تُضاما
عَلِّموهُم وَبالِغُوا فى هُدَاهُم إِنَّ حِفْظَ اليتيمِ صَارَ لِزَاما

إِنَّ اللهَ الذى حرَّم إِهانةَ اليتيم بكلمةٍ، حرَّم بالأَوْلَى مالَهُ، وإِنَّ مالَ اليتيم أَوْلَى بالرعايةِ والحِفظِ والاستِثمار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومعناها: النهْى عن قِربان مالِ اليتيم بأَىِّ نوعٍ أَو حالٍ من حالات القُربان، اللهم إلا عند السعْى لاستثمار مالِ اليتيمِ، واستعمالِه على وَجْهٍ هو أَحسنُ الوجوهِ، بِما ينفعُ اليتيمَ فى حاضرِه ومُستقبلِه، كالإنفاق منه على تربيتِه وتعليمِه، وكحِفْظ مالِه باستثماره فى زراعةٍ، أَو صناعةٍ، أَو فى تجارة أَمَّا إِهمالُ شأْنِ اليتيم، وإِهمالُ مالِه، وتجميدُه، أَو الإِسرافُ فيه بِما لا يُكسِبُه خيرًا، ولا يدفعُ عنه شَرًّا، فذلك مُحَرَّمٌ ومنْهِىٌّ عنه.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾. [النساء].

وفى التحذير من أَكْلِ أَموالِ اليتامَى ظُلْمًا يقول سبحانه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء]. أَى إِثْمًا عظيمًا، ثم يُحذِّرُ القرآنُ الْمُسلمين من إِهمال شأْنِ اليتيم،

فيأمرُ الأوصياءَ أن يُعْنَوا باليتامى، كما يُعنَونَ بأولادِهم، وكما يُحبُّون أن يُصانَ أولادُهم من بعدهم: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء].

ثمّ يُنذِرُ الطامعينَ فى أموال اليتامى بنارٍ تتلهَّبُ فى بُطونهم وَبِتَسخِينِ جُسومِهم بنارِ جهنَّمَ، ولنتدبر قولَ الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء].

قال السُّدِّى: «يُبعث آكلُ مالِ اليتيم يومَ القِيامة، ولهبُ النارِ يخرجُ من فيهِ، ومن سمعِه، وأنفِه، وَعينيه، يَعرِفُه مَن رآه بآكلِ مالِ اليتيم».

هذه - يا أحباب الله - بعضُ مظاهرِ عنايةِ الإسلامِ باليتيم: عُنى به من جهةِ ذاته، فنهى عن ازدرائِه واحتقارِه وإهانتِه، وعُنى به من جهةِ مالِهِ فأمر بالمحافظةِ عليه واستثمارِه، وبإعطائِهم أموالَهم كاملةً عند بُلوغِهم، وعُنى به من جهةِ تربيتِه وتَمرينِه على التصرُّفِ، بما ينفعُه حتى يَبْلغَ أَشُدَّه.. فطُوبى لِمن اتَّقَى الله فى اليتَامى، وأَحسنَ إليهم، وأكرمَهُم.

قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَبَضَ يَتِيمًا مِن بيْنِ مُسْلِمَين إلى طعامِه وشرابِه أَدْخلَهُ اللهُ الجنَّة أَلبتَّةَ إلا أن يَعْملَ ذَنبًا لا يُغْفَرُ».

[رواه ابنُ عباس وأخرجه الترمذى وقال: حديثٌ حسن صحيح].

وقال ﷺ: «مَنْ عَالَ ثَلاثَةً من الأَيتامِ كانَ كَمَنْ قَامَ ليْلَهُ، وصامَ نَهارَه، وغَدَا وراحَ شَاهِرًا سَيْفَه فى سبيل الله، وكنتُ أنا وهُو فى الجنَّةِ أَخَوَيْنِ، كما أَنَّ هَاتَيْنِ أُخْتان - وأَلصَقَ أُصْبُعَيْهُ السبَّابةَ والوُسْطَى -».

[رواه ابنُ عباس وأخرجه ابنُ ماجه].

فاتقوا الله فى اليتامى، وأخشوه، وراقِبوه فى كل قول وعمل، وتوبوا إليه سبحانه توبة نصوحًا، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له.

للخطبة الثانية:

أيُّها الناسُ رحمةً باليتامى

إن إكرامَ اليتيم فى بيتِ مسلمٍ يسبّبُ البركة.

فعن أَبى موسى رضي الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: «ما قَعَد يتيمٌ معَ قومٍ عَلى قَصْعَتِهِم، فَيَقْربَ قَصْعتَهُمْ شَيطانٌ».

[حديث غريب رواه الطبرانى والأصبهانى وقال الحافظ أبو الحسن: حديث حسن].

والبيتُ الذى يُكْرِمُ اليتيمَ يَكونُ مَوضِعَ رَحْمةٍ مِن اللهِ ورعايتِه، فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أَحَبَّ البُيُوتِ إلى اللهِ بَيْتٌ فيه يَتيمٌ مُكْرَم». [أخرجه الطبرانى والأصبهانى].

وعن أبى هُريرةَ رضي الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: «خَيْرُ بَيْتٍ فى الْمُسْلِمينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِليهِ، وشَرُّ بَيْتٍ فى الْمُسلِمين بيتٌ فيهِ يَتِيمٌ يُساءُ إِليهِ».

[أخرجه ابنُ ماجه].

والعطفُ على اليتامَى يُهذِّبُ النفُوسَ، ويُرقِّقُ القلوبَ القاسيةَ، فقد روى أبو هُريرةَ أَن رجلًا شَكا إلى رسولِ اللهِ ﷺ قَسْوةَ قلبِه، فقال: «امسَحْ رَأْسَ اليَتيم، وأَطْعِمِ الْمسْكِينَ». [أخرجه أحمد ورجالُه رِجالُ الصحيح].

ويحذِّرُنا الحبيبُ الهادى من أَن نكونَ سببًا فى بكاءِ يتيم، فيقول ﷺ فيما رواه أبو سعيد: «إِيَّاكُمْ وَبُكَاءَ اليَتيم، فإِنَّهُ يَسْرِى فى الليل، والناسُ نِيامٌ».

[أخرجه الأصبهانى].

عن عَمْرو بنِ دينارٍ عن جابرٍ رضي الله عنه: أَن رجلًا قال: يا رسول الله فِيمَ أَضربُ يَتيمى؟ قال: «ما كنتَ ضَاربًا منه وَلَدَكَ، غيرَ وَاقٍ مَالَكَ بِمالِهِ، ولامُتَأَثِّلٍ[1] منه مَالًا». [أخرجه أبو حبان فى صحيحه وابن مَرْدَوَيه فى تفسيره].

---

(١) الْمُتأثل: الجامع.

وعن أبى هُريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «اجْتَنبوا السَّبعَ الْمُوبقَاتِ!» قِيل: وما هُنَّ؟ قال: «الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقَتلُ النفسِ التى حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأَكْلُ الرِّبا، وأَكْلُ مالِ اليتيمِ، والتَّولِّى يَومَ الزحْفِ وقَذْفُ الْمُحصَناتِ الْمُؤمِناتِ الغافِلاتِ». [مُتَفقٌ عليه].

وفى التحذير من ظُلم اليتيم قيل:

يا وَصِيًّا عَلَى اليَتَامَى أَكُولاً كُلْ مالَ اليَتِيم أكْلاً حَرَامًا
جِئْتَ إذًا وعَن قَريبٍ سَتَفْنى والذَّرَارِىُّ تَلقَى خُطُوبًا جِسَامًا
ويقولُ الأنامُ ظُلمُ أَبِيكُم كَابِدُوه وأنتَ تَصْلى ضِرَامًا
وأنت والموتُ تَقْسُوانِ عليهِ أَيُّها النَاسُ رَحْمةً باليتامَى

رُوى أن اللهَ أَوحى إلى داودَ عليه السلام: «يا داودُ كُنْ لليتيم كالأب الرّحيم، وكُن للأرملة كالزوجِ الشفيق، واعلَمْ أنك كما تزرعُ تَحْصُد».

رُوى أنه مِمَّا أوحَى اللهُ إلى يعقوبَ عليه السلام: «إنِّى لم أُحِبَّ شَيئًا من خَلْقى حُبِّى اليتامى والمساكين».

* * *

٤٠ - يا معاذ أَحسِنْ خُلقَك للناس

أيها المُؤمنون:

أَثنى الله عزَّ وجلَّ على نبيِّه وخاتَم رسلِه محمدٍ ﷺ فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

والخلُقُ العظيمُ الذى أَثنى اللهُ به عليه هو أَدبُ القرآنِ الذى ظَهَر فى مَنْطِقه ﷺ، وفى مَسَالِكه، وفى مُعاملاتِه للقريب والبعيد، وفى رِفْقِه بأُمَّته وإكرامِه إيَّاهم، وفى سَعَةِ صَدْرِه وَحِلْمِه، وفى سهولة طبعِه، وانبساطِ وجهِه للناس وفى إقباله على مُحدِّثه بذوقٍ رفيعٍ وأَدبٍ عالٍ، كما ظَهَرَ الخُلقُ العظيمُ فى عَفْوِه عند القُدرة، وفى صِلتِه مَن قَطَعه، وفى تواضُعه للفقير والمسكينِ والأرملةِ واليتيم، كما ظهر الخُلقُ العظيمُ، فى مشاركته ﷺ أهلَه فى مهنتهم ورفقِه بِخَدَمِه ومُعاونتِهم بنفْسِه فى أَعمالهم.. فقد جمع اللهُ عز وجل لنبيِّه فى نفسه العظيمةِ كلَّ محاسنِ الآدابِ، ومكارمِ الأَخلاق.

ولذا فإن أُمَّ الْمُؤمنين عائشةَ ﵂ حين سُئِلت كما جاء عند النسائى فى تفسيره عن أبى عمرانَ عن يزيدَ بن بابَنوس: كيف كان خلُقُ رسولِ الله ﷺ؟ قالت: كانَ خُلُقُه القرآنَ. ولَما سألها ابنُ أُختها عن خُلقِه ﷺ، قالت له: أَمَا تقرأُ سورةَ «الْمُؤمنون»؟. قال: بلى. قالت: اقْرَأْ، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون].

فلما وصل إلى هذه الآيةِ قالت له عائشةُ: هكذا كانَ خلقُ رسولِ الله ﷺ.

وحين نزلت هذه الآياتُ من سورة «الْمُؤمنون» استقبل رسولُ الله ﷺ القبلةَ، ورفع يديه وقال: «اللهُمَّ زِدْنَا وَلَا تُنْقِصْنا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنا وَلا تُؤْثِرْ عَلَيْنا، وارْضَ عَنَّا وَأَرْضِنا»، ثم قال: «لقد أُنزِل عليَّ عشرُ آياتٍ من أَقامهُنَّ دَخَلَ الجَنَّةَ».

[رواه عمر بن الخطاب ﷺ وأخرجه أحمد وبعض أصحاب السنن].

وفى هذه الآياتِ تشويقٌ للمؤمنين الصالحين الصادقين لِلتحلِّى بأعظم الفضائلِ التى تُسعِدُ الْمُؤمنَ فى حياته الدنيوية، وتُهَيِّئُه للسعادة الأُخروية، فَمَنْ أَقام هذه الفضائلَ وحقَّقها فى نفسِه فاز ونَجا.

فقد تضمَّنتْ الآياتُ تشويقَ الْمُؤمنين للخوف من الله وخشيتِه، وذلك بطاعتِه والخشوعِ والخضوعِ والتذلُّلِ بينَ يديه، كما شَوَّقت إلى عِفَّةِ اللسانِ وَجِدِّيتِه فلا ينطقُ إلا بخير، ولا يقول إلَّا حقًّا وحُسْنًا، وإلى السخاءِ والجودِ وبذلِ الْمالِ فى وجوهِ الخيرِ، كما حَرَّضتِ الآياتُ على طهارةِ الذَّيْلِ وحِفظِ الفروجِ من الحرامِ، وحثَّتْ على الوقوفِ عند حدودِ اللهِ فى الحلال والحرام، وأَغلَتِ الآياتُ أَيضًا من شأْن الأمانةِ بحفظها ورعايتِها، ومن شأْنِ العهودِ والْمواثيقِ وضرورةِ رعايتِها والوفاءِ بها، كما أَكَّدت فَضْلَ الصلاةِ ولزومَ الْمُحافظةِ عليها، بأَدائها فى أَوقاتها، والْمُداومةِ عليها.

أيها الْمُؤمنون:

إنَّ الْمُتدبرَ لهذه الآياتِ من سورةِ «الْمُؤمنون» يرى أَنها جمعت خَيْرَى الدُّنيا والآخرةِ، ولهذا لفتَ الْمُصطفى ﷺ أُمتَه إلى أَنَّ مَنْ عمِل بما جاءَ فيها كان من أَهل الجنة.

ونحن - الْمُسلمين - قد أُمِرْنا بالاقتداءِ بالنبىِّ ﷺ، فهو أُسوتُنا الحسنةُ وقدوتُنا الطيبة، فى عباداته، وأَخلاقِه، ومسالكِه التى أَثنى الله عليه بها، فقد

سُمِّى خُلقُه عظيمًا ؛ لأن مكارمَ الأخلاق اجتمعت كلُّها فى نفسِه الطاهرةِ وقد قال ﷺ: «إنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخْلاقِ».

وما أحوجَنا إلى مكارم الأخلاقِ، ومحاسنِ الآدابِ، فهى زينةُ الْمُؤمن ودليلُ حُسنِ إيمانِه، وأكْمَلُ الْمُؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، كما قَالَ الحبيبُ الْمُصطفى ﷺ. [فى الحديث الذى روته عائشةُ وأخرجه الترمذىُّ والحاكم].

وفيه «وألطفُهم بأهْلِهِ».

وَرُوِى عنه عليه الصلاةُ والسلامُ أنه قال: «أَدَّبنى رَبِّى تَأْدِيبًا حَسَنًا». إذ قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]. [تفسير القرطبى].

وهذه الآيةُ الكريمةُ موجَزَةُ اللفظِ، ولكنها عظيمةُ الْمعنى، ساميةٌ فى مَرامِيها، وما اشتملتْ عليه من آدابٍ وفضائلَ، ففيها حَثٌّ على العفو عَمَّن أَساءَ، وعلى الرِّفق بالْمُؤمنين، والتواضعِ لهم، وذلك فى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أَما قولُه تعالى ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ فقد تَضمَّن الحضَّ على صِلَةِ الأرحام، وعلى تقوى الله فى الحلالِ والحرام، والتعاونِ على نشْر الخير وقمعِ الشرِّ، ثم تحضُّ الآيةُ على التخلُّق بالحِلم، وتجنُّبِ السفهاءِ والأَشرارِ والتنزُّهِ عن مُنازعَتِهم بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فباتِّباع ما تدعو إليه الآيةُ الكريمةُ يعيشُ الْمُؤمنُ وَقُورًا حَلِيمًا، مَحْبوبًا، داعيًا للخيرِ، مُبْغِضًا للإثم والشرِّ، مُقَرَّبًا من ربِّه سبحانه وتعالى.

وورد أَن جبريلَ عليه السلام قال للنبى ﷺ فى هذه الآية: «إِنَّ الله تعالى يأْمُرُك أَن تَعْفُوَ عمَّن ظلَمَك، وتُعْطِى مَن حَرَمكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعك».

[رواه ابنُ جرير وابنُ أبى حاتم عن سفيان بن عُيينةَ عن أُمَىّ بن ربيعةَ المرادى].

أيها الْمُؤمنون:

إن سعادةَ الفردِ والجماعةِ مقترنةٌ بحسنِ الخُلُقِ، وإن الشقاءَ إنما يكونُ إذا

ساءَ الخلقُ، لذا فقد بَنَى الإسلامُ للفضائِلِ العاليةِ والأخلاقِ الكريمةِ صرحًا عاليًا، وجعل الخُلقَ الكريمَ من أسبابِ رحمةِ اللهِ بالْمُؤمنِ، وقُرْبه من الحبيبِ الْمُصطفى ﷺ يومَ القيامة.

وقد سُئل رسولُ اللهِ عن أكثرِ ما يُدخِلُ الناسَ الجنةَ فقال: «تَقْوى اللهِ وحسنُ الخُلق». [رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذى وابن حبان وغيرهما].

ومن حُسْنِ الخلقِ الكرمُ والسخاءُ، والبِشْرُ وطلاقةُ الوجه، وكفُّ الأذى واحتمالُ ما يكون من الناس، وكظمُ الغيظِ لله، ولينُ القول، وكلُّ عمل من أعمالِ الْمروءةِ التى تدلُّ على عُلوِّ الهمَّةِ وَكَرَمِ الشمائِل.

نسألُ الله عزَّ وجلّ أن يرزقَنا حسنَ الخلق، واتَّقُوا الله - عبادَ الله - وسلُوه من فضله فإن الله يُحبُّ أن يُسأَل، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

* * *

للخطبة الثانية:

إن من أعظم وصايا المؤمنِ لأخيه المُؤمن أن يوصيَهُ بتقوى الله وحُسنِ الخلق، وبالإخلاصِ فى السرِّ والعلانية، وبالعدلِ فى الرِّضا والغَضَب، والقصدِ - أى التوسط والاعتدالِ - فى الغِنى والفقر، وأن يعفوَ عَمَّن ظَلَمهُ، ويَصِلَ مَن قَطَعهُ، وأن يُعْطِى من حَرمَهُ، وأن يَكونَ نُطْقُه ذِكْرًا، وَصَمْتُه فِكْرًا ونَظَرهُ عِبْرةً.

وكان من دعاء النبى ﷺ: «اللهمَّ كما أحسنتَ خَلْقِى فَأَحْسِنْ خُلُقِى».
[روته عائشة وأخرجه أحمد].

وفى الحديث الذى رواه جابرٌ يقول النبى ﷺ: «إن من أَحَبّكم إلىَّ وأَقربِكُم منّى مَجْلِسًا يومَ القيامةِ أَحَاسِنَكُم أخلاقًا، وإنَّ أَبغضَكم إلىَّ وأَبْعدَكُم مِنّى

مَجْلسًا يَوْمَ القِيامةِ الثَّرثارُونَ والْمُتشَدِّقُون والْمُتفَيْهِقُون». قالوا: يا رسولَ الله، ما الْمُتفيهقون؟ قال: «الْمُتكبِّرون». [أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن].

إن حسْنَ خُلقِ المُؤمنِ التَّقىّ - يا أهل الإيمان - يقرِّبُه من رِضوان الله عز وجل، ويُحبِّبُه إلى الخلْق، ويجعلُه قريبًا من مجلسِ رسولِ الله ﷺ يومَ القيامةِ، وفى الحديث الذى رواه أبو الدرداء وأخرجه الترمذى: «وإنَّ صاحبَ حُسْنِ الخلُقِ لَيبلُغُ به درجَةَ صاحبِ الصَّوم والصلاة». وفى رواية عائشة عند أبى داود وابن حبان: «إنَّ المُؤمنَ ليدرِكُ بَحُسْنِ الخُلق درجةَ الصائمِ والقائمِ».

وإنَّ أكثرَ ما يُدخلُ الناسَ الجنَّةَ تقوى اللهِ وحسنُ الخُلقِ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة، وفيه: وسُئل رسولُ اللهِ ﷺ عن أكثر ما يُدْخِلُ الناسَ النارَ؟ فقال: «الفمُ والفرجُ». [أخرجه الترمذى وابن حبان].

وفى حديث أنس: «وإن العبدَ لَيبلغُ بسوءِ خُلُقِه أسفَلَ دركاتِ جهنَّمَ». [أخرجه الطبرانى].

ومن البشريات العظيمة للمؤمن صاحبِ الخلُقِ الحسن، وطِيبِ العِشرةِ مع الناس ما رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أوْحَى اللهُ إلى إبراهيمَ عليه السلام: يا خَليلى، حَسِّن خُلقَكَ ولو مَعَ الكُفَّار، تَدْخُلْ مَدْخَلَ الأبرار وإنَّ كلمتى سبقتْ لِمن حَسَّن خُلُقَه أنْ أُظِلَّهُ تحتَ عَرْشِى، وأنْ أَسْقِيَهُ مِنْ حَظيرةِ قُدْسِى، وأنْ أُدْنِيَهُ مِن جِوارى». [أخرجه الطبرانى].

فطوبى للمؤمن الذى يصونُ لسانه إلا عن خيرٍ، ويصدقُ إذا تكلَّم، ويَفِى إذا وَعَد، ويشتغِلُ بعيوبِ نفسه عن عيوبِ الناس، طوبى لمن اقتدى بالحبيب المُصطفى ﷺ فى: سَعَةِ صَدْرِه، وحِلْمِه، ومروءتِه، وغضِّ بَصَره، وفى كفِّ جوارحِه عن الشرِّ والسوءِ، وفى صِدْقِه وأمانته، وخوفِه من ربِّه واشتغالِه بما يَعْنيه ويُقَرِّبُه من رَبِّه.

وكان من دعائه ﷺ: «اللهُمَّ إنِّى أعوذُ بِكَ من الشِّقاق، والنِّفاق، وسوءِ الأخلاق».

[رواه أبو هريرة وأخرجه أبو داود والنسائى].

❊ ❊ ❊

«توجيهات شريفة للدرس»:

وفى الحديث الذى رواه أبو الدرداءِ رضي الله عنه وأخرجه الترمذىُّ وابنُ حبان، يقول النبى ﷺ: «ما مِن شَىءٍ أثقلَ فى مِيزانِ الْمُؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلُقٍ حَسَنٍ، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِضُ الفاحشَ البَذىءَ».

[قال الترمذى: حديث حسن صحيح].

وجاء عند بعض أصحاب السنن أنَّ أبا جُرَىٍّ جابرَ بنَ سُلَيم رضي الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ أن يُعلِّمَه شيئًا ينفعُه اللهُ به فقال له: «اتَّقِ الله، ولا تَحقِرَنَّ من الْمعروفِ شيئًا، ولو أن تُفرِغَ مِن دَلْوِكَ فى إناءِ الْمُستسقِى، ولو أن تُكلِّمَ أخاكَ وَوَجْهُكَ إليه مُنْبَسِطٌ، وإيَّاكَ وإسبالَ الإزارِ فإنه مِن المَخِيلَةِ، ولا يُحِبُّها اللهُ، وإنِ امْرُؤٌ شتمكَ بِما يعلمُ فيك، فلا تشتُمْه بِما تَعلمُ فيه، فإن أجْرَهُ لك، وَوَبالَهُ على مَن قاله».

وفى رواية عند النسائى وابن حبان جاء فيه: «وإنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بشىء يَعلمُه فيك، فلا تُعيِّرْه بشىء تعلمُه فيه، وَدَعْهُ يكونُ وبالُه عليه، وأجرُه لك ولا تَسُبَّنَّ شيئًا»، قال: فما سَبَبتُ بعد ذلك دابَّةً ولا إنسانًا.

❊ ❊ ❊

٤١ - الخمر أم الكبائر[(١)]

الحمدُ لله أَنْعَمَ على عبادِه بنعمةِ العقلِ والإدراكِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ قَطع أسبابَ الفسادِ والهلاك، أحمدُ الله تعالى وأستغفرُه، وأشْهَدُ أن لا إلا الله أمرَ بحفظِ العقولِ، والأَبدانِ، والأموالِ، وأَشهدُ أن محمدًا رسولُ الله، حذَّرنا طريقَ الضلال، صَلَّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وأَصحابِهِ الأبطال.

أما بعد: فيا أيها الْمُؤمنون:

الإنسانُ فى الدنيا سلاحُه عقلٌ سليم، وصِحَّةٌ قويةٌ، ومالٌ يُغنيه، وكرامةٌ وشرفٌ يُعليه، والدينُ حارسٌ على أَتْباعِه، حريصٌ على سعادتِهم، حَرَّمَ عليهم ما يضُرُّ بعقولهم وأَبدانِهم، ويُذْهِبُ أَموالَهم وشرفَهم، ولكنَّ الشيطانَ يُغرى الناسَ بالْمحرَّم الْممنوع، والنفسُ تتشوقُ للبعيد، ولو كان فيه هلاكُها ودمارُها فى الدنيا، وعذابُها وسعيرُها فى الأُخرى، حرَّم اللهُ شُربَ الخمرِ لإفسادِها العقولَ، وضياعِ الأموالِ، وتَهدُّمِ الأبدانِ، وفقدانِ الكرامةِ وتدهُورِ الأخلاق، فمُدمِنُ الخمرِ مآلُه للخَبَل والجنونِ، والفقرِ والحاجةِ والضعفِ والعِلَل، وكم من رجلٍ مُجِدٌ نافِع أَرسلته الخمورُ لِمستشفى الْمجانين، وكم من بيوتٍ أُغلِقَت، وعائلاتٍ تَعذَّبت وتَشرَّدَت ؛ لأن كبيرَها عَاقَر الخمرَ، وتركَ أَهلَه فى حاجة للخُبز الْمجرد، والقوتِ الضرورى، وكم من رجال أَشداءَ أَقوياءَ هدمَتْهُم الخمرُ وطحنَتْهُم، فصاروا مَجْمَعًا للعِلَل وكشكولًا للأسقام، كم من رجلٍ فاضلٍ صَيَّرته الخمرُ بَذيئًا، لا يَستَحيى من أَقبح القولِ[(٢)].

حرَّم الإسلامُ الخمرَ ليمنعَ التباغُضَ والتقاتُلَ، فإن السكِّيرَ يَسُبُّ ويلعنُ

---

(١) من خطب الشيخ محمود على أحمد.

(٢) هذه الْمُقدِّمة يمكن أن تكون أيضًا لخطبة عن أضرارِ تعاطى المخدِّرات.

وَيُؤذى ويَضربُ، ويعتدى على عفافِ النساءِ فَيزنى ويَفسُق، وإنْ لزِم الأمرُ يَسرِقُ وينهبُ، ويقتلُ النفسَ التى حَرَّمها الله، فتكون الجرائمُ والمصائبُ والنزاعُ والعداوةُ، والتقاطعُ الممقوت، حَرَّمَ الدينُ الخمرَ لأنها تُنسِى ذِكْرَ الله، وكيف يذكرُ اللهَ شخصٌ يَنسى نفسَه وكرامتَه، يَنْسَى بيتَه وأَولادَه، ينسَى واجبَه ودينَه، حرَّم الدينُ الخمرَ لأنها تَصُدُّ عن الصلاةِ، وهى عمودُ الدِّين وعلامةُ الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة]، متى سَكِر المرءُ وانتشى فلا يُبالى بِما يقول ولا بما يفعل، ولا يُبالى بِزِنًى ولا بفاحِشة، ولا يَعبأُ بِعِرْضٍ أَو عفاف، فالسكّيرُ لا يتعففُ عن مُنكَر، ولا يخجلُ من تهتُّك.

عبادَ الله:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا الخمرَ فإنَّها مِفْتاحُ كُلِّ شَرٍّ». [أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد].

يقول السُّكَارَى إن الخمرَ تُذْهِبُ الهمومَ والأحزانَ، وتجلبُ المسرةَ والفرحَ، وفاتَهُم أنه فرَحٌ مُزيَّفٌ مغشوشٌ، وسرورٌ كاذِب، يَعْقُبه هُبوطٌ وحسْرة، وركودٌ وذِلَّة، وهل خُلِقَ الرجلُ ليفرَّ من الهموم، فيقَعَ فى مُحرَّم يُضاعِفُ هَمَّه، ويزيدُ غَمَّه، يقولون: إنها تُقَوِّى الجسمَ، وتفيدُ الصحةَ وتُحْدِثُ فى الوجهِ احمرارًا ونضْرة، وفاتهم أَن للخمر ردَّ فِعْلٍ يَصحبُه اصفرارٌ وهُزال، وقىء وكسَل، وفاتهم أَن الطبَّ أَثبت أَن الخمرَ سببٌ لالتهاب الكبِد، والكُلَى، والشَّللِ، والصَّرعِ، والجنونِ، وضعْفِ النسل، دخلت الخمرُ القُرى فانصرف الفلاحُ والمزارعُ عن الريِّ والحرْثِ، دخلت الخمرُ قلوبَ العمالِ

والصناعِ ففترتْ الهممُ، وانحلَّتْ عزائمُ الرجال، فقلَّ الإنتاجُ وضَعُفت حركةُ التعامُلِ، لذلك كانت أُمَّ الكبائر، وأُمَّ الخبائث، أَوجَب فيها الدينُ ثمانين جلدةً زجْرًا وردْعًا، وحِفظًا للعقول والأموال، والأخلاقِ والأعراضِ ووِقاية وصَونًا: «ضربَ رسولُ الله فى الخمر بالنعال والجريدِ - نحو أربعين - وجلدَ أبو بكر أربعين وجلد عمرُ ثمانين». [متفق عليه عن أنس].

يقولون: ليس فى الدين ذكر للكُنياك والوِسكى والشمبانيا، وديننا يضعُ الأصولَ لتشملَ الفروع، ويضعُ القواعدَ العامةَ ويُحرِّمُ الشىءَ لِعلَّةِ الضرر والرسولُ ﷺ يقول فيما رواه ابن عمر: «كلُّ مُسْكرٍ خَمرٌ وكلُّ مُسْكرٍ حرامٌ، ومَن شَربَ الخمرَ فى الدُّنيا، ومات وهو يُدمِنُها لَمْ يَشْرَبْها فى الآخرة».
[أخرجه البخارى ومسلم وبعض أصحاب السنن].

تَمكَّنت الخمرُ من نفوس العربِ قبل الإسلام، لا يخلُو منها بيتٌ، ولا يتركها إنسانٌ حتى أَتقن النساءُ صُنعَها، وتَمدَّحَ الرجالُ بها فى أَشعارهم، وكانت لهم فيها منافعُ، يَتَّجرون بها ويَربَحُون منها، فكان من حصافة الإسلام أَن تدرَّجَ فى تحريمِها وتَرقَّى فى مَنْعها، فنزل أَولا قولُ الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] فتركها قومٌ لإثمها الكبير، وشَرِبها آخرون لنفعها الحقير، ولمَّا صَلَّى بعضُهم وهو سَكران فَهَذَى وخَلَط نزل قولُ الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] ولتقارُبِ أوقاتِ الصلاة، ما كانوا يَشربون إلا بعدَ العشاء، لبُعْدِها عن الفجْر حتى قَلَّ شُربُها، وأَعرض الكثيرُ عنها، وتَمشَّى الإيمانُ فى القلوب يُنيرُها ويَهديها.

قال عمرُ ﷺ: اللهمَّ أَنزلْ لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزل التحريمُ الباتُّ القاطعُ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ

عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

[المائدة].

ثم أُقيم الحدُّ على كلِّ شاربٍ، فانعدَمَ شُربُها أو كاد، حتى إذا أُهملت الحدودُ الشرعية[١]، وضَعُف وازعُ الدِّين، واختلط المُسلمون بالإفرنج يُقلِّدونهم فى السُّوءِ، ويَتشبَّهون بهم فى الشرِّ، صارت الخمرُ تُشْربُ بلا خوفٍ، ولا حياء.

فاتقوا الله فى دينكم، وعقولِكم، وأموالِكم، وأعراضِكم وساعدوا الحكومةَ بالإعراض عن الخمور تهتدوا.

قال ﷺ: «لا يزنى الزانِى حين يزنِى وهوَ مؤمِنٌ، ولا يَسْرِقُ السَّارقُ حينَ يسرق وهو مؤمِنٌ، ولا يشْربُ الخمرَ حينَ يشْربُها وهوَ مؤمِنٌ».

[فى الصحيحين وعند بعض أصحاب السنن عن أبى هريرة].

وعند أبى داودَ بعد قوله: «ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشرَبُها وهو مؤمنٌ: ولَكنَّ التوْبَةَ مَعْرُوضةٌ بَعْدُ». أى بابُ التوبةِ مفتوحٌ أمامه فليبادِرْ.

قال سعدُ بنُ أبى وقَّاص: «نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن قليلِ مَا أسْكَرَ كثيرُه».

[أخرجه الدارقطنى والنسائى وابن حبان].

وفى رواية جابر عند أحمد وغيره «ما أسْكَرَ كثيرُه فقليلُه حرامٌ».

فطوبى للتائبين الْمُستغفرين بالليل والنهار.

* * *

---

(١) الخطبة ألقيت فى مصر بعد تطبيق القوانين الفرنسية لا الشرعية وهذا حال معظم الدول الإسلامية.

٤٢ - أخلِصُوا العمل لله
وأحسِنُوا إلى من أمر الله بالإحسان إليهم

قال الله تعالى من سورة النساء:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

أيها الْمُؤمنون:

أجمع أهلُ العلم على أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ من الْمُحكَمِ الْمتَّفَقِ عليه، وبدأها سُبحانه بالأَمرِ بالعبادةِ له والنَّهْى عن الإشراك به، والعبادةُ عبارةٌ عن توحيدهِ وإلزام النفسِ شرائعَ دينه، وأَصلُها: الخضوعُ والتذلُّلُ، ومن معانيها الطاعةُ، ولن تُؤتِىَ العبادةُ ثِمارَها، ولن يتحققَ الْمقصودُ منها للعابد، إلا إذا كانت الأعمالُ فيها خالصةً لله تعالى، صافيةً من شوائبِ الشرك.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. فما كان من صلاةٍ أو صيام، أَو صدقةٍ أَو نذرٍ، أَو خوفٍ أَو رجاءٍ، أَو توكُّلٍ أَو استعانةٍ ودعاءٍ، ما كان من ذلك ونحوِه فهو للهِ وحْدَهُ، وكلُّ عَمَلٍ منها يتوجَّهُ به صاحبُه لغير الله، فعملهُ باطلٌ لِما فيه من الشرك، وما كان تقديمُ أَهلِ الجاهليةِ القرابينَ للأصنام إلا لاعتقادِهم أنها تُقرِّبهُم إلى الله زُلْفَى، مع إيمانِهم بوجودِ الله، وبأَنه الخالقُ الرزاقُ الْمُنعمُ، وما أَخرجهم هذا الاعتقادُ من دائرة الشركِ والْمُشركين، لتقديمِهم العبادةَ والخضوعَ والتذللَ والخوفَ والرجاءَ لغير الله تعالى.

وإن العملَ الذى يُخالطُه رياءٌ، ويرجو به صاحبُه السُمعةَ وحُسْنَ الصِّيتِ، لا يكونُ خالصًا لله.

وقد جاءَ فى صحيح مسلم عن أبى هريرةَ رضي الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «قال اللهُ تَبارك وتَعالى: أنا أَغْنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه - معى - غَيرى تركْتُه وَشِرْكَهُ». وفى لفظٍ عند ابن ماجه: «فأنا منه برىء وهُو للَّذِى أَشْرَكَ».

وجاءَ فى سُنن ابنِ ماجه عن أبى سعيد بنِ أَبى فضالةَ الأنصارى وكان من الصحابة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا جَمع الله الأوّلينَ والآخِرين يومَ القيامة، ليوم لا ريبَ فِيه، نَادَى مُنادٍ: مَنْ كان أَشركَ فى عملٍ عَمِلَه لله أحدًا فلْيَطْلُبْ ثوابَهُ من عندِ غيرِ الله، فإنَّ اللهَ أَغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ».

والرياءُ على هذا النحوِ مُبطلٌ للأعمال مُضيِّعٌ لثمرتها، فينبغى للمؤمن أَن يراقبَ نفسَه، وأَن يستعينَ بالله عليها، وأَن يجعلَ نيتَهُ خالصةً لِمن بِيَدِه الأمرُ، وأَن يطلبَ بعمله الدَّارَ الآخرة.

نسأَلُ الله أَن يرزقَنا الإخلاصَ فى السرِّ والعَلَن، وأَن يَحفظَنا من الشِّرك ومزالقِه.

عبادَ الله:

ثم أَمر الله عزَّ وجل فى الآيةِ الكريمةِ بالإحسان إلى الوالديْن بعد الأَمرِ بعبادتِه وحْده، وعدمِ الإشراكِ به سبحانه وتعالى، والإحسانُ إلى الوالدين وبرُّهما مِنْ أَعْظَم القُرباتِ إلى الله عز وجل، وعقوقُ الوالِدَين والإساءَةُ إليهما، وإهمالُ شأْنِهما من أعظمِ ما يَجْلِبُ غضبَ اللهِ على فاعله.

قال العلماءُ: فأَحقُّ الناسِ بعد الخالقِ المنَّانِ بالشكر والإحسانِ وبالتزامِ البِرِّ والطاعةِ والإذعانِ مَن قَرَنَ اللهُ الإحسانَ إليهما بعبادتِه سبحانه، وَقَرَنَ بطَاعتِهِ وشُكْرِهِ الشُّكْرَ لَهُمَا، وهما الوالدان.

يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وعن ابن عمرَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ «رِضا الربِّ فى رِضَا الوالِد، وسَخَطُه فى سَخَطَ الوالِدِ». [أخرجه الترمذى وغيره].

وبعد الأمرِ ببرِّ الوالدين والإحسانِ إليهما بالقول والعمل أمر سبحانه بالإحسانِ إلى ذوى القُربى، فهم أولَى الناسِ بالبرِّ والمودَّةِ والصِّلةِ؛ لأنَّهم الأهلُ، ومنهم تتكونُ أُسرةُ الإنسانِ، فإذا ما كانت الأُسرةُ متساعدةً متعاونةً صالحةً، كانت الأُمةُ قويةً صالحةً، وأرحامُ الإنسانِ كالإخوةِ والأخواتِ والأعمام والعَمَّاتِ، والأخوالِ والخالاتِ، ونحوِهم، هم أَوْلَى الناسِ بالصدقاتِ إذا كانُوا فقراءَ، وقد أمَرَ النبىُّ ﷺ المسلمَ أن يبدأَ بنفسِه، ثم بِمَن يَعُول كأَبنائه ووالديه وزوجِه ثم بالأَقربِ فالأَقربِ، تحقيقًا للتراحم والمودَّةِ وقوةِ الرابطةِ بين الأَهل، وإن صلةَ الرحِم ومَودَّتَهم والإحسانَ إليهم من القُرباتِ إلى الله عز وجل، ومن أَسبابِ البركةِ فى العُمْرِ والمالِ.

كما أمر الله عز وجل - يا أحباب الله - فى الآية الكريمةِ بالإحسانِ إلى اليتامى والرِّفْقِ بهم ورعايةِ أَحْوالِهم، ومن الرفقِ بهم تعليمُهم، وتوجيهُهم الوِجهةَ الصالحةَ وتثميرُ أموالِهم، والقيامُ على كلِّ أُمورِهم بما يعودُ عليهم بالنفعِ فى دينِهم ودُنياهم.

وينبغى للمؤمنِ القادرِ أَن يَرعَى اليتامَى والفقراءَ وَيَالَسَعَادةِ المجتمع الذى لا يَضِيعُ فيه اليتامَى ؛ لأنهم يَجدونَ القلوبَ الحانيةَ، والنفوسَ الشاكره، والرعايةَ الواجبة.

-لقد أَمَر اللهُ بالإحسانِ إلى المساكينِ، وَهُم أَهلُ المسْكَنةِ والضعْفِ من الفقراءِ الذين لا يَجِدُونَ غِنًى يُغْنيهم، وقد لا يَفْطِنُ إليهم الناسُ، لعدمِ تَعَرُّضِهم للسُّؤَال، فينبغِى للمؤمنِ القادرِ أَن يبحثَ عن هؤلاءِ، وَيُقَدِّمَ إليهم من زكاتِهِ وَصَدَقَتِه، وأَن يحقِّقَ لهم المجتمعُ حَدَّ الكِفايةِ التى تليقُ بالمؤمنِ بحسب ظروفِ زمانِه ومكانِه ومُستوى المعيشةِ فى بلده.

وبَعد الأمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين وذوى القُربى واليتامى والمساكين أَمر الله عز وجلّ بالإحسانِ إلى الجارِ، أى بحفظِه والقيامِ بحقِّه، ومن حقِّه إكرامُه وكفُّ الأذى عنه، والسؤالُ عنه إذا غاب، وزيارتُه إذا مَرِض، وإقراضُه إذا استقرضَك، وتقديمُ العوْنِ له عند الحاجة، وإعانتُه إذا استغاث، والتودُّدُ إليه بالهدايا خصوصًا لأقربِ الجيران بابًا، لقول النبىّ ﷺ لعائشةَ حين قالتْ له: إنَّ لى جارَيْن فإلى أيِّهما أُهْدِى؟ قال: «إلى أقْرَبِهما مِنْكِ بابًا». [أخرجه البخارى].

وقد قال النبى ﷺ لعائشةَ عند تفريقِ لحمِ الأُضحية: «ابدئِى بجارِنا اليهودىّ» ذلك أن وصاةَ الإسلامِ بإكرامِ الجارِ عامَّةٌ تتناولُ المسلمَ وغيرَ المسلم، وقد شَمِل الأمرُ بالإحسانِ إلى الجارِ، الجارَ القريبَ والجارَ البعيدَ، والذى له رَحِمٌ، والغريبَ، والمسلمَ، والكافرَ: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

أَما الصاحبُ بالجَنْبِ: فهو الرفيقُ فى السفرِ، وقال بعضُ الصحابةِ إنه الزوجةُ؛ وقال ابنُ جُريج: هو الذى يَصحَبُك ويلزمُكَ رجَاءَ نَفْعِك، وهؤلاءِ جميعًا مِمَّنْ يَنْبَغِى لِلْمؤمنِ الإحسانُ إليهم والآيةُ تَعمُّهم. والله أَعلم.

ثم أَمر الله عزَّ وجلّ بالإحسانِ إلى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: هو الضيفُ ينزلُ بك، وهو أَيضًا المسافرُ الذى يجتازُ بك مارًا. ومن الإحسانِ إليه إعطاؤه وَهِدَايتُه وإرشادُه.

أيها الْمُؤمنون:

وأَمر اللهُ عزَّ وجلّ فى الآيةِ الكريمةِ بالإحسان إلى من يكونُ تحتَ يدِ الْمُؤمنِ وفى خدمتِهِ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ والإحسانُ إليهم إنما يكون بالرفْقِ بهم والتواضعِ لهم، وإكرامِهم.. وقد جاءَ فى الصحيح عن النبىّ ﷺ أنه قال: «إخوانُكم خَوَلُكم، ملَّكَكُم الله رِقابَهُم، فَأَطعِمُوهم مِمَّا تأكلون،

واكسُوهم مِمَّا تَلْبَسُون، ولا تُكَلِّفُوهم من العمل ما لا يُطيقُون، فإِنْ كَلَّفْتموهُم فأَعِينُوهم» فطُوبى لِمَنْ تَواضَعَ لِمَنْ تحت يدِه من إخوانِه وأَحْسَنَ مُعَامَلَتَهُ، وكَلَّفَهُ من العملِ ما يُطِيقُه. وقد ذمَّ الله عزَّ وجل كلَّ ذى صِفَةٍ تحملُ صاحبَها على الأنفَة من الفقراءِ والجيرانِ والخَدَم وغيرِهم مِمَّن أمر الله بالإحسان إليهم والتواضُع لَهم، فقال فى ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. فَنَفَى سُبحانه محبَّتَه وَرِضَاه عمَّن يكونُ من صفته الكِبْرُ، والبَذْخُ، والتطاوُلُ على الناس والتكبُّر عليهم، فطوبى لأهل التواضع والرحمة.

نسأَلُ اللهَ أن يَرْزُقَنا محاسنَ الأَخلاقِ، واتَّقُوا الله - عبادَ الله - وَوَحِّدُوه سبحانه، وأَحْسِنُوا إلى مَنْ أمر بالإحسان إليهم، تفوزوا بِرضوان الله يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

❊ ❊ ❊

* * *

توجيهات ودروس:

* عن عكرمة بن خالد قال: سمعتُ ابنَ عمرَ عن النبى ﷺ يقول: «مَن تَعَظَّمَ فى نفسِه، أو اخْتالَ فى مِشْيَتِه، لَقِىَ اللهَ عزّ وجلّ، وهو عليه غَضبان».

[البخارى فى الأدب المفرد وأحمد والحاكم].

* وعن أبى هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما اسْتَكبَر مَن أكَلَ معه خادِمُه ورَكِبَ الحمارَ بالأسواق، واعتَقَل الشاةَ فحَلَبها». [البخارى فى الأدب المفرد].

اعتقل الشاةَ: أى رَبَطها بحبْلٍ ونَحْوِه.

* وفى الحديث القدسى عن ربِّ العِزَّة عَزَّ وجلَّ: «العِزُّ إزارى، والكبرياءُ ردائى فَمَن نازَعَنى شيئًا منهما عَذَّبتُه».

[رواه أبو سعيد وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد، ومسلم وأحمد].

وقانا اللهُ شرَّ الكِبر والخيلاء، ورزقنا التواضعَ لعباد الله، وحُسنَ الخلق، وسَعَةَ الصدر.

جاء عند مسلم عن أَبى هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بادِرُوا بالأعمالِ - الصالحةِ - فِتنًا كَقِطَعِ الليلِ المُظلم - أَى شديدةً مُتتابعةً - يُصبح الرجلُ مؤمنًا، ويُمْسى كافرًا، ويُمْسى مؤمنًا، ويُصبحُ كافرًا، يَبيعُ دِينَه بَعَرضٍ من الدُّنيا».

عن أَبى بكرةَ نُفيع بنِ الحارث ﷺ قال، قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ؟» - ثلاثًا، قلنا: بَلى، يا رسولَ الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين»، وكان مُتَّكِئًا فجلس فقال: «ألا وقولُ الزُّور وشهادةُ الزور» فما زال يكررُها حتى قُلنا: ليتَه سكت. [متفق عليه].

* * *

* * *

٤٣ - عموم رسالة النبى مُحمدٍ ﷺ

أمّا بعد:

فيا أيها المُؤمنون:

عن أبى هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والَّذِى نفسُ محمدٍ بيدِه، لا يسْمَعُ بى أحَدٌ من هذه الأُمةِ: يَهُودِىٌ، أَوْ نَصْرَانِىٌ، ثم يموتُ، وَ لَا يُؤمنُ بالذى أُرسِلْتُ به إِلَّا كان مِنْ أصحابِ النَّار..».

[أخرجه أحمد وجاء عنده عن أبى موسى بمعناه].

من الأَيمانِ التى كان النبىُ ﷺ يُكْثِرُ الحَلِفَ بها ويُواظبُ عليها «والذى نفسُ محمدٍ بيده» لأنه يدلُ على زيادة تعظيم المحْلوفِ به، فقد وصفَه بأنَّ ذاتَه فى يده، وفى قبضتِه، وتحتَ تَصرُّفِ قُدْرَتِهِ سبحانه وتعالى، وأن المخلوقَ لا حَوْلَ له ولا طَوْلَ، وذلك مُنتهَى الخضوعِ أمامَ عَظمَةِ الخالقِ وجبروته.

وإنما أقسَم ﷺ لتأكيد الخبرِ، ليتمكَّنَ الحُكْمُ فى النفس أشدَّ تَمَكُّن والمخلوفُ عليه قولُه ﷺ: «لا يَسْمَعُ بى أحدٌ من هذه الأمةِ يَهودىٌّ أَوْ نصرانىٌ، ثم يموت، ولا يؤمنُ بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أصحابِ النار».

وإنما خَصَّ فى الحديث اليهودىَّ والنصرانىَّ، وإن كان الحكمُ عامًّا يتناولُ غيرَهما ؛ لأن اليهودَ والنصارى لَهم كتابٌ سماوىٌّ، فإذا كان هذا شأْنَهُمْ مع أن لهم كتابًا سماويًّا، فغيرُهم مِمَّنْ لا كتابَ لهم أَوْلَى.

والمرادُ بالأُمةِ فى الحديث الشريف: الإنسُ والجنُّ، فكلُ مَنْ عَلِم بِمبْعثِه ﷺ سَواءٌ كان موجودًا فى زمنِه، أو وُجِدَ بعده إلى يوم القيامةِ، وجَبَ عليهم الإيمانُ به، والدخولُ فى طاعته، فإذا مات ولم يُؤمنْ به، وبَقِى متمسِّكًا بدينه وشريعتِه التى نُسِخَتْ بِمبعثه ﷺ، أو بَقِى بلا دينٍ، فقد أَوجب على نفسه النار ؛ لأنه لم يدخلْ فى الدين الصحيح الذى ارتضاه الله دينًا.

وإنما كانت شريعةُ خاتَم الأنبياءِ ناسخةً لباقى الشرائع؛ لصلاحيتها لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولتأييدها بِمُعجِزةٍ باقيةٍ مُستمرَّةٍ إلى أن تُؤْذِنَ الدنيا بالزوال وهى معجزةُ القرآنِ الكريم.

أيها الناس:

إن الرسولَ الحبيبَ ﷺ مبعوثٌ إلى الثَّقلَين باتفاقِ الْمُسلمين، وقد استمعت الجنُّ للقرآن، وولَّوا إلى قومهم مُنذِرين، وكان من خبر ذلك أن النبيَّ ﷺ لمَّا صلَّى الصبحَ بأَصحابِه بوادى نَخْلةَ، وهو مَوْضِعٌ على ليلتين من مكةَ مرَّ بهم أُولئك النفرُ من الجن، وسمِعوا رسولَ الله ﷺ يقرأُ القرآنَ فاستمَعُوا إليه مُصغين مُتدبِّرين، فآمنوا به، ورجعوا إلى قومهم مُنذِرين.

وأخبر الله عز وجل نبيَّه بذلك فى القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.
[الأحقاف].

وفى الآيات يحضُّ النفرُ الذين أسلموا من الجن قومَهُم على الإيمان بالقرآن، كما آمنوا بالتوراةِ التى أُنزلتْ على موسى من قبلُ، وأنهم إن لم يُؤمنُوا ويُجيبُوا دَاعِى اللهِ محمدًا ﷺ لا يَعْجَز ربُّهم عن أَخْذِهم بالنَّكالِ والعَذابِ، وليس لهم من دُونه نُصَراءُ يدفعونَ عنهم عذابَه.

وأنزلَ الله عز وجل على نبيِّه ﷺ يُخبره بأَمر هؤلاء النفرِ من الجن؛ لأنه لم يكن عَالِمًا بهم ولا شاعرًا بِمكانهم.. أنزل عليه قولَه تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ

ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن].

وقد أوحَى الله عز وجل إلى أنبيائه بِصَفةِ النبيِّ محمدٍ ﷺ وبصفة زمانهِ الذى يُبعثُ فيه، وأوجب عليهم وعلى أتباعِهم الإيمانَ به واتِّباعَه ﷺ إذا هم أدركوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران].

وعلى هذا، فَلابُدَّ من الإيمانِ بأنَّ محمدًا هو رسُولُ الله ﷺ إلى جميع الخلقِ؛ إنسِهم وجنِّهم، عَربِهم، وعَجَمِهم، علمائِهم، وعُبَّادِهم، مُلوكِهم وَسُوقتِهم، وأنه لا طريقَ إلى الله عز وجل لأحدٍ من الخلْق إلا بمتابعةِ النبيِّ ﷺ وطاعتِه، وبالعملِ بما جاءَ به من عند ربه سبحانه وتعالى.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾. [الأعراف].

فهذا خطابٌ عامٌّ لجميع البشرِ من العربِ والعجمِ، وجَّهه إليهم محمدُ ابنُ عبدِ الله النبيُّ العربيُّ بأمرِ الله تعالى، يُنبئُهم به أنه رسولُ الله عز وجل إليهم كافَّةً.. فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. [سبأ: ٢٨].

ورسولُنا الحبيبُ ﷺ أرْسَله ربُّه رحمةً لِلْعَالَمِين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أيها الْمُؤمنون:

إن كلَّ مَن آمن بالحبيب الْمُصطفى، واتَّبع النُّورَ الذى جاءَ به، وأطاعه فهو من أَولياء الرحمنِ الْمُهتدين.

أَمَّا مَن عصَى الرسولَ محمدًا ﷺ، وخالف ما جاءَ به، وكفر بالحقِّ الذى دعا إليه، فهو من أَولياء الشيطانِ الْمغضوبِ عليهم، وهو من أَهل النار، إذا مات على ذلك، وبئس الْمصير.

فصلواتُ الله وتحياتُه الْمُبارَكةُ الطيبةُ على خاتم النبيين، ونسأله سبحانه أنْ يثبّتَ قلوبَنا على دينه، وأن يجعلَه شفيعَنا يومَ الدين، واتقوا الله - عبادَ الله - وتوبوا إليه، واستغفروه، إنه هو التوابُ الرحيم.

* * *

للخطبة الثانية:

وقد جاءَت الأحاديثُ الصحيحةُ باختصاصه ﷺ بالرسالة العامةِ كحديث جابرٍ ﷺ فى الصحيحين قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أَحدٌ من الأَنبياء قبلى: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَتْ لى الأرضُ مسجِدًا وَطَهُورًا، فأيُّما رَجُلٍ من أُمتى أدْرَكَتْهُ الصلاةُ فَلْيصَلِّ، وأُحِلَّتْ لى الغنائِمُ ولم تَحِلَّ لأَحدٍ قَبْلى، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ، وكان النبىُّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصَّة وبُعِثْتُ إلى الناس عامَّة». وطَهُورًا: أَى: وتُرابُها طَهُورًا، أى: إذا لَزِم التَّيَمُّمُ.

فالحبيبُ الْمُصطفى ﷺ أَرسله ربُّه لجميع العالَمين، وجَعَلَ هدايةَ رسالتِه باقيةً إلى يوم الدين، وهو خاتمُ الأنبياءِ والْمُرسَلين: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

[الأحزاب].

* * *

٤٤ - في مولد النبي ﷺ
«طلع الليلة نَجمُ أحمد»

أما بعد.. فيا عبادَ الله:

عن أَبي موسى رضي الله عنه قال: سمعتُ النجاشيَّ صاحبَ الحبشةِ رحمه الله تعالى يقول: «أَشهدُ أَن محمدًا رسولُ الله، وأَنه الذي بشَّر به عيسى عليه السلام! ولولا ما أَنا فيه من المُلك، وما تحمَّلتُ من أُمور الناسِ لأَتيتُه أَحملُ نَعْلَيه».

[أخرجه أبو داود].

نعم.. لقد بَشَّر الأَنبياءُ كلُّهم بظهور الهادي الحبيبِ ﷺ، وفي الليلةِ الْمُباركةِ نادى رجلٌ من أَهل الكتاب قائلًا: طلعَ الليلةَ نجمُ أَحمدَ: أَمَّا الليلةُ فهي ليلةُ الثانيَ عشرَ من شهر ربيعِ الأول عامَ الفيل.

وأَمَّا قائلُ هذه العبارةِ فهو حَبْرٌ يهوديٌّ، سَمِعَه حسَّانُ بنُ ثابت، يَصْرُخُ بأَعلى صوتِه على حصنٍ بيثربَ: «يا مَعْشَرَ يهود، حتى إِذا اجتمعوا إِليه قالوا له: ويلك، ما لك؟ قال: «طلع الليلةَ نجمُ أَحمدَ الذي به وُلِد».

وكان حسانُ رضي الله عنه وقتها غُلامًا ابنَ سبعِ سنين أَو ثمانٍ، ويعقِلُ كلَّ ما سَمِعَ، كما حَدَّث عن نفسه.

وكان أَهلُ الكتابِ يعلمون أَنَّ نبيًّا من العرب قد قَرُبَ زمانُه، ويترقَّبون مولدَه، وينتظرون بعثتَهُ، ولهم في ذلك علاماتٌ، عرفوها من كتبهم، قال ابن إِسحق: حَدَّثني عاصمُ بنُ عمرَ بنِ قتادةَ عن رجال من قومه قالوا: فإِن مِمَّا دعانا إِلى الإِسلام مع رحمةِ الله تعالى وهُدَاه لنا، ما كُنَّا نسمعُ من رجالِ يهود، كنا أَهلَ شركٍ أَصحابَ أَوثان، وكانوا أَهلَ كتابٍ عندهم عِلمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شُرورٌ، فإِذا نِلْنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا: إِنه قد تقاربَ زمانُ نبيٍّ يُبعثُ الآنَ، نقتلُكم معه قَتْلَ عادٍ وَإِرَم، فكُنَّا كثيرًا ما

نسمعُ منهم ذلك، فلمَّا بُعث رسولُ الله ﷺ أجبناه حينَ دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هؤلاءِ الآياتُ من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

أيها المُؤمنون:

وُلد رسولُ الله ﷺ بين قوم هم أهلُ شركٍ وأصحابُ أوثانٍ، شاع فيهم الجهلُ، ووقعوا أسرى الأوهام والأباطيل، وكانوا قبائلَ متفرّقةً لا تجمعُهم صِلةٌ دينيةٌ، ولا مصلحةٌ اقتصاديةٌ، ولا تضمُّهم رابطةٌ سياسيةٌ، فكانوا يعيشون فى حَيرةٍ وعَمًى، وكانت الحروبُ تَتَّقِدُ نيرانُها بين قبائل الجزيرةِ عشراتٍ من السنين، من جَرَّاءِ سِباقِ حِصان، أو خيانةٍ فى رِهان، أو نحوِ ذلك من الأسباب التافهة.

ولم يكن حالُ الناسِ خارجَ الجزيرةِ العربيةِ أحسنَ مِمَّا كانت عليه حالُ العرب، فقد انتشرت الْمساوئ والْمفاسدُ فى كلّ مكان، وعمَّ الجهلُ، ونشِبَت العداواتُ، وتوارتْ الفضائلُ، وغرقَ الناسُ فى بحارِ الضلالِ، وصاروا أَسْرى الأهواءِ، حتى ضجَّت الأرضُ مِمَّا تنوءُ به من شرٍّ، وبغْى، وهمجيةٍ، وَعُدْوان.

حينئذٍ لَطَفَ اللهُ بعبادِه، فكان مولدُ الهادى الحبيبِ ﷺ إيذانًا بِميلادِ نورٍ جديد، الناسُ كانوا إليه فى لَهَفٍ شَديدٍ، كانَ مولدُه بشيرًا ببعْثِ الخيرِ الذى طال ترقُّبُه، إذْ بِمولده قَرُب أوانُ إرسالِ خاتمِ النبيِّين والمرسَلين، لينقذَ الناسَ من الضلال الذى خَيَّم على العقولِ والنفوس.

ذلك أن رسالتَه ﷺ هى الرسالةُ السماويةُ الخاتِمةُ، فلا رسولَ بعده ولا

نبيٍّ، كما أن رسالته عامةٌ للإنس من كلِّ جنسٍ، ولسانٍ، وللجنّ، ورسالتُه ﷺ هي النعمةُ التامَّةُ، إذْ تَضمَّنت خَيْرَى الدُّنيا والآخرة.

إن الله تعالى بشَّر جميعَ النبيين بظهوره ﷺ وأخذ عليهم الْميثاقَ أن يُؤمِنوا به، وَيَتَّبعوه إن هم أدرَكُوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1] [آل عمران].

رُوى أن نفرًا من أصحاب رسولِ الله ﷺ قالوا له: «يا رسولَ الله: أَخْبِرْنَا عن نفسِك؟ قال: «نعم، أنا دَعْوةُ أَبى إبراهيمَ، وبُشْرى أخى عِيسَى، ورأَتْ أُمِّى حين حملت بى أنه خرجَ منها نورٌ أضاءَ لها قُصُورَ الشَّام».

[ابن إسحاق السيرة النبوية لابن هشام رواية خالدِ بن مَعْدان الكُلاعىّ].

وتأويلُ هذا النورِ ما فتح اللهُ على الْمُسلمين من تلك البلاد، وانتشارُ الإسلامِ فى الشام، وفى غيرها من أقطار الأرضِ، فقد استضاءَت تلك البلادُ وغيرُها بنور رسالتِه ﷺ.

أَخرج البخاريُّ بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن هذه الآيَةَ التى فى القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب]. قال فى التوارة: «يَآ أَيُّهَا النَّبىُّ إنَّآ أَرسَلْنَاكَ شاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ، أَنت عبدى ورسولى، سَمَيْتُكَ الْمُتوَكِّلَ ليس بِفَظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّابٍ بالأسواق، ولا يدفعُ السيِّئةَ بالسيِّئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يَقْبِضَه اللهُ حتى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ، بأَن يقولوا: لا إِلهَ إلا الله، فيفتحَ به

---

(١) إصرى أى عهدى.

أعيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا».

فاتقوا الله - عبادَ الله - وسلوه العفو والعافيةَ فى الدنيا والآخرة، وتوبوا إليه لعله يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

لقد شَبَّ رسولُ الله ﷺ فى بيئة جاهليةٍ، ولكن الله عز وجل كلأَه بعنايتِه وحفظَه من أَقذارِ الجاهليةِ، وطهَّره من دَنَسِها، لِمَا يُريدُ به من كرامتِه ورسالته، حتى بلغَ أَنْ كان رجلًا، فكان ﷺ أفضلَ قومِهِ مروءَةً، وأَحسَنَهُمْ خُلُقًا، وأَكرَمَهُم حَسَبًا، وأَحسنَهم جِوارًا، وأَعظمَهُم حِلْمًا، وأَصدَقَهُم حَدِيثًا، وأَعظمَهُم أمانةً، وأَبعدَهُم عن الفُحْش والأَخلاقِ التى تُدَنِّسُ الرجال، تنزُّهًا وتكرُّمًا، كما كان ﷺ أَتمَّ الناسِ أَدبًا، حتى ما كان اسمُه بين قومه إِلَّا الصادقَ الأَمينَ، لِمَا جَمَعَ الله فيهِ من الأُمور الصالحةِ والأَخلاقِ العاليةِ الفاضلةِ.

إِنَّ الحبيبَ الهادى ﷺ بعثه الله على فترةٍ من الرسل؛ فترةٍ ضَلَّ فيها الناسُ، وفقدوا رشادَهم، وهاموا فى أَودية الأَباطيلِ، فاصطفاه ربُّه واختاره من بين خلقه، ليُبَلِّغَهُم آخرَ كتبِهِ، ويَهديَهم بآخرِ شرائعِه، فكانَ ﷺ النورَ للضالين الحيارَى، بصَّرَهُم سبيلَ النجاةِ وطريقَ الحقِّ والفلاح، وكان الرحمةَ الْمُهداةَ للعالمين، للذين قاسُوا فى حياتهم من الشدائد والأباطيل، فَأَنقذهم الله به، فعرفوا ربَّهم وعبدوه، وعرفوا الخيرَ وأَحبُّوه، وآمنُوا بالحقِّ ونصروه، وقدَّروا العدلَ ورفعوا منارَه، وأَدركوا قيمةَ العِلم وبَنَوْا صروحَه، وعاشوا على الحبِّ والإِخاءِ والسلام.

صلاةُ اللهِ ورحمتُه وبركاته على رسول الحبِّ والحقِّ والخيرِ والهدى.

* * *

* * *

من وفاء الصحابة رضى الله عنهم:

وكما كان مولدُه ﷺ يوم الاثنين، فكذلك كانت وفاتُه، وقد عبَّر عن ذلك الصحابىُّ الجليلُ حسانُ بنُ ثابت رضي الله عنه فى أبياتٍ، منها قولُه يعبِّر عن وفائه وحبِّه:

بأَبى وأُمِّى مَن شَهِدتُ وفاتَه ... فى يوم الاثنَيْن النبىُّ المُهْتدي
يابِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكِ بِكْرُها ... ولَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأسعُدِ
نُورًا أضاء على البَرِيَّةِ كُلِّها ... مَن يُهْدَ للنورِ المُباركِ يَهتَدِي
يارَبِّ فاجْمَعْنا معًا ونَبِيَّنا ... فى جَنَّةٍ تَثْنى عُيونَ الحُسَّدِ
فى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فاكتُبْهَا لنا ... ياذا الجلالِ وذا العُلا والسُّؤدَدِ
صلَّى الإلهُ ومَن يَحُفُّ بعَرْشِه ... والطيبونَ على المُبارَكِ أحمد

ﷺ وعلى آله وأصحابه وأحبابه. . .

* * *

* * *

للدرس:

الأحبار يبشرون بقرب مولده ﷺ:

من ذلك ما حَدَّثَ به سلمةُ بنُ سلامةَ الأنصاريُّ رضي الله عنه قال: كان لنا جارٌ يهوديٌّ، فخرج علينا يومًا من بيته، حتى وقف فى جمعٍ من الناس، وأنا يومئذ مِنْ أحْدَثِ مَنْ فيهم سِنًّا، فذكر اليهوديُّ القيامةَ والبعثَ والحسابَ والميزانَ والجنةَ والنار.

قال سلمةُ: فقال ذلك لقوم أهلِ شِركٍ وأوثانٍ، لا يرون أن بعثًا كائنٌ بعدَ الموت، فقالوا له: وَيْحك يا فلانُ، أو تَرَى هذا كائنًا؟ قال: نعم. فقالوا له: ويحك يا فلانُ، وما آيةُ ذلك؟ قال: نبيٌّ مبعوثٌ من نحوِ هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكةَ واليمن. فقالوا: ومتى نراه؟ قال سلمةُ: فنظر إليَّ وأنا من أحدثِهم سنًّا، فقال: إنْ يَسْتَنْفِذْ هذا الغلامُ عُمرَه[1] يُدركْهُ.

قال سلمةُ: فَوَ اللهِ ما ذهب الليلُ والنهارُ، حتى بَعَثَ اللهُ محمدًا رسولَ الله ﷺ، واليهوديُّ حيٌّ بينَ أظهرنا، فآمنَّا به، وكفر به بغيًا وَحَسَدًا.

ولما حاصر الرسولُ ﷺ بنى قُريظةَ - مُنْصَرَفَه من غزوة الخندق - قال جماعةٌ من شبابهم: يا بنى قُريظةَ، واللهِ إنه لَلنَّبيُّ الذى كان عَهِد إليكم فيه ابنُ الْهَيَّبان. فقالوا: ليس به. قالوا: بلى واللهِ، إنه لهو بصفته، فنزلوا، وأسلموا وأحرزوا دماءَهم وأموالَهم وأهليهم.

وابنُ الْهَيَّبانِ هذا عالِمٌ صالحٌ من يهودِ الشام، قَدِمَ على المدينةِ المنورة قُبيل الإسلام بسنين، ثم لمَّا حَضَرَتْه الوفاة قال: يا معشرَ يهود، ما ترونَه أخرجنى من أرضِ الخمرِ والخمير إلى أرض البؤسِ والجوع؟ قال الراوى وهو من يهود المدينة: قلنا: إنك أعلمُ. قال: فإنى قد قَدِمتُ هذه البلدةَ أنتظرُ خروجَ نبيٍّ قد قَرُبَ زمانُه، وهذه البلدةُ مُهَاجَرُه، فكنتُ أرجو أن يُبْعَثَ فأتبعَه، وقد أظلَّكمْ زمانُه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشرَ يهود، ثمَّ ذكر لهم شيئًا من علامات نبوّته ﷺ. [سيرة ابن هشام].

* * *

---

(١) إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه: المقصود إن يعش هذا الغلام العمر الذى هو متوسط أعمار جيله وكان ما بين الستين والسبعين فإنه يرى النبى محمدًا ﷺ.

٤٥ - الصلاة على النبى ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

أيها الْمُؤمنون:

صلاةُ اللهِ على نبيه: ثناؤه عليه عند الملائكةِ الْمُقرَّبين، ورحمتُه به وفضلُه عليه.

وصلاةُ الملائكةِ عليه: دعاؤُهم واستغفارُهم له.

ومَعنَى قولِنا: اللهمَّ صلِّ على محمد: عَظِّم - يا ربِّ - محمدًا.

والْمُرَادُ تعظيمُه فى الدنيا بإعلاءِ ذِكرِه، وإظهارِ دينِهِ، وإبقاءِ شريعتِهِ، وفى الآخرة بإجزالِ مَثوبتِهِ، وتشفيعِهِ فى أُمته، وإبداءِ فضيلتهِ بالمقام المحمود.

والله عز وجل شرَّف نبيَّه محمدًا ﷺ، وأعلى منزلتَهُ، فهو سيدُ وُلْدِ آدمَ وخاتَمُ النبيين، وإمامُ الْمُتقين، وهو أفضلُ أُولى العزمِ من الرسل، وإمامُ الأَنبياءِ إذا اجتمعوا، وهو صاحبُ الْمَقام المحمود، الذى يَغْبِطُه به الأَوَّلون والآخِرون، وصاحبُ لواءِ الحمد، وصاحبُ الحوضِ المورود، وشفيعُ الخلائقِ يومَ القِيامة، وصاحبُ الوسيلةِ والفضيلةِ ؛ الذى بعثَه رَبُّه بأَفضلِ كُتبِهِ وشَرَعَ له أَفضلَ شرائعِ دينِه، وجعل أُمتَه خيرَ أُمةٍ أُخرجت للناس، وجَمع له ولأُمته من الفضائل والمحاسنِ ما فَرَّقه فيمَن قبلهم، وهو القائل: «أَنا أَولُ من تَنشقُّ عنه الأَرض، فأُكْسَى الحُلَّةَ من حُلَلِ الجَنَّةِ، ثمَّ أَقومُ عن يمين العرشِ، فليس أَحدٌ من الخلائقِ يقومُ ذلك المَقَامَ غيرى». وقال ﷺ: «إنى آتى بابَ الجنةِ فأَستفتحُ، فيقول الخازنُ: مَن أَنت؟ فأَقول: أَنا محمدٌ فيقول: بك أُمِرْتُ أَلا أَفتحَ لأَحدٍ قبلك». [رواه ثابت وجاء بمعناه عند مسلم عن أنس].

والآيةُ الكريمةُ السابقةُ شرَّف اللهُ بها رسولَه محمدًا ﷺ حياتَهُ وموتَهُ وذكَر

مَنزِلتَه عندَه فى الملإِ الأعلى، بأنه سبحانهُ يُثنى عليه عند الملائكةِ المقرَّبين، وأن الملائكةَ تُصلّى عليه، ثمّ أَمر الله تعالى أَهلَ الأَرضِ بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أَهل العالَمَيْنِ العُلوىّ والسُّفْلى جميعًا.

أيها الْمُؤمنون:

فى الآية الكريمةِ يأمرُ الله عبادَه الْمُؤمنين بالصلاة والتسليم على نبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وعن كَعْبِ ابنِ عُجْرَةَ أَنَّ الصحابةَ سأَلوه ﷺ: قد عَلِمْنا كيفَ نُسَلِّمُ عَليك، فكيفَ نُصَلّى عليك؟ قال: «قُولُوا: اللهمَّ صَلِّ على مُحمَّدٍ وعَلى آلِ مُحمدٍ، كما صَلَّيتَ على - آلِ - إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد، وَبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على - آلِ - إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيد». [مسند الإمام أحمد وغيره].

والصلاةُ على النبىّ ﷺ فرضٌ على المكلَّف فى العُمر مرةً، وهى فى كل حين من السُّننِ التى لا يَصِحُ تركُها، ولا يُغْفِلُها إلَّا مَن لا خيرَ فيه، وقد جاءَ فى الحديث أَن جبريلَ عليه السلام قال له: «إنَّهُ مَن ذُكِرْتَ عِنْدَه فَلم يُصَلِّ عليكَ فأَبْعدَهُ اللهُ وأَسْحَقه». [من رواية ابن عباس عند الطبرانى].

ومن حقِّ الرسولِ الحبيبِ ﷺ علينا أَن نُطيعَه، وأن نأْخذَ عنه، ونَقتدى به، وأَن نوقِّرَه، ونُكثرَ من الصلاةِ عليه، وقد نَبَّهَ العلماءُ إلى أنه لا يفوتُ المسلمَ الصلاةُ عليه فى كل مجلسٍ مرةً على الأَقل، وقد أَخبرنا الحبيبُ المصطفى ﷺ أَن القومَ إذا جلسوا مجلسًا لم يذكروا اللهَ فيه، ولم يُصلُّوا على نبيِّه، فإن هذا المجلسَ يكون حَسرةً عليهم يومَ القيامة، ومن ذلك قوله ﷺ: «ما جلسَ قومٌ مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يُصلُّوا على نبيهم، إلَّا كان عليهم تِرَةً، فإن شاءَ عذَّبهم، وإن شاءَ غَفر لهم».

[رواه أبو هريرة وأخرجه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن].

وتِرَةٌ: أى حَسْرةٌ ونقصان وتَبِعَةٌ.

وإذا أراد المسلمُ الدعاءَ نُدِبَ له أن يصلى على النبى فى أول الدعاءِ وآخرِه، وقد جاءَ عن عليّ رضى اللهُ عنه قولُه: «كلُّ دعاءٍ مَحجُوبٌ حتى يُصَلَّى على محمدٍ ﷺ». وقد جاء عن عمرَ مثلُه: أن الدعاءَ موقوفٌ بين السماءِ والأرض، لا يصعدُ منه شيء، حتى تُصلِّى على نبيك ﷺ. [أخرجه الترمذى].

وتتأكدُ الصلاةُ عليه ﷺ عندما يَجرِى ذِكْرُه.

قال الحبيبُ الهادى ﷺ قال لى جبريلُ عليه السلام: «مَن ذُكِرْتَ عِنده فَلَم يُصلِّ عَليكَ، فماتَ فدخَلَ النار، فأبعده الله». [عند ابن حبان من رواية أبى هريرة].

وفى الحديث الذى رواه الحسين عن أبيه رضي الله عنهما وأخرجه النسائى والترمذى وغيرهما: «البخيل مَنْ ذُكِرتُ عنده ثمَّ لم يُصَلِّ عليّ». وفى رواية: «بحسْبِ امرئٍ من البُخل أن أُذْكَرَ عنده فلا يُصَلِّى عليَّ». [حديث مرسل رواه الحسن].

وفى هذا وردت الأحاديثُ التى تدلُّ على وجوب الصلاةِ عليه ﷺ كُلَّمَا جَرَى ذِكْرُه، وهو مذهبُ طائفةٍ من العلماءِ.

ومِمَّا يؤكِّد عِظَمَ فضْلِ الصلاةِ على الحبيب الهادى ما رواه ابنُ مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إنَّ أَولَى الناسِ بى يومَ القِيامة أكثرُهم صلاةً عليَّ».

[أخرجه الترمذى وابن حبان].

ويقول عبدُالله بنُ عمرو رضي الله عنهما: «مَنْ صَلَّى على النبيّ ﷺ واحدةً صَلَّى اللهُ عليه وملائكتُه سَبعِين صَلاةً». [أخرجه أحمد بإسناد حسن].

ومعنى هذا أن المُصلِّى على الرسول محمدٍ ﷺ تَفيض عليه الرحماتُ من الله عز وجل، ما دام مُشتغلًا بهذه الصلاة، ثمّ إن الملائكةَ تُصلى على مَنْ صلَّى على النبيّ ﷺ فتدعو له بصالح الدعوات، ورفيعِ الدرجات، وغُفرانِ الذنب، وسَترِ العيب، وتفريجِ الكرب، كما تدعو له أن يَلحقَ به فى جناتِ

الفِردوس فى درجته الصالحُ من آبائه وأزواجِهِ وأبنائه وأحفادِه كما جاءَ فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨﴾ [غافر].

ومِمَّا ينبغى أن يلتفتَ إليه المُسلمُ - يا أحباب رسول الله - الصلاةُ على النبىّ ﷺ بعد النداءِ للصلاة، فعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو قال: إنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا سَمِعتُم مؤذِّنًا فَقُولوا مثلَ ما يقول، ثمّ صَلُّوا علىَّ، فإنه مَن صَلَّى عَلىَّ صلاةً - أى واحدةً - صَلَّى اللهُ بها عليه عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِى الوسِيلَةَ، فإنها مَنزِلةٌ فى الجنَّة لا تَنبغى إلا لعبدٍ من عبادِ اللهِ، وأرجُو أن أكونَ أنا هو، فمَنْ سأَل لِى الوَسِيلةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعةُ» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى].

وفى مُسندِ الإمامِ أحمدَ التنبيهُ على الصلاة على النبىّ ﷺ عند دخولِ المسجدِ والخروج منه، ورَوَى فى ذلك حديثًا عن فاطمةَ رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا دخلَ المسجدَ صلَّى على محمدٍ وسلَّم وقال: «اللهمَّ اغْفِرْ لى ذُنوبى، وافتَحْ لى أَبوابَ رَحْمتِك»، وإذا خَرَجَ من المسجدِ صلَّى على محمدٍ وسلَّم وقال: «اللهمَّ اغفِرْ لى ذُنوبى وافتحْ لى أَبوابَ فضلك». وعند ابن أبى حاتم: «كما صلَّيت على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ، وكما باركْتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيدٌ».

وفى التشهد الأخيرِ من الصلاة يُسَنُّ أن نُصَلِّىَ على النبىّ ﷺ وجمهورُ العلماءِ على أن الصلاةَ عليه فى التشهُّد الأخيرِ سُنَّةٌ مُستحبَّةٌ، ما عَدَا الشافعىّ فله قولٌ بوجوبها، وأَوجَبَ على تاركها فى الصلاةِ الإعادةَ.

وهذا رأى قال به الشافعىُّ رحمه الله، وبه قال إسحاقُ بنُ رَاهَوَيه إذا تعمَّد

المُصَلِّى تَرْكَها دُونَ نِسيانٍ.

فأكثِروا من الصلاة على الحبيب الْمُصطفى، وسَلُوا الله أن يجعلَه شفيعَنا يومَ الدينِ وأن يرزقَنا حُسنَ الاقتداءِ به، واتقوا الله وتوبوا إليه لعله يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

ومعلومٌ - يا أهل الإيمان - أننا فى صَلاةِ الجنازَةِ نُصلِّى على النبىِّ ﷺ بعد التكبيرة الثانية.

ومِمَّا تجدرُ الإشارةُ إليه أنه يُستحَبُّ الإكثارُ من الصلاة على النبىِّ ﷺ يومَ الجمعةِ وليلةَ الجمعة، قال ﷺ: «من أَفْضلِ أيامِكُمْ يومُ الجمْعَةِ؛ فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه قُبض، وفيه النَّفْخَة، وفيه الصَّعْقَة، فأكْثِرُوا علىَّ من الصلاةِ فيه، فإن صَلاتكم مَعْروضةٌ عَلىَّ».

[رواه أوسُ بنُ أوس رضي الله عنه وأخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما].

وزاد البيهقى من رواية أبى أمامة «فَمَن كانَ أكثرَهُم عَلىَّ صلاةً، كانَ أقرَبَهُم منِّى مَنْزِلةً».

وعن أبى هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَجْعلُوا بُيوتَكُم قُبورًا، ولا تَجعلُوا قَبرى عِيدًا، وَصَلُّوا عَلىَّ فإنَّ صَلاتَكُم تَبلغُنِى حَيثُما كُنتُم».

[أخرجه أبو داود بإسنادٍ صحيح].

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسولَ الله ﷺ قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ مُسلمٍ لم يكنْ عِنده صَدَقةٌ فَلْيقُلْ فى دعائه: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى محمدٍ عَبدِكَ ورَسُولِكَ، وصَلِّ على الْمُؤمنينَ والْمُؤمناتِ والْمُسلمينَ والْمُسلماتِ، فإنها زَكاةٌ». وقال: «لا يَشْبَعُ مؤمنٌ خيرًا حتى يكونَ مُنتَهاهُ الجنةَ». [أخرجه ابن حبان].

فاللهم اجعلنا من أهلها.

* * *

فوائد للدرس:

صلاةُ الجنازة: أربعُ تكبيراتٍ، ويقرأ بفاتحة الكتابِ بعد التكبيرة الأولى، ثم يُكبر الثانية فيصلِّى على النبىِّ ﷺ[١]، ثم يُكبر الثالثة فيدعو للميت، وبعد التكبيرة الرابعة يُسَنُّ الدعاء كأن يقول: «ربَّنا آتِنا فى الدنيا حَسنةً وفى الآخرة حَسنةً وَقِنا عَذابَ النار». أو «اللهُمَّ لا تَحرِمْنا أجْرَهُ ولا تَفْتِنَّا بعده». بعدها يسلم تسليمةً واحدةً عن يمينه، ويرفعُ الإمامُ يديه حَذْوَ مَنكبيه بعد التكبيرةِ الأولى فقط.

ومن الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة: «اللهمَّ اغفِرْ له، وارحَمْهُ، وعَافِه واعفُ عنه، وأكْرِمْ نُزُلَهُ ووَسِّعْ مَدْخَلَهُ، واغْسِلْهُ بماءِ الثلْجِ والبَرَدِ، ونَقِّهِ مِنَ الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس، وأبْدِلْهُ دارًا خيرًا من دارِه، وأهلًا خيرًا من أهلِهِ وأَدْخِلْهُ الجنةَ، وَقِهِ فتنةَ القبرِ وعذابَ القبر».

[رواه عوفُ بن مالك وأخرجه مسلم].

ومن الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة أيضًا كما عند مسلم وأصحابِ السنن من رواية أبى هريرة: «اللهُمَّ اغْفِر لحيِّنا، وميِّتنا، وشاهِدِنا، وغائبِنا، وصغيرنا، وكبيرِنا وذَكَرِنا، وأُنثانا، اللهُمَّ مَن أحْيَيْتَه مِنَّا فأَحْيِه على الإسلام، ومَن توفَّيْتَه منا فتوَفَّه على الإيمان، اللهُمَّ لا تَحْرِمنا أجْرَه، ولا تُضلَّنا بعده».

ومن الدعاء له أيضًا كما فى الموطأ عن أبى هريرة: «اللهُمَّ إنه عبدُك، وابنُ عبدِكَ، وابنُ أَمَتِكَ، كان يشهدُ أن لا إلهَ إلا أنتَ، وأنَّ محمدًا عبدُك ورسولُك، وأنت أَعْلَمُ به، اللهُمَّ إن كان مُحسِنًا فَزِدْ فى إحسانه، وإن كان مُسيئًا، فتجاوزْ عن سيِّئاته، اللهُمَّ لا تَحرِمنا أجْرَه، ولا تَفتِنَّا بعده».

ويجب الإخلاصُ فى الدعاء لأموات المسلمين كما أوصَى الحبيبُ الهادى ﷺ ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «إذا صَلَّيتمُ على الميِّت فأَخلِصُوا له الدعاءَ».

[أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان].

---

(١) وهى صلاتُه عليه بِصيغتها فى التشهُدِ الأخير من الصلاة (الصلاة الإبراهيمية).

٤٦ - الهجرة النبوية الشريفة
كانت نصرًا وفتحًا وآية عظيمة

أمّا بعد:

فقد قال الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

يا أهل الإيمان:

لقد بَعَثَ اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ هاديًا ورحمةً، على حينِ فَترةٍ من الرسُل واعتزام من الفِتَن، وانتشارِ الضلالِ، وقد تَخبَّط الناسُ فى عَمياء، وتَحيَّروا فى جهالاتِ الفِكْر والعَصَبيات، وتَرَدَّوْا فى مَهاوِى الشركِ والإلحاد.

أوحَى الله إلى نبيِّه الكريمِ ﷺ وهو فى الأربعين من عُمرِه الشريفِ المُباركِ وأمرَه بالدعوة إلى الخير والحقِّ والْهُدَى، وأمدَّهُ بالبراهين الساطعةِ الدالةِ على وحدانية اللهِ عز وجل، فخاطَبَ ﷺ العقلَ والقلبَ، ودعا إلى اللهِ بالرِّفْق واللِّين والحِكمة، وأقام الدلائلَ على بُطلان الشركِ وبطلان عبادةِ غيرِ الله عز وجل، وكان ﷺ فى أولِ الأمرِ يدعو مَن يأنسُ فيه الخيرَ من أهل مكةَ المكرَّمةِ سِرًّا، ويعرضُ أمرَه على من يتوسَّمُ فيهم العقلَ وسلامةَ النفس كأبى بكرٍ الصدِّيق ﷺ، ومضى يدعو إلى الله سِرًّا نحو ثلاثِ سِنين، من مَبعثِه حتى فشا ذِكرُ الإسلام فى مكةَ، واعتنقه عددٌ من الرجال والنساء وتحدَّث الناسُ عنه.

ثم أمر اللهُ عز وجل رسولَه ﷺ بأن يُبلِّغَ عَشِيرتَه الأقربين، ويدعُوَهُم إلى التوحيد، ونَبْذِ الأوثان قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

فجمعهم ﷺ وحثَّهم على إنقاذ أنفسِهم من النار، بالدخول فى دين اللهِ عَزَّ وجل، فمنهم مَن لان قلبُه، ومنهم من حَسَد وكابرَ وعاندَ.

ثم أمره الله سبحانه أن يَصْدَع بِما جاءه من الله، وأن يُنادِى فى الناس جَميعِهم بدعوة الحقِّ والهُدى والخير فقال له: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر].

ومَضى رسولُ اللهِ ﷺ يُظهِرُ دينَ الله، كما أَمَرَهُ ربُّه، ويحثُّ القومَ على الدخول فيه لتخليص مُهَجِهم من عذابِ الله، ولتحقيق الاستقرارِ والخيرِ لأنفسهم فى الدنيا، حتى اشتدَّ الأمرُ بينه وبينهم، وبَقِى على ذلك نحو عشرِ سنين، يدعُو إلى اللهِ بالحِكْمِة والْموعظةِ الحسنةِ، صابرًا على الأذى يُصِيبُه فى نفسِه، وفى أصحابِه.

وكانت قريشُ حين يُقبلُ العربُ على مكةَ فى المواسم، تقتسمُ سفهاءُ قريش مَداخِلَ مكةَ؛ ليُخوِّفوا الوافِدين إليها منه ﷺ، وليحضُّوهم على عَدَم الاستماع إليه، فكان ذلك سببًا فى انتشار أمرِ رسولِ الله ﷺ فى العرب، وقد عَلم الأوسُ والخزرجُ بالمدينة المنوَّرَةِ بنبأ ظهورِ النبىِّ العربىِّ، الذى كانت تتحدثُ عنه أحبارُ اليهودِ بالمدينة، ويُشيرون إلى قُربِ مَبعثِه ﷺ، وتَطلَّع عربُ المدينة إلى لقائِه، والاستماع إليه.

عرَضُ الدعوةِ على القبائل فى المواسم:

وفى المواسم حين يَفِدُ العربُ إلى مكةَ أخذ رسولُ اللهِ ﷺ يَعرِض نفسَه عليهم؛ يَدعوهُم إلى الله، ويُخبرُهم أنه نبىٌّ مُرسَل، ويسألُهم أن يُصدِّقوه ويَمنعُوه، ويكونوا فى نُصْرته، ثم أراد اللهُ عز وجل أن يَلْقَى رَهْطًا من الخزْرَج أهلِ المدينة، أراد اللهُ بهم خيرًا، فعرَض عليهم الإسلامَ، وتلا عليهم القرآنَ فشرح اللهُ صُدورهم، وعادوا إلى المدينةِ وقد آمنُوا وصَدَّقوا، قائلين:

سَنعرِضُ على قومِنا الذى أجَبْناكَ إليه من هذا الدِّين، فإن يَجمعْهُم اللهُ عزَّ وجل بفضل هذا الدِّين، فلا رَجُلَ أعزُّ منك، وفى العام التالى بايع اثنا عشَرَ رجُلًا من الأنصار بيعةَ العقبةِ الأولى، وعادُوا إلى المدينة ومعهم الصحابىُّ الجليلُ مُصعَبُ بنُ عُمَير يُعلِّمهُم ويُفقِّههُم فى الدين، وَيقْرِئُهم القرآن.

وفى موسم العامِ الذى تلاه، وهو العامُ الثالثَ عشَر من البَعْثَة اجتمع عند العقَبةِ ثلاثةٌ وسبعونَ رجلًا من الأنصار، ومعهم امرأتان، وتكلَّم معهم الحبيبُ المُصطفى ﷺ، ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآنَ، ورغَّبهم فى الإسلام وفى هذا اللقاءِ تمتْ بيعةُ العقبةِ الثانيةِ على النُّصرة، وعلى أن يمنعُوهُ مِمَّا يمنعُون منه نساءَهم وأبناءَهم، إذا هو هاجر إليهم، واختار المدينةَ على ما سِواها، كما عاهدهم ﷺ على أن يُسالمَ مَن سالمهم، وأن يُحاربَ مَن حاربَهم، وبذلك صار فى المدينة أنصارٌ وأعوانٌ على الحق، وأمر رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه مِمَّن كان هاجَر إلى الحبشة، ومِمَّن كان معه بمكةَ بالخروج إلى المدينة، والهجرةِ إليها، واللحوقِ بإخوانهم الأنصار، فى دارٍ يأمنون فيها على أنفسهم، بعد أن صَبروا على الأذَى ابتغاءَ ما عند اللهِ من الرحمة والثواب.

وأقام رسولُ الله ﷺ بمكةَ ينتظرُ أن يأذنَ الله له فى الخروج من مكةَ والهجرةِ إلى المدينة، ولم يتخلَّف معه أحدٌ بمكةَ إلا مَن حُبس ولم يَقدِر على الخروج أو فُتِن، كما بقى معه علىُّ بنُ أبى طالب، وأبو بكرٍ الصديق رضي الله عنهما.
خافت قريشُ من خُروج الصحابةِ إلى المدينة، ومن انتشار الإسلامِ فيها، فَحَذِروا خروجَ رسولِ اللهِ ﷺ إليهم، وخافوا اجتماعَ كلمةِ الأنصارِ والمُهاجرين، مِمَّا يُهدِّدُ الشرْكَ فى جزيرة العرب، فالتقَى رؤساءُ المُشركين وزعماءُ القبائل لذلك فى دارِ النَّدْوةِ بمكةَ، يَتشاورون فى الأمر، ويُدِيرُون الرأى فِيمَا يصنعون، وَلَدَيْهم المالُ، والكثرةُ، والقوَّةُ وتوافرت لديهم كلُّ

الوسائل الماديةِ التى بها يُحققون ما يَجتمعُ عليه رأيُهم.

رأى بعضُهم: أن يَحبسوه ﷺ فى الحديد، ويُغلقُوا عليه بابًا حتى يأتى أجلُه، ولكنهم خَشوا أن يَغضبَ بنو هاشم، ويقوموا بإخراجِه، وتَحدُثُ الفتنةُ فى مكة.

وقال آخر: بل نُخرِجُه من بين أظهُرِنا، ونَنفيه من بلادنا، وبَعدها لا نُبالى أين يذهبُ، ولا حيثُ وقع، إذا غاب عن مكةَ، ولكنهم رَأَوْا أنَّ صِدْقَه وحَلاوةَ كلامِه يجمعُ القلوبَ حولَه، فلا يأمنون أن يعودَ إلى مكةَ فاتحًا بِمن يجتمعُ حوله من قبائلِ العرب.

ولم يَلْقَ الرأيان قبولًا، فقال أبو جهل: أرى أن نأخذَ من كلِّ قبيلةٍ فتًى شابًا جَليدًا نَسيبًا وسيطًا فينا - شريفًا - ثم نُعطى كلَّ فتًى منهم سيفًا صارمًا، ثم يَعمِدوا إليه فيضربوه ضربةَ رجلٍ واحد، فيقتلوه، فيتفرقَ دَمُه فى القبائل، فلا يَقدر بنو عبدِ منافٍ على حربِ قومِهم جميعًا، وعندئذٍ يرضَوْن مِنَّا بالعقْل - أى قبولِ الدِّية - فَنَعْقِلُه لهم.

فارتاح القومُ لهذا الرأى، وتفرَّقوا، وهم مُجمِعون على قتْل رسولِ الله ﷺ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وأبطَلَ اللهُ سَعْيَهم وعصمَ نبيَّه وكرَّمه، وشرَّفه، ونصره وحَفِظه.

وأذِن اللهُ لنبيه بالهجرة إذ جاءه جبريلُ عليه السلام فقال له: يا رسولَ الله: لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فِراشك الذى كنتَ تَبيتُ عليه.

وفى عَتمةٍ من الليل رآهم رسولُ الله ﷺ على بابه يَرصُدونه متى ينام؟ فقال لعليِّ بنِ أبى طالب: نَمْ على فراشى وتَسَجَّ بِبُرْدي[1] هذا الحضْرَمى الأخضر،

(١) أمَرَهُ أن يجعل غِطاءَه فى هذه الليلة ثيابه ﷺ، وهو كساءٌ من صُنع اليمن وجَمْعُ البُرْد - بسكون الراء - بُرَد - بفتح الراء.

فَنَم فيه، وأمره بردِّ ودَائع الناسِ إلى أصحابها.

وخرج الهادى الحبيبُ ﷺ وفى يده حَفْنَةٌ من تُراب، وقد أخذ اللهُ على أبصارهم عنه، فلا يَروْنَه، وجعل يَنثرُ ذلك الترابَ على رؤوسهم وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس] إلى قوله تعالى ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

ثم انصرف رسولُ الله ﷺ، فى وقاره، وسكينتهِ، وطمأنينةِ قلبهِ إلى حيث أراد اللهُ له أن يذهبَ، وفى التذكير بهذه النعمةِ لتزدادَ النفسُ المُطمئنةُ إيمانًا، وليعتبرَ أولو الأحلام والنُّهَى نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال].

فى الغار:

فوّضَ أمرَه إلى الله، فصَحِبتْه العنايةُ الإلهيةُ، حتى خرج هو وأبو بكرٍ الصديق فوصَلا إلى غارٍ بجبلِ ثَورٍ فدخلاه ليلًا، فدخل الصديقُ رضي الله عنه قبلَ رسولِ اللهِ ﷺ، يتلمسُ الغارَ لينظرَ: أفيه سَبعٌ أو حَيَّةٌ يَقِى رسولَ الله ﷺ بنفسه، ومَكَثا فى الغار ثلاثةَ أيام فى أَمْنٍ وأمانٍ.

وبادر المُشركون إلى تَعقُّب آثارِهما حتى انقطعت عند فَم الغار، ولكنَّ أمرَ هذا الغارِ حَيَّرَهُم، فقد غَشَّتْهُ خيوطُ بيتِ العنكبوتِ، وعلى بابه عُشُّ حمامةٍ هانئةٍ هادئةٍ، فكيف يُمكنُ أن يدخلَه إنسانٌ؟.

وخَشِى أبو بكرٍ رضي الله عنه على حبيبه ﷺ فقال: يا رسولَ الله، لو نظر أحدُهم تحت قَدَمَيْه لرآنا، فسكَّن الرسولُ ﷺ قلبَه «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما..» ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وسكنتْ رِيحُ الكفَّار، وفَشِلوا، وغَشَّاهم كَربٌ وهَمٌّ عظيمٌ.

فأكثروا من الصلاة على الحبيبِ الهادى وعلى آله وأصحابه واتباعه، واتقوا اللهَ - عبادَ الله - واطلبوا نَصْرَه وتأييدَه لدينه، واستغفروه يغفرْ لكم، إنه سميعُ الدعاءِ.

* * *

للخطبة الثانية:

ولقد صارت الهجرةُ الشريفةُ مصدرًا للعِبَر والآيات، وإحدى معجزاتِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ الدالةِ على صِدْقِه، وأنه مُبَلِّغ عن ربِّه، وكانت الهجرةُ الشريفةُ بدايةَ مرحلةٍ عاليةِ الشأنِ فى تاريخ بناءِ أمةِ الإسلام.

وفَرِحَ أهلُ المدينةِ باستقبال الحبيب المُصطفى، وغَمَرَهُم سرورٌ عظيم واستبشروا بِمَقْدَمِه المُبارك، وفى المدينة المُنوَّرةِ بدأ بناءُ دولةِ الإسلام دولةِ الحقِّ والنور، والعلم والعدل، والإخاءِ والهُدى.

وفى الحديث القدسى: «ابنَ آدمَ اطلُبنى تَجِدنى، فإن وجَدْتَنى وجدتَ كلَّ شىء، وإن فُتُّكَ فاتَك كلُّ شىء، وأنا أحَبُّ إليكَ من كلِّ شىء».

وفى الحديث النبوى الذى رواه ابن عباس: «احْفَظِ اللهَ يَحفظْك، احْفظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَكَ». [الترمذى].

أيها المُؤمنون:

إنه ﷺ سيدُ المُتقين، وقدوةُ عبادِ اللهِ الصالحين، حَفِظَ اللهَ فحَفِظَه، واتقى اللهَ وأخلصَ له، فوقَاه اللهُ كيدَ الماكرين، وجعل له «فُرقانًا» أى مَخرجًا من الشِّدَّةِ، ونَجاةً من المَكيدةِ ونَصَره على عَدوِّه، بأن كَبَتَهُم اللهُ وأبطل كيدَهم، وأراهم آياتٍ بيِّناتٍ من ضَعْفِ الإنسانِ، وكمالِ قُدرةِ الخالقِ العظيم.

لقد كانت أخلاقه الزكيَّةُ ﷺ آيةً على صِدْقه وبُرهانًا ساطعًا على أنَّ ما جاءهم به هو من عند الله عزّ وجل، فما جرَّبوا عليه كذبًا، وكان ﷺ طَوَالَ حياتِه مَوضِعَ احترامِ جَميعِ أهلِ مكة وتقديرهم، وما كان اسمُه فيهم إلا الصَّادقَ الأمينَ، وكانوا يَعرفون فيه السكينةَ والوقارَ والحِكمةَ وبُعدَ النظر، وقد حَكَّموه وهو فى رَيْعَانِ شبابِه فى أشدِّ الأزماتِ، وأودَعُوا صَدْرَه الشريفَ أسرارَهم، ووضعُوا عنده أعزَّ وأغلَى أماناتِهم، فلمَّا جَهر ﷺ بالدعوة ورغَّبهم فى الدخول فى الإسلام، وفى تَرْكِ ما هم عليه من عقائدَ سخيفةٍ، لا يقبَلُها العقلُ السليم، حسده ذَوو الرياسةِ فيهم، وأجمعوا على خِلَافِه وعَداوَته إلا مَن عَصم اللهُ تعالى منهم بالإسلام، وهم قليلٌ مُستَخْفُون.

ولقد كان لسانُ حالِه ﷺ وحالِ أصحابه: صَبْرًا صَبْرًا إنَّ موعدَكم الجنةُ بإذن الله، فمن اتَّقى اللهَ، وأطاع أمرَه، وأحْسنَ التوكُّلَ عليه وحده فإن العاقبةَ له بإذن اللهِ وفضْلِه، وأمامَ إغرائِهم له، أوْ وَعيدِهم وتَهديدِهم كان ﷺ يقول: «واللهِ لوْ وَضَعُوا الشمسَ فى يمينى، والقمرَ فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمرَ ما تركتُه، حتى يُظهِرَه اللهُ، أو أَهلِكَ دُونَه».

وكانت قريشٌ لخوْفها من دخول الناسِ فى الإسلام يَضربون لرسولِ الله ﷺ الأمثالَ فيقولون عنه تارةً: ساحرٌ. وتارةً: شاعرٌ. كما قالوا: كاهنٌ، ومجنونٌ. ورَمَوْه بالكذِب، وهم فى كلِّ ذلك لم يُصدِّقوا أنفسَهم، ولم يَقبل هذا الكلامَ أحدٌ مِمَّن عَرَفه، أو خالطَه، أو لَقِيَه وتحدَّث إليه، أو سمع منه، لِمَا يعلمون عنه من تَمام العقلِ، وكمالِ الفِطْنةِ، والصِّدقِ والأمانة، قال الله لنبيِّه مسلِّيًا: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء].

إن الهجرةَ النبوية – يا أهلَ الإيمان – لم تكن فِرارًا بل كانت انتصارًا؛ لأنها

كانت انتقالًا بالدعوة إلى آفاقٍ واسعةٍ، وإلى مجالٍ تأمنُ فيه الدعوةُ على نفسِها، وليستطيعَ المُؤمنون أن يجدوا تُربةً طيبةً تنمو فيها شجرةُ التوحيدِ.. ويبنوا دولَةَ الإيمان، بعد فترةِ التمحيصِ والاختبارِ التى نَجَحَ فيها المُهاجرون وخَرجوا منها أَقوى عَزْمًا، وأَشدَّ صَلَابةً، وأَصلبَ عُودًا، وكانوا مع إخوانهم الأنصارِ جندَ الحقِّ، وأَعوانَ الخيرِ، ودعاةً إلى الهدى.

وفى الحديث الذى رواه ابنُ سعد عن عَمرو بن حِبَّان الكلْبِىّ: «أنا النبىُّ الأُمِّىُّ الصادقُ الزكىُّ، الويْلُ لِمن كَذَّبنى، وتَولَّى عنِّى، وقاتلَنى، والخيرُ لِمن آوانِى، ونصَرنى، وآمَن بى، وصَدَّق قولى، وجاهَد معى». وفيه إشارةٌ إلى الأنصار أهلِ المدينةِ ودعائِه لهم بالخير والبركة، ولقد كانت سعادتُهم غامرةً عند استقبالهم أنوارَ النبوةِ فى المدينةِ على ساكِنها أفضلُ الصلاة والسلام.

❊ ❊ ❊

* * *

٤٧ - الزواج وبناء الأسرة الصالحة

أما بعد: فيا أيها المُؤمنون:

قال الحقُّ تبارك وتَعالى من سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

أيها المُؤمنون:

فى الزواج مَحَبَّةٌ وشفقةٌ واستقرارٌ وهُدوءُ بالٍ، كما أنه الوسيلةُ الطبيعيةُ السليمةُ الحكيمةُ لبقاءِ النوعِ، واستمرارِ الحياةِ، وبناءِ الأسرةِ فى ظلِّ الأبوين اللَّذَيْن يقومان برعايتها، والحدَبِ عليها، حتى تصيرَ دعامةً صالحةً لبناءِ الْمُجتمعِ المُتماسكِ الصالح.

وجاءَت الآيةُ الكريمةُ التى استمعنا إليها فى مَعْرِضِ الدلالةِ على كمالِ قدرةِ الله تعالى، وكمالِ رحمتِه بعبادِه، ومن علاماتِ ربوبيتِه ووحدانيتِه ورحمتِه، أَنْ خَلَقَ النساءَ ليسكُنَ إليهنَّ الرجالُ، وجعل بينهما الميلَ الطَّبَعِيَّ وَهَيَّأَ لكلٍّ منهما ما يُمَكِّنُه من أداءِ وظيفتِه، تَحقيقًا للحِكْمة، فسُبْحان الخالقِ المُنعمِ الوهابِ عظيمِ الرحمةِ بالعباد.

ولهذا كان الإعراضُ عن الزواج مُخالفًا لطبيعةِ الأشياءِ، وليس له من سببٍ إلا العجزُ أَو الانحرافُ عن الصراط السويِّ، أما ما يتعلَّلُ به بعضُ القادرين من فسادِ الزمان، وعدمِ وجودِ الفتاةِ التى تصلحُ للوفاءِ بمسؤولياتِ الأُسرةِ والحياةِ الزوجيةِ، فإنه من الإسراف فى تصوُّر الأمور، ومن المُبالغةِ التى يُمليها الهَوى أَحيانًا والوهْمُ أَحيانًا، إذ مازال المُسلمون بخير - والحمدُ لله - ولم تَخْلُ الحياةُ من المعادن الطيبةِ، والتربيةِ الصالحةِ، وهذا الأمر - أيضًا - يدعو إلى ضرورة النُّصح بالعنايةِ بتربيةِ البناتِ، وتنشِئَتِهِنَّ على الصلاح والتقوى، وتبصيرِهن

بالحقوقِ والواجباتِ، وأَخذِهن بالحَزْمِ فى أَمر الدين، وتعليمِهن ما يُقَوِّمُ سُلوكَهُنَّ، وَيَبْعَثُهُنَّ على التمسُّكِ بالفضيلة من كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

والرسولُ ﷺ يدعو إلى العناية بتأديبِ البنتِ فيقول: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بناتٍ، أَو ثلاثُ أَخواتٍ، أَو بنتان، أَو أُختان، فأَدَّبَهُنَّ وأَحسنَ إليهنَّ وزوَّجَهُنَّ، فَلَهُ الجَنَّةُ». [أخرجه الترمذى وأبو داود واللفظُ له].

وفى الحديث إشارةٌ حسنةٌ، ولفتةٌ كريمة إلى أَن يختارَ الولىُّ لبناتِه أو لأخواته الأزواجَ الصالحين.

ولعل من أَسباب التأَخُّرِ فى الزواج، ما تفرضُه بعضُ العاداتِ، التى دَرَجَ عليها بعضُ الناسِ، إما بِفرضِ مُهورٍ ليست فى مقدورِ الشابِّ، مع المغالاةِ فى الشروطِ، وإمَّا بالنظرِ إلى موضوعِ الكفاءةِ بما لا يتفقُ مع رُوح الشريعةِ ومَرامِيها.

وينبغى لنا - نحن المُسلمين - أن نعِى جيدًا قولَ الحقِّ تبارك وتعالى من سورة النور: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾(١) [النور].

ففى الآيةِ توجيهٌ للأولياءِ بالسعْى لتزويج مَنْ لا زوجَ له؛ تَحقيقًا للحكمةِ من الزواج بإعفافِ النفسِ، وتكثيرِ النسلِ، وبناءِ الأُمةِ الصالحةِ، وفى الآية الإشارةُ إلى المُبادرة بتزويج أَهْلِ الصلاحِ، مع التوجيهِ إلى أَنَّ الفقرَ لا يَنبغى أن يكونَ سببًا يحولُ دون تحقيق الزواجِ، فالغِنَى والفَقْرُ بيدِ الله، وإذا صدقت النيةُ، وَتَمَّ الزواجُ، فإنَّ الله عز وجل يَفْتَحُ للزَّوْجَين أبوابَ رحمتِه وفضلِه ويُيسرُ لهم السبلَ، ويرزُقُهم العفافَ وَغِنَى النفسِ، ولذا كان ابنُ عمرَ يقول: «عَجِبْتُ لِمَن لَّا يَرغبُ

---

(١) الأيامى: جمع أيم وهى التى لا زوج لها..

فى الباءَةِ» - يقصد الزواج - ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢].

ومن حديث أَبى هريرةَ أَن رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ كلُّهم حقٌّ على الله عَونُه: المُجاهدُ فى سبيلِ الله، والناكِحُ يُرِيدُ العَفافَ، والمكَاتَبُ الذى يريدُ الأَداءَ». [أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح].

ثم إِنَّ كلَّ مُسلم ينبغى له أَن يسمَعَ ويتدبرَ جَيِّدًا قولَ الحبيبِ الهادى ﷺ: «خَيْرُ النِّساءِ أَحسنُهُنَّ وُجُوهًا وأَرخصُهن مُهُورًا». وقولَه ﷺ: «مِنْ بَرَكَةِ المرأَةِ سرعةُ تَزويجِها، وسرعةُ رَحمِها، وَيُسْرُ مَهْرِها».

لنتدبر ذلك التوجيهَ النبوىَّ لنعلمَ أَن التشديدَ على طالبِ الزواجِ ليس من مصلحةِ الفتياتِ، وليس من أَسبابِ سعادتِهن فى الحياةِ الزوجية، ذلك أَن الشابَّ إما أَن ينصرفَ ويرجعَ عن عزمه، وإِمَّا أَن يضطربَ حالُه بتكليفه نفسَه ما لا يُطيق، وما لا تَحْتَمِلُه قدرتُه الماليةُ، فلا تستقرُّ حياةُ البنتِ بعد الزواجِ إلا بعد معاناةٍ، وصبرٍ، وزمنٍ، مع ما قد يكونُ عليه الزوجُ فترةً من حياتِه من ضيقِ النفس، وانقباضِ الصدرِ، مِمَّا قد تنعكسُ آثارُه على زوجته.

والحبيبُ الهادى ﷺ ينصحُ المُسلمين، وهو كما وصفَه ربُّه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. يقول لهم؛ يقول لكلِّ ولىٍّ: «إِذَا أَتاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَه فَأَنْكِحُوه، إِلَّا تَفْعلُوا تكنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرضِ وفسادٌ عَرِيضٌ» قالوا: يا رسولَ الله، وإِن كان فيه؟ - أَى وإِن كان فقيرًا أَو ليس من ذوى الوجَاهةِ والحُسْن أَو نحو ذلك، مِمَّا يبحثُ عنه المُتعَنِّتُون المُتشدِّدون من الأَولياء - فأَجابهم الرسولُ مؤكدًا أَن الاستقامةَ والخلقَ الحَسَنَ هما أَساسُ الاختيار فقال: «إِذا أَتاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دينَهُ وَخَلُقَه فأَنْكِحُوه».

قال ذلك ثلاثَ مراتٍ - ليقررَ المعنى فى النفوس - فالدينُ والخُلقُ هما أَحسنُ ما يدعو إلى اختيار الزوجِ، فذلك أَهنأُ للزوجة، وأَدْعى إلى الاستقرارِ

وراحةِ البالِ، ولا شكَّ أن الزواجَ الذى يتمُّ على هذا النحوِ، يكون سببًا فى إعانةِ الشابِّ على الاستمرار فى طريق الاستقامةِ والصلاح.

يا عبادَ الله:

إن الزواجَ ارتباطٌ روحىٌ، وقُرْبٌ قلبىٌ، ودعمٌ للحياة الاجتماعيةِ، ليس المالُ فيه إلا وسيلةً لتنظيم الأسرةِ وسببًا من أسبابِ استقرارها، فلا ينبغى للمسلم أن يجعلَهُ الغايةَ التى إليها يَقصدُ، ولها يَبتغى، ولْيَذْكُر الأولياءُ جيدًا أن الحبيبَ المُصطفى ﷺ زَوَّجَ ابنةَ عمتِه القرشيةَ لزيدِ بنِ حارثةَ خادِمِه، وكان من أسباب ذلك كسرُ الأَنَفةِ والشموخِ على بنى البشرِ، مع ما فى ذلك من تطبيقٍ عملىٍ للمؤاخاةِ بين المُسلمين.

وإذا كان النصحُ يتوجَّهُ إلى الفتاة وإلى وليِّها بتحَرِّى صلاحِ الخاطبِ واستقامتِه ودينِهِ بالدرجةِ الأُولى، فإن النصحَ - أيضًا - يتوجَّه إلى الشاب بأَلّا يَنسَاقَ وراءَ الهوى العارضِ فَيَبْهَرَهُ الجمالُ بِلا دينٍ، فيندفعَ مثلًا للزواج بغير مسلمةٍ لأَجلِ ذلك، مع ما قد ترتَّبَ على ذلك فى غالبِ الأَحوالِ من المتاعِب والمفاسدِ، وإن التجاربَ خيرُ برهان، والرسولُ ﷺ يُحَذِّرُ من الاندفاع وراءَ الجمالِ وحده، بغضِّ النظرِ عن الدِّينِ والبيئةِ الصالحةِ فيقول: «إِيَّاكمْ وَخَضْراءَ الدِّمَنِ»، قيل: يا رسولَ الله وما خضراءُ الدِّمَنِ؟ قال: «المرأَةُ الحسناءُ فى المَنْبِتِ السُّوءِ».

[رواه أبو سعيد قال ابن عدى: تفرّد به الواقدى ورواه القضاعى فى مسند الشهاب].

بل على الشابِّ أن يتحرَّى التربيَةَ الصالحةَ، والجوَّ الأسرىَّ المُستقرَّ، والعائلةَ التى عُرف عنها الاستقامةُ، وأَن يجعلَ دينَ الفتاةِ وخُلقَها الطيبَ فى أَعلى قائمةِ مطالبه، فإِنْ تَحَقَّقَ مع ذلك الجمالُ أَو المالُ أَو الحسبُ كان خيرًا وبركةً.

فطوبَى لِمنَ عَلِمَ فَعَمِلَ بِما علم، طوبى لأهل الإيمانِ والتقوى

والمَرْحَمَةِ.

واتقوا الله – عبادَ الله – وسلُوه العفوَ والعافيةَ، وتوبوا إلى الله، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له.

* * *

للخطبة الثانية:

لِيَتَّقِ اللهَ الأولياءُ فى البناتِ، ولْتنظُرْ الفتاةُ إلى الزواج نظْرةً تتفقُ مع مبادئِ الدينِ وأهدافِه، ولْيَسْعَ الشابُّ إلى الزواج جاعلًا الفضيلةَ والخلقَ الكريمَ والدينَ والتَّربيةَ الصالحةَ أوّلَ ما يطلبُه فى فتاةِ أحلامِه، والرسولُ ﷺ يقول: «فاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك».

وعلى الشباب أن يَعِفَّ، ويَتَّقِيَ ما حَرَّم اللهُ، حتى تتيسرَ له أسبابُ الزواج، يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. [النور: ٣٣].

والاستعفافُ واجبٌ لأجل أنَّه إِمساكٌ عَمَّا حرَّمَ الله، واجتنابُ المحارمِ واجبٌ.

ويستعينُ المُؤمنُ بالصوم لِتقْوى إرادتُه على نفسه، ويراقبَ ربَّه، قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: كُنَّا مع النبىِّ ﷺ شبابًا لا نَجدُ شيئًا فقال رسولُ الله ﷺ: «يا مَعْشرَ الشَّباب مَن اسْتَطاعَ منكم الباءَةَ(١) فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ لِلْبَصر، وأَحْصَنُ لِلْفَرجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فعليه بالصومِ؛ فإنه له وِجَاءٌ» (٢).

[أخرجه البخارى ومسلم وبعض أصحاب السنن].

---

(١) الباءة: التزوج والنكاح ومن معانيه القدرة على مؤن الزواج.

(٢) الوِجاء: بكسر الواو والمد، وأصله الغمز ومنه وجأ أنثييه غمزهما حتى رضهما، والمعنى هنا على تشبيه الصوم برضّ عروق الأنثيين فى أن كلا منهما يقمع الشهوة ويكسرها، ويطفىء حرارتها.

وفى الحديث الذى رواه سعدُ بنُ أَبى وقاص: أَن رسولَ الله ﷺ قال: «مِنْ سَعَادةِ ابنِ آدمَ: المرأَةُ الصالحةُ، والمسكنُ الصالحُ، والمركبُ الصالحُ».
[أخرجه أحمد بإسنادٍ صحيح والطبرانى والبزار].

* * *

توجيهات شريفة «للدرس»:

إنَّ البحثَ عن الجمالِ بِلا دينٍ، أَو النظرَ إلى الزواج نظْرةَ الشخصِ إلى سلعةٍ مُربحةٍ، أَو السعْى لاكتسابِ جاهٍ، دُون نظرٍ للعواقبِ، إن هذه أُمور لا تُعين على تحقيق الغايةِ من الحياة الزوجيةِ السعيدة المُستقرةِ، وليتدبر كلُّ شابٌ قولَ الحبيبِ المُصطَفى ﷺ: «مَنْ تَزَوَّجَ امرأَةً لِعِزِّها لم يَزِدْهُ الله إلا ذُلًّا، وَمَنْ تَزَوَّجَها لِمَالِها لَمْ يَزِدْهُ الله إلَّا فَقرًا، وَمَنْ تَزَوَّجَها لِحَسَبِها لَم يَزِدْهُ الله إلا دَنَاءَةً، ومن تَزَوَّجَها لَم يُرِدْ بها إلَّا أَن يَغُضَّ بَصَرهُ، وَيُحصِّنَ فَرْجَهُ، أَو يَصلَ رَحِمَهُ، باركَ اللهُ له فِيها، وَبارك لها فيه». [رواه أنس وأخرجه الطبرانى فى الأوسط].

ولنتدبر ماروواه عبد الله بن عمرو وأخرجه ابنُ ماجه قال ﷺ: «لا تَزَوَّجوا النِّساءَ لِحُسْنِهِنَّ، فَعَسَى حُسْنُهُنَّ أن يُرْدِيَهُنَّ، ولا تَزَوَّجُوهُنَّ لأموالِهِنَّ فَعَسَى أمْوَالُهنَّ أن تُطغِيَهُنَّ، ولكنْ تزوجوهُنَّ على الدِّينِ، ولأَمَةٌ خَرْماءُ ذاتُ دِينٍ أفضلُ».

وخرماء: يعنى لا تُجيدُ عملًا، ولكنها صالحةٌ، أو مشقوقةُ الأنفِ والأذنِ.

* * *

لكى تدوم العِشرةُ بين الزّوجين

٤٨ - «واجبات الزوجة»

قال الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

أيها المُؤمنون:

إنَّ الحياةَ الزوجيةَ حقوقٌ وواجباتٌ، وتعاونٌ ومودَّةٌ ورحمةٌ، وقد جعل اللهُ عزَّ وجلَّ للنساءِ من حقوقِ الزوجيةِ على الرجالِ مِثْلَ ما للرِّجَالِ عليهِنَّ، فعلى الرجل أَن يُحسِنَ عِشْرتَها بما هو معروفٌ من عادةِ الناسِ أنهم يفعلونَهُ لنسائِهم، وعلى المرأةِ كذلك أن تُحْسِنَ عِشْرَةَ زوجِها بما هو معروفٌ من عادة النساءِ أنهنَّ يفعلْنَه لأزواجهِنَّ، من طاعةٍ وتَزيُّنٍ وتَحَبُّبٍ وغيرِ ذلك.

وإنَّ تكوينَ الرجلِ يُؤَهِّلُه لأنَ يكونَ جنديًا قوىَّ المِرَاس، يَنْهضُ بمسؤوليةِ الحِمايةِ والصِّيانةِ والجهادِ، والضربِ فى الأرضِ، والقيامِ بأعمالٍ فوقَ طاقةِ التكوينِ العامِّ للمرأَةِ، فأَساسُ طبيعةِ الرجلِ الخشونةُ وقوةُ الجسم والنفس، والغالبُ على تكوينِ المرأَةِ النعومةُ والرِّقةُ والضعفُ الذى يجعلها مُحَبَّبَةً إلى نفسِ الرجل.

وتكوينُ الرجلِ يُؤَهِّلُه لأن يكونَ المسؤولَ الأولَ فى الأسرةِ، يتحملُ تَبِعاتِ النفقةِ، من طعامٍ وكساءٍ ومَسكنٍ، وغيرِ ذلك من المطالب الأساسيةِ للأسرةِ، والتى لا غِنَى عنها كالدواء ونحوه.

ومن هنا كانت للرجل منزلةٌ ليست للمرأَةِ، فهو القائمُ عليها بالإنفاقِ والحمايةِ والصيانةِ، وهو الأَكثرُ جَلَدًا، وهو الأقوَى على مغالبةِ الحوادثِ ومواجهةِ العِقابِ.

يقول الحقُّ تبارك وتعالى فى سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

فالرجالُ هم الذين يقومون بصيانةِ النساءِ، والدفاعِ عنهنَّ، وتقديم الصَّداقِ لَهُنَّ، والإنفاقِ عليهن، وتدبيرِ المسكنِ الملائم للمرأةِ، فكان من حقِّ الزوجِ على زوجته أن تُطيعَهُ فيما لا يُغضِبُ الله عزَّ وجلَّ، وقد أثنى الله على المُؤمِنَاتِ الصالحاتِ، المُطيعاتِ لأزواجِهنَّ، الحافظاتِ للشرفِ فى غيابِ الزوج فقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

والقانتاتُ: هُنَّ الطائعاتُ، إذا أُمِرْنَ بما ليس فيه معصيةٌ لله، والحافظاتُ للغيب هُنَّ اللائى يحفظن أزواجَهُنَّ حالَ غيابِهم، فلا تَصدُرُ عنهنَّ خيانةٌ فى النفس أو المالِ.

أيها المُؤمنون:

وقد جاءَ التأكِيدُ لِعظَم حقِّ الرجلِ على زوجتِهِ فى الحديثِ الذى أخرجه البزارُ والحاكم، وروته أُمُّ المُؤمنين عائشةُ قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أىُّ الناسِ أعْظمُ حقًّا على المرأة؟ قال: «زوجُها». قُلتُ: فأىُّ الناسِ أعظمُ حقًّا على الرجلِ؟ قال: «أمُّه».

وعلى الزوجة ألا تَمْنعَ نَفْسَها من زوجِها حين يطلبُها، وألا تصومَ تَطوُّعًا إلا بإذنه، وألا تتصدقَ من مالِه إلا بإذنِه.

وقد جاءَ فى الحديث الذى رواه ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال لامرأةٍ من خَثْعَم: «إنَّ حقَّ الزوجِ على زوجتِه إن سألها نفسها وهى على ظَهْرِ قَتَب، ألَّا تَمْنَعَهُ نفسَها، ومن حقِّ الزوجِ على زوجتِه، ألا تصومَ تطوُّعًا إلا بإذْنِه، فإنْ فَعَلَتْ أثِمَتْ، جاعَتْ وعَطِشتْ ولا يُتَقبَّلُ منها، وألَّا تَخْرُجَ من بيتِه إلا بإذْنِه، فإن فَعَلَتْ لعنَتْهَا ملائِكَةُ السماء وملائِكةُ الرحمة وملائِكةُ العذابِ حتى ترجعَ». [أخرجه الطبرانى].

وفى رواية أبى أمامةَ زيادةٌ هى: «وألَّا تُعطِى من بيتها إلَّا بإذْنِه، فإن فعلتْ

كان له الأجرُ وعليها الوِزرُ».

وروَى أبو هريرةَ رضي الله عنه ، أَن رسولَ اللهِ عليه الصلاة والسلام قال: «إذا دَعا رجلٌ امرأَتَهُ إلى فِرَاشِه فأَبَتْ أن تجيء، فَبَاتَ غضبانَ، لعَنَتْها الملائِكةُ حتَّى تُصْبحَ». [متفق عليه وهذا لفظ البخارى].

وليس للمرأَة أَن تأْذنَ لأحدٍ من الأقاربِ والأجانبِ بدخولِ البيتِ ما دام الزوجُ يكرهُ ذلك، وقد جاءَ من خُطبةِ النبيِّ ﷺ فى حَجَّةِ الوَدَاع: «أَلَا إِنَّ لَكُمْ على نِسَائِكُمْ حقًّا، ولنسائِكُمْ عليكمْ حَقًّا، فأَمَّا حقُّكُمْ على نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُون، ولا يَأْذَنَّ فى بُيوتِكم لِمَنْ تَكْرَهُون، أَلا وحَقُّهنَّ عليكُم أن تُحسنوا إليهِنَّ فى كسْوتهِنَّ وطعامِهِنَّ». والمرادُ لا يُدْخلْنَ مَنْ يكرهُه الزوجُ ولا يُغْضِبْنَ الأزواجَ.

[من رواية عمرو بن الأحوص الجُشَمِىّ وأخرجه ابنُ ماجه والترمذى].

وكما يقومُ الرجلُ بأعباءِ السَعْى والعملِ والنفقةِ، ينبغى للزوجةِ أَن تَرْعى البيتَ، وتقومَ بخدمتِه وتدبيرِ شئونه، ولقد كانت أَزواجُ النبىِّ ﷺ وبنتُه فاطمةُ وأَزواجُ أَصحابِهِ، يَقُمْن بخدمةِ البيوت، والقيامِ على تهيئة الطعام وتقديمِه، وبكلِّ ما يساعدُ على إيجادِ جَوٍّ من الراحة والاستقرارِ فى الأسرة.

ولقد شكَتْ بنتُ سَيِّدِ الخلقِ ما تَلْقَى فى يَدَيْها من الرَّحَى، وكانت أَسماءُ بنتُ أَبى بكرٍ تقوم بالعَجين، وتَعْلِفُ فرسَ زوجِها، وتَحُشُّ له، وتَسقيه وتنقلُ له النَّوَى على رأْسِها. وتلك نماذجُ عاليةٌ لنساءٍ امْتَزْنَ بمكارمِ الأخلاقِ، وصِدْقِ المَودَّةِ للزَّوجِ، والقيامِ على كلِّ ما يُدْخِلُ السرورَ على نفسِه.

يا أهلَ الإسلام:

إن من واجبِ المرأَةِ المُؤمِنَةِ أن تَسْعَى دومًا لإرضاءِ زوجِها، وإدخالِ المسَرَّةِ على قلبِه بالطاعةِ، وبالهيئةِ الحسنةِ، فلا تَسْتَقْبِلُه عند عودتِه إلى داره

بثيابِ المهنةِ والخدمةِ فى البيت، وإنما تُعِدُّ لذلك أجملَ ثيابِها، وتحاولُ أن يَشُمَّ منها زوجُها طيِّبًا، وأن يسمعَ حُسْنًا، وألا يَرى مالا يسرُّه ويُرضيه، وألا تكونَ سببًا لإغضابِه أو إيذائه.

قال أَبو هريرة: قيل لرسول الله ﷺ: أَىُّ النساءِ خيرٌ؟ قال: «التى تَسُرُّه إذا نَظَرَ، وتُطيعُه إذا أَمَرَ، ولا تُخَالِفُه فى نفسِها ولا مالِه بِمَا يكْره».

وما أَعظمَ ثوابَ المرأَةِ المُؤمنةِ التىَ تموت وزوجُها عنها راضٍ.

فعن أُمِّ سلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّما امرأَةٍ ماتتْ، وزوجُها رَاضٍ عنها دَخَلَت الجنَّةَ». [أخرجه ابن ماجه والترمذى].

فاتقوا الله - عبادَ الله - وصونوا الحياةَ الزوجيةَ عن العبث وأَسبابِ النزاع، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا لعله يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية:

روى أَبو أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَن رسول الله ﷺ قال: «ما استفادَ المُؤْمِنُ بعْدَ تَقْوَى اللهِ عزَّ وجلَّ خيرًا له، من زوجةٍ صالحةٍ، إن أَمرَهَا أَطاعتْه، وإن نَظَرَ إليها سرَّتْهُ، وإن أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْه - أَى نفذَّت ما حلَف لها عليه - وإن غاب عنها نَصَحَتْه فى نفسِها ومالِه» أى أَخلَصتْ له وَحَفِظته فى شَرَفِهِ ومالِه. وفى رواية أخرى لأبى هريرة عند ابن جرير: «خيرُ النساء امرأةٌ إذا نظرتَ إليها سَرّتك، وإذا أَمَرْتَها أَطاعَتْك، وإذا غِبتَ عنها حَفِظتْكَ فى نفسِها ومالِكَ». ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ...﴾ الآية [النساء: ٣٤].

فأَحْسَنُ ثمرةٍ يَجنيها المرءُ فى حياته أَن تكونَ له زوجةٌ صالحةٌ ذاتُ خُلُقٍ ودينٍ، تُطِيعُ زوجَهَا، وتسرُّه بما يرى عليها من نظافةٍ وحُسنِ هِنْدام وجمالِ

هيئةٍ، وإن أقسم عليها فى أمرٍ مشروعٍ أبرَّته، وَنَفَّذَتْ ما حلف عليه، لا تُعانِد ولا تكابرُ، وتُخلِصُ له فى حضورِه وغَيبتِه.

إن الزوجةَ التى تكونُ على هذا النحوِ من الأدبِ والتربيةِ ومعرفةِ الحقوقِ والواجباتِ لَتُعدُّ كَنْزًا عظيمًا، وبِمثِلِ هذه الأَخلاقِ تدومُ الحياةُ الزوجيةُ، وتضعُ السعادةُ أَجنحتَها على الأسرة.

أَما المرأَةُ التى تؤذى زوجَها الصالحَ فالحُورُ العينُ تدعو عليها كما روى معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لاتُؤذِى امرأَةٌ زوجَها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحُور العِينِ: لاتُؤْذِيه، قَاتَلَكِ اللهُ، وإنما هو دَخيلٌ عِنْدَكِ، ويُوشكُ أن يفارقَكِ إلِيْنَا». [أخرجه ابنُ ماجه والترمذى].

وفى مُسند الإمام أحمد من رواية عبد الرحمن بن عوف: «إذا صلَّت المرأةُ خَمسَها، وصامتْ شهرَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعتْ زوجَها، قيل لها: ادْخُلى الجنةَ مِن أىِّ أبوابِ الجنةِ شِئْتِ».

* * *

توجيهات نبوية شريفة «للدرس»:

القيامُ بحقوق الزوج ثوابُه عظيم:

جاء عند البزَّار مختصرًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءتْ امرأةٌ إلى النبىِّ ﷺ فقالت: يارسولَ الله، أنا وَافِدَةُ النساءِ إليك، هذا الجهادُ كتبَه اللهُ على الرجال فإن يُصِيبُوا أُجِروا وإن قُتِلوا كانوا أحياءً عندَ ربِّهم يُرزقون ؛ ونحن معاشِرَ النساءِ نقومُ عليهم، فما لَنَا من ذلك؟ قال ابن عباس: فقال ﷺ: «أَبْلِغى مَن لقيتِ من النساءِ أَنَّ طاعةَ الزوجِ واعترافًا بحَقِّه يَعْدِل ذلك[1]، وقليلٌ منكنَّ

---

(١) أى ثوابُ طاعة الزوج فيما لا معصيةَ فيه لله والإخلاص له يعادل ثوابَ الجهاد فى سبيل الله.

يفعلُه».

وجاء عند الطبرانى فى حديث قال فى آخره: ثم جاءته -يعنى النبىَّ ﷺ- امرأةٌ فقالت: إنى رسولُ النساءِ إليك، وما مِنهنَّ امرأةٌ عَلِمَتْ أو لم تعلمْ إلَّا وهى تَهْوَى مَخرَجِى إليك - كناية عن رغبتهنَّ فى السؤال فيما يعود عليهنَّ بالخير فى طاعة الله -.

ثم قالت: اللهُ ربُّ الرجالِ والنساءِ وإلهُهُنَّ، وأنت رسولُ الله إلى الرجال والنساءِ، كتب الله الجهادَ على الرجال، فإن أصابوا أُجِرُوا، وإن اسْتُشْهِدوا كانوا أحياءً عند رَبِّهم يُرْزَقُون، فما يَعْدِلُ ذلك مِن أعمالهم من الطاعة؟ قال: «طاعةُ أزواجِهِنَّ والمعرفةُ بحقُوقِهِنَّ، وقليلٌ منكنَّ من يفعله».

وقد أكَّد الهادى الحبيبُ عليه الصلاةُ والسلامُ حَقَّ الرجلِ فى أَن تكونَ زوجتُه مُطيعةً له؛ تحقيقًا للتعاون والتآلفِ، ودعمًا للحياة الزوجيةِ.

ومن ذلك قولُه ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «لو كُنْتُ آمِرًا أَحدًا أَنْ يَسْجُدَ لأحدٍ، لأمرتُ المرأَةَ أَن تسجدَ لزوجِها».

[أخرجه الترمذى وقال: حديثٌ حسن صحيح].

وزاد أبو داود وغيره: «من عِظَم حَقِّه عليها» وفى رواية قيس بنِ سعدٍ عند أبى داود: «لو كُنْتُ آمِرًا أَحدًا أَن يَسْجُدَ لأحدٍ، لأمرتُ النساءَ أَن يَسْجُدْنَ لأزواجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللهُ عليهِنَّ مِن الحقِّ».

* * *

٤٩ - اتقوا الله فى الطلاق

أما بعد:

فعن محارب بنِ دِثار رَحِمَهُ اللهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما أَحلَّ الله شيئًا أَبْغَضَ إليه من الطَّلاق». [أخرجه أبو داود مُرْسَلًا].

وفى رواية: «أَبْغَضُ الحَلالِ إلى الله الطَّلاقُ».

[رواية ابن عمر عند أبى داود وغيره].

أيها المُسلمون:

شرع الله الزواجَ لِمقاصدَ ساميةٍ، وأَغراضٍ شريفةٍ وغاياتٍ كريمةٍ، وجعله الله نعمةً من نعَمِه العُظمى، وآياتِه الكبرى، به تتحققُ خِلافةُ الإنسانِ فى هذه الأرضِ، وعمارتُه لهذه الدنيا، يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

[الروم: ٢١].

وجعل الإسلامُ الحياةَ الأَسَريَّةَ شَرِكةً بين الزوجين، تقومُ على المودَّةِ والتفاهُم، ومعرفةِ كلٍّ منهما بحقوقه وواجباتِه، وقيامِ كلٍّ منهما بِما يجِبُ عليه نحو الآخرِ لتدومَ العِشرةُ، وتُظللَها السكينةُ والهدوءُ، ولِيَنْبُتَ الأولادُ نباتًا حسنًا فى محيط أُسرةٍ مستقرةٍ واعيةٍ، تخشى ربَّها، وتقيمُ حدودَهُ بطاعتِه أَولًا ثم برعايةِ كلٍّ واحدٍ حقوقَ صاحِبِه ثانيًا، فالزوجةُ سكنٌ وراحةٌ، تُزيلُ الهمومَ عن زوجها، وتُدخِلُ السعادةَ إلى قلبه بطاعتِها، وتواضُعِها له ووضعِها نفسَهَا فى خدمتِه، ورِعايةِ بيتِه وأَمانتِها لِما تحتَ يَدِها، لا تَشغَلُه إلَّا بواجباتِه فى السعى والضربِ فى الأرضِ، يبتغى من فضل اللهِ، ما يجعلُ أُسرتَه مستورةَ الحالِ هانئةَ البالِ.

والله عز وجل يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

[البقرة: ٢٢٨]. أى: ولهنّ من حقوق الزوجيةِ مثلُ ما للرجال عليهن، فيُحْسنُ الرجلُ عِشرتَها بما هو معروفٌ من عادة الناسِ أنهم يفعلونه لنسائهم كذلك تُحسِنُ هى عِشرتَه بما هو معروفٌ من عادة النساءِ أنهنَّ يفعلْنَهُ لأزواجِهنَّ، من الطاعةِ والتحبُّبِ والتزيُّنِ ونحوِ ذلك.

وللرجال منزلةٌ ليست لهنَّ، وهى قيامُه عليها وعلى الأسرة بالإنفاق، وكونُهُ من أهل الجهادِ ومُجالَدةِ الحياةِ، ولقيامِه بحمايةِ الأسرةِ والوفاءِ بمطالبها فى حدود القدرة.

إن الزوجَين إذا أقاما حدودَ الله، كان الزواجُ سَكنًا للزوجين، ومَودَّةً ورحمةً بينهما، أمَّا الزواجُ الذى يَفقِدُ هذا المعنى، وينظرُ فيه كلٌّ من الزوجين إلى صاحبه كأنه غَريمُه أو خَصيمُه، فهو أشبَهُ بقيد كَريهٍ ضَمَّ اثنين على الرغم منهما، فهما يعيشان جارَيْن بالاسم، مُتنافرين بالرُّوح.

ولذلك حَرَص الشارعُ الحكيمُ - يا أحباب الله - على أن تَبقَى العلاقةُ بين الزوجين قويةً متينةً، وأن تظلَّ الحياةُ فى بيتِهما صافيةً سعيدةً، وتحْقيقًا لِهذه الغاياتِ أرشدنا الدينُ إلى أمورٍ منها: أنه أَمر أُولى الشأنِ إذا خَافا مَغبَّةَ الشِّقاقِ والنزاعِ بين الزوجين أن يَبْعَثُوا حَكَمًا من أَهله، وحَكَمًا من أَهلِها، إن يُريدا إصلاحًا، ولكى يجتهدا فى التوفيق وإزالةِ أَسبابِ الخلافِ، ليُوفِّق اللهُ بينهما، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء].

ومن شأنِ هذا العملِ أن يكونَ عِلاجًا تُتَلافَى به أسبابُ الشرِّ وعواملُ الفساد، فكم من خلافٍ قد انبنَى على أَسباب تافهةٍ، أو أَوهامٍ خاطئةٍ لا تلبثُ أَن تزولَ، إذا عُرِضت على أهلِ الخيرِ والعِلْم والإصلاح، فى جَوٍّ من الهدوءِ والإخلاص.

وإن من أسبابِ استمرارِ الحياةِ الزوجيةِ - يا أهل الإسلام - أنْ يُحْسِنَ الزوجُ معاشرةَ زوجتِه، وألَّا ينساقَ وراءَ العاطفةِ، فيكرهَ زوْجَتَه لِما يتوهَّمُه من عيب فيها، أو لِما يُجَسِّمُه الشيطانُ من نقْصٍ، قد يُغْتَفَرُ بجانبِ المزايا، وإلى ذلك يُرشدنا الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقد جاءَ النذير والوعيدُ الشديدُ للمرأة التى تسعى إلى تدميرِ بيتها بيدِها وتطلبُ طلاقَها من زوجها من غيرِ ضرورةٍ شرعية، ومن غير أن يُعمَلَ كلُّ ما أمرَ به الشرعُ للتوفيق والإصلاح.. ففى حديث ثَوبان رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «أيُّما امْرأةٍ سألتْ زَوجَها الطلاقَ من غيرِ بأْسٍ، فحَرامٌ عليها رائحةُ الجنَّةِ». [رواه أبو داود والترمذى وغيرهما].

وإن الشخصَ الذى يسعى بالإفساد بين زوجين هانئين بغيضٌ عند الله بعيدٌ عن الإسلام. كما جاءَ من الحديث الذى رواه بُريدةُ وأَبو هريرةَ رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «وليسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امرأَةً عَلى زَوجِها». أى خَدع وأفسد. [أخرجه أبو داود وغيره ورواية بريدة عند أحمد والبزار].

ولا يَحِلُّ لامرأَةٍ أَن تسعى إِلى طلاق أُختِها لتحِلَّ مَحلَّها، فقد روى أَبو هريرةَ رضي الله عنه أَن رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لامرأَةٍ أَن تسأَلَ طلاقَ أُختِها لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَها، ولتُنكِح، فإنما لها ما قُدِّرَ لها». ولتَسْتَفْرِغَ ما فى صَحْفَتِها: كِنايةٌ عن الانفرَادِ بالزوجِ وأَخْذِ نَصيبِها الذى يكون لها منه، فيتوفَّر عليها دُونَها وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «لا تَشْترطِ المرأَةُ طلاقَ أُختِها» أى لأن ذلك أَمرٌ يَبْغضُه الله.

وإن الشارعَ الحكيمَ - يا عباد الله - مع هذا التحذير كُلِّه قَدَّر أن العِشْرَةَ بين الزوجين قد تسوءُ، ويتفاقمُ شَرُّها، ويعظُمُ الخطرُ من دوامِها بين الاثنين، فَرُبَّما ارتُكبتْ بسبب ذلك مُحرَّماتٌ لا يرضاها الله، كظُلمِ أَحدِ الزوجين للآخر، أو

القذفِ والإيذاءِ، وحدوثِ الشغَب بين الأسَر، ونفورِ أحدِ الزوجين نُفورًا لا ينفعُ معه نصيحةٌ ولا سَعْىٌ بصُلح فى جوٍّ من الهدوءِ والإخلاص، فشُرع الطلاقُ لهذه الضروراتِ وتَلافيًا لِما هو أخطرُ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾. [النساء: ١٣٠].

أيها الْمُؤمنون:

هذا هو الطلاقُ فى أَصلِه ومشروعيتِه، ومن واجبِ الْمُسلمين أَن يُبْقُوه فى دائرتِه التى حُدِّدَت له، ولا يُجاوزوا به حُدودَه، وأَن يُنْظَرَ إلى الطلاقِ على أنه علاجٌ أخيرٌ لِمرضٍ لم يَقْوَ الأطباءُ الناصِحون على علاجِه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

إن الناسَ قد تَعَدَّوْا فى الطلاقِ حدودَ الله: اتخذَه كثيرٌ من الأَزواج هُزُوًا ولعبًا، وجَعلُوه يَمينًا يتلاعبُونَ به فى الأسواق وفى غير الأسواق.. ومن الأزواج من يَنساقُ مع الغضبِ أَحيانًا، ومع الهَوى الفاسِدِ أحيانًا، فيظنُّ أن الطلاقَ عَلامةُ الحزمِ والقوةِ، وسببٌ للهَيبةِ، فينطلقُ به لسانُه، والشيطانُ مِن ورائه يُغْرِيه، ويدفعُه لتدميرِ حياته، ثم يكونُ الندمُ بعد ذلك، ومنهم من يَهْزِلُ فيجعلُ من لفظ الطلاقِ وسيلةً لهزْله، وعلينا أَن نتدبر قولَ الحبيبِ المُصطفى ﷺ: «ثلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النكاحُ، والطلاقُ، والرَّجْعَةُ».

[أخرجه الأربعة إلا النسائى].

ويقول الترمذىُّ: هذا حديثٌ حَسنٌ غريبٌ، والعملُ على هذا عند أَهلِ العلمِ من أصحاب النبى ﷺ وغيرِهم. فلْيحْذَرِ المُؤمنُ هذا البابَ، ولا يجعلْ للهَوى والشيطانِ سلطانًا على نفسه، فاتقوا الله - عبادَ الله - والزموا حدودَه، وسَلُوه العفوَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

للخطبة الثانية:

لقد هان أَمرُ الطلاقِ على بعض الناسِ عند غَضبهم لأمورٍ تافهةٍ، فينطقُ بألفاظٍ تُغضِبُ الرحمنَ ؛ لأنها ليست من سُنةِ النبىِّ ﷺ مع ما فيها من تجاوُز لحدود الله.

وهذا محمود بنُ لبيد رضي الله عنه يقول: «أُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ عن رجلٍ طَلَّق امرأَتَهُ ثلاثَ تطليقاتٍ جميعًا، فقام النبىُّ ﷺ غضبانَ، ثم قال: أَيُلْعَبُ بكتابِ اللهِ عزَّ وجل وأنا بَيْنَ أظهُرِكُم، حتى قَام رجُلٌ فقال: يارسولَ الله، ألا أَقْتُلُه».

[أخرجه النسائىُ ورواتُه موثوقٌ بهم].

وَمِنْ ذلك: الذى يقول: إنه طلَّقها مائةً أَو أَلفًا أَو غيرَ ذلك من الأَعْداد والصِّيَغِ التى ليست من شرْعِ اللهِ، فَيُلَبِّسُ المرءُ على نفسِه تلبيسًا يُوقِعُه فى الحَيْرةِ والنَّدمِ، هذا فضلًا عن استخدامِ لفظِ الحرامِ وغيرِه من الألفاظ المُوهِمةِ التى تُحَيِّرُ صاحبَها، وتُوقِعُ الأسرةَ فى الضِّيق والألمِ الشديدِ والحَرج.

الزموا - أيها الأزواجُ والزوجاتُ - تَقْوى اللهِ عز وجل، تناصحُوا لله، واحْفظُوا نعمةَ اللهِ عليكم، صُونوا الأَسَرَ عن العبث والهزْلِ، وعن الانفعالات السخيفةِ التى لا تَليقُ بالمُؤمنين والمُؤمناتِ، كُن أَيُّها الزوجُ فى موضِع المسؤوليةِ التى حَملْتَها، فهى أَمانةٌ، وأَنت مسؤولٌ عنها، والزواجُ عهدٌ وستُسأَلُ عنه.

كونى أَيتها الزوجةُ فى المكان الذى اختاره لك الشارعُ الحكيم مُطيعةً تَقيةً قائمةً بواجباتها، راضيةً بظروف زوجِها أَيًا كانت، لا تأْخذْكِ العصبيةُ وكبرياءُ الجاهليةِ، فتحْمِلَكِ إلى النفور ومقابلةِ كلامِ الزوجِ عند الغَضب كلمةً بكلمةٍ، أَحسنى إليه إذا أَساءَ يكُنْ لك خادمًا بعد ذلك، ويردَّ لك الجميلَ بأَضعافه:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل].

وإن من أسباب استدامةِ المودةِ أن يَعِيَ الزوجان حقيقةَ الطلاقِ في الإسلام وأنه أبغضُ حَلالٍ إلى الله عزَّ وجل، وأن الدِّينَ نفَّر منه تنفيرًا عظيمًا، فلا ينبغي للرجل أن يُقْدِمَ عليه، ولا ينبغي للمرأةِ أن تطلُبَه من الزوج من غيرِ بأْسٍ وضرورةٍ لا مَناصَ من الفكاكِ منها؛ ذلك أنَّ طَلَبَ الطلاق خصوصًا من المرأة رفْضٌ للنعمةِ، وقطْعٌ للصلة، وإفسادٌ لعلاقةٍ مُستقرةٍ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.
[البقرة: ٢٠٥].

وقد جاءَ من حديث رواه جابر وأخرجه مسلم وفيه: «إن سَرايا إبليسَ وجنُودَه حينما يعودُون إليه، فيقولُ الواحدُ منهم: فعلتُ كذا وكذا. فيقول: ما صنعْتَ شيئًا. ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فَرَّقْتُ بَينهُ وبينَ امرأَتِه، فيُدْنِيه منه ويقول: نِعْمَ أنتَ، فيلتزمُه» ذلك أن أقربَ جنودِ إبليسَ إليه هو أعظمهُم فِتنةً.

ورُوى عن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قولُه: «طلاقُ السُّنَّةِ: أن يُطَلِّقَها طاهرًا من غيرِ جِمَاع». وسُئِلَ عِمرانُ بنُ حُصين رضي الله عنه: عن الرجلِ يُطلِّقُ امرَأَتَهُ، ثم يَقعُ بها، ولم يُشْهِدْ على طَلاقها ولا على رَجْعتِها فقال: «طَلَّقْتَ لغير سُنَّةٍ، وراجعْتَ لغير سُنَّةٍ، أَشْهِدْ عَلَى طَلاقِها، وعلى رَجْعَتِها، ولا تَعُدْ».
[رواه أبو داود موقوفًا وسنده صحيح].

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

❊ ❊ ❊

٥٠ - استوصوا بالنساء خيرًا

أمَّا بعدُ:

فقد قال الله تعالى من سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النساء: ١٩].

والخطابُ للأزواجِ، وقد جَعَلَهُمُ الله عزَّ وجلَّ قوَّامين على النساءِ، وجعل الزوجاتِ عَوَانِى فى أَيديهم.. يأْمُرهم الله عز وجل فيها بحسنِ مُعاشرتِهن وتَطْييبِ القولِ لهُنَّ، وبالكسوةِ والرزقِ بالمعروف، وبأَنْ يُحْسِنَ الرجلُ فِعْلَهُ وَهَيْئَتَهُ لزوجتِه بَحَسَبِ قُدرته، كما يُحِبُّ أن تكونَ زوجتُه له حسنةَ الفعلِ، طيِّبةَ القولِ، جميلةَ الهيئةِ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

أيها المُؤمنون:

إن الأسرةَ هى الخليَّةُ الأولى فى بناءِ المجتمع، وبصلاحِها يتحقَّقُ الخيرُ، وقد عُنى الإسلامُ بشأْن الأسرةِ كلَّ العنايةِ؛ لبناءِ المجتمعِ الصالحِ والأمةِ القويةِ القادرةِ على النهوضِ برسالتِها، وأَداءِ وظائفها.

وإنما تنهضُ الأسرةُ وتُحقِّقُ غاياتِها فى بناءِ المجتمع وسلامتِه، إذا ترابَطَ الزوجان وتفاهما، واحترم كُلُّ واحدٍ منهما حقوقَ صاحبِه، وتعاونا على دَعْمِ حياتِهما، ليسودَها الأمنُ والاستقرار، وهذا يَتِمُّ بإيمانِ كلِّ واحدٍ من الزوجين بأَنَّ الحياةَ الزوجيةَ شَرِكَةٌ لا بدَّ لاستقرارِها من صدقِ كلِّ واحدٍ منهما، وَبِرِّهِ وإخلاصِه فى قيامِه بواجبِه نحوَ صاحبه.

وقد أَوصى النبىُّ ﷺ الرجالَ بالنساءِ، فقال فى خُطبة حجَّةِ الوَداع كما فى مسلم عن جابر ﷺ: «واسْتَوصُوا بالنسَاءِ خَيرًا، فإنَّكُم أَخذتُموهُنَّ بأَمانِ الله، واسْتَحْلَلْتُم فُروجَهُنَّ بكلمةِ الله».

فالرجلُ مسؤولٌ عن صيانةِ المرأَةِ ورعايتِها، وحفظِ كرامتها، وكفايةِ حاجتِها

على حَسب الاستطاعةِ، إلى جانبِ حُسْنِ خُلُقِه مَعَها.

وروى أبو هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «أَكْمَلُ المُؤمِنينَ إيمانًا أَحسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيارُكُم لِنِسَائِهِم». [أخرجه الترمذى وابنُ حبان].

فالخُلقُ الحسنُ فى معاملة الناسِ عامَّةً علامةُ الإيمانِ الكامل، وإذا كان هذا هو شأنَ الخُلقِ الكريم فى الصِّلاتِ العامةِ بين الناسِ بعضِهم وبعضٍ، فالأوْلَى أن تقومَ الصلةُ بين الرجلِ وأهلِه على لينِ الجانبِ، وصِدْقِ المودَّةِ، والرحمةِ، وقد أَكَّدَ الرسولُ ﷺ ذلك بقوله: «وخيرُكم خيرُكُم للنساء».

[رواية ابن عباس عند الحاكم].

ولقد كان النبىُّ ﷺ - يا أحباب رسول الله - مع أهله طيِّبَ العِشْرةِ، حَسَنَ المُعاملةِ، دائمَ البِشْرِ، يُضَاحِكُ نِسَاءَهُ، ويتلطَّفُ بهنَّ، ويُدْخِلُ السرورَ على قلوبهنَّ بالكلمة الطيبةِ، والمُداعبة، والعدلِ فى المعاملةِ، والرفقِ عند الجفوة.

وقد وجَّه ﷺ المُؤمنين إلى رعاية الزوجاتِ والرفقِ بِهِنَّ، والإحسانِ فى مُعاملتهنَّ، فقال فى الحديث الذى روته عائشةُ رضي الله عنها: «خَيْركم خيْرُكُم لأَهلِه، وأَنا خَيْرُكُم لأَهْلى». [أخرجه ابن حبان، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس].

ولكى تعيشَ الأسرةُ فى مَأْمنٍ مِنْ عواصفِ الشرِّ، نَبَّه الإسلامُ على أن الحياةَ الزوجية السليمةَ، إنما تُبْنى على الرعاية التى بها يتكافلُ أَهلُ البيتِ فى معرفةِ ما لَهُمْ وما عليهم، وفى القيامِ بالتبعات والمسؤولياتِ، والوفاءِ بالحقوق والواجباتِ، كما يُوَجِّه الإسلامُ النُّصحَ للرجل، حتى لا يُصْبحَ مَصْدرًا لتفريقِ الشملِ، وتقويضِ البيتِ، وشِقْوَةِ الأولادِ، ولهذا أَمر الله عز وجل بمعاشرةِ النساءِ بالمعروفِ، وحَذَّرَهُم من العواطف المتقلِّبةِ.. ولنتدبر قولَ الحقِّ تباركَ وتعالى بعد الأمر بالمعاشرة بالمعروف: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

أى إن شعرتَ أَيُّها الرجلُ بالكراهية نحو الزوجةِ، فأَمْعِنِ النَّظَرَ، واصْبِر ولا تَتَعَجَّلْ بالمفارقةِ بِمجرد هذا الشعورِ بالنُّفرةِ، فعسى أن يَؤولَ الأَمرُ بِكَ إلى ما تُحِبُّه من ذَهَاب الكراهيةِ، وتَبَدُّلِها بالمحبة والتقدير، فيكون فى ذلك خيرٌ كثيرٌ، مِنْهُ استدامةُ الصُّحبةِ، وتثبيتُ أَركانِ الأسرة، والنعمةُ بالأولاد.

أيها المُؤمنون:

إننا كثيرًا ما نَرَى بعضَ الأزواجِ تَتَغَيَّرُ عَواطِفُهم، وتطرأُ الكراهيةُ فى نفوسِهم نحو زوجاتِهم، لِمجردِ عدم ارتياحهِم إلى بعض أَخْوالِهِنَّ التى ليس فيها ما يَمَسُّ الشرفَ أَو الدينَ، وانسياقًا وراءَ المشاعرِ المُتغيِّرةِ يَجْعَلُون حياتَهم جحيمًا، فَيَشْقَوْنَ، وَيُشْقُون، وإلى هؤلاءِ يوجِّه الحبيبُ المُصطفى ﷺ نصيحتَه الغاليةَ فيقول: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مؤمنةً - يعنى لا يُبْغِضُها - إِنْ كَرِهَ منها خُلُقًا، رَضِى منها آخَرَ». [رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم].

والرسولُ ﷺ يَدُلُّنا بهذا على سبيلِ الحياةِ الزوجيةِ المُستقرةِ، وَيُعَلِّمُ الأزواجَ أنه لا تُوجَد امرأَةٌ إلا ولها بعضُ المزايا، وقد يكونُ فيها بعضُ ما لايُرضِى، وَمَنْ أَراد أن يَلْتَمِس امرأَةً كاملةً من جميعِ النواحِى فإنما يلتمسُ المُحالَ، والعاقِلُ لا يلتفتُ إلى ما لا يُعْجِبُه، ويتغاضَى عَمَّا لزوجته من مزايا ومحاسنَ أُخرى، إن التفتَ إليها رَضِيتْ نفسُه، وسَعِدَتْ حياتُه.

وقد علَّمنا الرسولُ ﷺ أن نوفرَ للزوجةِ الحياةَ الكريمةَ اللائقةَ فى حدودِ القدرة، بلا إفراطٍ أو تفريط، فلا يُقَصِّر الزوجُ فى حقِّها، ولا هو يُتابعُ هَواها إذا هى أَسرفَتْ وغالتْ فِى مَطَالِبها، وإنَّما يعالجُ أُمورَهُ بالرفقِ واللِّين.

ولنتدبرْ جوابَهُ ﷺ عن سؤال معاويةَ بنِ حَيْدَةَ حين قال: يارسولَ الله، ما حقُّ زوجةِ أَحدِنا عليه؟ قال: «أَن تُطْعِمَها إذا طَعِمتَ، وَتَكْسُوَها إذا اكتسيْتَ،

ولا تضربْ الوجْهَ ولا تُقَبِّحْ، ولا تَهْجُرْ إلَّا فى البيتِ».

[أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما].

فالضربُ على الوجهِ عملٌ قبيحٌ، وإهانةٌ لا تُرضى الله؛ لِما فيها من بشاعة، وإنّ النهْىَ عن التقبيح إنما هو نهْى عن البَذَاءَةِ والسَّفاهَةِ والسبِّ والشتْم، فهذه أُمورٌ لا تليقُ بالحياةِ الزوجيةِ، ولا تليقُ ببيوت المُؤمنين، ثمَّ لِنَنْظُرْ إلى الأَدبِ فى قول النبىّ ﷺ: «ولا تَهْجُرْ إلا فى البيتِ».

فالزوجان لا ينبغى لهما أن يُظْهِرا خِصامهما أمام الأولادِ والأَهل ولا على ملإٍ من الناس؛ حِفاظًا على كرامةِ الحياةِ الزوجيةِ، وإذا حدثَ الخِصامُ لضرورةِ كالنُّشوزِ - مثلًا - فالهجْرُ يكونُ فى المَضْجعِ وسيلةً للتأديبِ بعد تقديمِ النصيحةِ، والعِظةِ، والتخويفِ من عقابِ الله؛ لأنه حَرَّمَ على المرأةِ معصيةَ زوجِها، فإن لم تتعِظْ هَجَرها فى المضجعِ تأديبًا، حتى تثوبَ إلى رُشْدِها، ولا يَتَجَاوزُ ذلك حُجْرةَ الزوجيةِ: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]

فاتقوا الله فى النساءِ، واخشَوا غضبه، واطلبوا رحمته بطاعة أَمرِه، واجتنابِ نواهيه.

* * *

للخطبة الثانية:

جاءَ رجلٌ إلى عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ، يَسْتَشِيرُه فى طلاق امرأتِه، فقال له عمرُ: لا تَفْعلْ، فقال: ولكنِّى لا أُحِبُّها، فقال له عمر: «وَيْحَكَ! أَلَمْ تُبْنَ البيوتُ إلَّا على الحبِّ؟ فأَينَ الرِّعايةُ وأَينَ التذَمُّمُ؟»[1] أى إن البيوتَ لا تُبْنَى على الحبِّ وَحْدَه وإنما هى خَلِيقةٌ أَن تُبْنَى على ركنين آخَرين، أَحَدُهما:

(١) التذمم: من تذمم: بمعنى استحيا واستنكف، وتذمم لصاحبه حَفِظ ذِمامَه والذِّمامُ العهدُ والأمان والكفالة، والحق والحرمة.

الرعايةُ التى تَبُثُّ التعاطفَ والتراحُمَ فى جوانِبها، وبالرعاية يتحققُ التعاونُ بين أَفرادِ الأسرةِ، والأمرُ الثانى: التذمُّمُ أَى وفاءُ كلٍّ من الطرفين للآخَرِ، بِحِفْظِ حقوقِه، وصيانةِ حُرماتِه، والاستحياءِ من إغضابِه أَو التسببِ فى شقائِه، وتتأكدُ هذه الخصالُ باستمرارِ العِشْرةِ وتبادُلِ الرعايةِ، وبالوفاءِ ومعرفةِ الحقوقِ والواجباتِ.

ومن معاملة الرسولِ ﷺ لأهله، وهو القدوةُ الطيبةُ للمؤمنين:

* كان ﷺ جميلَ العشرة، يتلطفُ بنسائِه، ويُوسِعُهنَّ نفقَته ويُضاحِكُهن.

* جرى بينه وبين السيدةِ عائشةَ رضي الله عنها كلامٌ حتى أَدخلا بينهما أَبا بكر رضي الله عنه حَكَمًا، واستشهده، فقال رسولُ الله ﷺ: تتكلمين أَو أَتكلم؟ فقالت: بل تكلَّمْ أَنت، ولا تَقُلْ إلا حقًّا. فلطمها أَبو بكر حتى دَمِى فُوها، وقال: ياعدوَّةَ نفسِها، أَوَ يقولُ غيرَ الحقِّ، فاستجارت برسول اللهِ ﷺ، وقعدت خلفَ ظهره، فقال له النبىُّ ﷺ: «لم نَدْعُك لهذا، ولا أَردْنا مِنك هذا».

* وقالت له مرةً فى كلام غَضِبَت عنده: أَنت الذى تزعمُ أَنك رسولُ الله؟ فتبسَّمَ رسولُ الله، واحتمل ذلك حِلمًا وكرمًا.

* وكان يقول لها: إِنى لأعرِفُ غَضَبَكِ من رِضاكِ، قالتْ: وكيف تعرفُه؟ قال: إذارضيتِ قُلتِ: لا وإِلهِ محمدٍ. وإِذا غضبتِ قلتِ: لا وإِلهِ إبراهيمَ. قالت: صدقتَ، وإِنما أَهجرُ اسمَك.

* وكانﷺ يصبرُ عليهن، ويُدخِلُ السرورَ إلى قلوبهنَّ، ويَسْمُر معهنَّ قليلًا بعد صلاة العشاء قبل أن ينامَ، يُؤانسهُنَّ بذلك، وفى الخبر: أَنه ﷺ: كان من أَفكَهِ الناسِ مع نسائه.

وفى الخبر: «مَنْ صَبر على سوءِ خلُقِ امرأَتِه أَعطاه اللهُ من الأجرِ مِثلَ ما

أَعطى أَيوبَ فى بلائه». «ومن صَبَرت على سوءِ خلقِ زوجِها أَعطاها اللهُ مثلَ ثوابِ آسيةَ امرأَةِ فرعون».

* * *

للدرس :

والله عز وجل يقول: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.
[النساء: ٣٤].

والمرادُ بالنشوزِ أَن تستعصِى المرأَةُ على زوجها، وتَنفِرَ منه، فإذا بَدَرتْ بَادِرَةٌ بذلك، يبدأُ الرجلُ بالعِظَةِ والتبصير، لترقيقِ القلبِ، والتعريفِ بالحقوقِ والواجباتِ، فإذا لم ينجحْ فى العظة، فالانصرافُ عنها فى المَضْجَع فى صَمْتٍ حتى تَثوبَ، وإلا فالتأْدِيبُ بالضرب غيرِ المُبرِّح، وغَيْرِ شديدٍ ولا مُؤَثِّرٍ، حين تَتَأَتَّى أَسبابُه، وحين يكونُ هو العلاجَ إذا لم تَنْفَع العظةُ والهجرُ.. ويتمُّ ذلك كلُّه مع الحِرصِ على كرامةِ البيتِ، وفى حدودِ الاعتدالِ والوقار.

وعلى الرجلِ مع حُسْن خُلُقِه مع زوجتِه أن يَحْتَمِلَ الأذى منها، فيقابلَ غضبَها وطيشَها بالحِلْمِ وَسَعَةِ الصدرِ رحمةً بها، وَرِقَّةً لضعفها، وقد كانت نساءُ النبىّ ﷺ تراجعْنَه الكلامَ ويصبرْ عليهن.

قال أَنسٌ: «كان رسول الله ﷺ أَرْحَمَ النَّاسِ بالنساءِ والصبيان».

وكان ﷺ يُطَيِّب قلوبَهُنَّ، ويمزحُ معهنَّ، كما أَكَّد الوصيةَ بِهِنَّ فى آخرِ حياتِه فقال ﷺ فى خطبة الوَدَاع: «واسْتوصُوا بالنساءِ خَيرًا، فإنهنَّ عندكم عَوَانٍ، ولا يملكْنَ لأنفُسِهِنَّ شيئًا، وإنكم إنما أَخَذْتُموهُنَّ بأَمانةِ اللهِ، واسْتَحْللتُم فُروجَهُنَّ بكلمةِ الله». [اللفظ عن ابن إسحاق/ سيرة ابن هشام].

وعوانٍ: جمعُ عانية: وهى الأسيرة، والكلام على التشبيه.

* * *

* * *

عظة «للدرس»:

إن العاقلَ ينبغي له ألّا يجعلَ الدنيا أكبرَ هَمّه، وأنْ يُوجّهَ هِمَّتَه لِما فيه مَرضاةُ رَبّه؛ لأن العُمرَ محدودٌ، وعملَ الإنسانِ محسوبٌ له أو عليه، وأنفاسَه فى هذه الحياةِ الدنيا مَعدودةٌ، ولا خلودَ لبِشَرٍ، وهذه حقيقةٌ نراها ونلمسُها، فلماذا الغفلةُ عن المصير، حتى نَزورَ القبورَ، ويندمَ النادمُ حيث لا ينفعُ الندم.

مَضَى الدهرُ والأيامُ والذنبُ حاصلٌ ... وجاءَ رسولُ الموتِ والقلبُ غافلٌ
نَعِيمُكَ فى الدُّنيَا غُرورٌ وحَسْرةٌ ... وعَيشُك فى الدُّنيا مُحَالٌ وباطلٌ

ولنتدبر الحديثَ الذى رواه أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه، حيث يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «يَتْبَعُ الميتَ ثلاثةٌ، فَيرجعُ اثنان، ويَبْقَى معه واحدٌ، يتبعُه أهلُه، ومالُه وعملُه، فيرجعُ أهلُه، ومالُه، ويَبْقَى عملُه». [فى الصحيحين].

تفكَّرتُ فى حَشْرِى ويوم قِيامَتِى ... وإصباحِ خَدِّى فى المقابرِ ثَاوِيَا
فَرِيدًا وَحِيدًا بَعْدَ عِزٍّ وَرِفْعَةٍ ... رَهِينًا بِجُرْمِى والتُّرابُ وِسَادِيَا
تَفكَّرتُ فى طولِ الحسابِ وَعَرْضهِ ... وَذُلِّ مَقَامِى حينَ أُعْطَى كِتَابِيَا
ولكنْ رَجَائى فيك رَبِّى وخَالِقِي ... بأنَّك تَغفِرُ يا إلهِى خَطَايِا

* * *

٥١ - إلى متى الغفلة؟

قال الله عز وجل: بِسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر].

أيها الْمُؤمنون:

جاءَ فى صحيح مسلم عن عبد الله بنِ الشِّخِّير رضي الله عنه قال، أتيتُ النبىَّ ﷺ وهو يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «يَقولُ ابنُ آدمَ: مَالى مَالى وهل لَّك يا بنَ آدمَ من مالِكَ إلا ما أَكلتَ فأفنيتَ، أَو لبِسْتَ فأَبليْتَ، أَو تصدَّقتَ فأَمضَيْتَ؟».

أَى إِنَّ كلَّ عَرَضٍ زائلٌ، إلا ما يُقدِّمه الإنسانُ من عمل صالحٍ، يرجو به وَجْهَ الله تعالى.

ولفظُ الحديثِ فى رواية أَبى هريرة: «يقول العبدُ: مالى مالى، وإنما له من ماله ثلاثٌ: ما أَكلَ فأَفنَى، أَو لبِسَ فأَبلَى، أَو تَصدَّق فاقْتَنَى، وماسِوَى ذلك فذاهبٌ وتَارِكُه للناس». [صحيح مسلم].

فكلُّ شىءٍ تَرَكَهُ الإنسانُ بعد موتِه، وكلُّ ما نفَع به جسمَه وهو حَىٌّ، كلُّ ذلك ذاهبٌ إِلا الصدقةَ الخالصةَ لوجْه اللهِ، فهى ذُخْرُه الذى ينفعُه يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أَتَى الله بقلب سليم.

ومعنى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ شغلتكم الْمُباهاةُ بكثرةِ المال وكثرةِ العَدَدِ عن طاعةِ اللهِ حتى متُّم، ودُفِنتُم فى المقابر.

وفيها - أَيضًا - معنى الحِرصِ على جمعِ المال، وصرفِ الجهدِ لتحصيله

وتركيزِ الفكْرِ حولَه، وانشغالِ القلبِ بِمصادره وموارِده، مِما قد يؤدِّى إلى الغفلةِ عن المصيرِ المحتومِ، ونِسيانِ الاستعدادِ لِما بعد الموت.

وهذا المعنى - يا أحباب الله - نجدُه فى الحديث الشريفِ الذى رواه أنسُ بنُ مالكٍ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «لو أَنَّ لابنِ آدمَ وادِيًا من ذَهَب، لأحبَّ أن يكونَ له وادِيان، ولن يملأَ فَاهُ إلا الترابُ، ويَتوبُ اللهُ على مَن تَاب».

ويدعونا الحبيبُ المُصطفى ﷺ إلى عدم الغَفْلةِ عن مَوقفِ العَبدِ بين يَدَى الربِّ للحساب، حيثُ يُسأَل عن شبابه فيما أبلاه، وعن عُمرهِ فيما أفناه وعن عِلمِهِ ماذا عَمِل به، وعن مالِه من أين اكتسبَه وفيما أنفقه، فقد رُوى أنه ﷺ قال حين قرأَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «تكاثُر الأموالِ جَمْعُها من غير حقِّها، ومَنْعُها من حَقِّها، وشَدُّها فى الأوعية».

فطوبى لِمن اتَّعظَ بِحالِ غيرِه، واعتبر بِمن صار تحتَ التراب، وانقطع عن الأهلِ والأحبابِ، بعد أن كان يصولُ ويجول وينافسُ الأصحاب، ويجمعُ الأموال، حتى جاءَه الموتُ فى وقتٍ لم يَحتسبْه، وخَرَج من الدنيا، وليس له منها إلا ما حدَّده العدلُ الإلهىُ فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

ولَمَّا كانتْ سُكنَى المقابرِ مؤقتةً، ومرحلةً تسبقُ البعثَ للحساب ثم الجزاء، عَبَّرت عنها الآيةُ الكريمةُ بالزيارة: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أى ألهاكم التكاثرُ، حتى أتاكم الموتُ فَصِرتُم فى المقابر زُوَّارًا، تَرجِعُون منها إلى منازِلِكُم المُعدَّةِ لكلِّ أحدٍ منكم، بحسبِ عملِه، فى الجنة أو النار، كما يرجع الزائرُ إلى منزله.

وفى هذا وعيدٌ للمُقْبِل على الدنيا، منشغلًا بها قلبُه عن المصير المحتوم، ثم جاءَ الردْعُ عن هذه الغفلةِ، والوعيدُ بعد الوعيدِ، الذى يُوقِظُ من غفلةٍ،

ويُنبّهُ من مَّنام، ويَزْدَعُ النفسَ عن غَيِّها، ويدفعُ العاقلَ إلى إيثار عملِ الآخرة، وإلى شكر المُنعمِ الوهَّابِ الرزَّاقِ، فيبذلُ من سعيه فى سبيل الخير، ويجعلُ من ماله نصيبًا لنُصْرة الحقِّ، والدعوةِ إلى دينِ اللهِ والمُحافظةِ عليه، هذا مع إكرام اليتيم، وَرِعايةِ الأراملِ، وكِفايةِ المُحتاجِ، وحَمْلِ الضعيف، ولنتدبرْ قولَه تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر].

يا أهل الإسلام:

نعم. إن الإنسانَ لو تَدبَّر فى أمر نفسِه، وفَكَّر تَفكيرًا سَديدًا فى مصيره ومآلِه، تفكيرَ طالبِ الحقِّ - لَعلِمَ أن الدنيا إنما تُطلب لغايات شريفةٍ ولتكونَ عونًا على طلب ما عند الله فى الآخرة، ليتَّخِذَها مَطِيةً لنعيم الآخرة، فيجعلَ رِزْقَه منها وَسيلةً يَتَقَوَّى بها على طلبِ العلم والقيامِ بالعمل، والنهوضِ بواجب الشكر لله على نِعَمِه، وطَلَبِ ما عِنْدَ اللهِ من الرحمةِ، والتجاوُزِ والمغْفِرةِ والنعيم.

إنَّ الإنسانَ إذا تدبَّر فى أمر نفسِهِ، وفى أحوال مَن سَبقوه، لَمَا أَلْهَاهُ التفاخُرُ والتكاثرُ عن طاعةِ الله والاستعدادِ للحساب.

إن العاقلَ البصيرَ هو الذى يحاسبُ نفسَه قبل أن يُحاسَبَ، ويُراجعُ أعمالَه قبل أن تُوزَنَ عليه، فالحسابُ آتٍ لا ريبَ فيه، وفى مَوقفِ السؤالِ والعَرضِ سَيُسأَل كلُّ إنسانٍ عن شُكْر ما أنعم اللهُ به عليه، يُسألُ الرجلُ، وتُسْأَل المرأَةُ عن النعيم؛ من الأمن، والصحةِ والفراغ، والإدراكِ بِحَواسِّ السمعِ والبصر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة، وأبو سعيد أن رسولَ الله ﷺ قال: «يُؤتَى بالعبد يومَ القيامة فيقول له: أَلَمْ أَجْعَلْ لكَ سَمْعًا، وبَصَرًا، ومَالًا، وَوَلَدًا»..

الحديث.

كما يُسأل المرءُ عن مَلاذِّ الَمأكولِ والمشروبِ، وعن ظِلَالِ المساكنِ وعن اعتَدالِ الخَلْقِ، ولذَّةِ النومِ، وعن صحةِ البَدنِ، وطِيبِ النفسِ.

وقد جاءَ فى الحديث الذى رواه أَبو هريرةَ قولُ النبىِّ ﷺ: «إن أَولَ ما يُسأَل عنه العبدُ من النَّعِيم - يَعنى يوم القيامة - أَن يُقال له: «أَلم نُصِحَّ لَكَ جِسْمَك وَنَروِكَ مِن الماءِ الباردِ؟»». [أخرجه ابنُ حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد].

نسأَل الله العونَ على طاعته، وأَن يجعلنا من الشاكرين.

فاتقوا الله - عبادَ الله - واشكروا له يَزِدْكم، واستغفروه يباركْ لكم، وتوبوا إليه فإِنه تواب رحيم.

* * *

للخطبة الثانية:

رُوى أَنَّ ابنَ عُمَرَ قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامةِ دعا اللهُ بعبدٍ من عبادهِ، فَيُوقِفُه بين يَدَيْهِ فيسأَلُه عن جَاهِه، كما يَسأَلُه عن مالِه» والجاهُ من نعيم الدنيا.

وخاض الناسُ فى مجلس رسولِ الله ﷺ فى ذِكْر الغِنَى فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا بأْسَ بالغِنَى لِمن اتَّقَى اللهَ، والصحةُ لِمن اتَّقَى الله خيرٌ من الغِنَى، وَطِيبُ النفسِ من النعيم».

ولنتدبر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

إنَّ نعمَ الله على عباده لا تُعدُّ ولا تُحصَى، وواجبُ العبدِ أن يشكرَ الله على هذه النعم: يشكره بالعقيدة الصادقةِ الصحيحةِ، وبالعملِ الصالح وإخلاصِ الطاعةِ لله، وكَفِّ الجوارحِ عن معاصى الله، وإنفاقِ المالِ فى وجوهه المشروعة، وكسبِه من حلال.

وإن كلَّ إنسانٍ سَيُسأَل يومَ القيامةِ عن النعيم، وأَما سؤالُ المُؤمنِ فتبشيرٌ بأَن يُجمعَ له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وأَما سؤالُ الجاحدِ الكافرِ فتقريعٌ وتوبيخٌ أَنْ قَابَلَ نعيمَ الدنيا بالكفر والمعاصى.

قال القُشَيرى: والجمعُ بين الأخبارِ أَنَّ الكلَّ يُسأَلون، ولكنَّ سؤالَ الكفارِ سؤالُ توبيخٍ؛ لأنهم قد تركوا الشكر، وسؤالَ المُؤمنِ سؤالُ تشريف؛ لأنه شَكَر، وهذا النعيمُ فى كل نعمة.

رُوِى أن النبىَّ ﷺ أَكَلَ هو وأَصحابُه تمرًا وَشربوا عليه ماءً فقال: «الحمدُ لله الذى أَطعَمنا وَسَقانا وَجَعَلَنا مُسلمين».

* * *

فوائد «للدرس»: الاستسقاء: [الصلاة والدعاء]

قعد النبى ﷺ على المنبر بالمصلَّى قبل صلاةِ ركعتين فقال: «الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمنِ الرحيم، مالِك يوم الدين، لا إله إلا اللهُ، يفعَلُ ما يُريد، اللهم أنتَ اللهُ، لا إله إلا أنت، أنت الغنىُّ ونحن الفقراءُ، أَنزِلْ علينا الغيثَ، واجْعَلْ ما أنزلتَ علينا قَوَّةً وبلاغًا إلى حين»، تقول عائشةُ رضي الله عنها راوية هذا الحديث: «ثم رفع يديه، فلم يزلْ حتى رُئى بياضُ إبطَيْه ثم حَوَّل إلى الناس ظَهْرَهُ، وقَلَبَ رِداءَه، وهو رافعٌ يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل، فصلَّى ركعتين» الحديث. .

[أخرجه أبو داود وقال: غريب وإسناده جيد].

صلاتها: وفى الصحيح من حديث عبد الله بن زيد المازنى: «فتوجَّه إلى القبلة يدعو، ثم صلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة». ولفظ البخارى: «فاستقبل القبلةَ وقلَب رداءه». أو «وحَوَّل رداءه» وهما بمعنى واحد. وتفسيره: جَعْلُ اليمين على الكتف الشمال والشمالِ على الكتف اليمين.

ومن دعاء الاستسقاء: نقل الإمام النووى فى الأذكار: «اللهمَّ اسْقِنا غَيثًا، مُغِيثًا، هَنيئًا، مَرِيئًا غَدَقًا مُجلِّلًا، سَحًّا، عامًّا، طبَقًا، دائمًا. اللهُمَّ على الظِّرابِ، ومَنَابتِ الشجر، وبُطونِ الأودية اللهُمَّ إنا نستغفِرُك إنك كنتَ غَفَّارًا، فأرْسِل السماءَ علينا مِدْرارًا، اللهُمَّ اسْقِنا الغيثَ، ولا تَجعلْنا مِن القانطِين، اللهُمَّ أنبتْ لنا الزرعَ، وأدِرَّ لنا الضَّرْعَ، واسْقِنا من بركاتِ السماءِ، وأَنبتْ لنا من بَرَكاتِ الأرض، اللهُمَّ ارْفَعْ عنَّا الجَهْدَ والجُوعَ والعُرْى، واكْشِفْ عنَّا من البلاءِ ما لا يكشِفُه غيرُك».

وغَدَقًا: كثيرًا فيه الخيرُ والنفع. ومَجلِّلًا: أى تُغطى البلادَ والعبادَ منافعُه، وسحًّا عامًّا: أى يقع على الأرض ويسيل فى جوانبها فيكون عامًّا شاملًا. والظِّراب: هى الآكام، الجبال الصغار. والقانطين: اليائسين. والجَهْد: المشَقَّة.

وفى رواية أنس فى الصحيحين: «اللهُمَّ أَغِثْنا، اللهُمَّ أَغِثْنا، اللهُمَّ أَغِثْنا».

وفى رواية المطلب بن حَنْطب فى مسند الإمام الشافعى أن النبى ﷺ كان يقول عند المطر: «اللهُمَّ سُقْيا رحمةٍ لا سُقْيا عَذابٍ، ولا بلاءٍ، ولا هَدْمٍ، ولا غَرقٍ، اللهم على الظِّراب، ومنابتِ الشجرِ، اللهمَّ حَوَالينا، ولا علينا».

وكان يقول: «اللهمَّ صَيِّبًا نافعًا». [من حديث عائشة فى الصحيحين].

فى رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «اللهمَّ اسْقِ عبادَك، واسْقِ بهائِمَكَ، وانشُرْ رحْمَتَك وأحْيى بَلدَك المَيِّتَ».

٥٢ - بالشكر تدوم النعم

الحمدُ لله، اللهُمَّ ربَّنا لك الحمدُ كما خَلقْتَنا، ورزقْتَنا، وهَدَيْتَنا وَعَلَّمتَنا وأَنْقَذْتَنا، وفَرَّجْتَ عنَّا، لك الحمدُ بالإسلام والقرآن، ولك الحمدُ بالأهلِ والمالِ والمُعافَاة، بسطتَ رِزْقَنا، وأَحْسَنتَ مُعَافَاتِنا، وَمِنْ كُلِّ - واللهِ - ما سألناكَ ربَّنا أعطيتَنا، فلك الحمدُ على ذلك حمدًا كثيرًا، ولك الحمدُ بكلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها علينا، ولك الحمدُ حتَّى تَرْضَى، ولك الحمدُ إذا رضيت.

أَحمدُه سبحانه وأستغفره، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، ربُّ الجودِ والكَرَم وأَشهدُ أن سيدَنا محمدًا رسولُ الله، دَعا إلى شُكر المُنعم، صلى الله عليه وعلى آله وأَصحابِه الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فيا أيها المُؤمنون:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال الرسولُ الحبيبُ ﷺ «لا يَرْزُقُ اللهُ عزَّ وجل عَبْدًا الشكْرَ فَيَحْرِمَهُ الزِّيادة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

[رواه يحيى بن عطارد القرشي عن أبيه عند ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر].

لقد أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا - يا عبادَ اللهِ - بِنِعَمٍ كثيرةٍ، وجَادَ بَخَيْراتٍ وفيرةٍ، أَعطى الله عز وجل الإنسانَ العقلَ، وَمَيَّزه به عن سائر الحيوان، وأَرسل لنا الرسلَ يُرشدون الخلقَ للحقِّ وخالصِ الإيمان، وَمَنَحَ الإِنسانَ القوةَ والعافيةَ، وصحَّةَ البدنِ وسلامةَ الأعضاءِ، وخَلَقَ له عينين، ولسانًا وشَفَتَيْن، وعَلَّمَه البيانَ والإفصاحَ عن قصدِه بالكلام، خَلَقَ لنا أَرضًا تُقِلُّنا وتُنْبِتُ لنا الزرعَ والزيتونَ والنخيل والأعناب، ومن كلِّ الثمرات، ونَسْتَخرِجُ منها المعادنَ، وَتَجْرِى فيها الأنهارُ، وتنبعُ الآبارُ بالماءِ الزُّلال، خلق لنا سماءً تُظِلُّنا، فيها

الشمسُ والقمرُ والنجومُ مُسَخَّراتٌ بأَمرِه، تُمِدُّنا بالنورِ والضِّياءِ والحرارة، وفيها جمالٌ، وقدرةٌ وإِتقان، فسبحان الخالقِ الوهابِ.

إنّ اللهَ هو الذى أَوْجَدنا، وأَنْعَم علينا، وأَطعَمَنا وسَقَانا، ورَزَقَنا وكَسَانا، وأَخْضَع للإِنسان أَغلبَ الكائناتِ، وسَخَّر لنا الحيوان، وفَضَّلنا على كثيرٍ من خَلْقِهِ، وهَدانا للإِسْلامِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فوجَب علينا - يا أحباب الله - شُكرُ المُنْعِم سبحانه وتعالى على ما أَنعَم، وهو سبحانه الغَنىُّ عن عباده، وهَبَهمُ الخيرَ وهو ليس فى احْتياجٍ إِليهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

وقد أَمر اللهُ عبادَه بشُكره سُبحانه وتعالى ليؤْمِنُوا بفَضْلِهِ، ويَعْلمُوا أَنَّ كلَّ خيرٍ هو مُعْطِيه، وكلَّ فَضْلٍ هُو مُوليه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾. [النحل: ٥٣].

أَمَر اللهُ عبادَه بشكرِه ليعلموا أَن العبدَ ليس بيدِه أَمرٌ ولا نَهى، إِنَّما هو سببٌ من الأَسباب، وأَنَّ الناسَ لا يملكون لأَنفسهم نفْعًا ولا ضَرًّا، ولا حياةً ولا موْتًا، وأَن اللهَ وحْده هو الرزاقُ ذو القوةِ المَتين، يُعطى ويمنعُ، ويَبسطُ الرزقَ لِمن يشاء ويَقْدرُ، ويُغنِى ويُفقِر، فالشكرُ تقديسُ اللهِ وتوحيدُه، وإِفرادُه بالعبودية، وتَنزيهُه وتمجيدُه، ولذلك قرن اللهُ الشكرَ بالذِّكْر، وأَمرنا به فقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة]. وقال سبحانه: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والشكرُ لا يَكفى فيه الثناءُ باللسان، والمدحُ بالقولِ والكلامِ، فالعبدُ لا يكونُ شاكرًا حقًّا، إلا إذا بَرْهَنَ عملُه على الإِقرارِ بالنعمةِ، ونَطَقَتْ أَفعالُه

بتقدير الْمِنَّة، لن يكونَ العبدُ شاكرًا إلا إذا اشتركت جوارحُه فى الشكر وساهمتْ أعضاؤه بالتَّسبيح والحمد، فالشكرُ صَرْفُ النِّعَم فيما خُلِقَتْ له واستعمالُها فيما شُرعت لأجله؛ لتظهرَ فائدتُها، وتتمَّ حِكمتُها، ويَجْنى العبادُ منافعَها، فإن شكرتَ بقلبك، ولسانِك، وعملِك، فأنت من الفائزين بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]. وقال سبحانه: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾. [آل عمران: ١٤٥].

قال بعضُ الصَّالحين: «.. من شكر بلسانه، ولم يَشكر بجميع أعضائِهِ، فَمَثلُه كمثَل رجُلٍ له كساءٌ، فأَخذَ بطرفه، ولم يَلْبسْه، فلم يَنفعْهُ ذلك من الحرِّ والبَردِ والثَّلْجِ والمطَر»، وقال: «كُلُّ نِعْمةٍ لا تُقرِّبُ من اللهِ فَهى بَلِيَّة».

ياعبادَ الله:

إن العبدَ الذى يُطِيع ربَّه، ويجتنِبُ معاصِيَه، وينتفعُ بالنعَم فيما خُلِقَت لأجلِه، ويَلْهَج لسانُه بذكرِ مولاه وحمدِه، إنما يُبَرْهِنُ بذلك عن فهمِه للنعمة وشكرِه للمُنعم عز وجل.

إن العبدَ إذا شَكَر النعمةَ فقد نفع نفسَه، بأن وجَّه النعمةَ وِجْهةَ الخيرِ والنفعِ، واستعملها فيما يُسعِدُه، ويُسْعِدُ العبادَ، وبالشكرِ تستقيمُ الأمورُ وتَنعدِمُ الشرورُ، ويضْعُفُ الباطلُ والزور، قال عزَّ وجلَّ على لسان سُليمانَ عليه السلام: ﴿... قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

إن الله عز وجل غنىٌ ونحن الفقراء، وهو سبحانه لا تنفعُه طاعةُ مَن أَطاع، ولا تضرُّه معصيةُ من عَصى، فمن شَكر نِعمةَ رَبِّه حَظِى برضوانه وفاز برحمته، قال الله عز وجل: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن

﴿تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ [الزمر].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ من أَعْطِيَهُنَّ فقد أُعْطِى خَيْرَ الدُّنيا والآخرةِ: قَلْبٌ شاكرٌ، ولسَانٌ ذَاكِرٌ، وبَدَنٌ على البلاءِ صَابرٌ، وزَوْجةٌ لا تَبغِيه حَوْبًا فى نفسِها ولا مالِه».

[ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر وأخرجه الطبرانى بإسنادٍ جيد]. وفى لفظ الترغيب والترهيب: «لا تبغيه حَوْبًا . .» أى لا تؤذيه بكثرة متطلباتها.

إن نعمَ الله عز وجل علينا لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فَطُوبى - ياعبادَ اللهِ - لِمن عرفَ فَضْلَ ربِّهِ، فوحَّده، وعبدَه وأَطاعه، وشكَرَه وكفَّ جوارِحَه عن معاصيه.

قال ﷺ: «من ابْتُلى فَصَبر، وأُعْطِى فَشَكَر، وظُلِمَ فَغَفَر، وظَلَمَ فاسْتَغْفَرَ، ثم شَكَر، ثم سَكَتَ، قالوا: ما لَهُ يارسولَ الله؟ قال: ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. [رواه شُجيرة رضي الله عنه / كتاب الشكر لابن أبى الدنيا].

فاتقوا الله - عباد الله - وتوبُوا إليه لعلكم ترحمون.

* * *

للخطبة الثانية:

قال أَبو الدرداء: «مَن لَّمْ يَعْرِفْ نِعْمةَ الله عليه إلا فى مَطْعَمِهِ ومَشْرَبِهِ فقَدْ قَلَّ عِلْمُه، وحضر عذابُه . .». [كتاب الشكر لابن أبى الدنيا].

وفيه قال عبدُ الله المُزنى: «يا بنَ آدمَ إن أَردتَ أَن تعلَمَ قَدْرَ مَا أَنعم الله عليك فَغَمِّضْ عيْنَيك»، ورُوى أَن داودَ عليه السلام قال: «رَبِّ أَخْبِرْنى، ما أَدْنَى نِعَمِكَ عَلَىَّ.؟. . فأَوحى الله إليه: يا داودُ تَنَفَّسْ، فَتَنَفَّسَ فقال: هذا أَدْنَى نَعْمَتِى عليك.»، وفيه أيضًا: عن أبى هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «انظُروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنكم، فإنَّه أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَروا نِعْمَةَ اللهِ عليكم»،

ولفظُه عنه فى البخارى: (إذا نَظَر أحدُكم إلى مَن فُضِّل عليه فى المَالِ والخَلْقِ؛ فَلْينظُرْ إلى مَن هُو أسفلُ منه»، إن الإنسانَ العاقلَ إذا تفكَّر فى ذلك، عَلِمَ أنَّ نِعْمةَ اللهِ وصَلَتْ إليه دُون كثيرٍ غيرِه، فيُلْزِمُ نَفْسَه بِمزيدٍ من شُكرِ المُنْعِم، ويعظُم رِضَاه وسُرورُه بذلك، قال ﷺ: «مَنْ أَصبَح آمِنًا فى سِرْبِه، مُعَافًى فى بَدَنِه، عِنْدَهُ قوتُ يومِه فكأَنما حِيزَتْ له الدُّنيا بِحَذَافِيرِها». [رواه الترمذى وابن ماجه] وما أعظَمَها من نِعَم؟ وطوبَى لِمن يَعرفُ قَدْرَها ويُحافظُ عليها. ثلاثةٌ ليس لها نهايةٌ الصحةُ والأمنُ والكفايةُ، وعن مُعاذٍ أن رسول الله ﷺ أتى على رجلٍ وهو يقول: اللهمَّ إنى أسأَلُك تمامَ النعمةِ، فقال: «ابنَ آدمَ، هل تَدرى ما تمامُ النعمة؟» قال: يارسولَ الله: دعوةٌ دعوتُ بها أَرجو الخيرَ بها، فقال: «إن من تمام النِّعْمَةِ فوزًا منَ النَّار، ودخولًا إلى الجنَّةِ». [كتاب الشكر]. وفيه أَنَّ النبىَّ ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى الصلواتِ الخَمْسَ، فقد شكَرَ الله وَمَنْ دعا لوالديه فى أَدْبَارِهِما، فقد شَكَرَهما..».

* * *

فائدة للدرس: فى صلاة الكسوف:

فى الحديث المُتفق عليه عن المُغيرة بن شُعبةَ ﷺ قال: «انكسفت الشمس على عهد رسولِ الله ﷺ، يومَ مات إبراهيمُ - أى ابن الرسول - فقال الناس: انكسفت الشمسُ لِمَوْتِ إبراهيمَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إن الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ اللهِ لا ينكسفانِ لِموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما، فادعوا الله وصلُّوا، حتى تَنكشِفَ» أو: «حتى تنجلِى».

[كما عند البخارى والمعنى واحد، وجاء بمعناه عن أبى بَكرة وعائشة وأبى موسى وغيرهم].

وفيه مشروعيةُ الصلاةِ عند كسوف الشمس أو خسوف القمر، والإلحاحُ بالدُّعاء حتى ينكشفَ ما وقع منهما، ويرتفع ماحلَّ من كسوف أو خُسوف: وهى ركعتان: فى كل ركعة ركوعان وسجودان، وفى الحديث المُتفق عليه عن عائشة ﷺ: «أن النبىَّ ﷺ جَهَرَ فى صلاة الكسوفِ بقراءته، فصلَّى أربعَ ركعاتٍ فى ركعتين، وأربع

سَجَداتٍ». [وهذا لفظ مسلم]. وفى رواية عبد الله ابن عمرو عند البخارى: «فبَعثَ مناديًا يُنادى: «إنَّ الصلاةَ جامعةٌ». ومعنى صَلَّى أَربعَ ركعاتٍ فى ركعتين: أى: ركع ركوعين فى كل ركعةٍ منهما، كما سجد سجدتين فى كل ركعةٍ منهما - كما هو المعتاد فى سجودِ الصلاة.

كيفية صلاة الكسوف: صلاةُ الكسوف ركعتان، فى كل ركعةٍ قيامان، وقراءتان، وركوعان، أمَّا السجودُ فسجدتَان فى كل ركعةٍ كغيرها من الصلوات.

[وهذا مذهب جمهور أهل العلم].

وفى الحديث السابق: مشروعيةُ الجهر بالقراءة فى صلاة الكسوف، وكذلك فى صلاة الخسوفِ على الأظهر من آراء العلماء فى الجهر والإسرار، ويُسنُّ إطالةُ القراءةِ فى صلاة الكسوفِ فى القيام الأول، ثم فى الثانى على نحو أقل من القيام الأول، على أن تراعى زيادةُ الطمأنينةِ فى الركوع والسجودِ، والطمأنينةُ فى الجلوس بين السجدتين، وللإمام إذا فرغ من الصلاةِ أن يستقبل الناسَ، فيذَكِّرَهم ويُخوِّفَهُم، ويوصِيَهم بكثرة الدعاءِ والتكبير، والاستغفار، وبأن يتصَدَّقوا، ففى حديث أبى موسى عند البخارى: «فافزعُوا إلى ذِكْرِ الله ودعائه واستغفاره». وفى حديث ابن عباس رضي الله عنهما المُتفق عليه بعد أن وصف صلاته ﷺ قال: «ثم انصَرفَ وقد انجلتِ الشمسُ، فخطب الناسَ» فذهب بعضهم إلى مشروعية الخطبة بعد الصلاة، وذهب الشافعى وبعض أئمة الحديث إلى استحباب الخطبة؛ وجاء عند مسلم من حديث فاطمة عن أسماء قالت: «فخطب رسولُ الله ﷺ الناسَ فَحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ، فما من شىءٍ لم أكن رأيته إلا قد رأيتُه فى مَقَامى هذا، حتى الجنةَ والنار، وإنه قد أُوحى إلىَّ أنّكم تُفْتَنون فى القبور مِثل فتنةِ المسيح الدجَّال، فيؤتَى أحدُكم فيُقال: ما عِلْمُك بهذا الرجل؟ فأَمَّا المُؤمنُ فيقول: هو محمدٌ رسول الله جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وأطعْنا - ثلاث مرات - ثم يُقال: نَمْ، قد كُنَّا نعلم أَنَّكَ تُؤمنُ به، فَنَمْ صالحًا».

ومن هذه الروايةِ وغيرها رأى بعضُ أهل العلم مشروعيةَ الخطبة بعد صلاة الكسوفِ. «والله أعلم».

٥٣ - فى الاستغفار بركات الدين والدنيا

قال الله تعالى من سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

أيها المُؤمنون:

إنَّ الغُفرانَ من اللهِ تعَالى أن يَصُونَ الربُّ عبدَه من أن يَمَسَّه العذابُ والاستغفارُ من العبدِ طلبُه ذلك من الله عز وجل.

والله رحيمٌ بعباده كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر] خلقهم سبحانه وهو يعلمُ ضعفَهم، ففتح لهم بابَ الرجاءِ فى عَفْوِه ومغفرتِه، وأَمرهُم أَن يلجئوا إلى سَاحاتِ كَرَمِه، وجودهِ طالبين تكفيرَ السيئاتِ وسَتْرَ العوْراتِ وقبولَ التوب.

ومن رحمة الله بعبادِه شمولُ عفوِه مرتكبَ المعصيةِ، كما شمِلَ عفْوُه الظالِمَ نَفْسَه بإلحادِه وشركِه، إذا تاب وأَقلعَ، واستغفرَ ربَّه من سالِفِ ذنوبه، وأَخلص الإيمانَ لله، وعزم على توبة نَصُوح، ولم يثبُتْ على شِركِه أو معاصيه، ولم يُصِرَّ على ما هو عليه من خلاف ومعانَدَة.

فمن تاب واستغفر تاب الله عليه، والحقُّ تبارك وتعالى يقول فى صفات المُتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

فالاستغفارُ عظيمٌ وثوابهُ جَسيم، وفى بيانِ ثواب المُستغفرين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

وما أعظمه من جَزاء! وروى الترمذيُّ عن بلال بن يسار بن زيد قال: حَدَّثنى أبى عن جَدِّى: أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قال: أستغفِرُ اللهَ العظيمَ الذى لا إله إلا هُو الحىَّ القيومَ وأتوبُ إليه، غُفِرَ له وإن كانَ قَد فَرَّ من الزَّحْف».

[قال الحافظ: إسناده جيِّد متَّصل].

وروى أبو بكر الصديق ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «عليكم بلا إله إلا اللهُ والاستغفارِ فأكثِروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكتُ الناسَ بالذنوب وأهلَكُونى بلا إله إلا اللهُ والاسْتغفارِ، فلمَّا رأيتُ ذلك أهلكْتُهم بالأهواءِ فهُم يَحسَبُون أَنَّهم مُهتدُون».

وفى المسندِ عن أبى سعيد أن النبىَّ ﷺ قال: «قال إبليسُ: يَاربِّ وعِزَّتِكَ لا أزالُ أُغْوِى عِبَادَكَ مادامَتْ أرواحُهم فى أَجْسَادِهم، فقال الله: وعِزَّتى وَجَلالى وَلَا أزالُ أَغْفِرُ لهم ما اسْتغْفَرُونى». [وقال الحاكم: صحيح الإسناد].

فطوبى لِمن عرف أَن له ربًّا غفورًا رحيمًا يقبل عباده إذا أَقبلوا إليه نادمين، وطرقوا بابه باكين مُستغفرين، وقد أَمر بذلك نبيَّهُ والمُؤمنينَ، فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

والاستغفار إذا كثُر من الأمة، وصدر عن قلوب موقنةٍ مُخلِصَة، دفع اللهُ عنها ضُروبًا من النِّقَم والشرور العامةِ، ولنتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

فالناسُ فى أمانٍ من العذاب الشامل ما كان نبيُّهم بين أظهُرِهم، وما كان فيهم مُستغفرون قلوبُهم مُخلِصَة.

ولذا قال ابنُ عباس: «لم يعذِّب الله أهلَ قريةٍ حتى يخرجَ النبىُّ منها والمُؤمنون ويلحقوا بحيث أُمروا». وإن الأنبياءَ خُتموا بالنبى محمد ﷺ، وقد

لحِقَ بالرفيق الأعلى، وبقى للناس التوبةُ والاستغفارُ، وإخلاصُ المحبةِ لله، وصدقُ الرغبةِ فى طلب البركةِ وتخليصِ المهجةِ من العذاب.

وفى الحديث الذى رواه أنسٌ قال: سمعتُ النبى ﷺ يقول: «إن الله يقول: إنى لأَهِمُّ بعذابِ أَهلِ الأرضِ، فإذا نظرتُ إلى عُمّارِ بُيوتى وإلى المُتَحابِّين فِيَّ وإلى المُتهَجِّدِين، والمُسْتَغْفِرين بالأسحار، صَرَفْتُ عنهم العذابَ بِهِم»... فما أَعْظَمَ رحمةَ اللهِ وكرَمَهُ!.

وإنَّ المُستغفرينَ - يا أهلَ الإيمان - مَحِلُّ رِعايةِ الله، وأَهلٌ لِحفْظه ورَحمتِه، وقد أثنى اللهُ عزَّ وجل على عبادِه المُتقِينَ المُداومِين على الاستغفارِ، خصوصًا وقتَ السَّحَرِ، ففيه يكونُ الدعاءُ والاستغفارُ أَرْجَى للقبول، ولنتدبر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

وهذا فى صفات المُتقين الذينَ هُم أَهلُ الكرامةِ والرحمةِ والنعيمِ الدائم، وفيهم أيضًا يقول عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

وفى الحديث: «يَنزِل رَبُّنا فى كلِّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا، حين يَبْقَى ثلثُ اللَّيلِ الآخرُ فيقول: هل من سائلٍ فأُعطيَهُ؟ هل من داعٍ فأَستجيبَ له؟ هل من مُسْتَغفِرٍ فأَغْفِرَ له؟». [رواه أبو هريرة وجاء فى الصحيحين والموطأ].

وكان النبى ﷺ يُوصى أُمتَه بالاستغفار، ويحثها عليه ليتوبَ الكافر، ويستغفرَ ربَّه لِما سلف، وليُقْلِعَ العاصى ويستقيمَ، وقد أَمره ربُّه أن يقول للناس: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم

مَتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٢-٣].

فمِن ثَمراتِ الاستغفارِ وَبَركَاتِه أنه يكون سَببًا فى أن يُمَتِّعَ اللهُ المُسْتَغفِرين بالمنافِعِ مِن سَعَة الرزقِ ورَغَدِ العيشِ، ولا يَستأْصلَهُم بالعذابِ كما فَعلَ بالأمم التى عاندتْ وأَصرَّتْ على الكفر، ولذا حذَّر اللهُ سبحانَه من الإصرار على الشِّركِ بعد الحثِّ على الاستغفار، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى يأمر نبيَّه ﷺ بإنذارهم: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦].

وقد جاءَ فى نصيحة هود عليه السلام قولُه لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

فالاستغفارُ - يا أهل الإيمان - مع الإقْلاع عن الذنوبِ سَببٌ للخِصْبِ والنَّماءِ، ولكثرةِ النسل وزيادةِ العزة والمنعَةِ.. وفى دعوة نوح قومَه ونُصْحِه لهم نسمعُ الله عز وجل يقول: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

ففى الإيمانِ رَحمةٌ بالعبادِ، وفى الاستغفارِ بركاتُ الدِّينِ والدُّنيا، وفى الحديث الذى رواه ابنُ عباس: «مَن لزِمَ الاسْتغفارَ جَعَلَ اللهُ له من كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومِن كُلِّ ضِيقٍ مَّخرجًا، وَرَزقَهُ من حيثُ لا يحتسب».

[أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وقال الحاكم: صحيح الإسناد].

وهذا نبىُّ الله صالحٌ عليه السلام يطلب من قومه أن يستنزلوا رحمةَ الله عليهم بالاستغفار فقال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل].

أى هَلَّا تتوبونَ إلى الله من الشِّرْكِ لِكَى تُرحَمُوا.. وبيَّن لهم أن الله قريبٌ

منهم، يُجيب مَنْ دعاه، ولا يُخيِّب من رجاه، ليفتحَ أمامهم بابَ الأمل إن كانوا يائسين فقال صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾.
[هود: ٦١].

وهذا شُعيبٌ عليه السلام يرى قومَهُ على أسوأ الأخلاقِ مع الشركِ والإلحادِ، فَيُلحُّ فى نُصحهم، للإقلاع عَمَّا هم فيه من عَمَى بصائرَ وضلال، ويُبشرهم بأن ربَّهم رحيمٌ بعباده ودودٌ، يَرضى عن عباده الصالحين، ويُكفِّر عنهم مامضى من سيئاتهم، إذا أَخلصوا النيةَ والتوجُّهَ إليه، ولنتدبر قولَ شعيب لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠﴾ [هود].

فاتقوا الله واستغفروه يغفر لكم وتوبوا إليه لعله يرحمكم.

* * *

للخطبة الثانية: يا أحباب رسول الله:

ما أَعظمَ بركاتِ الاستغفارِ، به تُستنزَلُ الرحماتُ، وتبارَكُ الأرزاقُ، وتَكْثُر الخيراتُ، ويُعْطِى الله الأموالَ والبنين، وَيغْفِرُ الذنوبَ، ويمنحُ القوةَ والسدادَ والرشادَ.. وفى الحديث الذى رواه علىٌّ رضي الله عنه: «ما مِن عبدٍ يُذنِبُ ذَنبًا فيُحْسِنُ الطُّهورَ، ثم يقوم فَيُصَلِّى ركعتين، ثم يستغفرُ الله عزَّ وجلَّ إلَّا غَفَرَ له». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران].

روى على بنُ أَبى طالب رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ أَخذ بيده ثم قال: «أَلا أُعلمُك كلماتٍ تقولهنَّ لو كانت ذنوبُك كَمَدَبِّ النمل - أَو قال: كمدب الذرِّ - لغفرها الله لك على أنه مغفورٌ لك: اللهمَّ لا إِلهَ إلا أَنت سُبحانك

عَمِلْتُ سُوءًا، وظَلمتُ نَفْسِى، فاغْفِرْ لى، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أَنت».

وعن أَبى هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «والله إِنِّى لأَسْتَغفِرُ اللهَ، وأَتوبُ إليه فى اليومِ أَكثرَ من سبعين مرةً». [صحيح البخارى].

وعن شَدَّادِ بن أَوْسٍ فى الصحيح عند البخارى أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «سَيِّدُ الاسْتغفارِ أن تقولَ: اللهمَّ أَنْتَ رَبِّى لا إلهَ إلا أَنتَ، خَلَقْتَنى وأَنا عبدُك، وأَنا على عَهْدِك وَوَعْدِك ما اسْتَطَعتُ، أَعوذُ بِكَ من شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَك بنعْمَتِكَ عَلىَّ، وأَبوءُ بِذَنْبى، اغفِرْ لى، فإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا أَنْت». وجاء فى رواية: «مَن قاله من النهار مُوقنًا بِهِ، فماتَ من يومِه قبلَ أَن يُمْسِى، فَهُوَ من أَهلِ الجنَّة، ومن قاله من الليلِ وهو مُوقِنٌ به، فماتَ قَبل أَن يُصْبحَ، فهُو من أَهلِ الجنَّة».

وجاء عن أَبى موسى الأَشعرىِّ أَنه ﷺ كان يقول: «اللَّهمَّ اغفرْ لى خَطيئَتى وجَهْلى، وإِسرافى فى أَمرى، وما أَنت أَعلمُ به مِنِّى، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى هَزْلى وجِدِّى وَخَطَئِى وعَمْدى، وَكُلُّ ذَلكَ عندى». [متفق عليه].

وفى آخرِ الصلاة - كما فى صحيح مسلم عن علىٍّ ﷺ -: «اللهمَّ اغْفِر لى ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أعلنتُ، وما أسرفتُ، وما أَنت أَعْلَمُ بِهِ منِّى، أَنت المُقَدِّمُ وأَنت المُؤَخِّرُ لَا إِله إلا أَنت».

[وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة].

فاتقوا اللهَ - عبادَ الله - واستغفروه يغفر لكم، وتوبوا إِليه، وسلوه من فضله يُعْطكم.

* * *

٥٤ - ذِكرُ اللهِ يُحيي القلوب وتُستنزل به الرحمات

قال الله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة].

يا أهلَ الإيمان:

أَمرَ اللهُ تعالى عِبادَه بأَن يذكُروه، ويَشكُروا له، كما أَمَرهم بأن يُكثِروا مِن ذِكرِه، وشُكرِه على ما أَنْعَمَ بِه عليهم، يقول عزَّ وجل من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ [الأحزاب]. وأَصْلُ الذِّكر التنبُّهُ بالقلبِ للمذكور، والتيقُّظُ له، وَسُمِّى الذِّكْرُ باللسانِ ذِكرًا؛ لأنه دِلَالةٌ على الذِّكر القَلْبِيّ.

وجاءَ فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

اذكرونى بطاعتى، أذكركم بثوابى، ومغفرتى، وَمعونتى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، فذِكْرُ الله يقتضى ذِكْرَ أَمرِه ونهْيِه، والوقوفَ عند حدوده، ولُزومَ طاعتِه، فمن لم يُطِعْه سبحانه لم يذكرْهُ، وإِن أَكثَر التسبيحَ والتهليلَ وقِراءَةَ القرآن، كما قال سعيد بنُ جبير.

وجاءَ كذلك فى تفسيره:

* فاذكرونى بالدُّعاءِ اذْكُرْكُم بإِعطاءِ الآلآءِ والنَّعْمَاء؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

* واذكرونى بالإحسان أَذكُرْكُم بالرحمةِ؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

* واذكرونى بالاستغفارِ أَذكُرْكُم بِغُفْرَانِ ذُنوبِكم والتجاوُزِ عن سَيِّئاتِكُم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا

رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

* واذكُرونى بالصَّبر أذكرْكم بأوْفَى الأجْر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

* واذكُرونى بالتوكُّلِ وتَفويضِ أُمورِكم إلىَّ أَذكُرْكم بالكِفَاية؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

فَمِن فضْلِ اللهِ وإحسانِه ورحمتِه بعبادِه الذَّاكرين، أنه يَمنحُهم الخيراتِ والكَراماتِ، ويُحْسِنُ إليهم بالمثوباتِ، وبإجابةِ الدعاءِ، واللُّطفِ فى القضاءِ وبالهدايةِ والكفايةِ والرِّضوانِ، وبالعفوِ والغُفرانِ جزاءَ ذِكرِهم له، وطاعتِهم إياه، وإنابتِهم إليه وإخلاصِهم، وتفانيهم فى محبتِه سبحانه، وَصِدْقِهم فى العُبوديةِ له تعالى.

يا أيها المُؤمنون:

إن المُؤمنَ مُطالَبٌ بأَن يذكرَ الله عز وجل على كلِّ أَحيانه، يَذْكُره فى خَلْوته وعند اخْتِلاطِه بالناس، لا يَفْتُرُ عن تمجيدِ اللهِ وتقديسِه، وتَسبيحِه وتهليلِه والثناءِ عليه بجميعِ محامِدِه، وعلى المُؤمنِ أَن يستحضرَ عظمةَ الله وسلطانَه فى قلبه دائمًا، وأَن يتفكَّرَ فى مخلوقات اللهِ الدَّالةِ على وجودِه وقُدرتِه المُطْلَقةِ ووحْدانيتِه، وقد مَدَح اللهُ أُولى الألبابِ بأَنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «لم يفرض الله تعالى فريضةً على عباده إلا جَعلَ لها حدًّا مَعْلومًا، وعَذَر أَهلَها فى حالِ العُذرِ غيرَ الذِّكْرِ، فإنَّه لم يَجعلْ له حدًّا ينتهى إليه، ولم يَعْذُرْ أَحدًا فى تَركه إلا مغلوبًا على عقلِه، فلذلك أَمَرهُم به فى كلِّ الأحوالِ فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. وقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] أى

بالليلِ والنهار، فى البَرِّ والبحْرِ، والسَّفَرِ والحضَرِ، والغِنَى والفقْرِ، والمَرضِ والصِّحةِ، وفى السِّرِّ والعلانيةِ.

وإنَّ السَّاعةَ التى تَمرُّ بابنِ آدمَ، لا يذكرُ فيها رَبَّه، سيندمُ عليها، يومَ لا ينفعُ الندم فقد جاءَ فى الحديث الذى روته أُمُّ المُؤمنين عائشةُ رضي الله عنها: «ما مِنْ سَاعةٍ تَمرُّ بابنِ آدمَ لم يذكرِ اللهَ فيها بِخَيرٍ، إلَّا تحسَّرَ عليها يومَ القيامة».

[أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى وله شواهدُ من حديث معاذ].

وفيه: «ليس يتحَسَّرُ أَهلُ الجنَّةِ على شيء إلا على ساعةٍ مَرَّتْ بهم لم يذكرُوا اللهَ تعالى فيها». [أخرجه الطبرانى والبيهقى].

وقد حذَّرنا الله من الغفلة عن ذِكره فقال من سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

وإن الغفلةَ عن ذكرِ الله عز وجل لَمِنْ صِفَات المُنافقين، ، وقد ذمَّهم الله لذلك فقال: ﴿... وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وكان داودُ عليه السلام يخافُ على نفسه من مُخالطةِ الغافلين عن ذكر الله ومن دعائه: «إلهى إذا رأيتَنى أُجَاوزُ مجلسَ الذاكرين إلى مجلسِ الغافلين، فَاكسِرْ رِجْلِى دُونَهُم؛ فَإنَّها نِعْمةٌ تُنْعِمُ بِها عَلىَّ».

يا عباد الله:

وإنَّ ذِكْرَ الله عزَّ وجلَّ يشملُ ذِكرَ عقابِه ووعيدِه وانتقامِه، فيتيقظُ الضميرُ وتنمو مَلَكَةُ المُراقبةِ فى النفس، ويمتلئُ القلبُ خشيةً من الله، فيكفُّه ذلك عن المعاصى، ويردعُه عن الشر ؛ قال الحسن: الذِّكر ذِكْران؛ ذِكْرُ الله عزَّ وجلَّ بينَكَ وبين اللهِ عز وجل، وما أَحسنَهُ وأَعظمَ أَجْرَهُ، وأَفضَلُ من ذلك ذِكرُ الله سبحانه عند ما حَرَّم الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

أى: إذا أَلَمَّ بِهم شىءٌ قليلٌ من وسوسة الشيطان، بفعل المعاصى، أو تركِ الطاعاتِ، تذكَّرُوا الله وعِقابَه للعاصين، ومثوبتَه للطائعين، فإذا هم مُبصرون الحقَّ، فيرجعون إلى طاعة الله، وما يُرْضيه تاركين ما يُغضبه من معاصيه.

وإذا ذَكَر المُؤمنُ رحمةَ الله وعفوَه وجودَه، اطمأَنَّ قلبُه، وقَوى رجاؤُه فى عَفْو الله وفى قبولِ التوبةِ والعمل الصالح، ولنتدبَّرْ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

وإنَّ فى الإعراض عن ذِكْرِ الله حِرمانًا من هذه الثمراتِ العظيمةِ ومن هذا الخير الكثير، كما أن فى تركِ الذكرِ بلاءً عظيمًا وشرًّا جَسِيمًا، ولْنتدبرْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون]، أى: من يشتغلْ بالولدِ والمال عن إدامةِ الذكرِ وطاعةِ الربِّ، فأُولئكَ هُم الخاسرونَ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]. أى عذابًا شاقًّا مُؤلِمًا.

فطُوبى لِمن شُغِل قلبُه ولسانُه بذكر الله عز وجل، فَذِكْرُ اللهِ من أَعظمِ النِّعم: فقد رَوىَ أَبو ذَرٍّ ﷺ أن النبىَّ ﷺ قال: «ما مِنْ يوم وليلةٍ إلا ولله عزَّ وجَلَّ فيه صَدَقةٌ يَمنُّ بها عَلَى مَن يَشَاءُ من عبادِه، وَمَا مَنَّ الله على عبدٍ بأَفضلَ مِن أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ». [أخرجه ابنُ أبى الدنيا].

فاتَّقُوا الله - عبادَ الله - واذكروه يذكركم، واشكروا له يَزِدْكم، وتُوبوا إليه يَتُبْ عليكم.

❊ ❊ ❊

للخطبة الثانية:

يقول معاذُ بن جَبَل ﷺ : إنَّ آخرَ كلامٍ فارقتُ عليه رسولَ الله ﷺ أنِّى

قلتُ: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى الله؟ قال: «أن تموتَ ولسانُكَ رَطْبٌ مِن ذِكْرِ الله». [لفظ الطبراني وجاء عند غيره].

هذا وفى الحديث القدسىّ يقول ربُّ العِزَّة: «إنَّكَ إنْ ذَكَرْتَنى شَكرتَنى، وإذَا نَسِيتَنى كَفرتَنى». [رواه أبو هريرة وأخرجه الطبرانى فى الأوسط].

يا أحباب الله:

إنَّ ذِكْرَ اللهِ مِن أعظَمِ القُرُبات، ومن أَقوى الأسبابِ المُوصلةِ إلى محبة الله، وبالذكر تُسْتَدْفَعُ الآفاتُ، وَتُسْتَنْزَلُ الرحَماتُ، قال معاذ: «مامِن عَمَلٍ أَنْجَى من عَذَابِ الله مِن ذِكْرِ الله» واللهُ عزَّ وجل مع عبدِهِ المخلصِ فى الطاعة، المداومِ على ذكرِه، يحفظُه، ويَرعاه، ويثبِّتُه وينصُره، وفى الحديث القدسىّ: «أَنَا مَعَ عَبْدِى إذَا هُو ذَكَرَنِى، وَتَحَرَّكَتْ بِى شَفَتَاه».

[رواه أبو هريرة واللفظ لابن ماجه].

ومن وصيةِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ لأمِّ أَنَسٍ رضي الله عنهما: «... وأَكْثِرى مِن ذِكْرِ الله، فإنَّكِ لا تَأْتِينَ اللهَ بشىء أَحبَّ إليه من كثْرةِ ذِكْرِه».

[أخرجه الطبرانى بإسنادٍ جيد].

قال أَبو هريرة رضي الله عنه : قال رسولُ الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ، ولَهُ الحمْدُ، وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ، كُلَّ يومٍ مائةَ مرةٍ، كانت له عِدْلَ عَشْرِ رقابٍ، وكُتبت له مائةُ حسنَة، وَمُحِيتْ عنه مائةُ سيئةٍ، وكانت له حِرْزًا من الشيطانِ يومه ذَلِكَ حتَّى يُمْسى، ولم يأْتِ أَحدٌ بأَفضلَ مِمَّا جاء به إلا أَحدٌ عَمِلَ أَكثَرَ من ذلك».

[أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابنُ ماجه].

وفى الصحيحين عن أبى أيوب: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له له المُلكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شىء قديرٌ. عشرَ مرات، كان كمَن أعتَق

أربعةَ أنفُسٍ مِن وَلَدِ إسماعيل».

وقال عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي الله عنه: «الباقياتُ الصالحاتُ هِى: لا إله إلَّا الله، وسُبْحَانَ الله، والحمدُ لله، والله أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله».

[أخرجه أحمد].

وفى الحديث: «كلمتان خَفيفتان على اللسانِ، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سُبحان اللهِ وبِحَمْدِه، سُبْحَان اللهِ العظيم».

[صحيح البخارى ومسلم].

عن أَبى هريرةَ رضي الله عنه قال: قال النبىُّ ﷺ: «مَثَل الَّذِى يَذْكُرُ رَبَّه والذى لا يذكُر مَثَلُ الحَىِّ والميِّتِ». [صحيح البخارى].

فطُوبَى لِمن صدق يقينُه، واستغرقَ فى طاعةِ ربِّه، وسبَّح لسانُه، وَلَهج بذكر الله وشُكرهِ والثناءِ عليه بِما هو أَهله، طوبى له وحسنُ مآب..

واتَّقُوا الله - عبادَ الله - وَسَلُوه من فضلِه يُعْطِكُم، واسْتَغْفِروه يَغْفِرْ لكم.

* * *

٥٥ - الدُّعاء سلاح المُؤمن

قال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

أَي: اذْكُروا رَبَّكم، واذعوه، واسأَلُوه من فضلِه، فإِنَّ الله يُحِبُّ أَن يُسأَل، وفي الحديث: «مَن لَّم يسأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عليه»[أخرجه ابنُ ماجه ورواه أبو هريرة].

أيها المُؤمنون:

وفي الحديث: «ادعوا اللهَ وأنتم مُوقِنون بالإجابة، وإِنَّ الله تعالى لا يقبل دعاءً من قلبِ غافلٍ لاهٍ». [أخرجه الترمذى ورواه أبو هريرة].

إن الدعاءَ سلاحُ المُؤمنِ، وعِمَادُ الدِّين، ونورُ السَّمواتِ والأَرض، وليس شيء أكرمَ على الله من الدعاءِ، وليس شيءٌ أَنفعَ منه في تحقيقِ المطلوبِ، ودَفْعِ الضر والشرِّ، وتفريج الكربِ والهمِّ، وجلْبِ الخيرِ والبركة، وإذا فَوَّض العبدُ أَمرَهُ إلى الله، وأَحْسَنَ تَوكُّلَه عليه، وأَخلَصَ الاتجاهَ، وصَدَقتْ نِيَّتُه، وحَضر قلبُه، وأَلحَّ على الله في دعائه وسُؤالِه، مُتَوسِّلًا إليه بأَسمائِه الحُسْنَى وصِفَاتِه العُليا، مُوقِنًا بالإجابةِ غيرَ يائسٍ ولا شَاكٍّ، مُقرًّا بعجز نفسِه وفاقتِهِ وحاجتِهِ إلى ربه، فإن الله عز وجل لا يردُّه خائبًا، ولا يُشمتُ فيه عدوًّا ولا حَاسدًا.

استعان الرسلُ والصالحون والطيبون والطيباتُ بالدعاءِ، يسألون رَبَّهُم حاجَتَهُم كلَّهَا، تَضرَّعُوا إليه في أَشدِّ أَوقاتِهم، وفي أَقسَى المِحَنِ فأَزال الله كُرَبَهم، وحَقَّقَ لهم الخيرَ، ونجَّاهم من الغَمِّ، وآمَنَهُم من الخَوْفِ، وشَفَاهم من المرَضِ.

فهذا إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام يجتمعُ عليه أَهلُ الكفرِ، وهو الوحيدُ بينهم يعبدُ الله ويوحدُه، ويُوثِقُونه بالحبال، ويُضْرِمون له النار، ويُلْقُونه فيها، فاستعان عليهم بتفويضِ الأَمرِ لصاحِب الأَمر، وَحَّدَ اللهَ ووصَفَه بكلِّ صفاتِ

الكمال وحَمِدَه على كل حال، وأقرَّ له بالمُلْكِ، ونَفَى عنه الحاجةَ إلى الشَّريك فقال كما فى الدرِّ المنثور عن ابن جرير الطبرى: «لا إله إلّا أنت، سَبحانَك، لك الحمدُ، ولك المُلْكُ، لا شريكَ لَكَ» وحين استقرَّ فى النار قال كما روى البخارى عن ابن عباس: «حَسْبِى اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ» أى اللهُ يَكفِينى ما أَهَمَّنى ويَتولَّى أمرى كُلَّه، وهو وكيلى ونِعْمَ الوَكِيل، وهذا من أَنفعِ الدعاءِ حين يَصدُرُ من قلبٍ واعٍ فاهمٍ، يقول الرسول ﷺ: «إذا وقعتم فى الأمرِ العظيم، فقولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل» فَوَّض إبراهيمُ الأمرَ إلى صاحبه الذى يقول للشىء كن فيكون، فقال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]. فتحوَّلَ المكانُ حولَه إلى أجملِ ما يكون من النسيم، والطِّيبِ والرَّوْح، يقول عليه السلام بعد خروجه منها: «ما كنتُ أيامًا ولياليَ قَطُّ أَطيبَ عَيشًا إذ كنتُ فيها ووَدِدتُ أنْ أَعيشَ حياتى كلَّها مثلَ عَيْشى، إذ كنتُ فيها».

أيها المُؤمنون:

وإنَّ محنةَ النبىِّ أيوبَ عليه السلام كانت قاسيةً شديدةً، فقد ابتلاه الله فى ماله، فهلَك كلُّه، وكان ذَا ثراءٍ وغِنًى، وابتُلِى فى البنين والبناتِ، فماتوا جميعًا حين انهدم عليهم البيت، وابتُلى فى جِسمه بالأمراض المُوجِعَةِ، التى أَبْعَدَتْ عنه الناسَ فعاش وحيدًا منفردًا تخدمُه زوجُه الوفيةُ البارَّةُ الصابرةُ، وتسعَى على قُوتِه، ولم يكنْ هذا الاختبارُ لِهوانِه عليه السلام ولكن لِتَمْحِيصِه وزِيَادةِ ثَوابِهِ ورفعِ درجاتِهِ.

والنبىُّ الهادى ﷺ يقول: «أَشَدُّ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ». رواه مُصعبُ بنُ سعدٍ عن أبيه وفيه: «يُبْتَلَى الرجلُ على حَسَبِ دِينِه فإنْ كان دِينُه صُلْبًا اشتَدَّ بلاؤُهُ». [أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال: حديث حسن صحيح].

وبلغ النبىُّ أيوبُ عليه السلام الغايةَ فى الصبر والتسليم لقضاء الله وقَدَرِه حتى صار قُدوةً، يُضرَب به المثلُ، قالت له زوجه: «يا أيوبُ، لو دعوتَ ربَّك يُفرِّجُ

عنك؟ فقال: قد عشتُ سبعينَ صحيحًا، فهل قليلٌ لله أن أَصْبِرَ لَهُ سَبْعين سنةً».

ثم شعر النبيُّ الصالحُ أيوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن المرضَ وصل إلى الحدِّ الذى أعجزه عن النهوضِ للصلاة، وأحسَّ بشماتةِ الأعداءِ، الذين أشاعوا أن مرضَه إنما هو لغضبِ الله عَليه، وقد سُئِل فيما بعد: ما كان أشدَّ عليكَ فى بلائكَ؟ قال: «شَماتةُ الأَعداءِ». فجأَر أيوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ! ورفع أكفَّ الضَّراعة إلى عالم الجهرِ والسرِّ أَرحمِ الراحمين مخبرًا عن حاله - والله أعلمُ به - مُقِرًّا بعجزِهِ قائلًا: «ربِّ إنى مسَّنِىَ الضُّرُّ وأنت أَرحمُ الراحمين» قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء].

فتوسَّل إلى الله بربوبيته، فهو الخالق، وهو النافعُ الضارُّ، وهو الشافى، وأظهَرَ فقرَهُ واحتياجَه إلى ربه، وأقرَّ له بصفة الرحمة، وأنه أرحمُ الراحمين، ولم يَشْكُ ولم يجزعْ عَلَيْهِ السَّلَامُ! وصدَر الدعاءُ من القلب الصافى، فأَجاب الرحمنُ دعاءَه، وحفِظ عبدَه الصابرَ، ولم يُشمِت فيه عدوَّه فأَمره: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص] ورَكضَ برجله، ونَبع الماءُ، واغتسل العبدُ الصابر وشَرِب، فعاد أنضرَ وأَحسنَ ما يكون، وأَلبَسَهُ الله حُلةً من الجنة، وأحسن إليه مولاه بعد تمام الصحةِ بأَن آتاه أَهلَه الذين ماتوا ليَسْعدَ بهم قلبُه، وآتاه مثلَهم سبعةَ بنين وسبعَ بناتٍ، أَنجبتهم الزوجةُ الصالحةُ، ليكونوا قرةَ عَينٍ لها وله، وأرسل الله سحابةً على قدْر قواعدِ دارِه، فأَمطرت جَرادًا من ذَهَبٍ، فجعل يجمعُ فى ثيابه، وكما أن البلاءَ اختبارٌ، فالنعمةَ والغِنَى اختبارٌ فناداه ربُّه: «يا أَيوبُ أَلم أكنْ أَغنيتُكَ عَمَّا تَرى؟ قال: بلى ياربِّ، ولكن لا غِنَى لى عَنْ بَركتِك» فهو الصابر الشاكرُ المُقرُّ بحاجته إلى ربه دومًا، ولنتدبر: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن

ضُـرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.
[الأنبياء].

فَعَل اللهُ به ذلك رحمةً به، وتَذكِيرًا للعباد فى كلّ زمانٍ، فاللهُ لا يَبتلى الصالحين من عِبادِه لِهَوانِهم عليه، وإنما ليضاعفَ الثوابَ لأحبابه، ويُعلِىَ مَنازِلَهم، وليكونَ أيوبُ قدوةً لكلّ مُبتلًى فى الصَّبرِ والشُّكرِ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٤].

يا أهل الإيمان:

وتعالَوْا نرى يُونسَ بنَ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ! فقد اختبره اللهُ عز وجل بالحبْسِ فى بطْن حُوتٍ أُمِرَ بألّا يأكُلَ له لحمًا، ولا يَهْشِم له عَظْمًا، فقد أَراد الله أن تكون بطنُه لعبده الصالح سِجنًا ؛ لأن يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَئِس من إيمان أهل قريته، فأسرع بالخروج منها باجتهاده، بعد أن أنذرهم بعذابٍ من الله، بعد ثلاثةِ أيام ظانًا أن الله عز وجل لن يُضيِّقَ عليه، أو لن يقضىَ عليه بعقوبة لِمكانته عند رَبه، ولنتدبر قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فلمَّا آلَ الأمرُ إلى قاع البحرِ فى بطنِ الحوتِ، وسَمع تسبيحَ الحصا، وتسبيحَ دوابِّ البحرِ سبَّح يونسُ، وجأر إلى ربه: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٧].

وفى هذا الدعاءِ تَوسَّل إلى اللهِ بتوحيده، ونزَّهَ ربَّه وقدَّسه، وأقرَّ يونسُ بذنبه قائلًا: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وفوَّض الأمر إلى الله وحده فأجاب الله دعاءَه ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] وهنا العِبْرةُ والعِظَةُ لكلّ مؤمنٍ، فاللهُ عزَّ وجل يُنجى المُؤمنين، من شَدائدِهم، ويَكشِفُ عنهم الضُرَّ إذا هُم وحَّدُوه، وأَخلصوا النيةَ لله، واتجهُوا إليه بقلوب

نَقيَّة وبنفوسٍ صَافيةٍ يسألونَه من فضله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى إذا لَجئُوا إلى ربهم كما لجأ يونس ولنتدبر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات] فكان إنقاذه ببركة التوحيدِ والتسبيحِ والتفويضِ، ولولا ذلك ما خرج من مَحْبِسه، وقد جاء فى الأثر: «من دَعَا بدعاءِ يونسَ استُجِيبَ لهُ» قال أَبو سعيد الأشَجُّ أحدُ رُواة الحديث: يُريد به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. [أخرجه ابنُ أبى حاتم].

فما أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ، فعليكم بالدعاء، وفى الحديث: «سَلُوا الله مِنْ فَضْلِه فإِنَّ الله يُحِب أَن يُسأَلَ». واتَّقُوا الله - عباد الله - وادعوه وتَضرَّعوا إليه يُعْطِكم، واستغفروه يَغْفِرْ لكم إنه سميعُ الدعاءِ.

* * *

للخطبة الثانية:

قال النبيُ ﷺ: «اسمُ الله الذى إذا دُعى بِه أَجابَ، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى دَعْوَةُ يونسَ بنِ مَتَّى». قال سَعْدُ بن مالك بنُ أبى وقَّاص راوى الحديث: قلتُ يارسولَ الله: هى ليونسَ خاصة أَم لجماعةِ المسلمين قال: «هى ليونسَ ابنِ مَتَّى خاصةً، وللمؤمنين عامَّةً إذَا دَعَوْا بِها، أَلَمْ تسمعْ قولَ الله عزَّ وجل: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]. فهو شرطٌ من الله لِمن دعاه.. [تفسير الطبرى ونقله ابنُ كثير].

وهذه آسِيةُ ابنةُ مزاحم امرأَةُ فِرعون، هى مؤمنةٌ صالحةٌ، وزوجُها فظٌّ عَنيد يريد أَن يُكرِهَها على الكفر، فشدَّ لها أَوتادًا فى الشمس، وأَمر أَن تُلقَى عليها صخرةٌ عظيمةٌ إِن هى لم تكفرْ بالله، وتؤمنْ بفرعون، فجاءَت الملائكةُ وأَظلَّتْها من حَرِّ الشمسِ بأَجنحتها.

وجأرتْ المرأةُ الصالحةُ تُريد الخلاص: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. فأَجاب الله دعاءَها، ورأَت بيتَها في الجنة، فضحِكت، واستبشرت، فلمَّا هَمُّوا بإلقاء الصخرة عليها، انتزَعَ الله رُوحَها ونجَّاها من القوم الظالمين، ونزلت الصخرةُ على جسد لا رُوحَ فيه.

ربَّنا اغفرْ لنا وارْحمنا وعافِنا واعفُ عنا.

* * *

* * *

توجيه للدرس:

الوصيَّة قبل فواتِ الأوان:

عن ابن عمر رضي الله عنهما فى الحديث الشريف المُتفق عليه أن الرسول ﷺ قال: «ما حَقُّ امرئٍ مُسْلمٍ له شىء يُريد أن يُوصِى فيه، يَبيتُ ليْلَتين إلَّا وَوَصِيَّتُه مُكتوبةٌ عنده».

ما: فى الحديث نافية بمعنى ليس، وحق: اسم ما مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره وجملة: «ووصيتُه مكتوبةٌ عنده» مبتدأ وخبر جملة اسمية خبرُ «ما» والواو زائدةٌ قبل الخبر لوقوع الفصْل بإلَّا.

والمعنى: ما الحَزْمُ والاحتياطُ للمسلم إلا أن تكون وصيتُه مكتوبةً عنده إذا كان له شىء يُريد أن يوصِى فيه؛ لأنه لا يدرى: متى يأتيه الموت، فيحول بينهُ وبين ما يُريد أن يوصى به، ويُبَيِّنَهُ لورثته ولأهلِه. [مَمَّا قاله الشافعى رضي الله عنه].

وينبغى لنا - نحن المسلمين - العنايةُ بأمر الوصيةِ والتنبيه عليها، كأن يقول المُؤمن كتابةً وشفاهة بعد البسملة والحمد والصلاة على النبى ﷺ: أُوصى أهلى بتقوى الله وخشيته فى السرِّ والعَلَن، وبأن يُصْلِحُوا ذاتَ بينهم، ويطيعوا الله ورسوله، ولا يموتوا إلا وهم مُسلمون.

ويُوصيهم بالصبر عند خبر الموت، وبالقول بما يُرضى الربَّ: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُون» وبِما أوصى الرسولُ ﷺ وأمر به: «اللَّهُمَّ اؤْجُرْنِى فى مُصِيبَتى، وأَخْلِفْ لى خيرًا منها».

وأنا برىء من كلِّ فِعْلٍ أو قول يُغضب ربَّ العالمين، برىء من النِّياحةِ والنائحةِ ومن لطم الخدود، وشَقِّ الملابس والجيوب، ومن دعْوى الجاهلية بالألفاظ التى تُناقض سلامةَ الإيمان والتسليمَ لأمر الله، وأوصى بأن يكون العزاءُ على مُقتضى

أوامر الشرعِ لا إفراطَ ولا خروج عن المأمور به فلا سرادقات، ولا مُكبِّرات، ولا زهوَ ولا فخْر - والعياذ بالله - كما أُوصِى بتأدية الديون الموضَّحة على الفور، و . . . و . . .

ويبين المُوصِى ما يريده من الحقوق، ومن الوصايا من الأموال فى حدود الثلث، وغير ذلك مما يرغبُ أن يكونَ أهلُه عليه من الدِّين والخلقِ والعنايةِ باليتامى والبناتِ وصلةِ الرَحم، وكثرةِ الدعاءِ والاستغفار، وسؤالِ اللهِ التثبيتَ عند سؤالِ الملَكين، ويوصى بِما يشاء غير ذلك. نسأل الله أن يجعل خيرَ أعمالنا خواتيمَها وخيرَ أيامنا يوم لقاءِ ربِّ العالمين.

* * *

٥٦ - الخوف والرجاء

قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

وفى الحديث القدسىّ الذى رواه أبو هريرةَ يقول الله تعالى: «وَعِزَّتى لا أَجْمَعُ على عبدى أمنين، ولا أَجْمَعُ له خوفين، إذا خَافنى فى الدُّنيا أَمَّنتُه يومَ القيامة، وإذَا أَمِنَنِى فى الدُّنيا أَخفتُه فى الآخرة». [أخرجه ابنُ حبان فى صحيحه].

يا عبادَ الله:

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ واسِعُ الرحمةِ، عَظِيمُ المغفرةِ، حَليمٌ ستَّار، عَفُوٌّ لم يُؤْيِس عِبادَه من رحمتِه وعفوِه، وقد فتحَ بابَ الرجاءِ على مِصْرَاعَيْه، لكلِّ قلبٍ مُنيب وَفُؤادٍ نادم، ولنتدبَّر قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر].

وقد جاءَ فى حديث جابر رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «إن من السعادةِ أن يطولَ عُمْرُ العبدِ ويَرْزُقَه اللهُ الإنابة» - أى الرجوعَ إلى الله بالتوبةِ مع الإخلاصِ. [أخرجه أحمد بإسنادٍ حسن والبيهقى].

فَتَح اللهُ بابَ القبولِ لكلِّ تائبٍ، ولم يحجُب بفضله مَغفِرَتَه وعفْوَه عن النادم.. ولنتدبَّرْ قولَه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. قال سعيدُ بنُ المسيِّب: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما نزلتْ هذه الآيةُ قال: «لولا عفْوُ اللهِ ورحمتُه وتجاوزُه لَمَا هَنَأَ أحدًا عَيشٌ، ولولا عِقابُه ووَعِيدُه وعَذابُه لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ».

نَعَمْ.. إنَّ اللهَ عَفُوٌّ غَفُورٌ توَّابٌ، يقْبَلُ التوبَ، ويَغفِرُ الذنبَ، ويَبْسطُ يدَه بالنَّهار ليتوبَ مُسِيء الليلِ، ويبسط يدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيء النهارِ فضلًا منه

سبحانه وإحسانًا. . وهو سبحانه وتعالى سريعُ العقاب، وعذابه مؤلم، مُنتقمٌ جَبَّارٌ يُجازى بالعدْل، فلا ينبغى لعاقلٍ أن يَغْفُلَ طَرْفةَ عَينٍ عن مُراقبتِهِ، والخوفِ منه. . يَنبغى للعاقل أنْ يَستحضِرَ عَظمةَ اللهِ دائمًا، ويَخشاه فى السرِّ والعَلن، فعلمُه مُحيطٌ، وغضبُه شديدٌ، يملأُ سبحانه قُلوبَ الخائِفين مِن غَضَبه أمنًا، وَيُعَوِّضُ النادِمينَ الآسِفينَ على ما كانَ مِنْهُم بِمَحْوِ السَّيئاتِ، وبِغُفْرانِ الذُّنوب، وَقَبولِ التوبةِ وَرفْعِ الدرجاتِ، ولْنتدبَّر ما يقولُه الربُّ عزَّ وجلَّ فى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذرٍّ: «ياعِبَادى إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأَنَا أَغفِرُ الذنوبَ جميعًا فاستغفرونى أَغفِرْ لَكُمْ». [أخرجه مسلم].

وهذا من رحمة اللهِ بالعباد، فقد سبقت رحمَتُهُ غَضبَهُ، وفى الحديث القدسىّ يقول ربُّ العِزَّة: «إنَّ رحمتى غلبتْ غضبى».

[أخرجه البخارى ورواه أبو هريرة].

فالمُؤمنُ حَقًّا هُوَ الذى يَخافُ رَبَّه، ويَرجُو رَحْمتَهُ وعَفْوَه، فالخوفُ من الله هو اللِّجامُ القامعُ عن المعاصى، وَسَببُه مَعرِفةُ شِدَّة عَذابِ الله، ويُسَمَّى خَشيةً ورهبةً وتَقْوى، فالمُؤمنُ يخافُ مِن ذُنوبِه، ويَخْشَى الخاتمة، وتُزْهِبُه سَوابقُه والخوفُ يَبْعَثُ العبدَ على الانكسارِ والتواضُع والعفافِ، كما يَبْعثُه على اتقاء الشُّبهاتِ والبُكاءِ أو التَّباكى. . أَمَّا الرجاءُ فسببُه معرفةُ سعَةِ رحمةِ الله، ويُسَمَّى طمَعًا ورغبةً.

ويَنبغى أَن يكونَ الخوفُ والرجاءُ مُعتَدلَين، فإن الخوفَ إذا أفرط فيه صاحبُه قد يَجُرُّه إلى اليأس من رَحمة الله، وهَو حَرامٌ، وإذَا أَفْرَطَ المرءُ فى الرجاءِ قد يجرُّه ذلك إلى الأمنِ والغُرور، وَهُوَ حَرَامٌ، وإنْ كانَ جانبُ الخوفِ ينبغى أَن يَغْلِبَ على المرءِ فى شبابِه وأَيام قوتِه ونشاطِه. وفى الحديث القدسى: «ما أَقلَّ حَياءَ مَن يَطْمَعُ فى جنَّتى بغيرِ عَمَلٍ، كَيفَ أَجُودُ بِرحْمَتى على مَن بَخِلَ بطاعتى».

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «لَوْ يَعلمُ المُؤمنُ ما عندَ اللهِ مِن العقُوبة

ما طَمِعَ بجَنَّتِه أَحد، ولَوْ يعلمُ الكافرُ ما عِندَ اللهِ من الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِن رَحْمَتِه». [أخرجه مسلم].

فالعارفون بالله – يا أحباب الله – تَسكنُ نُفوسُهم، وتطمئنُّ قلوبُهم عندما يُذكَرُ عفْوُ اللهِ ورحْمتُه وحِلْمُه ومَغْفِرَتُه قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]. فالقلوبُ المُؤمنةُ تَسْكُنُ، وتَطمئنُّ من حيثُ اليقينُ بالله، وحُسنُ الظنِّ به، والثقةُ بوعده للصالِحين والعاملين؛ فإنَّ الله بفضله وإحسانه لا يُضيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وإن كانَ هؤلاءِ العارفُونَ فى الوقتِ نَفسِه يخافون الله، ويخافونَ سَطْوتَه وعُقوبتَه، وكُلَّما ازدادتْ مَعرفتُهم قَوى خَوفُهم، هؤلاء كما وصَفَهم اللهُ عزَّ وجلّ هم المُؤمنون حَقًّا، وذلك لقوة إيمانِهم، ومراعاتِهم لربِّهم، وخوفِهم منه كأنَّهم بين يديه.

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. [الحج: ٣٤-٣٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]. فهم مع طمأنينةِ القلب ثِقةً بِما عند اللهِ من الرحمةِ والعفوِ يعيشون على خوفٍ وَوَجَلٍ من غضبِه وعذابِه.

رَوَى العباسُ رضى اللهُ عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إذا اقْشَعرَّ جِلْدُ المُؤْمنِ مِن مَخافةِ اللهِ تحاتَّتْ عنه خَطَاياه كما يتحَاتُّ عن الشَّجرةِ الباليةِ ورقُها». [أخرجه أبو الشيخ والبيهقى].

وقد وعد الله فى كتابه العزيزِ أهْلَ الخشيةِ والخوفِ والمُراقبةِ بالمغفرةِ والنعيم الدائم والرحمةِ الشاملة، ولنسمع الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك].

ويقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]. ويقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

ولقد كان فى قلبِ رسولِ الله ﷺ رِقَّةٌ عظيمةٌ، فكان أخشى الناسِ لله وأخوفَهُم من نِقْمتِه، وكذلك كان أصحابُه رِضْوَانُ اللهِ عليهم.

يا أهل الإيمان:

إن الجنة غاليةٌ، والغالى جَدِيرٌ بالتعَبِ والتضْحِيةِ، فمَنَ خَافَ أن يُحْرمَ نَعِيمَها بحلولِ سَخَطِ اللهِ عليه، فعليه أن يَفْزَعَ إلى الله، والناسُ نائمون، وأن يَبكِى، أو يَتباكَى فى ذُلٍّ بينَ يَدَيْه، والمحرومونَ غَافِلون، يروى أبو هريرةَ رَضى اللهُ عنه كما عند الترمذى أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومَن أَدْلَجَ بَلَغَ المنزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله غاليةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجنَّةُ».

وأدلَجَ: أى مشى ليلًا والمقصودُ: الاجتهادُ فى الطاعةِ لبلوغِ منزلِ النعيمِ المقيم فى جناتِ الخُلدِ.

فاتَّقُوا الله - عبادَ الله - واخشَوْه فى السرِّ والعَلَن، وتوبوا إليه توبة نصوحًا فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له.

* * *

«عظة للخطبة الثانية»

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عينان لا تَمسُّهما النارُ؛ عين بكت من خشيةِ اللهِ وعينٌ باتت تحرسُ فى سبيل الله». [أخرجه الترمذىُّ].

وعن زيد بنِ أَرقم قال: قال رجل يارسولَ الله، بِمَ أَتَّقى النارَ؟ قال: «بدموعِ عينيك، فإِنَّ عينًا بكتْ من خَشيةِ الله، لا تَمَسُّها النارُ أبدًا».

[أخرجه ابنُ أبى الدنيا والأصبهانىُّ].

وكان الحبيب المُصطفى ﷺ أشدَّ الناس خوفًا من نزول نقمة الله على العباد وتَروى عائشةُ تقول ﵂: «وكانَ إذا رأى غَيْمًا عُرف فى وجهِه فقلتُ: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رأوا الغَيْمَ فرِحُوا رجاءَ أن يكونَ منه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَ غَيْمًا عُرف فى وجهك الكراهة، فقال: يا عائشةُ ما يؤمِّنُنى أن يكونَ فيه عذابٌ، قد عُذِّب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذابَ، فقالوا: هذا عارضٌ مُمْطِرنا». [أخرجاه].

قال أبو هريرة ﵁ لما نزل قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ [النجم]: قال أهل الصُّفة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ثم بَكَوْا حتى جَرَتْ دُموعُهم على خُدودِهم، فلمَّا سَمعَ النبىُّ ﷺ بكاءَهم بكَى مَعَهم، فبكَيْنا لبُكائِه، فقال ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَنْ بكى من خشيةِ الله، ولا يَدْخُلُ الجنَّةَ مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولوْ لَمْ تُذنِبوا لذهَبَ اللهُ بكُم وَلجاءَ بِقَومٍ يُذنِبُون فَيغفِرُ لهُمْ، ويَرْحَمُهم إنه هُو الغفورُ الرحيم».
[أخرجه البيهقىُّ].

وسأل رجل الحسَنَ فقال: يا أَبا سعيدٍ، أمؤمنٌ أنت؟ فقال له: الإيمانُ إيمانان، فإن كنتَ تسألنى عن الإيمان بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه والجنةِ والنارِ والبعثِ والحساب، فأنا به مؤمن، وإن كنتَ تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] – إلى قوله – ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]. فَوَ اللهِ ما أدرى أنا منهُم أمْ لا؟.

وقال معاذ بنُ جبل: «إن المُؤمنَ لا يسكنُ رَوْعُه حتى يتركَ جِسْرَ جهنَّمَ وراءَه».

عن عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ قال: «تُحشرون حفاةً عُراةً غُرلًا». قالت عائشةُ: فقلتُ: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ ينظرُ بَعضُهم إلى بَعْض؟

فقال: الأمرُ أشدُّ من أن يُهِمَّهم ذاك». [في الصحيحين وعند النسائي وابن ماجه].

وفي رواية سودة بنت زَمعةَ، رضي الله عنها، قال ﷺ: «شُغِلَ الناسُ، لكلِّ امرئٍ منهم يَومئذٍ شأنٌ يُغنيه» أي لا ينظرُ الرجالُ إلى النساء ولا النساءُ إلى الرجال. [أخرجه الطبراني].

وكان داود عليه السلام يُعاتَب في كثرة البكاء، فيقول: «دَعُوني أبكي قبل خروج يوم البُكا، قَبلَ تَحْرِيقِ العِظام، واشتعالِ الحَشَا، وقبل أن يُؤمَرَ بي ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ، لا يَعصون الله ما أَمرهم، ويفْعلون ما يؤمرون».

دخل عثمانُ على ابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما يعودُه في مَرَضِه الذي مات فيه فقال: ما تشَتكي؟ قال: ذُنوبي، قال فما تَشتهي؟ قال: رَحْمَةَ ربِّي.

* * *

فائدة:

من دعاء الاستسقاء في رواية سعد في صحيح أبي عَوانة: «اللهمَّ جَلِّلْنا سحابًا، كثيفًا، قَصيفًا، دَلوقًا، ضحوكًا تُمْطِرُنا منه رذاذًا، قِطقِطًا، سَجلًا، ياذا الجلال والإكرام».

معاني الكلمات:

كثيفًا: أي متكاثفًا متراكمًا.

قَصيفًا: أي ذا رعدٍ شديد الصوت والمطلوب قوة المطر أي بما يكفي الحاجة.

دَلوقًا: أي مندفعًا لإغاثة البلاد والعباد.

ضَحوكًا: أي ذات بَرْق.

القِطقِط: من المطر أصغرُهُ، وفَوْقَه الرذاذ، ثم الطَّشّ وهو فوق الرذاذ.

سَجلًا: أي تصبُّه السحابُ، كما يُصَبُّ الماءُ، أي لكفاية حاجة البلاد والعباد.

ويُسَنُّ كثرةُ الاستغفار والإلحاح بالدعاء.

٥٧ - أصحابُ الجنّةِ هُم الفائزون

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور].

يا أهلَ الإيمانِ:

إن العاقلَ الحكيمَ يَسعى لنجاة رُوحِه، وخَلاصِ مُهْجَتِه؛ لِيَفُوزَ بالنعيم المُقيم فى جنات الخلدِ، التى أعدَّها الله لعبادِهِ المُتقين، وبذلك تَسلمُ النفسُ المُؤمنةُ الصالحةُ من العذاب الأليم.

لقد وَصف لنا القرآنُ العظيمُ ما أعدَّه الله من صنوف النعيم لعبادِهِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لِيلْزمُوا الطريقَ الذى يجعلهُمْ أهلًا لرحمة اللهِ عز وجل فى اليوم الذى لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون إلَّا من أَتَى اللهَ بقلب سليم، بقلبٍ خالٍ من الرياء والشكِّ، بقلبٍ طاهرٍ نَقِىٍّ من كل شائبةٍ من شوائِب الشِّرك، فالشركُ هو الذنبُ الذى لا يُغفَرُ، إن ماتَ صَاحبُه مُصرًّا عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾. [النساء].

أما من قال: لا إلَه إلا اللهُ خالصًا من قلبه، واتَّبع نبىَّ الهُدَى والرحمة واقتدى به ﷺ، وأخلص العبادَةَ لله، وكان آخرُ كلامِه: لا إلَهَ إلا اللهُ؛ فإن الله يشملُه بعفوه ورحمتِهِ، ويُسْكنُه جنتَهُ بفضله.

فطُوبَى لِمن نافس فى الخيرات، وسارع إلى مغفرةٍ من ربه وجنةٍ عرضُها الأرضُ والسموات، فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعتْ من صنوف النعيم وألوانِ البهجة والسرور، و: «مَن خاف أدلَج، ومَن أَدْلَجَ بَلَغَ المَنزِل، ألا إن سِلعَةَ اللهِ غاليةٌ، ألا إن سلعةَ اللهِ الجنةُ».

[رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذى وقال: حديث حسن].

والدُّلْجَةُ: الظُّلمةُ، وأدلج: أى سار أولَ الليل، وهذا تَمثيلٌ للاجتهاد فى الطاعة، فالخوفُ أعظمُ باعثٍ على تَوقِّى الشُّبُهات، والاجتهادِ فى الطاعات ومَن عَظُمَ خوفهُ، وقوِى رجاؤه فى رحمة ربِّه، وطمِعَ فى قبول التَّوب، ومغفرةِ الذنب ولازمَ بابَ الربِّ ضارعًا مُتذلِّلًا، قانعًا بعطائه، راضيًا بقضائه، مُؤمنًا بلقائه شاكرًا صابرًا، مُطهِّرًا قلبَهُ من آفات الغِلِّ والحسدِ والعداواتِ، فإنه يفوز بالرِّضوان بفضلٍ من الله وإحسان، ويَحظى بالرَّوْح والرَّيْحَان والسكينةِ والأمنِ والسلام:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

إنَّ الجَّنةَ هى الدارُ التى لا غِلَّ فيها ولا حسدَ، ولا ضغينةَ ولا تناحُر، بل هى دارُ السكينةِ والسلامة، سرورُها لا ينقطع، والراحةُ فيها لا تُمَلُّ: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام].

أَعَدَّ لهم ربُّهم دارَ السلام والرِّضوان ؛ لأنهم أهلُ الإخلاصِ والمَحَبَّةِ، تولَّى اللهُ ظاهرَهم وباطِنَهم، ووفَّقَهُم لِما قصدُوا إليه من الخير فى الدنيا، فكانوا أهلًا للترحيب بهم فى دار السلام، وتُحيِّيهم ملائكةُ الرحمنِ بالسلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

لقد صبروا - يا عباد الله - على طاعة الربِّ العظيم، وصبروا عن المعاصى، وصبروا على ما يُصيبهم فى أنفسهم وأموالهم وأهليهم مُحتسبين، حامدين اللهَ على كلِّ حال، لا يَلتفتون إلى العباد، ليقينهم بأن ما شاء اللهُ كان وما لا يشاء لا يكون، فَجُوزُوا من ربِّ العالَمين بالإقامة فى داره التى أعدَّها لأهل السعادةِ، الذين رضُوا بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبِمحمدٍ نبيًّا ورسولًا، وبالقرآن العظيم

إمامًا ومِنهاجًا، فكانت فرحتُهم هى الفرحة وسرورُهم هو السرور: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر].

وفى دار المُقامة: النعيمُ الذى لا بُؤسَ معه، والخيرُ الذى لا شرَّ يُزاحِمُه والمَسكنُ الطيبُ فى دار الرِّضَى والخلود، وفيها يُسْمَع نشيدُ الحُورِ العِين بأحْلَى صوتٍ وأطيبه: «نحن الخالداتُ فلا نَبيد، ونحن الناعماتُ فلا نَبأس، ونحن الراضياتُ فلا نَسْخط، طُوبى لِمن كان لنا وكنَّا له».

[أخرجه الترمذى ـ عن على].

فيا لَهناءةِ من كانت الجنةُ مأواه، حيث الخلودُ بلا موت، فى نعيم لا بُؤسَ معه ولا حاجةَ ولا فقرَ، يا لهناءةِ من خاف ربَّه عند شطحاتِ الهَوى، ونَزغَات الشياطين، فكفَّ نفسَه عن الشرِّ والسوء، فكان من الفائزين: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن].

وفى الأثر: «جنتان من فِضَّة: آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من ذهَب: آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وأن ينظروا إلى ربهم إلَّا رِدَاءُ الكبرياءِ فى جَنَّةِ عَدْن».

تفكروا – يا أهلَ الإيمان – فى أصحاب الوجوهِ الناضرة الذين أحسنوا فى دنياهم، فألبِسُوا حُللَ الكرامة، لا يَرْهَقُ وجوهَهُمْ قترٌ ولا ذِلَّةٌ، تَرى فى وجوههم نَضْرَةَ النعيم، يُسْقَونَ من رَحيق مختوم، مُتكئين على الأرائك منصوبةً على أطراف أنهارٍ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهارٍ من لَبنٍ لم يتغيَّر طعمُه، وأنهارٍ من خمرٍ لذَّةٍ للشاربين، وأنهارٍ من عَسلٍ مُصَفًّى، يُطاف عليهم بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَّعين، بيضاءَ لذةٍ للشاربين، لا تَذهبُ خَمرُها بعقولهم،

ولهم فيها فاكهةٌ مِمَّا يتخيَّرون ولحمٌ مِمَّا يشتهون، وأزواجٌ مُطهَّرة، وخدمٌ وَوِلدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون، تَفضُّلًا منه سبحانه، وإحسانًا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات].

إنهم عبادٌ مُكرَمون، فى مَقام أَمين، فى جناتٍ وعُيون، فى جناتٍ ونَهَر، فى مقعَدِ صِدقٍ عند مَليكٍ مُقتدر، لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا، وهم فيما اشتهت أنفسُهم خالدون، لا يخافون فيها، ولا يحزنون.

ثم إن نعيمَهُم الأعظم، وسرورَهُم الأبْهَى، والهناءَ الأكبر، أن يُنعِمَ عليهم رَبُّهم بالنظر إلى وَجْهه الكريم، وذلك هو النعيمُ كلُّ النعيم والرِّضى كلُّ الرضى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

وفى دار المُتقين الذين هانت عليهم الدنيا، فأنفقوا فى السراء والضراءِ وكظَموا الغيظ، وعَفَوْا عَمَّن إليهم أساء.

فى هذه الدار - يا أحباب الله - كلُّ ما تَطيبُ به النفسُ، ويُسعِد القلبَ، وترتاحُ له العينُ، ويهنأُ البالُ، ويسرُّ الخاطرَ، إنها دارُ الأنهار الجاريةِ، والثمارِ الدانية، إنها دارُ الرِّضوان، ودارُ الفوز، ودارُ المقرَّبين، مَثْوى الأبرار، إنها رحمةُ الله ومغفرةٌ منه، إنها دارٌ أهلُها آمنون، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة: «يُنادى مُنادٍ، يا أهلَ الجنة: آنَ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقمُوا أبدًا، وآن لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتُوا أبدًا، وآنَ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهرَمُوا أبدًا، وآن لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبأسُوا أبدًا..» [عند مسلم ورواه أبو سعيد].

إن هذا النعيمَ المقيمَ لِمن آمن بالله، وصَدَّق المُرْسَلينَ.

إن هذا السرورَ والفوزَ والحبورَ لِمن أفشى السلام، وأطعَمَ الطعام، وتقرَّبَ إلى الله بالصيام، وصَلَّى بالليل والناسُ نيام، وبكى خوفًا من غضب العظيم

العلّام.

يا أحباب رسول الله:

إن أهلَ الجنةِ هم التائبون، العابدون، الحافظون لحدود الله، إنها دارُ الذين تَطمئنُّ قلوبُهم بذِكْر الله، أهلِ الخوف والرجاء، دارُ الذين صبروا وعلى ربِّهم يتوكَّلون، دارُ مَن أحْسَنَ عملًا، وكفَّ عن الناس أذاه وشَرَّه.

إنها دارُ كلِّ أوَّابٍ حَفيظ، دارُ أهلِ التوَاضُع والصدقِ والأمانةِ والوفاء، دارُ مَن صدَّق بالجزاء، وأحَبَّ الله، وأحب رسُولَه، وأحبَّ القرآن، وأحبَّ أصحابَ رسول الله ﷺ، وبَرَّ والديه، ووصَل رَحِمَه، وأطاع وأذْعَنَ، ورَحِم الضعيف وواسَى الفقيرَ والمِسكين، إنَّها دارُ مَن قدَّم ما ينفعه فى يوم تَشيب فيه الوِلْدَان.

فطوبَى للقلوب الشاكرةِ، والألسنةِ الذاكرة، طُوبَى لِمن تفكَّر فى الموت فتنبَّه من الغفلة، طوبى لِمن وعظتْه العِبَرُ، طوبى لِمن تجافت جنوبُهم عن المضاجع، يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا، طوبى لهم وحُسْنُ مآب.

فاتقوا الله - عبادَ الله - واستغفروه، وتوبوا إليه، إنه هو التواب الرحيم.

❊ ❊ ❊

للخطبة الثانية:

يا أهلَ الإيمان:

فى دارِ الأوَّابين دارِ المُخبتين، فى دارِ أولياءِ الله الصالحين وأحبائِه، يَنْعَمُ الذين لم يُلههم الأملُ ولم تَغُرَّهم الحياةُ الدنيا، و لم تَشغَلهُم تِجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، فطوبى لِمن عَمُرَتْ بهم المساجد، وكَفُّوا جوارحَهم عن الأذى والسوء وأنابوا إلى الله.

وفى الحديث الذى رواه النعمانُ بنُ بشير: «إن أهونَ أهلِ النارِ عذابًا يومَ القيامة رجلٌ على أخْمص قَدَميْه جَمرْتَان، يَغلى منهما دماغُه، كما يَغلى المِرْجَلُ والقُمقُم». [فى البخارى].

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه الترمذى: «أهلُ الجنة جُرْدٌ، مُرْدٌ، كُحَّل، لا يَفْنى شبابُهم، ولا تَبْلَى ثيابُهم».

وفى الحديث: «يقول الله عز وجل لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة، فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسَعْديْكَ والخيرُ فى يديك. فيقول: هل رَضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضَى يا ربَّنا، وقد أعطيْتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقك، فيقول: أُعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: وأىُّ شىءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضوانى فلا أَسخطُ عليكم أبدًا». [متفق عليه ورواه أبو سعيد الخدرى].

فطوبى لأهل الإخلاص والإنابةِ والانقيادِ الذين يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات].

إنَّ الإنسانَ - يا أحباب الله - إذا أراد أن يعرفَ صفةَ الجنةِ، فعليه أن يقرأَ القرآنَ متدبِّرًا فليس وراءَ بيانِ الله بيانٌ، وعليه أن يبحثَ عن تفصيل صِفاتِها فيما جاء من الأخبار الصحيحة، بما يُقرِّب للناس جمالَها ومحاسنَها، وما فيها من النعيم المُقيم على قَدْر ما يتصوَّرون، ويَفهمون، وتُطيقُه العقول، إذ حقيقةُ هذا النعيم أعظمُ وأبْهَى، وأفخم، وأتمُّ، وأجملُ وأعلى بكثير من الصُّور التى تُقرِّبها للأذهان، وإن كانت هذه الصورُ فى ذاتها غايةً فى الروعة والحُسنِ والجمالِ، مِمَّا يُشوِّق النفوسَ المُحِبَّةَ للاجتهاد فى الطاعة، والإخلاصِ لنيْل ما عند الله من الرحمة والرضوان.

وفى الحديث القدسى قال الله تعالى: «أعددتُ لعبادِى الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلب بشر»، قال أبو هريرة: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. [متفق عليه].

وفى روايةٍ، قال محمدُ بنُ كعب: «إنهم أَخفَوْا لله عَمَلًا، فأخفَى لهم ثوابًا، فلو قَدِمُوا عليه أقرَّ تلك الأعينَ». وفى الحديث: «لَموضِعُ سَوطٍ فى الجنة خيرٌ مِمَّا بين السماء والأرض». [الطبرانى فى الأوسط].

وفى لفظ: «لَقابُ قوسٍ فى الجنة خيرٌ مِمَّا تطلعُ عليه الشمسُ أو تغرب».
[متفق عليه والراوى أبو هريرة].

عن صُهَيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئًا أَزِدْكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا؟ ألم تُدخلنا الجنةَ وتُنجِّنا من النار؟ فيكشف الحِجَاب، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم». [رواه مسلم].

وهو قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وعند مسلم عن جابر أن النبى ﷺ قال: «يأكلُ أهلُ الجنةِ فيها ويشربون ولا يَتغوَّطون، ولا يَمتخطون، ولا يَبولون، ولكنَّ طعامَهُم ذلك جُشاءٌ كريح المِسْك، يُلهَمُونَ التسبيحَ والتكبير كما يُلهمون النفَسَ».

قال عبد الله بنُ عمرو: «أربعٌ من كنَّ فيه بَنَى الله له بيتًا فى الجنة: مَن كان عِصْمةُ أمرِه لا إلَه إلا الله، وإذا أصابته مصيبةٌ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون وإذا أُعطِى شيئًا قال: الحمدُ لله، وإذا أذنبَ ذنبًا قال: أستغفرُ الله».
[ابن أبى الدنيا – كتاب الشكر].

وفى الحديث: «من قال: أستغفرُ الله الذى لا إلَهَ إلا هو الحىَّ القيومَ وأتوبُ إليه، غُفِرت ذنوبُه، وإن كان قد فَرَّ من الزحف».
[أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم والراوى ابن مسعود].

فطوبى لِمن صحَّت توبتُه واستقام وأناب.

* * *

* * *

غِراس الجنة «للدرس»:

مرَّ رسولُ الله ﷺ بأبى هريرة، وهو يغرسُ غرسًا فقال: ألا أدلُّك على غِراسٍ خيرٍ لك من هذا؟ سبحان اللهِ، والحمدُ لله، ولا إله إلَّا اللهُ، واللهُ أكبر، يُغرَسُ لك بكل واحدةٍ شجرةٌ فى الجنة». [أخرجه ابن ماجه وإسناده حَسَنٌ].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والصلاةُ والسلامُ على النبىّ الأمين الذى أرسلَهُ ربُّه إلى الناس كافَّةً بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنهِ وسراجًا مُنيرًا وعلى آله وصَحبه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

* * *

رسالة الإمام

قام إمام المسجد بأخطر الأدوار الحضارية فى ظلال دولة الإسلام التى تأسست على الإيمان والعلم، وازدهرت فى رحابها المعرفة، ونمت المحبة، وتفتحت العقول.

إمام المسجد ألصق الناس بمجتمعه، وهو عنصر ذو فاعلية فى تنميته وتنويره، فهو موجِّه ومرشد ومعلِّم وأبٌ للأصغر منه، وأخٌ للجميع، إليه يطمئنون، وبه يأنسون، وعلى أسرارهم هو المؤتمن، وفى مشكلاتهم هو صاحب الشورى والفتوى.

إذا وجدت أهل قرية أو محلة أو ضاحية فى مدينة يعرفون الحلال والحرام، وعلى إلمام كاف بكيفية أداء العبادات، وعلى علم بأصول عقيدتهم ونقائها وصفائها وخلوها من كل شوائب الشرك - فإن ذلك معناه أنهم رُزِقوا بإمام المسجد المخلص المجتهد القارئ الذى يعرف حقيقة وظيفته، وأنه ليس مجرد موظف على درجة إدارية، أو مرتبة مهنية يتقاضى راتبها على أى نحو، وإنما الدرجة والمرتبة إجراء يقتضيه قانون التوظيف وقواعده.

أما الإمام فصاحب رسالة تستمد مقوماتها من وحى السماء الذى جاء لخير الناس؛ ليصحح نظرتهم إلى الكون، وليرسم لهم طريق الاستقرار والطمأنينة النفسية، ويعلمهم ما يحقق لهم الفوز فى الحياتين، ويهيئ أهل الإيمان والعمل الصالح للسعادة الأبدية.

إن إمام المسجد من أخص لوازمه سعة الاطلاع، والميل إلى الزهادة، والرغبة فى الخير، وموافقة الباطن للظاهر، وظهور أقواله فى أفعاله، وتحرِّى الكسب الحلال، والابتعاد عن الشبهات، وعدم مخالطة أهل الطيش والسفه، ومجاوزة مجالس أهل اللغو والباطل إلى مجالس أهل الصلاح.

ومن صفات إمام المسجد صيانة النفس عن الابتذال، وقلة الكلام، وطول الفكرة، وإذا تحدث فإما عن حق يوضحه، أو باطل يكشف أمره للناس،

معتمدًا فى كلامه على الدليل والبرهان، داعيًا إلى الألفة، وجمع الشمل، ورأب الصدع، وتكتيل الجهود، والتوجيه إلى دفعها فى الطريق الذى ينفع البلاد والعباد.

العلم أقوى أسلحته

حقًا، إن دور إمام المسجد لَجِدُّ عظيمٍ، ورسالته لها أعظم الخطر على النفوس والعقول والأخلاق والمسالك.

ومن أمضى أسلحته بعد الإخلاص والرغبة فى الإتقان والإصلاح أن يكون كثير القراءة، واسع الاطلاع؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه، ومن هنا يكون على المجتمع المسلم مسؤولية كبيرة تجاه إمام المسجد؛ فهو فى حاجة مستمرة إلى الروافد العلمية، إلى الكتب النافعة فى التفسير، والحديث، والفقه، والعقائد، والسير، والتاريخ، وعلم النفس، والأصول، والنحو، والصرف، والبلاغة، والإعجاز، وكتب الأدب ذات الوزن الخاص لدى طلاب العلم، وغير ذلك من المراجع التى لا غنى عنها مثل: الكتب الخاصة بأحكام القرآن، وأسرار التشريع، وغريب القرآن، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمعاجم اللغوية.

المجتمع مسؤول عن إمام المسجد

وإذا كان مجتمعنا المسلم يؤمن بدور إمام المسجد، وبضرورة تهيئة المناخ النفسى والفكرى والعلمى المناسب له وجب علينا إذن أن نوجه عناية خاصة لمستوى الإمام المعيشى؛ ليكون عقله وفكره برسالته أشغل، مع توجيه العناية إلى تغذية مكتبته الخاصة بكل نافع ومفيد، وما الذى يمنع أن يكون من حقوق كل إمام يَوْمَ تعيينِهِ فى موقعه أن يتسلم - مثلًا - عشرين مرجعًا علميًا قيمًا ذا علاقة بثقافته ودوره؟! وأن تكون هذه المراجع حقًا من حقوقه كالراتب تمامًا؟!

ثم يكون هناك برنامج سنوى بمقتضاه يتسلم الإمام ما ينمى مكتبته بصفة دورية لا تنقطع.

وإذا كان المجتمع يرى نفسه مسؤولًا عن مسكن إمام المسجد – وهذا ينبغى العناية به – ومسؤولًا عن مظهره، وعن معاشه، وتعليم أولاده فإنه لمن باب أولى أن يكون مسؤولًا عن تنمية معارفه وتجديدها باستمرار، وإمداده بالروافد المغذية للعقل والنفس معًا؛ ليستطيع أن يعطى الدواء النافع.

فاقد الشىء لا يعطيه

هل يكون عملًا ناجحًا أن نمد مستشفى بعدد من الأطباء دون أن نهيئ لهذا المستشفى صيدلية تحوى الضرورى من صنوف الدواء؟!

إن المستوى الذى نريده لإمام المسجد لا يمكن الوصول إليه من فراغ، فالمجتمع يطالبه بالكثير، وإمام المسجد فى بقاع كثيرة من بلاد أمتنا الإسلامية يسمع وينظر، ويؤدى دوره فى إطار ما يتاح له من مناخ.

ومن تجارب الميدان رُئِىَ أن هناك نوعًا من عدم المحافظة على المستوى الفكرى والعلمى الذى كان للإمام عند تخرُّجه، وتولِّيهِ عمله، وذلك يرجع فى غالب الأحيان إلى انقطاع الروافد المغذية للفكر، المنمية للمعرفة؛ بسبب ضيق ذات اليد، خصوصًا بعد أن ارتفعت أثمان الكتب، وهنا يفرض سؤال نفسه: أيستطيع إمام المسجد أن يشترى أحد شروح البخارى مثلًا مع تفسير موسع للقرآن الكريم كالقرطبى كل شهرين أو حتى كل سنة، وثمن الكتاب الواحد يحتاج إلى مئات من الجنيهات أو نحوها، علمًا بأن المجتمع ينبغى له أن يتوقع أن يكون لدى الإمام مكتبة ذات قيمة علمية من حيث الكم والكيف والتنوع؟!

أما الإمام الذى يجد السبل للقراءة، وتنمية المعرفة، ويُشْغَل عن ذلك فهو مخطئ فى حق نفسه، وفى حق رسالته.

إن المسجد أعظم مركز لتوجيه المجتمع وتنويره وتبصيره بأمور دينه، وما يحقق له الأمن والطمأنينة فى دنياه.

وإن إمام المسجد هو المفتى، والمعلم، والمستشار، والمؤتمن،

والواعظ، والخطيب، والمصلح بين الناس ليفضّ النزاع، وهو الطبيب النفسى الذى يلجأ إليه أصحاب المشكلات، وهذه أمور واقعة، والإمام هذا موقعه بين الناس.

العناية بالمسجد وإمامه

إن العناية بالمسجد إنما هى لصالح المجتمع، وإنه لمن الضرورى توجيه قدر كاف من البحث والسعى للأخذ بيد الإمام، وتهيئة السبل الممكنة والضرورية للمساهمة فى إنجاح دور المسجد؛ لينهض برسالته على أفضل وجه ممكن.

إن المسجد لا ينهض بجوهر رسالته بالعناية بفرشه وإنارته، وتنظيفه، وإمداده بالمياه الطاهرة فحسب، وإنما تجب العناية أيضًا بالعنصر البشرى ذى الفاعلية المتفقّه، المخلص، الواعى، المثقف، الصبور، المتفانى فى خدمة دينه ومجتمعه، هذا العنصر البشرى ينبغى العناية بإعداده، والعناية باختياره، والعناية برعايته اجتماعيًا، وعلميًا؛ ليوجه جهده وفكره لأداء رسالته.

نشكو ونحن السبب!

إننا فى كثير من مدن المسلمين وقراهم نشكو من انقطاع مجالس العلم المنظمة فى المساجد، ونشكو من أن كثيرًا من الخطباء لا يتناول أصول الدين فى الخطابة، ولا يبين للناس الفرائض، ولا يعنى بتناول المعاملات الأدبية والمالية والأخلاقية كى يوضحها للناس كما جاءت بها الشريعة السمحة، كما أن هناك الشكوى من اللغة، والأسلوب، وطريقة الأداء والتقصير فى التجويد.

فعلى المسلمين إذن أن يوجهوا الجهد والعناية للمسجد ولإمام المسجد؛ ففى ذلك الخير الكثير الكثير، والمنافع العظيمة.

ومع التوجيه القرآنى الكريم دومًا: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا . . .﴾ [التوبة:١٠٥].

أحمد بن محمد طاحون

كشاف الكتاب

❊ ❊ ❊

* * *

* * *

للمؤلف

* مرشد الدعاة إلى اللَّه (دراسة وتطبيق) .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (خمسة أجزاء).
* أخرج كتاب الشكر وكتاب التوكل للإمام ابن أبى الدُّنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره .
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير .
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب : « تجريد التوحيد المفيد » للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة) .
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب : فضل اللَّه الصمد فى توضيح «الأدب المفرد » للإمام البخارى] .
* أذكار ودعوات مباركات .
* في شهر الصوم خواطر ومسائل .
* إلى البرهان يا أولى الألباب .
* حضارة الإسلام وأروبا .
* مع القرآن الكريم .
* الدعاء المبرور .
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد .
* يوم الفرقان .
* الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم .
* فى فجر الإسلام « عرض قصصى » .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
* الزهور النديّة فى « خصائص وأخلاق خير البرية » : « تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللّدنيَّة بالمنح المحمدية » للإمام القسطلانى .
* فى أنوار سورة الفرقان .
* فلسطين والقدس أمانة الآباء فى عنق الأبناء .
* البيان [ستّ رسائل] .
* البستان (١٤ رسالة) .
* مع بحر النور الهادي البشير ﷺ .
* الأمن والرخاء أم الفتنة العمياء .
* صاحب الخلق العظيم (فى نور سورة القلم وهدايتها) .
* تحديد الربح سَلفًا أو نسبته : ما حدُودُه ؟ (رسالة) .
* الصيدلى والصيدلة (رسالة محققة في أخلاق المهنة) .
* وهلك أبو لهب وحمالة الحطب . (رسالة) .

تـذكــرة :

((حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير في حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة)) :

١ – مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود في عام ١٩٢٧ من الميلاد في ((شما)) من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية في مصر ، حرسها الله.

٢ – مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعنيت به أمه الصالحة ـ رحمهما الله وغفر لهما ـ فبعثت به إلى ((مكتب القرية)) ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطاً لدخول الأزهر.

٣ – بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الديني التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم في التربية من معهد التربية العالي للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد.

٤ ـ الحيــاة العمليــة :

- اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية في إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة.
- وفي عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية في مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد).
- التحق بالبنك الإسلامي للتنمية في جدة في عام ١٣٩٧ من الهجرة. وبقي مُقيمًا في جدّة حتى تاريخ صدور هذه الطبعة في عام ١٤١٧ من الهجرة (١٩٩٦ من الميلاد).
- اشتغل بالخطابة وهو طالب في مساجد قريته ثم في القاهرة.
- قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى نحو عشرين عامًا.
- عضوالتوعية الإسلامية في الحج من عام ١٣٩٣ من الهجرة ١٩٧٣ من الميلاد ولنحو ستة عشر عامًا.
- وفي جدة اشتغل بالكتابة وقد طبع له ما يزيد على عشرين كتابًا ورسالة كما اشتغل بالخطابة في مسجد عكاش بسوق قابل لفترة محدودة ، وفي مسجد الجمجوم بالبغدادية ، ثم في مسجد المغربي بالرويس ، ومسجد أبو بكر الصديق بشارع المكرونة.

نشرت له بعض المجلات والصحف مقالات متعددة ، وأعدّ صفحة ((دعوة الحق)) في صحيفة البلاد ـ ومقرها جدّة ـ لسنوات عديدة.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

دعاء :

• اللّهمّ آتِ نفسي تقْوَاها وَزَكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكّاهَا أنتَ وليُّها ومَوْلاهَا .
• اللّهمّ عَلِّمْني ما يَنْفَعُني وانْفَعْني بِما عَلَّمتَني وَزِدْني عِلْمًا يا حيُّ يا قيّوم ، ياذا الجَلالِ والإكرام .
• والحمد لله ربِّ العالمين ، وصَلّى اللهُ وسَلّم على النبيِّ الأمين محمدِ بنِ عبدِ الله خاتمِ النبيِّين والـمُرْسَلين وعلى جميعِ الأنبياءِ والمرسلين .

أحمد بن محمد طاحون

* * * *

كلمة :

الطبعة العاشرة
بالقاهرة عام ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م
والحمد لله ربِّ العالمين أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُثيبَ كلَّ من ساهم في إخراجها وطبعها وأن يغفرَ لنا ويرحمنا .

* * * *

رقم الإيداع
٢٠٠٦ / ٩٦١٣

رقم الإيداع : ٧٠٥٨ / ١٩٨٩م
رقم : ٢٩٢٦/م/ج في ١٤١٧/٥/٦هـ

رقم الإيداع : ١٨٦٣ / ١٧
ردمك : ٨ ـ ٦٩٩ ـ ٣١ ـ ٩٩٦٠

الطبعة العاشرة

القاهرة فى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

شرفت بطباعته ثرى إس للطباعة

جمهورية مصر العربية - الجيزة

ت : ٠١٢٧٦٢٠٧٦٤ / ٧٣٠٩٤٠٠ فاكس ٣٢٩٢٢٥٠